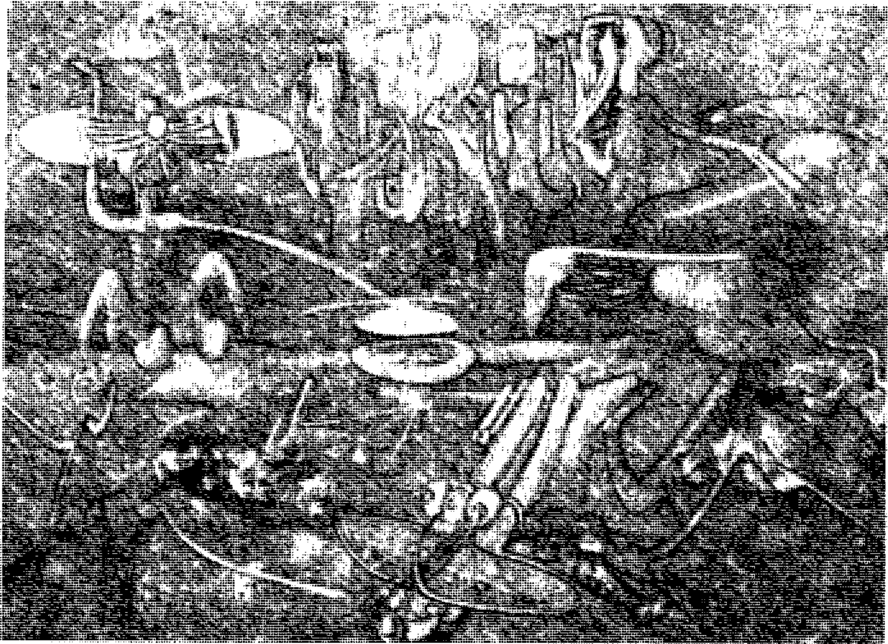
يوري بونداريف

اللعبة



ترجمة:

الدكتور نزار عيون السود

روايات عالمية «٢٦»

الاشراف الفني : زهـــــير الحـمو

اللعبة

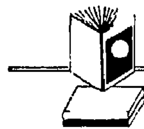
روايات عالمية

« ٢٦ »

يوري بونداريف

اللعبة

ترجمة:
الدكتور نزار عيون السود



منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٠

العنوان الاصلي للكتاب :

ЮРИЙ БОНДАРЕВ

ИГРА

РОМАН

اللعبة = Игра / تأليف يوري بونداريف ؛ ترجمة نزار عيون السود

. ـ ط. ١ . ـ دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٩٠ . ـ ٤٠٨ ص. ؛ ٢٤ سم

. ـ (روايات عالمية ؛ ٢٦) .

١ ـ ٨٩١٫٧٣ ر ب و ن ل ٢ ـ العنوان ٣ ـ بونداريف

٤ ـ عيون السود ٥ ـ السلسلة .

مكتبة الاسد

الايداع القانوني : ع ـ ١٨ / ١ / ١٩٩٠



يوري بونداريف في سطور

– ولد يوري فاسيليفيتش بونداريف عام ١٩٢٤ في مدينة أورسك ، الواقعة في جنوبي أوكرايينا . كان عمره ١٧ عاماً عندما بدأت الحرب عام ١٩٤١ بين ألمانيا والاتحاد السوفييتي . أمضى الضابط الشاب بونداريف سنوات الحرب جنباً إلى جنب مع الجنود ، حيث كان يقود بطارية مدفعية . جرح أكثر من مرة وكوفيء بأنواط الشجاعة .

– بدأ بونداريف بنشر أعماله الأدبية منذ عام ١٩٤٩ . في عام ١٩٥١ تخرج من معهد مكسيم غوركي للأدب في موسكو . وقد اعتبره أستاذه الكبير قسطنطين باوستوفسكي ، أحد ممثلي « الأدباء الشباب الموهوبين ، الذين يمكن تسليمهم بجرأة راية الأدب الروسي السوفييتي » .

— كان لروايتيه « الصمت » و « الثلج الحار » الفضل الأكبر في بروزه في الصف الأول من الكتاب السوفييت .

مهما كان موضوع أعمال بونداريف الأدبية ، تبقى الرجولة ، والروح الانسانية ، والمسؤولية عن آلام الآخرين ، ومعاناته لمصائب الغير موضع اهتمامه . يهتم الكاتب بتصرفات الناس وسلوكهم في الظروف العصيبة ، حيث يطرح أمام الانسان خيار مصيري : أن أكون أو لا أكون . في مؤلفات بونداريف يتشابك بصورة وثيقة الماضي والحاضر ، وتلقى الأضواء على الأحداث والطباع من وجهات نظر مختلفة ، ومتباينة في أغلب الأحوال ، ويقترن فيها العمق السيكولوجي بالوصف الصادق للأحداث . وأبطال بونداريف هم أناس صامدون قادرون على الوقوف والثبات حتى النهاية .

— فاز عام ١٩٧٢ بجائزة لينين لسيناريو فيلم « التحرير » ، وبجائزة الدولة عام ١٩٧٥ لرواية وسيناريو فيلم « الثلج الحار » ، وبجائزة الدولة عامي ١٩٧٧ و ١٩٨٣ لروايتيه « الشاطيء » و « الاختيار » . وترجمت غالبية رواياته إلى كثير من اللغات ، ومنها العربية .

هذه الرواية « اللعبة » ، التي نقدمها للقاريء العربي ، هي آخر أعمال بونداريف الروائية ، صدرت في موسكو عام ١٩٨٥ .

— المترجم —

الفصل الأول

أثناء عودته من المطار بسيارة الأجرة ، شعر كريموف بتوعك صحته . كان العرق يتصبب على صدغيه ، وكان يشعر بالاختناق ، وقد التصقت قبة قميصه القاسية برقبته المتعرقة . أنزل عدة مرات زجاج النافذة ، أملاً بأن يجف عرقه قليلاً ، واتكأ على مسند المقعد الخلفي ، وعندها هب تيار صيفي من الهواء ، المشبع بالغازات الدافئة المقذوفة من السيارات ، على وجهه الرطب .

دهش باستغراب من كثرة الناس ، كما في أيام العيد ، في مثل هذه الساعة ، على مواقف الباصات ، وأمام المخازن والمحلات التجارية (متى يعمل الناس اذن ؟) ، وشاهد بريق الشمس الصباحي المتلألىء بين أوراق الأشجار ، وعلى الواجهات الزجاجية ، وكانت تدور أمام عينيه ، كما في الأرجوحة ، الشوارع الأخرى والواجهات والمقاعد على الأرصفة تحت ظلال المظلات الحمراء ، والحشود الأخرى التي كانت ترتدي ألواناً مبرقشة منوعة ، وبدت وكأنها شمس أخرى ، قائظة ، حتى في ساعات الصباح الباكر . هذه الأرجوحة المتلألئة ، كما في الحلم المخدر ، كانت تمحو بكبرياء ، وتهين بشيء ما ، تواضع الشوارع الموسكوفية ، التي كانت تترك أثراً حزيناً في نفسه دائماً لدى

عودته إلى مدينته من رحلاته الخارجية . بيد أنه كان يشعر بانزعاج آخر ، لأنه في سفراته الخارجية السابقة ، لم يشعر سابقاً بمثل هذا الاختناق في حنجرته ، وكأن نحيباً لم يفرغ قد انعقد فيها واستقر . لم يكن يدرك ما الذي حدث له ، وكان مستعداً لأن يضحك على نفسه لعاطفيته المفرطة ، التي لم يكن لها من مبرر .

ماذا حدث له ؟ كان كل شيء رائعاً في باريس المضيافة ، حيث أمضى ستة أيام من الاحتفالات والضجيج في الخارج ، في حفلات الاستقبال ، التي لا تلزمه بأي شيء ، في قاعات السينما المكيفة ، في حفلات الكوكتيل ، والمناقشات والسهرات الليلية في الكباريهات ، مع الظلمة الخفيفة ذات الأريج الذكي ، والأرائك المخملية ، وأجساد النساء الباهتة على خشبة المسرح ؛ وفي الصباح ، حلاقة الذقن الأنيقة ، وعند الإفطار ، تناول فنجانين من القهوة المنشطة المنعشة ، ومشاهدة عروض الأفلام ؛ وأخيراً جائزة الشرف للاخراج ، غير المتوقعة والمنتظرة في آن واحد . كل شيء في المهرجان كان موفقاً ومرضياً ، بيد أنه بقي في نفسه ، من هذه الأيام الجميلة ، المشوشة ، مذاق دبق من الألم ، وهذا مالم يرد تذكره .

أغمض عينيه ، ساعياً إلى التكيف مع الحياة الموسكوفية السابقة ، بوتيرتها المألوفة ، ومن جديد ، الاستوديو ، والمجالس الفنية ، والاستعداد لمرحلة التصوير ، بيد أنه نما عنده ، لسبب غير معروف ، قلق مزعج ، وفكر في نفسه قائلاً : « لقد عدت قبل الموعد المخصص وسأستريح في بيتي يومين » .

عندما اقتربت السيارة من منزله في شارع لينين ، وانعطفت إلى

الفناء تحت أغصان الحور ؛ وعندما ولج إلى برودة المدخل الحجرية ، وإلى غرفة المصعد المخدوشة الجدران ، ومن ثم شاهد ساحة المصعد المألوفة ، وباب شقته المغطى بالمشمع البني وزر الجرس الموسيقي ، لم يستطع التغلب على الشعور الذي سيطر عليه ، الذي كان يعتصر حلقه بالدموع ؛ واضطر ، من أجل أن يهيء نفسه ، التوقف قليلاً في بهو الدرج .

قرع كريموف الجرس أربع مرات (وهو رمز متعارف عليه بين أفراد الأسرة) ، وأرهف سمعه ، ثم ضغط على زر الجرس ثانية ، بانتظار أن يسمع من خلف الباب صوت زوجته أو ابنته أو ابنه . بيد أن الصمت كان مسيطراً خلف الباب ، ووصلت إلى مسامعه خشخشة غامضة في فراغ الشقة الخالية : لاأحد في البيت ، كما يظهر .

فكر في نفسه ساخراً : « زوجتي المحبوبة ، وأولادي الأحباء يستقبلونني بالأحضان » .

بعد أن فتح الباب بمفتاحه ، وأدخل الحقيبة إلى البهو ، الذي فاح منه دفء الغبار المنزلي ، نظر إلى المرآة فوجد نفسه مرهقاً ، متعباً ، وشعر فجأة ، أنه كان سعيد الحظ ، مع ذلك ، بصورة غير متوقعة . أجل إنه كان متعباً إلى حد كبير ، وأراد أن يخلو إلى نفسه ، ويخلد الصمت ، ويستلقي على الأريكة ، بوهن وتراخ ، دون تفكير . أراد أن يقلب المجلات ، ويتصفح الجرائد والرسائل ، التي تلقاها أثناء غيابه .

خلع سترته ، وأخذ ينتقل بين غرف شقته . واضح ، أن الأسرة رحلت إلى المنزل الريفي . كانت النوافذ في الشقة الحارة كلها محكمة

الاغلاق ، وقد أسدلت الستائر عليها . وكان الهواء المحبوس الخانق يسود أنحاء الشقة كلها ، وكانت أشعة الشمس ، المتغلغلة من خلال ثقوب الستائر ، ترقد هنا وهناك ، على أرضية الشقة الخشبية ، وعلى السجاد والأثاث . أما في المطبخ ، الذي تخلو نوافذه من الستائر ، فقد كانت تفوح منه رائحة غطاء الطاولة المشمعي ، الساخن من أشعة الشمس . أما ايصال الهاتف ، فقد وقع على الأرض ، من على الخزانة الصغيرة ، واصفر لونه بتأثير أشعة الشمس ، فغدا أشبه بلفافة شبه مستديرة .

في كل مرة ، عندما كان يعود من سفر خارج الوطن ، كان يسيطر عليه احساس بأنه عاش طويلاً مرحلة حقيقية ، خلقتها لعبة الحياة ، وأن عليه ، وهو المنهك من هذه اللعبة ، أن يتحرر ، في أحاديثه مع الأصدقاء ، من شيء خليط ، أشبه بالكوكتيل ، من الأحاديث الكثيرة في المطاعم ، التي كان عليه أن يمارسها فترة من الوقت ، مسلياً طموحه ، متمتعاً بفضوله .

والآن ، أراد أن ينزع عن نفسه عبئاً شاقاً من الناحية الروحية ، ومزيفاً في الوقت نفسه ، ناجماً عن ابتساماته ، وعن ثرثرة المثقفين العقلية ، أراد أن يغتسل من العذوبة المعطرة للصابون الأجنبي ، الذي كان مشبعاً بشيء ما أنثوي ، من الرائحة الكيميائية الصناعية التركيبية ، التي كانت تسود صالات السينما الباريسية وغرفته في الفندق ، أراد أن يغتسل مما قد عاشه وانقضى .

كان « الدوش » البارد يغسله بإبر مطرية ناعمة ، وكان الماء يطبطب بضجيج ربيعي منعش . كان باب الحمام مفتوحاً ، وبدا وكأن صدى البحر يتردد في الشقة الخالية من السكان . بعد أن دلك جسمه بالمنشفة ،

تمشى بقدميه الحافيتين بين الغرف على الأرضية الخشبية الدافئة . وقبل أن يرتدي ثيابه ، قال محدثاً نفسه ، بصوت عال في غرفة الطعام : « حسناً ، كل شيء سيزول وينقضي » ، وسكب قدحاً صغيراً من الكونياك ، وكرعه ، فوخزته موجة جارحة ، وشعر بشيء من الراحة اثر ذلك .

ثم استلقى على الأريكة في مكتبه ، وأخذ يقلب ما غص به صندوقه البريدي من المجلات والصحف والدعوات المختلفة لأمسيات ومعارض ، وأخذ يفتح مغلفات الرسائل دون أن يقرأها ، ناظراً فقط إلى عناوين المرسلين ، أملاً بالعثور على اسم معروف . وتعثرت نظراته بمغلف أزرق اللون ، وضعه ببطء على زاوية الطاولة الصغيرة ، حيث استرعى انتباهه على الفور خاتم رسمي لم يألفه « الإدارة العامة لوزارة الداخلية » ، وأثار في نفسه ، حالاً ، قلقاً مريباً .

« إذن ، بدأ كل شيء من جديد . . . أو على الأصح ، ما يزال كل شيء مستمراً ؟ » . وتريث قليلاً ، ثم مزق المغلف من طرفه ، وقرأ بسرعة ، أن عليه هو ، فياتشيسلاف أندرييفيتش كريموف : الحضور في الرابع من تموز (يا الشيطان بعد ثلاثة أيام ؟) إلى المحقق توكاريف على العنوان التالي : شارع بتروفكا ، البناء ٣٨ ، الطابق الثاني ، الغرفة رقم ٢٠٠ ، حاملاً معه جواز سفره أو وثيقة تثبت شخصيته . « لماذا المرة الثانية ؟ لقد التقيته في الاستوديو . أجل ، المحقق توكاريف أوليغ غريغوريفيتش ، شاب مهذب ، ذكي ، ذو شاربين أنيقين . ولكن ، مهما حصل لي ، فلن أذهب إلى بتروفكا ، أيها العزيز أوليغ غريغوريفيتش ، ولا أريد أن تصبح ظلاً لما حدث » .

في خضم تأملاته ، أبعد كريموف الدعوة الموجهة إليه ، وأخذ يقلب مقالاً يستعرض أفلام مهرجان باريس ، فشعر بشيء من زيف القرار الذي اتخذه قبل دقيقة واحدة ، وبالتشويه المبتذل في تقويم فيلمه ، وبالمعارضة الساذجة لـ « الأخلاقية الاشتراكية والنقاء الروحي بقساوة الأبطال الغربيين ، الذين يتميزون بعالم داخلي ، أشبه بالمحارة الفارغة » .

« يالنقادنا من مهرة . ولكن ، لم هذه النزعة البدائية المبتذلة ؟ » — وضحك كريموف غاضباً ، متصوراً بوضوح الوجه الممتلىء للمخرج الأمريكي الشهير ، الروسي الأصل ، الإنسان الموهوب اللاذع ، الذي عرض فيلماً أذهل الجميع ، وهو فيلم « سودوم وغومورا » يتحدث عن هلاك مستشفى المجاذيب — الذي يرمز لهلاك البشرية التي فقدت الرحمة . — لو كان محاججي جون غريتشمار معي لقهقه عالياً . «النقاء» ، « الأخلاق » ، « السمو » — أية عبارات مهترئة ، يا الهي ، اقتبسناها البرهان والدفاع ، وتسلحنا بها من الرأس حتى أخمص قدمينا . نحن ، النخبة ، نسبنا لأنفسنا الطهارة الملائكية ، دون النظر إلى أي اعتبار ، تاركين الغرب كل ما هو شيطاني شرير » .

وبدأ يقرأ بعصبية وقهر ، مقالة انتقادية أخرى ، حيث تراءت له من جديد العبارات الجوجة عن الجنس ، والشذوذ ، واللاأخلاقية في فيلم جون غريتشمار ، وقبل أن يكمل قراءتها ، رمى الصحيفة جانباً ، وهو يحدث نفسه بصوت عال :

— يا البلاهة ، فليأخذه الشيطان ، يالها من بلاهة . . .

لقد فاز كل منهما بالجائزة ، ودعيا كلاهما إلى حفلات الافطار (مخرجان من الدولتين العظميين) ، وكانا يلتقيان كل مساء في بار

الفندق بعد عرض الأفلام السينمائية ، كان أحدهما يقدم للآخر الويسكي والفودكا أكثر من اللازم ، رغم أنه كان من المستحيل التفوق على الأمريكي في الشراب . وأمضيا ليلتين في الأندية بدعوة من غريتشمار ، وفي كل مرة كانا يتناقشان حول مصائر روسيا ، وكان يفرق بينهما ، إلى حد الكراهية المتبادلة ، تباين المواقف ، ولكن كان يجمع بينهما ، في الوقت نفسه ، شيء ما ، ربما هو فضول لا حدود له ، لمعرفة أحدهما الآخر .

كانت الليلة الثانية في النادي ، منهكة بصورة خاصة ، بالمناقشات الحامية ، وبكثرة الشراب والمشاهد . وفي الصباح ، قبيل بداية العروض السينمائية الصباحية ، كان يقلب ، ورأسه موجوع ، صحيفة « باري — ماتش » على الطاولة ، راجياً من الظروف أن تخلصه اليوم من حفلات الكوكتيل ، ومن ربطة العنق المحكمة الشد على عنقه ، ومن سموم غريتشمار الكحولية ، وأن تسمح له بالتقاط أنفاسه ليتنفس بحرية ، وليتسكع دون تفكير في شوارع باريس المسائية . كان بهو الفندق واسعاً رحباً ، وقد غطيت أرضه بالسجاد السميك المزين بنقوش شرقية وليست فرنسية ، وكانت تظهر فيه فخامة المرايا الأمريكية ، والمقاعد الوثيرة العريضة ، والأرائك المنجدة بالجلد الصناعي الأحمر ، وحركة الأجسام بالقرب من الأبواب الزجاجية ، ومنضدة مضيف المطعم ، والأصوات الخافتة ، والروائح المرة والدافئة للسجاير والعطور — كل شيء كان مألوفاً وعادياً ، بالنسبة لفندق ، وقد رآه كريموف أكثر من مرة في البلدان الأخرى ، وكان نادراً ما يلقي نظرة عابرة على وجوه المنتجين والمخرجين ، التي يعرفها والتي لا يعرفها ، الحليقة إلى حد النعومة والملتحية (نموذجان واسعا الانتشار للوجوه في العالم المعاصر) ، وعلى

الأجساد الرياضية المشدودة للنجوم السينمائية ، والممثلات الشهيرات ، الصبايا والمتصابيات بآثار الليل ، المتبقية على أعينهن اللامعة بصورة مفرطة . بيد أن شيئاً ما كان يمنع ملاحظته التقليدية ، أما أنه تثاقل في رأسه ، واما السطوع الزئبقي في أعماق المرايا ، ورأى ، دفعة واحدة ، الجميع ، الذين اجتمعوا بعد طعام الفطور وفجأة غطى العرق وجهه ظناً منه أنهم جميعاً يلاحظون نظرته المتفحصة . نقل نظراته إلى صفحة « باري ماتش » ، وفي اللحظة ذاتها ، سمع ضحكاتهم وعباراتهم المتسامحة – الساخرة ، كانوا يتحدثون عن فضوله السمج ، الذي لا يحق له أن يبديه نحوهم ، وشعر على الفور باحتقان جلده على وجهه . رفع رأسه عن المجلة ورأى واحداً من جماعة المنتجين والمخرجين ينظر إليه نظرة ثاقبة هادئة : إنه رجل يعرفه جيداً ، خط الشيب شعره قليلاً ، كان يرتدي بزة رمادية ، رجل التقاه كريموف أكثر من مرة . « انني أعرفه ، ولكن من هو هذا الرجل ، من هو هذا ؟ » . وكما لو أنه يلوح من سماك ثقيل ضاغط ، أخذ ، شيئاً فشيئاً ، يتعرف على تسريحة شعره ، وجبينه ، والشيب في شعره ، وربطة عنقه ، محاولاً أن يلتقي بعينيه ، وجهاً لوجه ، وعيناً لعين ، لكن الأعين المتباعدة لم تلتق : كانت عيناه في الظل ، كان يتجنب نظرته ، ومن هناك كان ينظر باتجاهه بجمود ، ومع العرق الذي غطاه فجأة من الضعف ، حتى خشي ألا تتوقف ضربات قلبه ، أدرك أخيراً ، من كان يشبه هذا الرجل . .

مما لاشك فيه ، أن الارهاق العصبي قد يكون سبباً لهذه الهلوسات . وكان قد سمع بأنواع مختلفة من الانعصابات ، لدى أناس من مهنته ، لكنه لم يعرف أن مثل هذه الحالات تحدث على هذا النحو بالذات . « غير ممكن ، سخافة ، ترهات ! أمر يثير الخبل ! » . وعندها ، نهض

ورمى المجلة على الطاولة الصغيرة ، واستعاد عزم سنوات الحرب ، فانطلق بثبات وتصميم نحو هذا الرجل ، الواقف في زحمة المنتجين السينمائيين . لكن هذا الرجل ، ذا البزة الرمادية كان قد اختفى . . . وظهر مكانه المخرج الفرنسي كلود مياييه ، وهو رجل نحيل ، متقدم في السن ، قوي البنية ، ذو هيئة مستهترة ، جاءته من حاجبيه القصيرين المصبوغين . انحنى كلود ميلييه لكريموف بمجاملة ، عارضاً شعره المسرح بمهارة على صلعته ، الذي كان لا يزال رطباً من الكولونيا . وبدون سبب معروف ، رد عليه كريموف بانحناءة مماثلة ، وقال بمجاملة متكلفة « بونجور مسيو » — وسيطر على ارتباكه ، فسار من أمامه إلى نهاية البهو ، نحو البار ، حيث رأى هناك خلف منصة البار ، كعادته دائماً ، جون غريتشمار ، الذي لوح له بيده مسروراً . لقد كان وجود غريتشمار بمثابة إنقاذ له : « أنا مسرور بلقائك يا فياتشيسلاف » .

بعد يوم واحد ، تكرر شيء مشابه في الطائرة ، حيث بدا له أن كل ما هو أجنبي ، مبرقش ، مختلط بافراط ، مرتبط يومياً بالتوتر النفسي ، ببذل الجهد ، قد انتهى ، وفي الصالة شبه الفارغة من المسافرين على طائرة الآيروفلوت العزيزة ، شعر بالإشراق والصفاء ، وسمع الكلام الروسي . . . وشعر بالاستغراب من وجود ذبابتين في الطائرة ، هنا ، على ارتفاع تسعة كيلومترات . كانتا تزحفان على زجاج الكوة المستديرة ، وكانت أشعة الشمس تلقي ضوءها الساطع الذهبي على أكوام الغيوم ، التي تبهر العين بتجاعيدها الجامدة في الأفق ، أما السهل المسطح من الغيوم المنخفضة فكان يبدو وكأنه محيط متجمد . وعبر شقوقه ، كانت ترى بصعوبة كبيرة ، وفي عمق سحيق يصعب

تصوره ، المدن الغارقة تحت مياه هذا المحيط ، وخطوط الطرق والغابات القاتمة .

كان كزيموف ينظر إلى الجبال الجليدية الجبارة ، إلى الذبابتين الزاحفتين على زجاج كوة الطائرة ، وكان من دواعي سروره أن يفكر بعدم التطابق بين العلو الشاهق وبياض الغيوم الناصع وبين الذبابتين السائحتين ، اللتين دخلتا إلى صالون الطائرة ، أما من مطار شيريميتيوفو بموسكو أو من مطار أورلي بباريس . كيف ؟ ومن أجل ماذا دخلتا ؟ .

وبعد أن فكر بعدم التطابق هذا وبـ « لماذا » الحتمية ، رأى نفسه ، بمتعة ووضوح ، وقد تحرر بسلطة ما ، من الطائرة ومن جسمها الفولاذي وموادها ، ومن المقعد الذي كان يجلس عليه (بيد أنه حافظ على وضعية الجلوس في الجو) ، رأى نفسه طائراً محلقاً فوق صحراء بيضاء ، فوق الضياء الممتد النجوم ، التي تغسلها الرياح والشمس .

« أنا أعرف ماذا حصل لي — أكد كريموف لنفسه ، محاولاً تفسير حالته — لقد تحقق حلم في شعوري . كنت أرغب دائماً بامتلاك جهاز طيران ، من نوع طائرة عمودية بمقعد واحد ، وكانت رغبتي شديدة أحياناً بالابتعاد عن الجميع في آخر اليوم ، والارتفاع فوق الأرض ، والتحليق بدون طرق ، والهبوط في مكان ما ، في مرج أسطوري يخبو عند الغروب ، حيث يرنو هدوء الغابة إلى البحيرة . . . ولكن بأي مناسبة فكرت بهذا الأمر ؟ في تلك الأثناء ، رأيت نفسي في ردهة الفندق — إنساناً وحيداً بين حشد من الناس ، يرتدي الملابس الأنيقة ، ويتقن خلق مشاعر الآخرين وابداعها ، لكنني إنسان زائد خارج بالمدى . — وشعرت بشيء من الحرج . . . ولكن كيف أفسر ، أنني

أشعر الآن بوضوح ، بضغط الهواء على وجهي . وباختناق مؤلم في صدري ، وبتحرر كامل من المادة . . . ؟ » .

اقتربت المضيفة ، متمايلة برشاقة على كعبي جزمتها ، مبتسمة بترحاب ، تحمل طبقاً كانت تتصاعد فوقه فقاعات الماء المعدني من الأقداح ، سألته فيما إذا كان يرغب بقدح من ماء « بورجومي » المعدني ، — اقتربت نحوه من الصالة المضيئة (هذا هو الجمال المادي في صورة امرأة) ، أما كريموف فقد صمت ، غير راغب بالرد على ابتسامتها ، أو الاستماع إلى همساتها الناعمة ، والنظر إلى هذه المخلوقة الشابة ، الكاملة من الناحية الخارجية ، التي كانت تعرف من أي بلد عائد ، وكانت قد شاهدت أفلامه . كل شيء أصبح واقعياً بصورة ثقيلة ، بالمقارنة مع ألم التلاشي والاضمحلال المضني في التحليق الحر فوق الغيوم الممتدة ، التي تغطي الأرض . رفض تناول قدح « بورجومي» وطلب قدحاً من الكونياك ، ثم أدار وجهه نحو الكوة الزجاجية . هذا الانطواء لم يلحظه كريموف في نفسه سابقاً . أغمض عينيه دقيقة واحدة ، وخيل إليه ، في هدير المحركات الذرية الطائرة ، عواء شيطاني ، صراخ الضحايا وبكاؤها ، جوقات من الآلات النحاسية ، المختلطة بالرعد السيمفوني . حاول كريموف التقاط ، حفظ نوتة موسيقية معينة ، لكن الموسيقا النحاسية كانت تتبدل كل ثانية ، وتكبر وتتعاظم ، لتتحول إلى نواح هائل ، كانت تهدر وتعصف في أذنيه ، كأنها صوت الكون ، الذي يتهدد العالم كله ، وتابع تفكيره وهو بين الحلم والواقع : « ايرينا . . . كل شيء انقلب بعد موتها . . . » .

على زجاج كوة الطائرة ، كانت تتنقل الأطياف الشمسية . جاءت المضيفة ذات الشعر الأشقر ، فمدت له فوطة وهي تبتسم — كما في

السابق — بشفتيها اليانعتين ، وسألته من جديد شيئاً ما ، فلم يسمعها . كان غير مكترث بالطعام وبابتسامتها المدروسة هذه . هنا ، لاحت بذهنه فجأة فكرة ، وكأن المحركات الذرية ستغص وتنطفيء ، وستتعثر الطائرة في الجو ، وتبدأ الكتلة الفولاذية كلها بالسقوط إلى الأسفل ، هاوية من عل .

ستصرخ هذه المضيفة بشفتيها اليانعتين ، المدهونتين بالحمرة (لن يتمكن أحد من تقبيلهما أبداً) صرخة مرعبة ، وسيصرخ صالون الطائرة كله ، برعب ووحشية ، صرخة الموت . . . . واستغرق في التفكير آنذاك ، محدثاً نفسه : « وأنا ؟ ماذا سأفعل في هذه اللحظة ؟ سوف أنتظر الصدمة الأخيرة وأودع الحياة ؟ أنا أعرف جيداً أنني لن أصرخ ، ولن أطلب الرحمة . . . »

أدار وجهه ، متأملاً الذبابتين الزاحفتين على زجاج كوة الطائرة ، وكان بوده أن يستعيد الحالة السعيدة التي خرقها — التبخر ، كما في الحلم ، على ريشة حمام فوق الأمواج الجوية ، حيث ينعدم الخوف والواجبات — أي نعيم هذا !

« الخوف ؟ هل فكرت بالخوف ؟ »

شعر كريموف وكأن رنين الهاتف يكاد يضربه على صدغيه ، فقد نسي أجراس الهاتف خلال أسبوع . نفض النعاس عن عينيه وارتمى على الأريكة ، ماداً يده بصورة آلية إلى سماعة الهاتف الموجود على الطاولة الصغيرة . سحب يده بسرعة — حتى الآن لم يعرف أحد أنه في موسكو وأول حديث هاتفي من المنزل — انها ظروف المنزل وواجباته وهمومه . لم تعرف أولغا أنه وصل إلى موسكو قبل يومين من الموعد

المحدد ، لذا من غير الممكن أن تتصل زوجته أولغا من البيت الريفي . واستلقى من جديد ، حالماً بأن يستغرق في العوم السعيد في عالم النسيان ، لكن رنين الهاتف للمرة الثانية أرغمه على رفع السماعة :

ــ نعم ،ــ قال بصوت خافت ، منتظراً سماع صوت مولوتشكوف النشيط ، مدير الانتاج . وأسرع ، مستغرباً النفس الحذر في السماعة : ــ نعم ، أنا أسمع ، تكلم ، ولا تخجل بعد أن ضربت الرقم .

ــ هذه أنا ــ غرّد صوت ، شبيه بصوت الأطفال ، على نحو ممدود ــ مرحباً يا بابا ، أنت وصلت ؟ لقد ضربت الرقم بصورة اعتباطية ، وفجأة أسمعك ترد على الهاتف . انه أمر مذهل ! نحن في المنزل الريفي . بطلب من أمي ، أتكلم معك من كشك الهاتف قرب الشاطىء . لقد شعرت مسبقاً بأنك وصلت . أنا مسرورة بعودتك يا بابا .

ــ تانكا ، يا كلبي الصغير العزيز ــ قال كريموف متأثراً ببحة مفاجئة ــ إنني لم أرك ولم أسمع صوتك منذ قرن كامل . كيف كنتم تعيشون بدوني ؟ كيف الماما ؟

ــ الماما ؟ مذهلة .

ــ بأي معنى ، مذهلة ؟

ــ أنا أعتقد ، أن أمي أجمل امرأة في العالم ، وهي تشعر بشوق كبير إليك . هذا سر بيننا . لا تفشه . أتعرف لماذا ؟ في الأمسيات ، كانت تجلس في مكتبك وتقرأ . . . . أوه ، يا للهول ! ــ أخذت تانيا تزعق بصورة لعوبة ــ لقد اقتربت من كشك الهاتف مجموعة كبيرة من الناس ، وهم ينقرون بالقطع النقدية على الزجاج . بابا ، أنا مسرورة ،

ونحن بانتظارك ! إلى اللقاء ! السيارة في المرآب . لقد سافرنا بالقطار الكهربائي .

— قولي لماما ، أنني سأتأخر في موسكو بسبب أشغال ضرورية ، سآتي لعندكم غداً — قال كريموف ، سامعاً الصوت المتقطع في سماعة الهاتف التي وضعتها ابنته على الجهاز في كشك الهاتف بالقرب من شاطيء الضاحية ، وأحس ، بجلاء ، بمذاق شفتي أولغا ، وبنظرة عينيها الداكنتين المتسائلة من الأسفل إلى الأعلى ، عندما قبلته بشفتيها أثناء اللقاء ، وعبارتها اللطيفة المدللة « ها أنت هنا » ، — وفكر ، كارهاً نفسه ، بأنه قادر على ألا يقول لها الحقيقة ، وعلى اخفاء ما يمكن أن يهينها أو يجرح كرامتها ، فهي لم ترتكب أي ذنب .

تحامل على نفسه ، مجبراً إياها على الانتعاش والنشاط ، فقفز من الأريكة وأزاح الستارة وفتح النافذة على الاشراقة المشمسة لأوراق شجر الحور ، واستنشق حرارة الاسفلت في يوم المدينة الدافيء . دغدغ وجهه زغب أشجار الحور ، الذي يغطي منطقة جنوب — غربي موسكو بكاملها . وطار الزغب في مكتبه . نفخ كريموف الوبر من على خديه ، واقترب من المرآة ، وصعر خده ، قانعاً بأنه حلق ذقنه بعناية في الصباح ، في الفندق ، قبل توجهه إلى المطار . في أيام العطلة وأوقات الفراغ لم يكن يحب الفوضى وعدم العناية بهندامه ، التي كان يسمح بها لنفسه أثناء العمل ، ناسياً الحلاقة ومفضلاً ارتداء السترة والكنزات الصوفية القديمة .

« وهل أعرفه ؟ — فكر كريموف بسخرية ، متعرفاً في المرآة على هذا الرجل المنهك ، الذي شاب شعره ، بعينيه الرماديتين الضيقتين ،

الذي يمت إليه بصلة الرحم ، الرجل المألوف وغير المألوف في الوقت نفسه . وفجأة تذكر ردهة الفندق في الصباح ، وذلك الرجل الآخر بوجهه الذابل في زحمة النجوم المشهورين ، الرجل الخامل ، الحسن الهندام ، والغريب هنا ، وارتجف من الخجل ، من تفاهة الأيام الستة في باريس — ما هذا التعاقب الجهنمي للأحداث ؟ يبدو لي أنني أحيا حياة غير واقعية ، متناقضة ، جانبية . اني أسير ، أتناول الطعام ، أنطق الكلمات والعبارات ، أسافر إلى الخارج ، أحصل على جوائز لست بحاجة إليها ، أما نفسي ، روحي ، فهي هناك ، في ذلك اليوم الحزيراني المرعب ، حيث ماتت ايرينا » .

* * *

الفصل الثاني

كعادته ، دخل إلى غرفة الاستقبال بخطى واثقة ، خطى إنسان يعرف ، أنه هنا أمام باب مغطى جيداً بغطاء جلدي ثمين ، لا يسمح بوصول ضجيج الاستوديو إلى داخل مكتب المدير ، وأن السكرتيرة البشوشة ، ذات التسريحة الأنيقة ، ستستقبله ، وبرفقتها سيدخل إلى المكتب ، حيث سيجامله من بعيد بالابانوف فاتحاً يديه ، وبصوته العريض « آه ، من شرفنا بقدومه ! » — وبنشره لهذا الجو من الطيبة والاحترام والرقة ، سيلوح ايفان كسينوفونتوفيتش بالابانوف ، من خلف مكتبه الكبير ، مثل قنفذ عجوز مبتهج ، ويعانقه ، وكأنه مستعد للموت على الفور ، في مكانه ، من الشمس المشرقة الباهرة ، المتلألئة في مكتبه .

في ذلك الصباح ، دخل كريموف ، المتعب بعد تلك الليلة الرديئة في باريس ، وبعد إقلاعه بالطائرة ، إلى مكتب بالابانوف ، وبذل جهده كي يبدي لامبالاة ودية تجاه السكرتيرة : « كيف صحتك ، يا نينشكا ؟ » — وشعر على الفور بشيء جديد في راحة كفها الفاترة ، وفي نظرتها الفارغة فوق رأسه ، وظهر له شيء جديد في عبارتها ، حيث لم تدخله مباشرة إلى مكتب المدير ، واختفت لحظة خلف الباب ، وهي تقول : « الآن سأعلمه » . بعد دقيقة ، وبعد أن أدخلته إلى مكتب المدير

بايماءة من رأسها ، شعر بأن الريح قد غيرت اتجاهها ، هنا ، بعد رحيله إلى فرنسا .

— آه ، تفضل ، تفضل أيها الباريسي — قال بالابانوف بصوت أجش ، وكأنه يخرج من صدره ، وبقي جالساً وراء مكتبه ، خلافاً لعادته ، دون أن يرفع رأسه ، الذي يشبه القنفذ ، عن الأوراق التي كان يُبدي وكأنه يقرأها بامعان ، وأشار بيده إلى المقعد المقابل لمكتبه — تفضل ، أرجوك . أهنؤك بسلامة الوصول . الباقون سيصلون بعد غد ؟ نعم . أهنؤك بالجائزة الدولية . لقد نوهت بأن الرأسمالية عفنة نخرة ، والحمد لله . فليعطسوا ويمسحوا وجوههم ، وليفعلوا ما يريدون . ولماذا قدمت قبل موعدك ، فياتشيسلاف أندرييفيتش ؟ باريس هي باريس ، نساء على « الموضة » ، واجهات مترفة ، بارات ، عصير التفاح المخمر — تابع بالابانوف حديثه بصوته الهادر ، وهو غارق بين الأوراق ، مغطياً عينيه الصغيرتين بحاجبيه المتدليين — وأنت عدت قبل الموعد المحدد ؟ غير مفهوم . انها مدينة لعوب ، لعوب . . . ز . . . ع . . . م .

لاحظ كريموف هذا الانشغال الزائف ، والاستخفاف اللامبالي ، وهو ما لم يمكن تصوره ، ولو تلميحاً ، قبل شهر . جلس على المقعد الجلدي ، وقطب جبينه عندما نطق بالابانوف بجملته الأخيرة :

— أحدهم قال عبارة جميلة عن باريس ، إنها مدينة المدائن . . .

— بارات ، واجهات ، عصير التفاح المخمر — إنها قصة أطفال للأغبياء الكبار — قاطعه كريموف بضجر ، رامياً سيجارته التي لم يكملها في أنظف منفضة سجاير ، ممتلئة بمشابك الورق ، على طاولة بالابانوف . —

أنت ، كما أرى ، مشغول جداً ، ايفان كسينوفونتوفيتش ؟ ربما آتي عندما تنتهي من قراءتك الممتعة ؟ حدد لي وقتاً ، وسأنتظر .

— ئ . . . ع . . . . م ، دفعنا غالياً ثمن الكونترباص . . . ئ . . . ع . . . . م ، نحن جميعاً أغبياء .

حرك بالابانوف جفنيه المنتفخين ، وتنفس كالمصاب بالربو ، مشمراً قميصه عن ساعديه ، كما لو أنه يستعد للصراع ، وحرك حاجبيه الأحولين باتجاه منفضة السجاير ، ثم أمسك عقبة السيجارة بأصابعه المنتفخة ، كما لو أنها فأرة ميتة ورماها في سلة المهملات تحت الطاولة ، باصقاً على أصابعه .

— ئ . . . ع . . . . م ، آسف ، لقد تركت التدخين منذ خمسة أعوام ، — قال بالابانوف مذكراً ، وحرك بشرود حذر الأوراق الموجودة على الطاولة — بِمَ يمكنني إدخال الفرحة إلى قلبك يا عزيزي فياتشيسلاف أندريفيتش ؟ كان بودي جداً أن أفرحك ، جداً جداً ، ولكن بأي شيء ؟

— ليس بشيء خارق للطبيعة — أجاب كريموف ، دون أن يحزر تماماً سبب جفاء بالابانوف ومراوغته — لقد قدمت قبل الموعد المحدد من المدينة اللعوب ، كما لاحظت ، فقط لأني سأبدأ بعد شهر بتصوير فيلمي . إن ما يهمني الآن ، بصورة خاصة ، هو هذا الموضوع فقط — تابع كريموف قوله مؤكداً عدم رغبته بالتلون والتكيف مع شيء جديد ما ، ظهر في فترة غيابه ، وبعد أن أكد على « هذا الموضوع فقط » ، سأل بلهجة رسمية لطيفة : — ايفان كسينوفونتوفيتش ، آمل أن الموقف

لم يتغير في الاستوديو من السيناريو الذي قدمته ؟ وإذا كان قد تغير ، فكيف ؟

— من أعماق روحي ، كان بودي مساعدتك ، من أعماق روحي . . . — جمع بالابانوف مشابك الورق في المنفضة ، وقد أنزل حاجبيه — ولكن . . . هل من المعقول أنك لا تفهم ؟ . . .

— أريد أن أفهم — قال كريموف بحدة هادئة — ماذا قررت بالنسبة لفيلمي ، يا للشيطان ؟

— ن . . . ع . . . م ، أسمح لنفسي بأن أكدرك ، — قال بالابانوف بصرامة وتنفس من جديد مصفراً كالمريض بالربو ، مشمراً قميصه عن ساعدين أشعرين كجذعي شجرة — كيف يمكنك أن تصور الفيلم ، فياتشيسلاف أندريفيتش ، بعد شهر ، بعد تلك الظروف المأساوية ، . . . بعد وفاة ايرينا سكفورتسوفا ، ليس لديك بطلة رئيسية . ستضطر للهبوط إلى أرض الآثام . أجل ، الكونترباص غالي الثمن !

— دع الكونترباص جانباً ، ايفان كسينوفونتوفيتش — قال كريموف ببرود . — أنت لست صادقاً معي . أرجو أن تشرح لي ما حدث بخصوص الفيلم ، وأرجو ألا تكذب علي ولا تخدعني ، إذا سمحت .

« لماذا قلت « لا تكذب » ؟ وعلى أي أساس ؟ » .

— أود أن ألفت انتباهك ، إلى أنني أنا ، ما زلت حتى الآن ، مدير الاستوديو . — نطق بالابانوف وقد احمر وجهه احمراراً شديداً ، فاكتسب شعره الشائب ، الشبيه بشعر القنفذ ، لون الثلج المتساقط ، بالمقارنة مع الاحمرار الشديد لجبينه العريض . — عفواً ، لست أنت ،

بل أنا المسؤول عن الانتاج السينمائي ، بما في ذلك فيلمك، يا فياتشيسلاف أندريفيتش . وذلك على الرغم من شهرتك التي ، أستطيع القول ، بأنها أفقدتك صوابك ! — صرخ بالابانوف بصوت أجش ، وهو ينبش بأصابعه بقلق ، مشابك الورق في المنفضة . — وأنت ، كما يبدو ، لا تريد تحمل أية مسؤولية عن فيلمك ، وكأن كل شيء مسموح لك ! إنك عابث ، يا فياتشيسلاف أندريفيتش ، أنك تعبث أكثر من اللازم . . .

— مسؤولية ، أعبث ؟ — هز كريموف رأسه . — سخافة .

— لا تتظاهر بالجهل ، ولا تعتبر نفسك ساذجاً ، فياتشيسلاف أندريفيتش ! — أبعد بالابانوف المنفضة ، وقد ارتفع جفناه إلى الأعلى ، وكانت عيناه الرصاصيتان تبحثان عن شيء ما على قصبة أنف كريموف ، وقد احتقنتا بنار حادة — أنا إنسان تابع ، مقيد ، ومهما كان موقفي منك ، ليس باستطاعتي مساعدتك ، رغم مطالبتك لي بألا أكذب ، — قال بالابانوف شاعراً بالإهانة ، مما زاد من احمرار وجهه . — أنا آسف . . . وأشك بأن تصور أنت هذا الفيلم . فهذا أمر لم يعد من صلاحيتي .

— تشك ؟ لماذا ؟ من صلاحية من اذن ؟

— فياتشيسلاف أندريفيتش ، ألا تدرك أنه نتيجة ما حدث في مجموعتك التصويرية ، أنت مهدد بالمحاكمة ؟ أم أنك ، أنت الرجل المشهور ، تعتبر القوانين السوفييتية لا تنسحب عليك ؟

— ماذا تعني ؟

نطق كريموف بـ « ماذا تعني » ، وأخذ ينقلب إحساسه الخانق إلى كآبة ، إلى عتلة ثابتة لا تلين ، تدور في نفسه ، وهو ما بدأ قبل

شهر ، بعد ذلك اليوم المحتوم ، حيث بدا وكأن حركة الحياة الطبيعية قد توقفت لوقت طويل ، وأنه ، هو كريموف ، لن يعود سريعاً إلى عمله . ولكن ، قبل سفره إلى فرنسا ، تحادث لمدة ساعة مع بالابانوف ، الذي أسف لما حدث ، وكان متعاطفاً بجزع ، ومهتماً بمتابعة العمل في تصوير الفيلم ، أما هذه الرسميات الزجاجية ، التي صدرت الآن عن مدير الاستوديو ، والذي لم يستخدمها من باب الحذر إلا نادراً ، فقد أثارت في نفس كريموف اشمئزازاً مضنياً .

— أظن أنك قلت المحاكمة ؟ — قال كريموف متظاهراً بالدهشة — على أي شيء يريدون محاكمتي ؟

توقف بالابانوف عن العبث بمشابك الورق ، ولوح بعصبية بيده التي تشبه الرفش ، تعبيراً عن اليأس .

— اسمح لي بأن أخبرك ، فياتشيسلاف أندريفيتش — قال بالابانوف بصوت عريض لاهث — بأنني استُدعيت للتحقيق . . . بخصوص ذلك الحادث الغريب . . . العجيب . . . أنا أتحدث عن التحقيق في تلك القضية المأساوية . . . في تلك القضية الاستثنائية .

— ايفان كسينوفونتوفيتش ، تحدث بوضوح أكبر ، أنا أصغي إليك بانتباه .

— فياتشيسلاف أندريفيتش ، لقد تبين أنك كنت على علاقة خاصة مع الممثلة سكفورتسوفا ، التي ماتت بصورة مأساوية ، ولذا فقد اخترتها لتقوم بالدور الرئيسي . . .

— حتى لو كان الأمر كذلك ، رغم أنه ليس كذلك ، فما علاقته بالقضية الاستثنائية ، حسب تعبيرك الملطف للغاية ؟

« غريب — أنني أرى نفسي من فترة لأخرى من الجانب — فكر كريموف وهو يتأمل وجه بالابانوف الكبير ، المصبوغ بالدم ، ويرى ، في آن واحد ، نفسه بصورة ضبابية قليلاً ، جالساً على الأريكة مقابل الطاولة — يرى وجهه الذي تبدو عليه آثار الإرهاق تحت عينيه ، وقد ارتدى بزته الصيفية وقميصه النضر ، الذي ترطب تحت ابطيه . — ما عمر هذا الرجل الذي خط الشيب شعره ؟ وهل يشبه القاتل المحترم لعشيقته ، كما يمكن أن يتخيله بالابانوف ، أو ربما أنه يشبه بطل فيلم بوليسي فرنسي عن حياة المثقفين المعتدين بأنفسهم والمحبين لذواتهم ؟ » .

— اشرح لي ، ايفان كسينوفونتوفيتش ، بصورة أوضح ، ماذا تقصد تحديداً ؟ — كرر كريموف برصانة — وبماذا يمكنك التأكيد إذا كنت لا تعرف شيئاً ؟ على الأصح ، إذا كنت لا تعرف رأسك من رجليك ، حسب التعبير العسكري ، وأعتذر أشد الاعتذار على العبارة الفظة . .

— كن حذراً ، كن حذراً — صاح بالابانوف ، وهز وجنتيه الثقيلتين ، دون أن يرفع رأسه — إن قضاياك المريبة ، على أقل تقدير ، تبحثها مؤسسات أخرى ، ولا أرغب حتى بالالتفات إليها . أما بالنسبة لتصرفك اللاأخلاقي مع سائق سيارة الاستوديو ستيبان غولين ، فهنا . . .

« . . . فهنا ، وباعتباره مدير الاستوديو ، سيضع النقاط على الحروف . على أية حال ، يبدو الأمر ، من بعيد ، مضحكاً وغير مفهوم : أنا الرجل المثقف ، ضربت السائق . . . ولكن ماذا كان سيفعل هذا الحكيم بالابانوف ، عندما كانت سكفورتسوفا راقدة

بلا وعي على العشب ، في ثوب السباحة الرطب ، ولم تكن السيارة موجودة في مكانها ؟ ماذا كان باستطاعته هو ، بالابانوف ، أن يفعل ، إذا ما رأى آثار أحمر الشفاه على أعقاب السجاير البارزة من المنفضة على باب السيارة ، التي وصلت متأخرة أربعين دقيقة ؟ هل كان سيشعر بالغضب والغيظ من السائق الذي ذهب إلى مكان ما ، وكان على الأغلب ينقل ركاباً إلى المنازل الريفية ، في الوقت الذي كانت فيه سكفورتسوفا تصارع الموت ؟ أجل ، غير مفهوم . لكن بالابانوف ، هذا المرائي العتيق ، رجل ذو وجهين ، إنه ممثل في مكتب . ربما ، لهذا السبب ، أشعر بالتقزز من صوته الخشن المتقطع ، ومن احمرار جبينه ورقبته ، ومن رأسه الشبيه برأس القنفذ ، والأهم من ذلك ، من عينيه الشبيهتين بعيني القنفذ ، الذي يخفيهما ، محافظاً على هيبته ، خائفاً من النظر إلي . إنه ينفض يديه من المسألة » .

— يمكنني أن أتصور تماماً آلامك ومعاناتك ، أثناء استجوابك في إدارة خطيرة . انني أقدم اعتذاري للدقائق المزعجة التي سببتها لك — قال كريموف ساخراً ، وهو ينظر إلى جفني بالابانوف المتحركين باضطراب ، ورأى نفسه من جديد في الماضي الضبابي الغامض : شكل وجهه البيضوي الشاحب ، وضعيته وهو جالس على المقعد — والتحذير الذي وخذه بألم ، أزعجه بصورة جدية للمرة الأولى : « ماذا حل بي — إنني منهك حتى النهاية ؟ ولا أستطيع الخروج من هذه الدوامة ؟ إنني سأنهار اذن » .

قال بالابانوف بصوت غليظ :

— نعم ، لم أشعر بالسرور أثناء إجابتي عن الأسئلة .

— لم تكمل حديثك : الكونترباص غالي الثمن . ولكن ، يجب

الافتراض أن أجوبتك لم تكن سوداء اللون . لهذا ، لا أسألك ، ايفان كسينوفونتوفيتش ، ماذا ، وكيف أجبت . أريد أن أعرف شيئاً آخر : ماذا قررت بخصوص الفيلم أثناء غيابي ؟

— آسف ، لن تصور الفيلم الآن .

— ماذا يعني « الآن » ؟

أبعد كريموف مرفقيه عن مسندي المقعد ، ونهض بسرعة ، متوتراً ، شاعراً ، للحظة ، بظلمة تغشى عينيه (« أوه ، يا لوضعي السيء ، أي ضعف هذا ! ») ، وعلى الفور ظهرت أمامه ، من خلال الطاولة هيئة بالابانوف الخرقاء ، بكتفيه المنحدرين ، وقده السمين ، وقد نهض مذعوراً من المقعد بقوة خوف غريب ، غسل الاحمرار عن وجهه . وتصور كريموف ، وهو مندهش من فكرته المضحكة ، كيف كان سيصرخ مذهولاً ، هذا القنفذ الحذر بالابانوف ، وسيرتد عن الكرسي ويقلبه ، لو أنه لمسه باصبع واحد على أنفه الكبير ، وهو يقول له : « يا عزيزي المعذب من أجل الحقيقة » .

— أعتذر على حدتي — قال كريموف وهو يميل رأسه بصورة مضحكة ، مطمئناً بالابانوف — في جميع الأحوال ، لن تتمكن من كبح خيالك الجامح ، وهذا سيقودك بعيداً . ماذا يعني « الآن » — قال مخصصاً — الآن ، الآن ، إلى أن أدان ، إلى أن أدخل السجن ، أجب : من اتخذ هذا القرار ؟ أنت ؟ لجنة شؤون السينما ؟ نصحت بذلك إدارة خطيرة في شارع بتروفكا ؟

ارتدى بالابانوف سترته المعلقة على ظهر المقعد ، وشد أزرارها

بصورة موحية ، مبرزاً بطنه الدائري مثل المشد ، وقال بنفس متقطع ، يصدر صفيراً :

— أنا أيضاً أرجو المعذرة . فياتشيسلاف أندريفيتش المحترم ! يجب أن أغادر مكتبي الآن . ولكن . . . أرجو الصفح — وبات وجهه باكياً ، وداس بقدميه حول المقعد جيئة وذهاباً ، مبعداً ما بين يديه — أرجو الصفح ، يا عزيزي ! ولكن ، هل من المعقول بعد كل ما حدث ، أنك لا زلت تأمل ؟ لا زلت تطالب ؟ لا زلت تسخر ؟ لا تسبح بين الغيوم ، امش على الأرض ، فياتشيسلاف أندريفيتش ؟ هل تدرك بم أنت متهم ؟ لقد أحببتك واحترمتك .

— متهم ؟ — استغرب كريموف ببرود ، وتابع حديثه بلباقة مفرطة — أشكر لك الصدق الجزئي في عبارتك الأخيرة . إنني أدرك أن مصيري لا تقرره أنت ، ايفان كسينوفونتوفيتش . أفضل تمنياتي لك .

* * *

« أي حديث سخيف أخرق هذا ! ولم كان هذا الحديث ؟ » .

قبل سفره إلى مهرجان باريس ، دعا بالابانوف كريموف إلى مكتبه ، وأثناء تقديم الشاي له ، حرك حاجبيه بطيبة قلب ، محاولاً اقناع كريموف باصرار ، أنه في هذه الفترة ليس هناك من يمكن إرساله إلى الرأسماليين سوى كريموف ، وأنه بحاجة إلى شيء من الانسجام ، وتغيير الجو بعد كل ما حدث . ومن المفيد له أن يرنو إلى البرجوازية ، وأن يظهر أمام الأوساط السينمائية العالمية في المهرجان ، وربما يحضر

معه جائزة من الجوائز إلى موسكو ، وهذا ما يأمل به هو بالابانوف ، ومسؤولون من مستوى أرفع . وأثناء حديثه على هذا النحو ، كان يدفع ملعقة الشاي باتجاه السقف ، كانت ضجته المألوفة ، وتشميره الحماسي عن ساعديه (استعداد غير عاجل لمسألة هامة) — كل هذا كان مألوفاً بالنسبة لكريموف ، منذ أكثر من عام واحد ، كل شيء كان عليه أن ينبىء بأن بالابانوف عجوز طيب ، راعي الفنون ، ليبيرالي بميزة معروفة هي الاحمرار السريع من الاستغراب ، ومن السخط معاً ، وتأنيب مرؤوسيه بصوت مرتفع ، وهو أمر لم يلحق ، عموماً ،ضرراً بأي كان ، وذلك لأنه لم يكن من هواة الوشاية والدسائس في الاستوديو ، حيث كان في كل مرة يقضي على الخلافات ، ويقوم بتهدئة المختلفين ، ويقضي على التوترات الناشئة بين مجموعات التصوير .

أما الآن ، فقد خرج كريموف من عند بالابانوف وهو يشعر بوسوسة مخربة غبية بلهاء ، باستبدال مخادع الواقع القديم بواقع جديد سخيف ، لم يدركه بعد بشكل كامل . وما كاد يجتاز عتبة مكتب المدير ، حتى حركت السكرتيرة ، ذات الوجه البعيد الغور ، كتفها بسرعة ، ثم قالت بلطف ودلال مزيف للرجل ذي الشعر الطويل ، الذي كان جالساً على المقعد ، مرتدياً سترة (« تفضل ، رفيق كوزين ») ، فعبر الرجل العتبة ، وهو ينظر بحنق إلى كريموف ، واندفع إلى الباب رافعاً رأسه ، بكبرياء رجل معتبر ، شهير ، لحقت به إهانة ، وأرغم على الانتظار طويلاً .

« أي سخيف هذا الـ « كوزين » — حدث كريموف نفسه ، عندما رأى المخرج ، العامل في التلفزيون ، الرجل المتماق البشوش أثناء

اللقاءات ، الذي ينفرج فمه عن ابتسامة معسولة ، تخفي وراءها نظرة ملؤها الحقد المتعالي .

بيد أن ما آلمه أكثر من أي شيء آخر ، هو أنه وفق الطريقة التي اتبعها وحفظها منذ زمن طويل ، في أن يكون ودوداً وساخراً ، دون إساءة ، مع زملائه . فقد حنى رأسه لكوزين ، بقوة العادة ، ولعن تلك الانحناءة التي كانت تعني الضعف ، بل وحتى أنه توقف في غرفة الانتظار .

— لا تزعلوا من عجوز غبي كبير السن ، ولا تشعروا بالامتعاض ، يا أبناء القبيلة الواحدة العظماء — قال كريموف بصورة ساخرة مؤثرة ، بانحناءة راهب غيورة ، أصبحت لسبب ما ، دارجة في الفترة الأخيرة ، مثلها مثل تبادل القبل بين الرجال في أوساط الممثلين ، وبعد أن سعل بخفر (واضعاً راحة يده على فمه) ، مقوساً ظهره ، ومردداً « الآن ، الآن » بحركة خادم مطيعة في مسرحية ، وأغلق الباب من الممر ، ملاحظاً ، بسرور خلال ذلك ، وجهي كوزين والسكرتيرة المصعوقين — مهرج ، ماجن ، بهلول ، ممثل رخيص — قال كريموف بصوت عال ، وضحك في الممر شبه المظلم ، محتقراً نفسه لما كان مكروهاً بالنسبة له ، وما لم يستطع ، ولم يرد ، مقاومته لسبب ما . ماهذا ؟ يفوح مني تهريج غير معقول ! وكأني ، لاعتزازي وفخري بنفسي ، أحرم الجميع من القدرة على أن يكونوا أناساً عاقلين . وأي إنسان آخر في نفسي ، يملي علي هذه اللعبة التي تعافها روحي ؟ » .

ولكن ، عند سيره في ممرات الاستوديو إلى مجموعة التصوير ، وبوقوعه بين الدهاليز المظلمة الممرات تارة ، وبين أشعة الشمس القوية ،

القادمة من الممرات ، والتي تكشف عن ساحة الاستوديو ، تارة أخرى (وهناك كان يسود اندماج سعيد لغيوم الصيف فوق أشجار الحور) ، تذكر كريموف ، من جديد ، يوم موت ايرينا ، المشابه لهذا اليوم ، من حيث الحرارة والاشراق ، والخضرة . في تلك الأثناء ، سار كريموف متجهاً أيضاً إلى مجموعة التصوير ، وكانت ايرينا تنتظره في غرفة مدير الانتاج ، من أجل الذهاب إلى ديو سباسكي ، لمراسة الطبيعة ، حيث كان من المقرر تصوير المشهد في ذلك اليوم ، سار كريموف في هذا الممر بالذات ، كما يسير إنسان لا يشك اطلاقاً ، بثبات كل ما هو أرضي ، وكان مزاجه صباحياً ناضراً . لقد كان كل شيء رائعاً ، موفقاً ، وقد تم العثور على الممثلة ، واقرارها لدور بطلة الفيلم الرئيسة ، وكان من المفروض أن يبدأ التصوير في شهر آب .

والآن ، كان يلتقي في زوايا الممرات العديدة ودهاليزها وجوهاً وأشخاصاً معروفين ، كان بعضهم يتظاهر بالانشغال ، ويدير وجهه كما لو أنه عن غير قصد ، وكان بعضهم الآخر يحييه بحركة غير ملحوظة من الذقن ، وآخرون كانوا ينظرون بنهم إلى حدقتيه بفضول لا يفتر ، الأمر الذي كان يجذب الكثيرين ، المستعدين للدفاع عنه وادانته ، في الوقت نفسه ، على السر الذي يدغدغ الأعصاب ، سر موت الممثلة الشابة الموهوبة .

* * *

الفصل الثالث

في الشتاء ، كانت تقيم في حي أوردينكا ، عند قريبتها ، أما في أوائل الصيف فقد انتقلت إلى فندق « بالتشوغ » المتواضع ، القائم في شارع بياتنيتسكايا ، مقابل الجسر القديم ، عبر القناة «كنافا» . كانت هذه زاوية هادئة من منطقة زاموسكفوريتشي ، حيث كانت تنتهي ضجة الشوارع الرئيسية بحشودها البشرية الزاحفة على الممرات ، وببريق السيارات وضجيجها ، وبرائحة الغازات التي تقذفها السيارات ، وبطوابير الناس المتزاحمين لشراء البوظة والعصير ، وبمقاهيها الغاصة بالناس ، التي تشبه الحمّامات لانحباس الهواء فيها ، وبتجوال الناس على ساحة تياترالنايا ، وفي جادة ستاليشنيكوف ، وفي شارع بتروفكا . بالقرب من الفندق ، كانت الشوارع الضيقة على الجانب الآخر من القناة ، تشبه مدينة تجارية قديمة ، برصانتها الخادعة ، ومخابزها الصغيرة ذات الستائر القماشية المخرمة على واجهاتها ، وبالمرايا القديمة الطراز في صالونات الحلاقة (التي تفوح من أبوابها رائحة كولونيا « شيبر ») ، وبأشجار الزيزفون القديمة ، التي لا تزال قائمة هناك ، حيث كانت تقوم في الماضي الأسوار والأسيجة ، وأقواس البوابات والأبراج في الساحات المعشوشبة . هذا الجزء من موسكو ، الذي لم يغطى كاه

بناطحات السحاب بصورة مشوهة ، كان كريموف قد صوره في مشاهد قبل الحرب لفيلم عن العام الحادي والأربعين ، وأحب الراحة المتواضعة لهذه الأزقة والشوارع الضيقة التي لم تهدم كلها .

عندما وصل في ظهر يوم أحد إلى فندق « بالتشوغ » ، كان يلاحظ بفرحة التعرف ، ظل الأشجار السائل على الكورنيش الناعس ، وماء القناة الناعس ، ورذاذ قوس القزح من سيارة رش الشوارع ، وهو في حيرة من السبب الذي جعل ايرينا تنظم هذا اللقاء في الفندق ، الذي تكاد الشمس تحرقه في هذه الساعات . لكنه ، بعد أن تذكر رأسها المرمي إلى الوراء بمرح ، وزوايا شفتيها ، التي انفرجت عن ابتسامة ، وجملتها المسرحية التي أطلقتها بسرعة خاطفة : « أعين لك موعد عمل في فندق « بالتشوغ » ، — أدرك أن هذه لعبة يسعدها ويرضيها مشاركته فيها . ووافق بفضوله . وفي ردهة الفندق ، لم يوقفه الحاجب الشاب ، ولم يسأله إلى من هو قادم ، بل أحنى رأسه مرحباً ، ويبدو أنها قد أخطرته بذلك ، وعندما وصل في الطابق الثاني إلى البساط القرمزي الممدود على الأرض ، وبلغ حجرتها في آخر الردهة ، تصور مباشرة خلف الباب حجرة صغيرة ، خضراء من أشجار الزيزفون المشرقة على نوافذها .

— ادخل ، من فضلك . أنا أنتظر ، ولكن للأسف بدون ثوب السهرة . هل تسامحني ؟

لمح من الباب المفتوح نظرتها ، المصوبة إلى عينيه ، المعبرة عن الثقة المرحة ، مما ولد صعوبة التواصل معها وبساطته في آن واحد .

— أليس على هذه الصورة ، كان الناس يلتقون في القرن التاسع

عشر الطيب الذكر ؟ — قالت ايرينا ، وانحنت وهي تقول مضيفة — فياتشيسلاف أندريفيتش ، أحييكم ؟

— وماذا في الأمر ، ليكن كذلك — وافق كريموف بعدم اكتراث . ولم يتمالك نفسه ، فعانقها برفق ، شاعراً بأنها ترتجف من الارتباك . واستسلمت بكامل جسدها ليديه . ملتصقة به بوجل ، وبدا وكأنها بردت من هذا العناق . — أين ستكون حفلة الرقص ؟ — سأل كريموف باهتمام مقصود . — وإلى أين تأمرين بالذهاب ؟

— الآن سأفكر بكل شيء ، وسأستشير بعضهم ، — قالت بصرامة . وابتعدت ، ولمست المرآة بأنفها ، ثم تنهدت قائلة — لا ، لا ، لا أريد الذهاب إلى حفلة الرقص ، لندعها المساء . ولتنتظرنا العربة . ولكن ألا نسافر معاً إلى أوستراليا ؟ أولاً ، سنلتقي ، عند كل خطوة ، حيوانات الكنغر الرائعة مع صغارها . . .

— ومهما كان غريباً ، فالناس هناك يمشون على رؤوسهم — قال كريموف بسذاجة — لكن مارأيك لو نستبدل أوستراليا بمكان ما وطني ؟ حديقة سوكولنيكي ، مثلاً . نتنزه هناك ، ونتناول طعام الغداء ، ثم نذهب إلى الاستوديو . ينتظروننا في الساعة الثالثة . سنقوم بتصوير اللقطات السينمائية التجريبية . السينما أكثر متعة من أوستراليا ، سترين ذلك يا ايرينا .

— موافقة على الحديقة الوطنية . بدون مخالطة الكنغر .

بقي فترة طويلة غير واثق من موافقتها على التمثيل . في تلك السنة

كان الشتاء كثير الثلج ، والصقيع قارصاً ، وكانت الأمسيات عاصفة في شقة قريبتها ، التي سافرت إلى أرخانغسلك ، ذات الغرفة الواحدة . وقد أذهله تعرفه البطيء عليها .

في مساءيوم ماطر ، نزل من سيارة الأجرة في الزاوية ، وسار على قدميه في شارع أوردينكا ، وقد غطته العاصفة من قدميه حتى رأسه ، وكان بصعوبة كبيرة يرى أمامه على الرصيف البقع المضيئة من النوافذ ، حيث رسم غبار العاصفة الثلجي لوالب حلزونية ، وفي الأعلى ، إلى جانب المصابيح التي تصر ، كان الثلج يطير بصورة منحرفة ، مائلة تارة ، أو ينتشر على شكل أمواج بيضاء تارة أخرى ، وفي كل مكان ، كان ثمة جنون مندفع عنيف . كان كريموف يمشي منقضاً على الريح ، وقد ارتقى في نفسه الاحساس بالاكتمال المادي للحياة والصحة ، والحنان غير المفهوم . رن الجرس ، ففتحت الباب ، خلع كريموف في الردهة معطف الفراء ، البارد من الصقيع والزمهرير ، والمغطى بالثلج ، وقال بانفعال :

ـ إنه الشتاء .

رفعت ايرينا عيناها ، ولاح منهما تعبير المشاركة السعيدة .

ـ عاصفة في الشارع ، أليس كذلك ؟

ـ عاصفة .

ـ الثلج يدور ؟

ـ الثلج .

ـ الجو بارد ، والمصابيح تئن وتهتز غالباً . جميل الآن أن يستقل

المرء قطاراً ويسافر إلى جهة ما ، ويصغي إلى العاصفة . صحيح ؟ انني لم أراك منذ فترة طويلة . تبدو وكأنك خرجت لتوك من المزلجة ، ورائحة البراري تفوح منك .

وأسندت راحة كفها إلى خده البارد .

لكنني واثقة ، من أنك لم تشعر بشوق لأي كان . نسيت ، غالباً ، جميع من في الدنيا ، أثناء عملك في الاستوديو ، بين الهرج والمرج .

— كان هناك هرج ومرج — قال كريموف ولم يتمالك نفسه من جديد فعانقها وقبلها عند منحنى حاجبها الطري الحريري .

أريد أن تبقى عندي اليوم ، — قالت هامسة ، وابتعدت بخوف خفي ، وجلست على الأريكة ، وعلى طريقة الأطفال هددته ، ثم هددت نفسها بالاصبع ، وهي تقول بصورة مضحكة : — لقد فقدنا عقلنا نحن الاثنان . انها نهاية العالم .

جلس كريموف بالقرب منها ، واستقامت ايرينا بهدوء ، ومدت يديها ، ثم سألته بهمس خفي :

— قل لي ، في أي شيء يكمن مغزى الحياة ؟

— ماذا تقصدين ؟ في أي معنى ؟

— في المعنى المهيب .

— ايرينا ، وهل تظنين أن هناك من يستطيع الإجابة بدقة ؟

ـــ لكن ، على أي حال ، يجب أن يكون هناك مغزى رئيسي ما ، لما يحدث بيني وبينك . فأنت لا تحبني ، أليس كذلك ؟

وعضت على شفتها ، وأضاءت عيناها الخضراوان باستسلام معبرتين عن جهل خبيث .

ـــ لا ، ليس هذا سؤالي . قل لي ، هل هناك ما يروقك فعلاً في شخصي ؟

ـــ هكذا اذن . . .

ـــ ألا تريد الإجابة ؟

ـــ ايرينا ، كنت أسير الآن وأفكر فيك . كنت أذكر كيف تبتسمين أحياناً ، بصورة غامضة ساحرة . ليوناردو دافينشي كان يعشق ابتسامة الجوكندا . . .

ـــ وأنت ؟

ـــ عني ، لاداع . لأي حديث . . .

وردت عليه بابتسامة سعيدة ، صريحة .

ـــ لا .

ـــ ماذا ؟

ـــ أنت لا تعرف شيئاً .

ـــ ماهو الذي لا أعرفه ؟

ـــ لدي ببساطة موهبة الجاذبية ، هذا كل شيء . واحرقت حدقتيه

بعينيها بخوف . — اذن ، تعجبك تلك الفتيات مثلي ؟ وغالباً ، ترغب بأن أكون زوجتك ، ولو لفترة قصيرة ؟ أم لا ؟

— أريد ، ولا أريد . أنت فتاة من عالم آخر . من كوكب آخر . من صحن طائر .

— قدني أنت اذن — قالت مازحة ، وبخوف ، ابتعدت عنه إلى الأريكة . — قدني ، وجهني . فأنت تعرف كل شيء . سأخضع الك قليلاً .

لم يكونا قريبين ، وانحنى كريموف ، وقبل بحذر رمشها الواخذ المدغدغ ، أما أصابعه فقد كانت تمر بلطف على شعرها الطري ، على رقبتها الناعمة المنحنية ، وهنا أحس فجأة بفقراتها الضعيفة ، الشبيهة بفقرات طفلة ، وسيطرت عليه شفقة خارقة ، فأبعد يده ، راغباً بالنهوض ، وهو يحس حركات جسمها الخفرة ، المتعثرة . أما هي ، فبعد أن أغلقت عينيها ، أرجعت رأسها إلى الوراء ، فلمعت أسنانها البيضاء المتشابكة برطوبة ، وانفرجت عن ابتسامة تجمع بين الحزن والفرحة . وهمست قائلة :

— هكذا يحدث ، عندما يفارق المرء الحياة . إنه شيء مرعب . . .

كان يرى وجهها الذي لا يدرك غوره في تبدله الجذاب ، وكان يحس بالهواء الساخن المنبعث من همسها ، وفي لحظة من اللحظات ، كان يوده أن يتصور ، أنه ، وهو الإنسان الجلدي ، الخبير ، ليس في العقد الخامس ونيف من العمر ، وأنها ، هي ، ليست أصغر منه بمرتين ، وأنه مغرم بلا وعي ، كما كان مغرماً ، في سنوات بعد الحرب .

بأولغا ، وأنه خاضع مستسلم لوسوسة الشيطان ، المخدر ، الذي لا يستطيع التخلص من حبائله . بيد أنه عندما كان يعانق ايرينا ، شعر لسبب ما ، بحالة شديدة من البرودة ، وبشفقة تخدشه بصورة آثمة .

ــ ايرينا ــ قال كريموف ــ يجدر بنا ألا ننسى ، أننا قد نصبح مضحكين ، سخيفين . أنا بالطبع ، أتحدث عن نفسي .

كان يذكر : في تلك الأمسية الشتوية ، في شارع أوردينكا ، كانت ايرينا تحاول الابتسام ، وتنظر إلى صدره بعينين مرفرفتين ، وقد أخذت الدموع تغشيهما وتسيل منهما . كانت مستسلمة الصمت ، وكانت بصمتها كأنها ترجوه أن يقدم لها مساعدة ما ، وهو ، من أجل إخماد هذا الألم المجهول الموجع ، قال لها مطمئناً :

ــ ماذا بك ؟ وإلا ، فسوف أبكي أنا أيضاً . وهكذا ، سوف ننوح نحن الاثنان .

ــ تحبني الكلاب والأطفال ــ قالت بهدوء ، وهي تمسح دموعها بيدها . ــ يكفي أن أقول في الشارع لأي كلب : « تعال معي ، يا أحمق » حتى يركض ورائي . وقد لاحظت في المنتزهات العامة ، أن الأطفال يقتربون مني حالما أنظر إليهم . . . أما أنت فلا تحبني ، بل تشفق علي . أنت يجب أن تحب فتيات أخرى ، غيري تماماً . لكنني لست امرأة خيالية ، لست امرأة من المريخ . قل لي ، لماذا القوي يعذب الضعيف ؟

ونظرت إليه في عينيه بخضرة عينيها الضعيفتين البريئتين . أما هو ، كريموف ، المصعوق بقناعتها هذه ، فقال على سبيل المزاح :

ـ ايرينا ، أنت تنظرين إلي ، ليس كما أنا بالفعل ، بل كما لا أريد أن أكون .

ـ على أية حال ، أنت أقوى مني . فالرجل هو ملك الطبيعة ، صياد ، مدافع ، أما أنا فكائنة ضعيفة من الجنس الآخر ، عليها أن تخبز الخبز وتلد الأطفال .

ـ ولهذا فأنت أقوى .

ـ أنا ، أنا ؟ . سألت ايرينا بصوت ممدود . ـ أنت جاد في قولك ، أم أنك تمزح كعادتك ؟

ـ لا بالطبع ، أنا أقوى . أولاً ، لدي إرادة حديدية ، وأنا لا أستطيع رؤية دموع الآخرين ، وبخاصة عندما تبكي امرأة . وثانياً ، عندما يضرب طفل ، فانني مستعد لأن أكره البشرية لقسوتها . ولكن ، في أغلب الحالات ، تأخذني الشفقة على الجميع ، وعلى كل شيء ، وعندها يمكنني أن أسامح الناس على أعتى الآثام وأشدها . وأسامح نفسي أيضاً . ان ملك الطبيعة محروم من السلطة ولا يرغب بها . طالما أن الجنس البشري مستمر ، فالمرأة هي ملكة الطبيعة .

أوقفته ايرينا بحركة ضعيفة من جفنيها .

ـ لا ، أنا أرى طيبتك ، واهتمامك بي ، بفتاة بائسة وجميلة من فرقة بالية مسرح البولشوي ، كانت بدايتها جيدة للغاية ، ثم وقعت لها كارثة . آه ، كم أكره عندما يشفقون علي ويتعاطفون معي : « كم أنت سيئة الحظ يا ايرينا ! » .

ـ يشفقون ويتعاطفون ؟ وهذا أمر سيء إلى هذه الدرجة ؟

— سيء . . . أنا أدرك عدم الانسجام بيننا . بينك وبيني . أنت . قد أنجزت الكثير ، أما أنا ، فكأنني كسرت قفلاً ودخلت شقة غنية غريبة . غير أنني أحببت الرقص منذ طفولتي . ولم يكن يلزمني أي شيء . لا المال ، ولا المجد ، ولا القيم ، ولا شيء آخر ، أنت تعرف . . . — ونظرت إليه ثانية نظرة خفرة ، وانحنت شفتيها بابتسامة مذنبة . — أتعرف ، إنني أحياناً ، أغضب لهذا السبب على نفسي ، جداً . . . حيث أخرج عن طوري .

— وهل يمكنني أن أساعدك بشيء يا ايرينا ؟

— تساعدني — لا ، لا حاجة . سأتغلب على ذلك . أحوالي جيدة كلها .

— إذن ، كل شيء جيد ؟ — كرر كريموف .

— كل شيء على الإطلاق — قالت ايرينا ، وغرقت بدموعها ، وهي تسحب الهواء بأنفها بصورة متقطعة — أتسمع ؟

— ماذا ؟ — ومسح بظهر أصابعه خيوط الدموع الحارة التي سالت على وجنتيها . — وعلام البكاء ؟

— اتسمع ، أي سكون في البيت ؟ عاصفة . . . . وأي سكون هذا . . .

— وما شأننا به ، بهذا السكون ؟

— لا ، لا . إنه سكون ، أتعرف ، . . . إنه صوت غريب ، شبيه بصوت الظالم والموت .

ـ لازلت طفلة يا إيرينا ، ومازال أمامك الكثير .

ـ أتظن أنني لا أعرف ما هو الظلم ؟ وما هو الإخفاق ؟

ـ أجيبي بصراحة : كيف تعيشين يا إيرينا ؟

لكنها كانت قد لاذت بالصمت ، وجفت الدموع من على أهدابها المغلقة من التعب ، وارتجفت أجفانها ، كانت تصغي وكأنها في غفوة ، إلى شيء ما خفي مكنون ، غير قادر على معرفته وإدراكه ، وفكر كريموف ، بأنه يجب وضع حد لهذا العذاب الطوعي ، ومفارقة هذه الفتاة الرائعة ، التي جذبته برقتها الضعيفة ، وبلغز حياتها الغامض .

في كل مرة ، كانت تستقبله بابتهاج كبير تارة ، وبرشد جدي تارة أخرى ، وكانت عيناها تتلألآن بهيام تارة ، وبحزن تارة أخرى ، وكانت تبرز من تحتهما أحياناً حلقات زرقاء تدل على توعك صحتها . في بعض الأحيان ، وبعد أن تتمرن على جهاز الحركة أكثر من ساعة ، كانت ترقد على الأريكة ، مرتدية البزة الرياضية ، ودون أن تنهض ، كانت تبتسم بحزن ، ، متأملة وجهه ، ولكن ما إن يحاول الكلام ، حتى تغطي فمه بيدها ، وترجوه هامسة : « لاداع ، تعال اليوم ، نستسلم الصمت » . وقد وجدها أكثر من مرة وسط الغرفة ، وهي شاردة جالسة على السجادة وإلى جانبها كتاب ، وهي غارقة في وحدتها ، منفصلة عن العالم كله . وأحياناً ، كان يتملكها مرح شبيه بمرح الأطفال ، وهي نشيطة منتعشة ، رائعة العينين ، وكانت تجره إلى الناس ، إلى الجمع ، إلى « بارك » الثقافة المركزي ، الذي كانت متعلقة به لتوفر الألعاب فيه مثل « الدولاب الشيطاني » و « غرفة المرايا الضاحكة » ، وإلى مطاعم ضواحي موسكو (كي لا يلتقيا صدفة بمعارفهما من

المسرح) ، حيث كانت تعلمه رقصة الروك العصرية ، ودون أن تشعر بالحياء من أي مكان ، لافتة الانتباه إليها بشبابها الجريء ، ومرونتها ، وشعرها الأشقر القريب إلى البياض .

مع ذلك ، لم يكن كريموف يعرف كيف كانت تعيش ومن أية موارد . لم تكن إيرينا لتذكره ، أو لتحدثه بشيء عن إصابتها ، ولم تكن تسمح له بأن يراقب تدريباتها على جهاز الحركة ، وبدا ، وكأنها كثيراً ما تمارس أعمالاً جانبية وغير لازمة . جاء ذات مرة إلى شقتها في أوردينكا في الساعة السابعة مساء ، ورآها تمارس عملاً غريباً . كانت مستلقية على الأرض ببزتها الرياضية ، وقد تناثرت من حولها الكتب والمراجع الهندسية ، وجداول اللغاريتم ، وأوراق رسمت عليها زوايا وخطوط ، وكانت هي مستندة بيدها إلى خدها ، تكتب صيغاً وقوانين في دفتر مدرسي ، هاتفة من حين لآخر :

ـ جيوب تمام الزاوية ، جيوب الزاوية ، أي شيء مقرف !

دخل المرح إلى قلبه ، وسأل ماذا يجري في البيت ، فردت بامتعاض ، أنها تحل مسألة هندسية ، لم تستطع أن تحلها في فترة سابقة ، أثناء اختبار قدمته في الصف التاسع ، لكراهيتها الشديدة للقوانين ، وبعد أن أجابت ، خلطت الأوراق بعضها ببعض ، وأغلقت جداول اللغاريتم ، وعضت بصورة عابسة على طرف قلم الرصاص .

ـ ذلك الاختبار ، تلك المذاكرة في الهندسة تراودني في الحلم أحياناً مثل كابوس . أريد أن أتخلص منه ولا أستطيع ذلك . وقد حصل لي هذا الكابوس في يوم عيد ميلادي قبل بضعة سنوات . ـ نقرت

ايرينا بأصابعها بضيق وكدر . – على فكرة ، لدي اليوم حفل ، ابق عندي ، سترى معارفي من ممثلين ورسامين ، وأشقياء لطفاء . . .

* * *

اندفع هؤلاء « الأشقياء اللطفاء » إلى شقة إيرينا بصياحهم وضجيجهم وزعيقهم في الساعة العاشرة مساء : فتبادلوا القبلات ، وصرخوا بعبارات الترحيب الحماسية ، وبعد أن رموا بمعاطفهم وسترهم على أرض البهو ، ملأوا الغرفة بكاملها : كانوا شباباً يرتدون الكنزات السميكة ، وفتيات نحيفات رشيقات يرتدين السراويل . قام أحدهم (« تتري » رسام موهوب بصورة نادرة » – قيل لكريموف فيما بعد) ، وهو أسود الشعر ، قصير القامة ، ذو عينين ضيقتين على شكل زاويتين ، فبسط يده وصاح قائلاً : « إيرا ، إيرينتشكا ، يا ضوء روحي ! » ، ولوح بزجاجة الكونياك . فلم يصغ إليه أحد . عندئذ ، صعد إلى الطاولة ، وحرك شفتيه وحنجرته كما لو أنه يعزف على السكسفون ، وأخذ يقوم بحركات جسدية من الرقص البدائي ، ثم صرخ قائلاً :

– إيركا * ، أيتها الجميلة ! أهنؤك ! . . .

– كفى ، توقف ، دياس ! – كان أحدهم يهدئه بصوت جهوري ، أجش ، كأنه صوت ممثل . – اهدأ ، أريد أن أقول نخباً ! هدوء ، يا عصابة ! سكون كيميائي مطلق !

كانت الفتيات المقشعرات من البرد ، بسراويلهن ، يتزاحمن ، ويجلسن إلى المائدة ، التي أصبحت على الفور وكأنها مجتاحة ، مغمورة ،

---

* إيرا ، إيرينتشكا ، إيركا – هذه أسماء تحبب وتلطيف لاسم إيرينا – المترجم –

مغطاة برماد السجاير الرطب . وكان الشباب يتسابقون برجولة الفرسان ، بالانحناء أمام إيرينا ، دون الالتفات إلى كريموف ، ما عدا رجلاً متوسط العمر ، ممتلىء البطن ، ذا عين حولاء ، كان يبدو من تحت قميصه الصوفي بقبته المفتوحة وقميصه الداخلي المتسخ . قال الرجل بصوت متعثر ، وهو يمسك بيد كريموف مصافحاً :

– لقد سبق أن رأيتك في مكان ما – قال واهتز مخموراً ، ومقرباً كرسيه من المائدة . – أين ، أين يا ترى . . .

– يبدو لي كذلك أننا التقينا . أين ، لا أذكر .

– سكون . . . كيميائي مطلق ! – هدر صوت الباريتون القوي ، الشبيه بصوت ممثل . – هذا البيت . . . في هذا البيت المجيد ، في بيت المولودة اليوم ، يمكننا البقاء حتى الصباح ! نحن نحب هذا البيت ، لأنه يمكننا القدوم إليه في أي وقت من أوقات اليوم . عاشت شمس هذا البيت ، أورا ! . . . هدوءاً يا عصابة ! أيها الدهان دياس ، اخرس . يا عمي ، عمي العزيز ، فيما بعد ، ليس الآن ، ستتحدث عن النساء اللواتي كن في حياتك ، وفي أي وقت ! . . . هدوء ، سكون الأموات ! لم أنه حديثي بعد . . .

– أتسمع ؟ هل تفهمهم ؟ انهم يصرخون علي – همس الرجل المتراخي ذو العين الحولاء بصورة خائرة مغمومة . – هذا التتري ، رسام متميز ، يعمل في مرسمه ، بناه له أقاربه . إنه جريء ، مقدام ، أترى ، فارس ، عربيد ، لم تمسه المدنية . في عروقه ودمائه تسري السماء والسهب والريح ، وتحت سرجه قطعة من اللحم النيىء – هذا هو غذاء موهبته . أما فسيفولد هذا ، ذو الحنجرة البيضاء والصوت العالي ،

فهو ممثل ، ابن الممثل الشهير من مسرح موسكو الفني الأكاديمي . . .
أتسمع كيف يصرخ ، صبي ، وهو بهذا الصوت القوي .

ـ أيها العم ، ذا القميص الداخلي البارز ، هلا انضممت إلى حلقتنا ، تبدو غريباً ، صمتاً ! كفاك حديثاً عن النساء ، كان الديك الكثيرات منهن . . . صمتاً ، هدوءاً ! إنني أقرأ الشعر ، سأقرأ عليكم أبياتاً الشاعر العظيم بلوك ! اصغوا جميعاً » وكل مساء في الموعد المحدد ، أو هكذا يتخيل لي ، يتحرك خصر الفتاة بثوبها الحريري على النافذة الضبابية . . . . » .

ـ أتسمع ؟ ـ همس الرجل ذو العين الحولاء بذهول . ـ انهم يريدون شيئاً ما . . .

ـ ماذا يريدون ؟ ـ سأل كريموف الذي أصمته الضجة والفوضى على المائدة .

ـ انهم عازمون على شيء ما ـ قال الرجل قلقاً ـ نحن ، أنت وأنا ، لا نعرف ماذا يريدون ؟ هل يريدون شيئاً ما ، أم أنهم يشبعون موهبتهم على هذا النحو ؟ انهم يبددون الحياة . أنا سأقول لهم الآن ، سأقول لهم كل شيء . . .

وقف الرجل ، يتمايل مخموراً ، وقد تغطى قميصه الصوفي الدافيء برماد السجاير ، وغطى العرق وجهه الرمادي الأزرق ، وبدت غرة شعره المشعثة ، التي خطها الشيب ، أشبه بغرة الأسد ، وقال :

ـ أيها الشباب ، نحن في وقتنا . . . كان لدينا هدف ثابت . كنا نتألم ، نعاني ، لكننا كنا نرى الهدف ، كنا نعرف . . . لقد كنا نرتدي لحاء الشجر على أقدامنا ، لكننا . . .

ـ أيها العم ، اجلس ! ـ قاطعه الشاب ذو الصوت الباريتوني ، الشبيه بصوت الممثل ، بوقار تراجيدي ـ أيها العم ، أنت ثمل ، لكنك نطقت بالحكمة ، قلت نخباً حكيماً ! أيها العم ، أنت عبقري ! سأقول كلمتين فقط : عب . . . قري . . . . !

ـ أريد أن أتلو عليكم شعر غوميليف ! فسيفولد ، افرض السكون والهدوء !

ـ دياس ، ضع الزجاجة ! من يشرب من فوهة الزجاجة ؟

ـ انهم فعلاً لطفاء محبوبون ، رغم كونهم أشقياء وقحين ، ـ همست إيرينا في أذن كريموف ـ اجلس الآن جانباً ، انظر واسمع كالفأر . هذا طريف حقاً . الآن سوف يتناقشون .

ـ حسناً ، سأجلس كالفأر في الزاوية .

ـ أنا لست شهيداً ، ولا بطلاً . . . كيف يمكن تسمية هذا ؟ قولوا ؟

ـ لا ، هذا جيد ، حسن أنه اعترف ، أنه أصبح كما لو كان على راحة الكف . لقد تعرى ، تعرى من ثيابه أمام الجميع . هذا « ستربتيز » !

ـ كوليا ، ما هو موقفك من اليهود والروس ؟

ـ أبحث عن الوسط .

ـ الحسودون ينشرون الأكاذيب .

ـ في كل حقارة ثمة سذاجة ، تماماً كما أنه في كل سذاجة سخيفة ثمة حقارة ! لكنك حسود .

ـ وهل في الخير حقارة أيضاً ؟

ـ أجل ، في الخير الخالي من الأسنان ، في الخير الألثغ ، في الخير الفارغ ، مفهوم ؟

ـ سكون كيميائي مطلق ! هدوء ! من أراد تلاوة شعر غوميليف ؟

ـ أنا اقترحت .

ـ هدوءاً يا فتاة ! أين مسدساتي ، ذات القبضات المرصعة ؟ غريشا ، اقرأ شعر غوميليف .

ـ أريد أن أقول لكم ، أيها الشباب ! غوميليف فيما بعد .

ـ أنت من جديد ، أيها العم ؟ هيا تفضل ، تفضل ، تكلم ! دعوه يتكلم ، يا أفراد العصابة ! اسمعوا نخب الرجل الذي عرف جميع آلام العالم ومعاناته .

بوجه عابس ، أحمر ـ أزرق ، ثمل ، وعين حولاء نهض من جديد ببطء ، الرجل الممتلىء ، الجالس بجوار كريموف . هنا تذكر كريموف فجأة : لقد تعرف عليه قبل عشر سنوات ، في إحدى الأمسيات في دار الممثلين ، باعتباره ابن كاتب معروف ، استشهد في الثلاثينات في الشمال .

وضع الرجل فمه على القدح ، وشرب بشراهة .

ـ يقول القدماء : استعجل ، لكن ببطء ! هذا ينسحب علينا جميعاً ! أما أنتم ؟ من أنتم ؟ ماذا تعرفون ؟ . . .

ـ فكرة الموت ـ الخوف من الموت .

ـ مستهلكو الحياة . ماذا تعرفون أنتم ؟ حياة الإنسان الموهوب ، الشريف ، هي أقسى حياة في العالم .

ـ إن جميع كتابات الكلاسيكيين المحترمين هم كاذبون عاطفيون !

ـ راتان ، ما هو موقفك مني ؟

ـ أنا رومانسي ، وهذا ينقذني من تقدير الأشياء الواقعي . أنا رئيس ، أنت حمار ، أنت رئيس أنا حمار . الحق دوماً إلى جانب من يملك حقوقاً أكثر .

ـ ماجن ، مستهتر .

ـ افتحوا النافذة ، وليدخل الهواء المنعش إلى هذه الغرفة المشبعة بالدخان . توقفوا جميعاً عن التدخين !

ـ لقد باع دياس لوحة ، تمثل منظراً طبيعياً بخمسمائة روبل . ويقوم الآن برسم اللوحات التصويرية لمسرحية ستعرض في مسرح تاغانكا ، كما أعتقد .

ـ إذا كان العمل هو الحياة ، فهو مترع حتى الثمالة . ولا وقت يكفي .

ـ ما المقصود بذلك ، هذا يعني أن الكذب كبير ، غني ، قوي ، أما الحقيقة فهي ضئيلة ، تافهة حقيرة ؟

– هراء ! الفن دوماً مجاز ، استعارة للواقع .

– إن الكذب الأكثر كذباً يحمي ويدعم حياة جميع الحقائق الإنسانية .

– وانعدام الموهبة هو كذب دوماً .

– أليس عقيماً هذا التفكير الفارغ ، بلا طائل ؟

– لدينا ستة عشرة بالمائة من الاحتياطي العالمي من الغابات ، وعشرون بالمائة من احتياطي المياه في العالم ، ومع ذلك ثمة نقص دائم بالورق .

– وما هو الكذب – الدفاع عن الذات ؟

– وإذا كان الكذب هو حقيقة ؟ ، والحقيقة هي كذب ؟ لا تشنج وجهاك ، أنا نفسي قادر على ذلك .

– بهدوء ، استمع إلي ! سألقي عليكم أشعار أخماتوفا . إنها أبيات إلهية !

– روزا ، ماذا بالنسبة لرقصة « التويست » ؟ لا تنسي ، أنا لست ماهراً . دياس ! أيها العبقري صور لنا ، بشفتيك شيئاً من رقصة التويست أو « الشياك » !

– أما فسيفولد ، فهو قادر على خشبة المسرح أن يمثل ويعبر بوجهه وبصوته . فهو يصرخ مثل بوق أريحا ! *

---

* يضرب المثل بأبواق أريحا لقوتها وشدتها . وقد جاء في التوراة أن جدران قلعة أريحا القديمة انهارت من شدة أصوات أبواق الغزاة اليهود – المترجم –

— أتعرف ما هو النقد ؟ إنه توقيع شخصي على الجهل الشخصي .

— أما أنت فتصفق بأذنيك ، كما تصفق الأبواب . اعطني الزجاجة ، يا شقيقي ! لقد تفاسف فجأة !

— عمن تتحدث ؟ من هو عديم الموهبة ؟ تنطلق بالسخافة والهراء ولا تخجل . يجب أن نحكم على الفنان من خلال أفضل أعماله ، وليس من خلال أسوأها . لقد أصبحنا شريرين ، حسودين إلى حد الحقد والكراهية .

— أنت من تقصد ؟ أم أنك فقدت رشدك ؟ عمن تتحدث ؟

— عنك أنت . أنت سَبَرة .

— وما هو السَبَرة ؟ هل جننت ؟

— إنه نوع من الطيور ، صغير جداً . يعيش بالقرب من التماسيح . يفتح التمساح حنكه ، فينظف له السَبَرة أسنانه . ينقرها بمنقاره . بعد أن يكون قد التهم إحدى فرائسه .

— آه ، كم هذا طريف — الشر يتعايش مع الخير ؟

— بأي معنى يهمك هذا يا سفتلانا ؟ بالمعنى اليومي المبتذل أم بالمعنى الفلسفي ؟ عندما تقولين « لا » ، فهذا شر بالنسبة لي . لكنك تعتبرين هذا خيراً بالنسبة لك . أليس كذلك ؟ فالآن ، أود أن أذهب وإياك إلى الحمام . . .

— توقف عن السخافات ، ناتان . أنا أتحدث بجد .

– الشر ، أيتها الفتاة ، هو ما يفرق بين الناس ، مهما كان الأشرار متحدين . هذا بالمعنى الفلسفي .

– والإله ؟ وهل هناك إله إذن ؟ وإلى أين ينظر ؟

– إن أنظاره متجهة إلى الطريق الرئيسي ، وليس إلى تعرجات البشرية ومنحنياتها . هل تريدين أن تزيدي معارفي عمقاً يا فتاة ؟

– ولكن ربما يكون الحق في هذه التعرجات بالذات ؟ اسأل الله . يا ناتان ، أين أصبح الحب الآن ؟

– أتريدين بالمعنى الفلسفي ؟ حسناً . . .

– في أي معنى تريد . لقد جعلت كل شيء ضبابياً . تكلم على نحو بحيث يكون حديثك مفهوماً .

– اسمحي لي ، يا عزيزتي . أذكر رسماً كاريكاتورياً في مجلة « بليبوي » الأمريكية . أب مصعوق بالشهوة ، يجلس على الأريكة والسيجار بين أسنانه، وحوله ثلاث فتيات عاريات. والتوقيع: تقسيم العمل. فتاة تشعل له عود الثقاب ، وتقدمه له ليشعل السيجار ، وأخرى تثير هذا الخنزير السمين وتغريه ، أما الثالثة فمستلقية على الفراش بانتظاره . هنا ، أنا قادر على الفهم والحسد . قه ، قه ! أما بالنسبة للحقيقة أو الحق ، فالأفضل ، غالباً ، ألا يفهمك الناس . أنا أريدك – هل هذا مفهوم ؟ . . .

– أنت تسخر ؟

– سفيتا ، أرسلي هذا الماجن إلى الشيطان ! أنا مع حرية النقاش . لهذا ، لا تغضبي : لقد كدس أمامك أكواماً من الترهات ، لا يقدر

حصان على اجتيازها . على العكس : الإنسان يكون إنساناً فقط عندما يخاف الموت ، آنذاك فقط يعرف قيمته وقيمة الآخرين . وعظمة الإنسان في نقطة ضعفه هذه . لا يخاف الموت إلا الصفر ، الفراغ ، العدم !

ــ عاش الحكيم : عاش ، عاش ، عاش . . .

ــ هدوءاً أيتها العصابة ! اسمعوا ! ، اصغوا عندما يتكلم الكبار ! من قال « قيمة الآخرين » ؟ هندسة العمارة ؟ عار العصر ! يا المخزي ! درب الحمير الوعرة ! سفينتكا ، لا تصغي إلى قول هذين الاثنين . الشيء الوحيد الذي لا يزال له قيمة ، الذي لا يزال يجمع بين الناس ، هو الحب . وكل ما عدا ذلك لا يساوي نصف قرش .

ــ أي حب هذا ؟ الحب هو قدرة ؟ هو موهبة . وأنا ، قد لا تتوفر لدي هذه الموهبة من هذه الناحية .

ــ أجل ، أيها السادة ، لا يمكن فصل السخافة عن صديقنا فسيفولد ، تماماً كما لا يمكن فصل السبب عن النتيجة . غب ــ غب ، أنا أشرب نخب السبب والنتيجة .

ــ ارفع صوتك قليلاً ، يا دياس ، إنك تغمغم بشيء غير مسموع . . .

ــ أنا أقول : كل شيء في فن الواقعية الاشتراكية ينطلق من الفكرة ، أيها الشيخ ، أما اللون فهو مجرد وسيلة . اعتبر ، أنني أرسم نفسي ، لأنني أحترم فكرة اللون .

ــ وماذا عن تفاعل الألوان ؟

ــ أنني أحترم تفاعل الألوان الفضي .

ـ من ـ فسيفولد موهوب ؟ أم ناتان ؟ لا ، انهما كوكبان وليسا نجمين . النجوم ، شيء نادر يا صديقي .

ـ ولماذا كوكبان ؟

ـ لأن الكوكب يعكس ضوء غيره . . . ان من كان باستطاعته أن يصبح نجماً من بيننا هي ايرينا . بيد أنها لم تصبح كذلك ، لم يسعفها الحظ . أتعرف كيف تجري الأمور في الحياة ـ كل شيء بمحض المصادفة ، بصورة مفاجئة . فجأة ، أصيبت بتمزق الأوتار ، ومنعها الأطباء من الرقص عاماً كاملاً . فسيفولد ، اعمل على تنظيم الوضع ! الجميع يصرخون كالمجانين ، لا يستطيع المرء أن ينطق بكلمة . . . .

ـ هدوءاً ، أيتها العصابة ، سوف أفجر الشمبانيا من زجاجاتها ! نخب ! سكون مطلق ، عندما يتحدث الصحفيون العظام ، ليس لصوص الكلمة ، بل المناضلون من أجل الحقيقة !

ـ عزيزتنا إيرينا ، أروع النساء في عصرنا وأكثرهن موهبة ، نحن جميعاً موهون بك ، وأنا ، باسمنا جميعاً ، باسم أصدقائك ، أود أن أقول أنه يمكنك أن تصبحي ممثلة رائعة . . .

أما كريموف ، الذي لم يكن يعرف أحداً من الضيوف ، كريموف المذهول من الزحام حول المائدة ، ومن الصياح والقهقهة ، ومن مناقشات هذه المجموعة الشابة التي لا تعرف الخجل ، فقد كان يجلس على الأريكة في الظل ، لم يأكل شيئاً ، ولم يمس القدح الذي وضع أمامه ، مدركاً أنه هنا ، غريب . كان يدخن ، ويراقب خاصة إيرينا الواجمة . يراقب تبدلات وجهها الذي كان يغدو تبعاً لسير المناقشات . مرحاً

تارة ، ومغطى بسيماء الحيرة والذنب تارة أخرى . وعندما بدأ الشاب الطويل النحيل ، ذو النظارات ، « الصحفي العظيم وليس سارق الكلمة » ينطلق نخبه ، عبر وجهها عن الألم والمعاناة . سحبت إيرينا سيجارة من علبة سجاير كريموف ، وأشعلتها بقداحته ، ثم أطفأتها على الفور في صحن السيجارة ، ورفعت عينيها إلى الشاب ذي النظارات ، وهي تقول بحزن :

– عزيزي ، عم تتحدث ؟ كل هذا بعيد عن الحقيقة ، كل هذا كلمات ، كلمات تسبب لي الخجل . . . وستشعر بالخجل أنت أيضاً . – وانفرجت زاويتا شفتيها عن ابتسامة شبه حزينة – عموماً ، كل ما قلتموه بعيد جداً . . . وكله غير صحيح ، ولا لزوم له ، إنه كلام زائد . ونحن نكذب على أنفسنا . . . لقد نسينا من نحن على حقيقتنا . نحن أجزاء دقيقة من الأرض ، أجزاء صغيرة . . . لا أكثر . ولم نعد نحبها ، لأننا نحب أنفسنا . أصدقائي أنتم تحبون أنفسكم فقط . . . وأنا لست بأحسن منكم ، أنا مثلكم ، لكنني لا أريد الكذب ، لا أريد الخداع ، لا أريد الكلمات ، أريد أن أحب الأرض . . .

– من تحب ، هذه الشيطانة ؟ – هدر صوت الممثل الشبيه ببوق أريحا – إيرا ، أنت خنتنا ، لقد خدعتنا أيتها الكافرة !

قالت إيرينا بصوت مرتجف :

– لم أخدع أحداً ، أريد أن أحب السماء ، الأرض . . . وربما بعد ذلك ، أحبكم جميعاً . السماء ، الأرض ، والأفق بالطبع ، – كررت إيرينا بسذاجة حماسية ، جعلتها مستقلة أمامهم ، ومجردة من السلاح . – أجل ، أنا أحب الأفق .

– أين ترين الأفق ، ايرينشكا ؟ كلما اقتربنا أكثر من الأفق ، كلما أصبح أبعد عنا . وحتى في الحب لن تلحقي به . على أي نحو ، أيتها الشيطانة ، تريدين أن تحبي الأفق ؟ حالة غير طبيعية ! نزوات فتاة أمازونية ! حالة شاذة !

– فليكن كذلك . أنا أريد ، – أومأت برأسها بابتسامتها الصغيرة الغامضة التي لا تكاد ترى ، وارتقت الطاولة ، وقالت بوضوح وبصورة مستقلة كما في السابق : – إلى اللقاء ، لقد انتهى عيد ميلادي . لم أخن أحداً . بعد أسبوع ، يمكنكم أن تأتوا لعندي في أي ساعة من ساعات الليل والنهار .

بعد أن انسحب الضيوف ، وأغلق الباب من وراء آخرهم ، وسكنت الأصوات في الشارع ، بقيت تنتظر في المدخل ، غارقة في تأملاتها ، ثم أطفأت النور ، وتوقفت أمام النافذة وقد تراءى ظلها عاتماً قليلاً . وأزاحت الستارة – هناك خلف الزجاج ، في الظلمة العاصفة فوق زاموسكفوريتشي ، في البرد الجليدي ، كانت تسطع النجوم الشتوية .

– كم هم غرباء كلهم – قالت ايرينا – اقترب وانظر – أضافت هامسة – كيف تلمع النجوم بصورة بديعة !

اقترب كريموف منها ، ومع شعوره من جديد بضعفها ، وبنبض مقاومتها العنيد ، الذي لم يكن يتوقعه مسبقاً ، فكر بأنها قادرة على الصمود أمام الناس ، بصلابة مرنة ، وغير مزعجة في الوقت نفسه .

– لم أفهم ، يا إيرينا ، من هم الغرباء ؟ أصدقاؤك ؟

لم تجب إيرينا ، وارتسم على عينيها ضوء رطب سماوي ، منعكس من النجوم المتوهجة وسط الليل .

ـ هل من المعقول ، أننا جميعاً سنكون في الماضي ؟ كنا ، كنا نأمل ، كنا ننتظر . . . سقراط وتشيخوف أصبحا في الماضي . وكذلك سافو وآنا بافلوفنا . ومليارات من الناس الذين عاشوا . ونحن ، أنا وأنت سنصبح في الماضي . قل لي ، فياتشيسلاف أندريفيتش ، لماذا يفعل الناس ما لايجب فعله ؟ ألا يشعرون بذلك ؟

ـ إيرينا ، متى سيسمح لك بالرقص ـ سألها غير راغب في تأييد مزاجها . ـ وهل باستطاعتي تقديم مساعدة ما ؟ اعذريني على هذا السؤال اللجوج ، لكن بودي أن . . .

ـ سأحتمل ـ قالت بصرامة ـ ليست هناك حاجة لأية مساعدة . وإذا ما تحدثت ثانية عن المساعدة ، فسأغضب . . . رغم أنني لا أريد أن أغضب منك .

ـ شكراً .

ـ هل تعرف ، أن زوجتك امرأة فاتنة ، لا يمكن للمرء ألا يحبها ، ولا أريد أن أقول لك كلمات زائفة . وأنا لن أستطيع أن أكون زوجة ، ولن أكون ، يوماً ما ، عشيقة لرجل ما . إنها كلمة شنيعة ، مقرفة . . . سنبقى أصدقاء طالما لم يمل أحدنا الآخر . موافق ؟

ـ أنا موافق ـ أجاب بخضوع مرح وسألها ـ ماذا يريد أصدقاؤك ، إن لم يكن سراً ؟ هل أوضاعهم جيدة ؟ أم كلها سيئة ؟

ـ أوضاعهم كلها جيدة ، كما أعتقد . ولكن ، ما معنى جيدة . إنهم يعملون ويكسبون المال . غير أنهم جميعاً ، يعتبرون أنفسهم غير موفقين ، غير محظوظين . كانوا يحلمون بالمجد ، المجد العالمي . ألا

تلاحظ أن عدد الفاشلين ، سيئي الحظ ، المتغطرسين أصبح كبيراً في السنوات الأخيرة ؟ يبدو وكأن كل شيء عندهم على ما يرام . ومع ذلك فهناك شيء من عدم التطابق ، من التنافر . . .

-. التنافر مع ماذا ؟

-. مع الحياة . . . على الأصح ، كيف يمكنني التعبير . . . عدم تطابق الرغبات مع الحياة . . . لقد كنا نتوقع أكثر مما يجب . . .

— وماذا بالنسبة لك ؟

— وهل قلت شيئاً ؟ وأنت أيضاً تريد أن تشفق علي ؟

وأدارت وجهها نحوه ، ولاح شيء من ضوء النجوم على شعرها ، كانت عيناها منكستين إلى الأسفل ، وفي ثنية فمها ، تراءى له شيء عنيد ، ارادي ، طفولي . ولتأنيبه لنفسه على التدخل المفرط ، واشعوره بالخجل من فضوله نحو هذه الفتاة ذات العينين الخضراوين المتمردتين ، قال كريموف :

-. أعرف نقطة ضعفي -. أنا غير لبق ، وسمج ، كالميس .

— كل شيء له بداية ونهاية ، أليس كذلك ؟ قالت ايرينا — ولكن ، ليس هناك من يقدر على مساعدتي .

— لا أحد أبداً ؟

-. وأنت أيضاً غير قادر . أنا وحدي فقط . على أن أخاطب نفسي : «لا بأس ، سنناضل من جديد . . . »

ابتعدت عن النافذة ، وجلست على الأريكة ، ولم يكن باستطاعته تمييزها في الظلمة الا بصعوبة ، وبصورة مبهمة .

هذه الكلمة « سنناضل » لم تكن تطابق ابتسامتها الضعيفة ، لم تطابق الرقة الذابلة ليديها ورقبتها ، الرقة التي كانت تثير في نفسه أحياناً الشعور بالخطر ، الذي بدا له أنه كان يتهددها في أمسيات موسكو المتأخرة ، عندما كانت تعود لوحدها مساء إلى أوردينكا . وصور له خياله مداخل قاتمة ، وأشخاصاً مجهولين ذوي نظرات قاسية ، كالمجرمين القتلة ، يتربصون بها الدوائر في الزوايا والمنعطفات ، ورسمت له مخيلته وجهها الميت ، المطروح إلى الخلف ، وجسدها المغطى بالدماء ، الملقى على الأرض الاسمنتية في قبو رطب أسود ، مليء بالدخان . كان يشعر بوضوح كبير بضعفها أمام القوة البهيمية ، لدرجة أن هذه المشاهد المسرحية«الكارتونية»المشؤومة للكارثة المحتملة كانت ترغمه أحياناً على أن يتصل بها ، هاتفياً ، في الأمسيات ، لاجئاً في الوقت نفسه ، إلى سخريته المألوفة : « أردت أن أتأكد ، فيما إذا كنت تراعين الحمية أم لا » .

— وماذا في الأمر ؟ سوف نناضل — قال كريموف وجلس بالقرب منها على الديوان — واذا كان الأمر كذلك ، يا ايرينا ، فانني أقدم لك عرضاً رسمياً : أود أن تمثلي في فيلمي السينمائي . التصوير سيبدأ في الصيف . وأعترف لك : قبل عام رأيتك في باليه « جيزيل » ، وأقدمت على اختيار يصعب التراجع عنه . تعالي لنجرب ، ما رأيك ؟

— لا — همست ايرينا — لا أبداً . لا أريد أن أنسى الرقص .

في أوائل الربيع وافقت على هذا العرض . وحدث هذا قبل شهرين من موتها .

الفصـــل الـرابـع

أما ذلك اليوم الصيفي ، في ضواحي موسكو ، فلم يكشف س. ه كاملاً ، حتى بالنسبة له .

أمام الجسر الصغير ، القديم ، المصنوع من عيدان الخشب المتقلقلة ، وغير القادر على احتمال سيارة « الفولغا » ، أوقف السائق السيارة ، ومن هناك ، من الضفة كانت تطل من بعيد القباب المتخفضة والجدران البيضاء لدير « ستاري سباس » القديم . سارا في البداية على الطريق ، إلى جانب أحراش الجوز ، ثم مشيا عبر حقل أخضر من الذرة الصفراء ، حتى طرف الحوش ، حيث برزت على الرابية البلدة القديمة ، التي لا تزال عالقة بذاكرتها على الأغلب ، الأخفاف الليفية اللبية للمشاة العابرين ، والمشية المستكينة للرهبان الصامتين ، ووقع الأقدام العارية للمصلين البعيدين ، الذين يخلعون أحذيتهم على الطريق ، وآثار جزمات التجار ، ورقص جزمات فتيات القرى الجميلات ، والانهاك الوديع للآثمات ، القادمات إلى الدير من موسكو لتطهير نفوسهن . وعندما اقترب كريموف من الدير تصور يوماً حزيرانياً قائظاً ، والجباه الرائعة المتعرقة لآثمات العاصمة ، وجفونهن المنكسة المتواضعة ، وتنانيرهن المتغبرة بلون رمادي على طريق الاعتراف . لقد رأى كل هذا ، بصورة واقعية ،

وكأنه بالأمس كان يجلس هنا ، في ظل شجرة دردار على قارعة الطريق ، على الأرض التي تفوح بالرطوبة ، مصغياً إلى الخرير الناعس للساقية تحت الرابية .

كانت البلدة تؤدي ، عبر الحرش ، إلى هيكل غير مرتفع ، محاط بسور شبه مهدم . وفوق أشجار الزيزفون المتنامية ، كان يتوهج بسطوع صليب ذهبي في الزرقة العميقة ، ومع الهواء الدافيء ، المصبوغ بالحرارة المزهرة للأعشاب الجافة ، كانت تصل رائحة العفونة الرطبة - الرمادية لأشجار البتولا المقطوعة ، والمكومة على شكل أكداس في ساحة الدير .

أجل ، كان يظهر في كل شيء حر الصيف القائظ ، والسطوع ، وزرقة السماء ، والخضرة وكثافة الأوراق المبهجة. وشعر كريموف على نحو خاص ببريق عينيها الفتي ، وباستجابتها الحية غير العادية ، وفيما بعد ، عندما استعاد في ذاكرته ، أراد لسبب ما أن يتذكر بالتفصيل ، تلك الدقيقة ، بالقرب من الكنيسة ، عندما تأخرت قرب طنف الكنيسة ، حيث كانت تقف ، تحت ظل شجرة زيزفون ، عربة أطفال تركها أحدهم ، وقد رقد فيها توأمان رضيعان ، وقد تعرقا من شدة القيظ (أظن أن ايرينا قالت آنذاك : « يا لأنفيهما الصغيرين البديعين ، يا لهذين الوجهين المضحكين ! ») ، ونزل كريموف على الدرج من قيظ الظهيرة المبهر إلى ظلام الكنيسة الرطب ، حيث كانت امرأتان عجوزان ، وضعتا المنديل على رأسيهما ، تتساران ، وقد جلستا على مقعد قرب السور ، منحنيتي الرأس ، ترددان الصلاة ، وتمسحان أطراف شفاههما من فترة لأخرى على الطريقة القروية .

في كنيسة « ستاري سباس » كانت تفوح رطوبة الأرض الحجرية ، وتابع لوحات الفريسك بغباشة باهتة على الجدران وتحت القبة . وكان يسمع هديل الحمام في هدوء نعيم الصيف المنير ، وعلى ساحة الدير المغطى بالأعشاب . توقف كريموف أمام ايقونة العذراء ، التي تنظر في ضوء الشموع ، بعينين سماويتين إلى الأمور الدنيوية ، ولكنه استدار عندما سمع وقع الكعب العالي النسائي على الدرجات الحجرية الرنانة .
كانت فتحة المدخل مغطاة ، بسطوع ، بشمس النهار الحزيراني ، الذي كان يلحظ بصورة عذبة من قبو الكنيسة الحجرى . ورأى من خلال فتحة المدخل المغطاة بضوء الشمس القوي ، قوامها ، وتنورتها الخفيفة ، التي كان يخترقها من الخلف ضوء الشمس الذهبي ، ورأى درجات الغرانيت القديمة ، التي كانت تدوس عليها بمرونة ، متأرجحة بصورة خفيفة . لاحظ كريموف أن المرأتين العجوزين قد توقفتا عن الهمس وأدارتا رأسيهما بصورة مستنكرة تجاهها ، أما ايرينا فقد اقتربت من حائط الايقونات وحيتهما بنظرة بشوشة . وشعر كريموف بمرح وسرور ، لأن العجوزين قد استنكرتا شبابها ، وحريتها البريئة ، البشوشة التي اكتشفها هذا اليوم ، ونظرة القديسين والعذراء الحزينة ، وأضواء الشموع . لقد رأى عيني إيرينا المرفوعتين ، المنفصلتين عن وجهها ، في البريق الرطب العاتم ، وقمع في داخله رغبة طائشة بالابتسام لما (تدنيس المقدسات في المعبد) ، وقال مشيراً بايماءة إلى ايقونة على اليسار

— أنظري ، كيف رسم وجه القديس ألكسندر نيفسكي ، بطريقة عصرية

— أجل ، أجل ، بطريقة مدهشة — قالت إيرينا هامسة .

كان كل شيء ساكناً وهادئاً ، وفي الأعلى ، تحت القبة ، كانت طيور الحمام تئن في فتور عاشق ، وكانت تلمع في ضوء الشمس المروحي الأرض التي شطفت حديثاً ، المغطاة بالبلاط (وقد وضع دلو في الزاوية ، وكانت تجفف فوقه ممسحة) . ولم تكن وجوه القديسين المرسومة رسماً جيداً ، والبوابات القيصرية المفتوحة تحت القناطر المحلاة بالرسوم لتهدد بالتذكير بالإيمان المفقود ، بالآثام الغليظة ، باللغو الدنيوي ، ولم تثقل بالحزن . وكما في السابق ، شعر كريموف بالنقاء في روحه ، وكان من المستحسن جداً أن يشعر بشباب إيرينا الواضح في هذا الدير القديم ، المترع بهديل الحمام ، وهدوء الحقول .

بعد حوالي عشرين دقيقة ، خرجا من الكنيسة إلى الرابية الخضراء (بقايا البلدة القديمة) ، حيث كان يتلألأ ، في الأسفل ، في المنخفض الممتد ، نهر من المرايا المتكسرة ، مرغماً الزائر على تصور الشوارع والجدران لهذه البلدة الروسية التي كانت هنا ، على الجزيرة ، تحيطها المياه من جميع جهاتها ، بالقرب من الدير ، وعلى تصور الناس الذين كانوا يسيرون على هذه الطريق ، التي تمدها الشمس بالدفء والحرارة .

— انظر ، هذا هو القرنفل البري — قالت إيرينا واستلقت على الرابية ، وداعبت الأزهار على المرج براحة كفها بحنان ، ثم انقلبت على ظهرها ، وقالت بصوت ضعيف : — يا ليتني أستلقي هنا ، وأتأمل السماء طيلة الوقت . وهل كانت السماء هكذا دائماً يا ترى ؟ عندما لم نكن قد ظهرنا على هذا العالم ، وفي القرن الخامس ، وفي العاشر ؟ أية سعادة هذه : الشمس ، والسكينة ، والخطاطيف على قبة الأجراس . . .

— قرأت ، لا أذكر أين ، أنه حيث يوجد القرنفل البري تتواجد الثمار البرية أيضاً . . . . — قال كريموف ، وبعد أن ضحك ، أبعد نظره جانباً ، كي لا يرى ركبتيها .

خلع سترته ورماها على الأرض ، واستلقى على مقربة منها ، وعلى الفور ، دون أي عناء ، عثر إلى جانبه على توتة برية كبيرة ذابلة من أشعة الشمس ، فقطف ثمرتين منها مع الساق وقدمهما لإيرينا . فقالت : « أشكرك ، سنقتسمهما مناصفة » — وتابعت النظر إلى السماء ، وفصلت ثمرة بشفتيها بشرود ، وأعادت له الثمرة الثانية . كان يود لو يرى عصارة الثمرة على شفتيها ، لكنه لم يستطع أن يراها ، متذكراً من خلال قنوات الذاكرة اللاارادية ، حبيبة مارتن ايدن السامية ، البعيدة المنال ، والتي بدت له سهلة المنال في تلك اللحظة ، عندما لاحظ ، بنظرة أرضية ، دنيوية ، عصارة الكرز الحمراء على شفتيها . ابتسم ساخراً من نقيصته البريئة ، ومن عادته المهنية في المقابلة والمقارنة ، وشعر بحب غريب لكيفية فصلها الثمرة لنفسها بشفتيها ، تاركة الأخرى له ، وللرائحة البرية لهذه التوتة الذابلة .

— قل لي ، هل هناك في الدنيا إنسان حر مثل الهواء ؟ — سألته بصوت ناعم ، وكأنها تكرر كلمات من دور حفظته ، لكن هذه الكلمات لم تكن من دور البطلة .

— الإنسان يكون سعيداً ، عندما لا يعطي الوقت أية قيمة ، — أجاب كريموف بلهجة كسولة ، لهجة بطل معجب بذاته من سيناريو ، واتكأ على مرفقيه ، رانياً إلى وجهها المبتعد عن الأرض ، ورقبتها المقوسة الفتية ، ويديها الممدودتين على العشب .

— إذن ، إننا ، أنت وأنا ، لسنا سعداء — قالت إيرينا بيأس — في الماضي كان الناس يتوجهون إلى الأديرة والمذابح لتطهير أنفسهم . إنهم سعداء . . .

— لماذا لسنا سعداء ؟ ولماذا سعداء ؟

— لا أتحدث عن هذا ، — صححت إيرينا ، وقطبت حاجبيها — لن أستطيع تمثيل دور امرأة تلعن إنساناً ضعيفاً . يجب ألا تكون المسألة على هذا الشكل . إن زوجها جبان ، لقد خادعها ، لكنه لم يخنها وانفصل عنها . كان عليها أن تشفق عليه ، على هذا الفاشل العصري ، الأناني ، المتمركز حول ذاته . لكن ، قل لي ، هل هناك إله ؟ أنا أسأل جادة . —

— يبدو أنه ثمة انسجام كوني عالمي .

— فلماذا اذن ، يوجد الشر ؟ اشرح لي .

— الشجرة تنمو ، ترتفع إلى الأعلى — ماذا تبغي ؟ البرق ؟

— طبعاً لا .

— فهي اذن ، تبغي الجمال — تابع كريموف حديثه باقناع مازح — الجمال يساعد على الارتقاء إلى السماء ، نحو مالا يدرك ، أو على الأصح — الجمال سلم يربط الأرض بالسماء . أما الشر فينبت في الأرض .

— لا

— لماذا ؟

— أنت تقول الجمال . فما هو الجمال في آخر الأمر ؟ هل هو جمال التماثيل الإغريقي الكامل — إنه ملل لا يحتمل ، إنه سآمة فظيعة ،

إنه كآبة . هل هو الكلاسيكية المثالية — يا إلهي ، أي موت هذا ! لا ، الجمال ليس انعدام العيوب ، لا — قالت بحماسة . الجمال في ليونة الحركة . أنظر . . . — وقامت بحركة مرنة بكتفها وأسقطت يدها على العشب .

— الجمال هو مصيدة — قال متابعاً مزاحه — لمست فانصفقت وليس ثمة مخرج . .

— هذا هراء ، غير صحيح . ثمة مخرج دائماً .

— من هذه المصيدة ليس هناك من مخرج لأي كان . غير أنني أعمم بصورة خطيرة . هنا ، قد يكون الخلاص في الواقعية والسحرية الذاتية . والخوف من أن يكون المرء في وليمة غريبة . .

بعد أن أفاقت ، التفتت إليه (وغرق كريموف في العمق الشفاف الأخضر المصوب إلى عينيه بتأمل وتفكير) ، ولمست باصبعها حاجبيه وجفنيه ، وقالت غير فاهمة :

— إن وجهك قد لوحته الشمس ، وثمة تجاعيد شقراء حول عينيك . أنا بالمقارنة معك ، فتاة غبية ، أنت يمكنك حقاً أن تحوز على إعجاب النساء . ولكن لماذا تعتبرني فتاة غبية ، وتتحدث معي كما تتحدث مع تلميذة في الصف التاسع ؟ أظن أنك تابرسي ، منذ نصف عام من وجهة نظر المخرج السينمائي . قل لي صراحة ، هل أنا فعلاً عديمة الموهبة ؟

— إيرينا ، ماذا حل بك فجأة ؟

— إذن ، قل لي لماذا الناس قساة ولا يحبون الخير لبعضهم بعضاً ؟

— إيرينا ، ما الغرض من طرح هذه الأسئلة ؟

— ليس مهماً . لماذا أصبح التواضع الآن عيباً ونقيصة ؟

— ما هي المسألة ؟ إنني مرتبك وحائر . . .

— لماذا يثير الخير ، والطيبة والصراحة والصدق ابتسامة ساخرة ؟ وفي الوقت نفسه ، ينحني الناس إعجاباً أمام أنفه تقليعة دارجة ، أمام سراويل « الجينز » السخيفة ، أمام الموسيقى المربعة ، أمام نجمة أجنبية قصيرة الأمد . . .

— هل حدث لك شيء ما ؟

— أجبني ، فياتشيسلاف أندريفيتش ، إذا كنت لا تعتبرني راقصة غبية . كثيرون يعتقدون أن راقصات الباليه ، أو الراقصات كلهن غبيات تقريباً . . .

— بديهي ، لسْنَ كلهن — قال كريموف ، منزعجاً من تبدل مزاجها . — أتودين أن تعرفي رأيي ؟ نحن ، يا إيرينا ، نجعل الإنسان مثلاً أعلى ، بيد أنه ، بوعيه ، لم يتَنَسَّم إلى مستوى أمور كثيرة . ذات يوم ، دهشت كثيراً عندما علمت أن دماغنا يضم فقط اثنين ونصف ميليمتر من مادة التفكير السنجابية . . . ميليمتران تافهان فقط . . . يفصلاننا عن الحيوان . أما كل ما تبقى ، خمسة ميليمترات ، فكلها غرائز ، غرائز .

— أنت تتحدث معي ، من جديد ، كما تتحدث مع طفلة ، وليس بطريقة جدية كما أريد .

ـ أما إذا أردت الحديث الجادي ، يا إيرينا ، فالإنسان المعاصر ، الكائن العاقل المعاصر ، كثيراً ما ينقصه الفعل ، لأن عمل الخير صعب ومجهد دائماً . فقول الناس الحقيقة ، أحدهم للآخر ، يبدو أحياناً . قريباً من الغباء ، ولا يخلو أحياناً من الخطورة . لهذا اعتدنا نحن ، بدلاً من الفعل والعمل ، أن ندين الناس بسهولة كبيرة ، في حين علينا أن نكون قادرين على الصفح والتسامح . لسنا قادرين على أي شيء . . .

قطفت إيرينا حشيشة وعضت عليها بأسنانها .

ـ لقد تعرضت اليوم للإدانة . . . وبقسوة شديدة ـ قالت بهدوء ، وبصورة بدت وكأنها لامبالية ، بعد أن صمتت هنيهة . ـ اليوم ، صباحاً في الاستوديو ، سمعت حديثاً بالقرب من غرفة « المكياج » . كان هناك ممثلون ، وكانوا . . .

ـ من هم ؟

ـ إذا أخذت تسألني « من هم » ، فسأصمت ولن أنطق بكلمة .

ـ عفواً ، إيرينا ، ماذا حدث بالقرب من غرفة « المكياج » .

ـ لقد سمعت مصادفة : كانت ممثلة تقول ، وهي تتحدث عني : « لقد اختيرت لأداء الدور الرئيسي ، لأنها عشيقة كريموف . إنه ذو ذوق رفيع . ولكن هل ستصبح راقصة البالية الفاشلة ممثلة درامية ؟ » . لا أفهم ، علام يكرهونني إلى هذه الدرجة . وما هي الإساءة التي ارتكبتها بحقهم ؟ ومع ذلك ـ إنه شيء مقرف . . .

ـ أوف ، يا للنعامات الحسودات ! ـ شتم كريموف غير متمالك

نفسه . — انهن يمدحن ، بأكثر عبارات المديح فظاظة ، عديمة الموهبة فقط ، غير القادرة على منافستهن !

— أنت لا تحب الممثلين ؟

لقد اعتاد منذ زمن ، على المفاجآت في العلاقات بين أوساط الممثلين وعلى تبدل العواطف ، وعلى الاحترام البارد ، كما اعتاد على حسن نية المنافسين المفرطة ، وعلى المكر الدمث وابتسامة الارتياب اللاذعة . وألف صرخات السعادة المبالغة والزحام في العروض الأولى ، والابتهاج المؤثر ، الذي يعبرون عنه لزميل شهير أجاد عمله بصورة رائعة ، لمعبود الجماهير الحديث العهد ، فيسرعون لسبب غير مفهوم ، لتهنئته بجلبة ، متدافعين بمرافقهم في سرور وحبور (« موهوب ، عظيم ! ») . لقد تعود الحديث المتكلف للمشاهير المتبرمين ، والوقاحة المرحة المفرطة ، والمجاملة المتأنقة للممثل والممثلة ، اللذين يحتقر أحدهما الآخر ولا يكاد يطيقه ، والمضطرين رغم ذلك ، إلى الظهور على ساحة التصوير — بارادة المخرج — بمظهر العاشقين المتحابين — تعود كل ما يشكل وجود الممثلين وعملهم وعلاقته بهم ، وهم ، عموماً ، أناس وديعون ، صبورون ، وأحياناً سريعو التصديق بسذاجة ، مستعدون ، في لحظات التصفيق في العرض الأول ، لسكب الدموع الغزيرة أمام الشاشة ، تأثراً بتمثيلهم وتمثيل الآخرين . كما كان يعرف كريموف كيف يصيبهم ، بصورة مميتة ، سم الشهرة المسبقة في الأروقة ، التي صنعتها ألسن حسودة للمعبودين المشهورين السابقين ، أو أصحاب المواهب غير المعتبرين . وكان يعرف أيضاً ، أن دعوة إيرينا لأداء الدور الرئيسي واعتمادها له سيثير إشاعات قارصة ، لأنه كان يرى كيف كان

يراقبها بنظرة بالغة ، في أثناء التصوير السينمائي التجريبي ، المخرجون المعاونون ، وعاملوا الإضاءة ، والممثلون من مجموعات التصوير الأخرى ، الذين كانوا يدخلون إلى الجناح ، متظاهرين بأنهم يدخلون خطأ . وكان يستقبل وجهها الشاحب وابتسامتها شبه المذنبة والحزينة وخجلها في تلك الأثناء إما بسرور غير طبيعي . وإما بفتور لامبال مصطنع بصورة متقنة ، من جانب نجوم السينما . والممثلات المتطلعات باصرار إلى أداء الدور الرئيسي (« خذني أنا ، فياتشيسلاف أندريفيتش ، فدور البطلة يناسبني ») . غير أن هذا كله ، الذي كان يلحظه كريموف دون عناء ، لم يكن يثير قلقه أبداً ، وهو العارف جيداً بهذا الوسط — وسط التنافس الذي لا يهدأ ، والصخب الدائم حول مجد عابر . لاسيما إذا كان منتظراً ومتوقعاً : فتلك هي ، حسب رأيه ، طبيعة عمل الممثل ، بيد أن ، هذه المهنة ، لم تكن لتسمح بتجاوز أطر وحدود معينة ، وإذ كانت متقلبة وغير ثابتة ، وكان سم الغيرة يتوقف عن الفيض حالما يتقرر الدور ، وهنا يبدأ صمت وانتظار وتوقع ، يدل على أن الزمن هو حكم نزيه وسوف يكشف الحقيقة ، ويبرز العالم كله الخطأ المشين للمخرج ، الذي قام باختيار مزاجي ، غير مدروس ، مهيئاً بذلك الفشل لفيلمه . كان كريموف يسخر عادة ، من هذا الحلم البريء بالانتقام ، الذي يجب أن يحل بالمخرج الضال ، لكن حديث الممثلات السام أمام غرفة المكياج ، الذي دار بصورة مغرضة ، بحضور إيرينا قد أدهشه وأغاظه بروح الانتقام الجامحة عند النساء .

— يبدو ، أنه كان عليك أن تعرفي أنه يسيطر على الفن في مرحلة معينة ملكتان — قال كريموف بأسف — الأولى هي الحسد لنجاح

الآخرين ، والثانية هي الغيرة من امكاناتهم وقدراتهم . ولا يمكن لأية ثورات أخلاقية أن تحرم هاتين الملكتين من عرشهما . وفي نهاية الأمر ، ينتصر القادر على العمل . هذا كل شيء .

— على العمل ؟ أنا موافقة . على العمل فقط . ولكن أنظر ، من فضلك ، كيف يعمل الناس الفظيعون . والجميع في وقت واحد . البارحة استلمت رسالة . في البداية ، لم أرغب أن أحدثك عنها . ولكن ، في الاستوديو ، هناك من يكرهني ، ولا يقدر على احتمالي . بينما أنا طيبة مع الجميع . إنني لا أعرف المشاحنة والعداء . فلماذا هم يعادونني . وهل نسوا أنني لم أفق من المصيبة التي حلت بي . انني لم أرقص منذ ثمانية أشهر . . .

جلست إيرينا ، وهي تعض الحشيشة بين أسنانها . وأحنت جبينها نحو ركبتيها ، وجلست هكذا ، غارقة في أفكارها ، ثم نظرت إلى كريموف نظرة استفهام ، وأخرجت من حقيبتها مغلفاً مكرمشاً ، وقالت بصوت هش ضعيف :

— هذه هي . انني لو لم أعرضها لكنت على غير حق . ومما يخجلني أن الرسالة تمسك أنت أيضاً .

كانت هناك ورقة ، في المغلف ، كتب عليها بالآلة الكاتبة بضعة أسطر غير مستوية وغير منتظمة (يبدو أن كاتبتها لا تضرب على الآلة الكاتبة إلا نادراً) . وقرأ كريموف ماجاء في الورقة :

« إيرينا المحترمة !

— أعتذر لعدم معرفتي اسمك الكامل .

فاعلة خير لك تريد تحذيرك من أنك تتصرفين بصورة متهورة ، غير حذرة ، بل ، وبغطرسة وصلف . وعلاوة على أن الاستوديو كله على علم بعلاقتك غير الشريفة مع المخرج كريموف (انه ، بالنسبة لك ، أيتها العزيزة ، يصلح أن يكون أباً) ، فقد قمت باستغلال سحر شبابك النسائي ، وأرغمتيه على أن يخصك بالدور الرئيسي في الفيلم ، وهو عمل ليست لديك أية قدرة أو موهبة نحوه . فقد سبق أن أظهرت عجزك في البالية . صدقيني ، ان الفن ليس رسالتك ، وأن مهمتك هي الزواج السعيد ، وأن تكوني جميلة فاتنة لزوجك .

إيرينا ، أرجوك ، كوني رحيمة وعاقلة ، ابعدي عن الرجل الذي يحترمه الجميع ، ولا تقتلي زوجته ، المرأة الجديرة بكل احترام ، والتي يمكنك أن تقوديها إلى التهلكة .

أرجوك ، أرجوك ، عودي إلى رشدك !

« فاعلة خير لك ، ومحبتك » .

— طبعاً ، بدون توقيع ، — قال كريموف بجفاء — تذكار متواضع للحسد بصيغة رسالة . أنقذني ، أيها الرب الرحيم ، من محبي الخير لي ، ومن فاعلي الخير ، أما بالنسبة للأعداء ، فأنا بنفسي قادر على مواجهتهم . انها رسالة من مراسلة محترمة ، أعلى من أي مديح أو ثناء ، وتقتضي جواباً صريحاً وصادقاً للغاية يتألف من كلمتين : إلى الجحيم !

مزق الرسالة بحزم ، ورمى قطع الورق الصغيرة جانباً ، بيد أن لهجة المشاركة المزيفة في المعاناة ، والعذاب الشديد ، الصادرة عن هذه العبارات التي ضربتها يد غير خبيرة على الآلة الكاتبة ، وهذا الدفاع المرائي عن شرف أسرته ، كل هذا قد ترك جرحاً أليماً في نفسه .

« من هم هؤلاء الأصدقاء الذين لا يعرفون الشفقة ، ولا يسامحون أبداً ، لا الشباب ، ولا فرحة الآخرين ؟ » — فكر كريموف ، وقد فارقه ذلك المزاج الحي ، الذي شعر به في معبد الدير ، عندما نزلت إيرينا على الدرجات وكأنها قادمة من شعاع الشمس المنسكب .

— كم يكرهونني بلا شفقة — قالت إيرينا — ويكرهونك بسببي .

— أنا مخرج وقد تعودت كل شيء .

— أما أنا فلا أريد أن تحل عليك المصائب بسببي

— في السينما ، كي ينتصر المرء ، عليه أن يجتاز تسع حلقات من جحيم دانتي — قال كريموف بصورة مبتذلة — تصوري أنني حبيبك فيرجيلي ، وأنني أقودك عبر هذه الحلقات والدوائر بصورة آمنة ، وأن أسوار أريحا ستسقط . إنني أثق بك ، بنجاحك . وأعترف بأنني فكرت طويلاً ، أنت ستكوني قادرة على كل شيء .

— لا — قالت إيرينا — لا ، لن تسقط أسوار أريحا .

— لماذا ؟

أحاطت إيرينا ركبتيها بيديها ، ووضعت ذقنها عليهما ، وهي تراقب غيمة تشبه الجبل ، ذات أطراف رمادية محروقة ، تحركت من وراء الغابة إلى الضفة الأخرى ، حيث كان كل شيء يلمع بقوة ، في كل مكان ، خلف ومضات النهر النارية ، ويتدفق كل شيء في الحر من تمازج الأعشاب الخضراء المبرقشة ، وبقع النور ، وظل شجرة الجوز الكثيف ، والهدوء الناعس للمراعي الدافئة .

— لا — قالت إيرينا وقد ظهر تجعيد صارم على جبينها — أنت لم تخبرني أبداً — هل تعلم زوجتك بوجودي في هذه الدنيا ؟

— عنك ، زوجتي لا تعلم شيئاً إطلاقاً .

— فياتشيسلاف أندريفيتش ، كل شيء مترابط في هذا العالم ، أليس كذلك ؟

— كل شيء ، أو تقريباً كل شيء .

— حسناً — مدت إيرينا يدها — ساعدني على النهوض .

« إنها تخشى أن تنهض بصورة غير مريحة ، هل تذكرت إصابة أنسجتها ، وهل الآن بالذات تذكرت إصابتها ؟ » .

وضغط على أصابعها الهشة قليلاً ، ورفعها برفق من الأرض ، فاستقامت ومست تنورتها قدميه ، ثم تراجعت بسرعة خطوة إلى الوراء ، وحاجباها يرتجفان بألم ، ثم أغلقت عينيها المبتسمتين بصورة غير مألوفة .

— إيرينا ، ماذا بك ؟

— اعذرني . . . لن أمثل في الفيلم ، — قالت إيرينا — سامحني لأنني أضعك في موقف حرج ، وأنسف خطتك . لقد كنت أعرف أن نهايتي ستكون وخيمة . أنا مذنبة ، مذنبة ، مذنبة . تجاه زوجتك الطاهرة ، تجاه هؤلاء الفتيات الممثلات ، تجاهك ، تجاه الفيلم . سأرحل إلى مدينة ريغا ، إلى عند والدي . ذلك أفضل للجميع . لا ، أرجوك ، لا تقل شيئاً — بادرته عندما شعرت بأنه يستعد لمقاطعتها ، وكررت بابتسامة غير مفهومة ، وهي تفتح عينيها الكبيرتين ، المليئتين بالدموع ،

بدلال : — أنا أعرف ما ستقوله ، لكنني لن أغير رأيي . هذا ما يجب . سامحني . . .

كانت الكلمات التي يرميها أحدهم أحياناً ، بصورة عرضية ، تجعله يتقلب في فراشه أرقاً ، وتجعله ينام نوماً سيئاً — وكان كريموف يدعو هذا وسوسة زائدة ، عصاب القرن العشرين . بيد أن ما قالته له إيرينا لم يكن من الممكن التخفيف من عبئه لا بالسخرية ، ولا بالمزاح — وهو السلاح المهدىء الذي يطمئنه ويسهل عليه العيش . نظر كريموف إلى عينيها المتسعتين بدلال (« لماذا ؟ ») ، المغرورقتين بالدموع ، وسيطر عليه ارتباك لم يشعر بمثله منذ زمن طويل ، سيطر عليه ألم جديد أمام تراجعها الخنوع ، أمام سذاجتها الضعيفة ، التي لم يلقى مثلها في السنوات الأخيرة ، لدرجة أن دلالها القسري الآن ، والمؤسف ، ودموعها التي لم تسقط على خديها ، بدت له مؤلمة معذبة . وفارق كريموف المزاج الحسن في هذا اليوم الحزيراني الجميل ، نهائياً ، وأدرك أن جميع خططه للتصوير في شهر آب قد ذهبت أدراج الرياح . وتصور سفرها إلى مدينة ريغا ، من حيث أنها لا تزال حالة لا إرادية لفعل لم ينته ، ورغم أنه لم يكن هناك من مخرج آخر ، فقد قال أخيراً الجملة الوحيدة ، التي هيهات أن تنقذ شيئاً :

— لا تفعلي هذا ، يا إيرينا .

— شكراً . سأفعله . لقد قررت — قالت وهي تنظر عابسة بحذر مذنب ، وسارت إلى الأسفل على الممر الضيق نحو النهر ، متمايلة قليلاً عند خصرها ، إنها الإنسانة التي لم يكشف سرها ، ولم يعرفها .

فيما بعد ، عندما أخذ يتذكر ما حدث بعد ذلك ، كان يحاول التفكير

بعجز ، أنه كان في ذلك اليوم حذراً ، غبياً ، بليداً بصورة لا تغتفر وبأنانية ، وفي هذه الفترة خيم عليهما الجنون بجناحه الأسود ، على تلك الرابية بالقرب من دير « ستاري سباس » .

وخيل إليه ، أنه عندما نزلا إلى النهر الذي صهره القيظ ، كان ثمة جنون ما ، غير هادف ، في الشمس ذاتها ، التي كانت تضغط ، وترهق بصورة لافحة محرقة ، وهي ترتفع إلى قبة السماء ، أما الغيمة المتكاثفة إلى درجة السواد ، فقد كانت تتقدم ، وتتقدم من وراء الغابة ، وتتسع بجموح ، وتتصاعد من أطرافها ، وتمتد إلى السمت ، مغطية الشمس من الجانب بسواد قاتم ؛ ولهذا التمع دير العذارى في أعلى الرابية بلون أبيض بصورة مذهلة . وشعر كريموف بالاختناق ، وكان الجو على الضفة مفعماً بالحرارة والرطوبة ، ثم ركضت موجتان قاتمتان على ماء النهر ، وجرت معها رطوبة عذبة ، حتى أن كريموف لهث وتقطعت أنفاسه من صوت الرعد الشبيه بقصف المدفعية في السماء . ومن حبات المطر الكبيرة التي أخذت تضربه على وجهه ، ورأى بصورة ضبابية كيف اندمجت الضفة المقابلة والنهر والسماء في ظلام زمهريري متلألىء .

ـ آه ، المطر كيف ينقر ، كيف ينهمر ـ سمع كريموف صوتها من خلال صوت انهمار المطر ـ آه ، يا للروعة ، كم هو رائع الاستحمام الآن في النهر !

كانا يقفان تحت الجسر ، المحاط بسيلان المطر ، الذي كان يرن فوق رأسيهما ، وهو ينصب على الحديد بين القواطع ، وقد أدهشته عبارة « المطر ينقر ، ينهمر » ، التي حضرت إلى ذهنها في تلك اللحظة

من سنوات الطفولة ، بيد أن شيئاً آخر ، بلا معنى أيضاً ، شيئاً مجنوناً ، غير لازم ، أدهشه أكثر . كانت تتكلم بسرعة : « أدر ظهرك ، لا تنظر » — وخلعت على عجل « البلوزة » التي تبللت بالمطر ، والتنورة ، وأخرجت رجليها من الحذاء ، وركضت في « المايوه » إلى الجسر ، ناظرة إليه من خلال شعرها المسدل على وجنتيها ، وقالت ، وهي تستدعيه بحركة من يدها : « اتبعني ، اتبعني ، اتبعني ! . . . » .

لماذا لم يدرك كريموف ، لم يفهم آنذاك ، لماذا صعدت إلى الجسر ، ولماذا لم يوقفها ؟ (« وهكذا لم يتمكن من تحذيرها وإيقافها . . . ») . كان الندم متأخراً ، وكان يؤلمه في قلبه كالسم ، بيد أنه لم يكن هناك من يبرر موقفه أمامه ، وكان من غير الممكن تغيير أي شيء .

ومع ذلك ، لم يكن يتصور بوضوح في شعوره ، الدقائق الأخيرة من حياتها على الأرض ، دقائق يأسها وقنوطها أو فرحتها قبل ذلك المطر المجنون ، عندما صعدت إلى الجسر .

* * *

كان رأسها يرقد على كتفه ، وكان يلعن كل رجة من رجات السيارة ، عندما كان شعرها الرطب ، المتلاصق مثل شعر الأطفال ، يمس وجنتيه . كم كان وجهها قريباً منه ، وجهها ، الذي تفوح منه برودة الأرض ، وجهها الذي لم يعد دنيوياً ، حياً ، وقد سالت الأصباغ على رموشها شبه المغلقة ، شعر بوضوح كامل ، أنه لا مفر أمامه من هذا الرعب كله ، من هذا الذي لا يمكن تصوره وإدراكه ، من هذا الذي أصابها قبل ساعة (هاهي الآن ترقد في ثوب السباحة المبلل ، ترقد بلا حول ولا قوة ، يهتز رأسها على كتفه من ارتجاج السيارة ، وهذا كان الشيء الأخير الذي جمع بينهما) ، بحيث كان يبدو له ،

وكأنه في اللاوعي ، كان يرجو أحداً ما ، بأن يشفق عليها ، بأن ينقذها ، لكنه لم يذكر بعد ذلك كلمة واحدة ، لكنه يذكر بصورة غامضة ، مبهمة ، كيف استدار السائق نحوه — فجأة ظهرت أمامه عيناها ، وقد أضناهما الخوف ، وفمها المفتوح مثل فم السمكة ، وانبجاس الدم المتدفق من أنفها . . . وتلوح في ذاكرته ، كالظل ، تلك الدقائق الرهيبة المرعبة ، عندما أخرج إيرينا من الماء وتوجه بسرعة نحو السيارة التي كان قد تركها وراء الجسر ولم يعثر عليها . . . في حالة من اللاوعي كانت لا تزال تتنفس في تلك الثواني ، وكان هو يروح ويجيء على طول الضفة ، كان يصرخ ، ينادي ، يشتم بشتائم مجنونة على أمل واحد ، أن السائق لا يمكنه أن يتأخر طويلاً . لكن السيارة لم تعد إلا بعد أربعين دقيقة ، وكان مستعداً للاقدام على المستحيل ، عندما رأى فجأة وجه السائق الممتلىء ، الناضح بالعرق ، فلم يتمالك نفسه ، ولم يكبح غيظه وحنقه .

كان المستشفى في بلدة ريفية ، وقد قطعت بهم السيارة خمسين كيلومتراً على السكة الزراعية السيئة ، في الهذيان الجحيمي السابق للموت : كانت العاصفة كما يبدو ، تمر فوق الطريق ، وقد التمع شيء ما أخضر اللون ، حار مبلل في وابل الأمطار ، في الضجة ، وفي الهدير خلف زجاج السيارة . كان يئن ، ويضغط بشدة على أسنانه ، وشعر من جديد بملمس رأسها المفارق الحياة ، الخائر على كتفه ، شعر من جديد بصمتها الذي فارق الأمل . . .

فتشا طويلاً في البلدة عن المستشفى ، وكانت الطرق في كل مكان محفورة بخنادق الغاز ، وأخيراً انتهى هذا العذاب كله . وتوقفا تحت

أشجار الحور في الحديقة عند مدخل المستشفى . كيف نزل من السيارة ، تاركاً إيرينا وحدها على المقعد الخلفي ، ودخل إلى بهو المستشفى ، إلى الغور المعتم ، حيث تراءت أمامه وجوه غريبة ، وكيف صعد إلى الطابق الثاني ، الذي تفوح منه روائح بشرية فاسدة ، حيث انتشرت أسرة المرضى في الممر بكامله ، وكيف فتح الباب إلى عيادة الجراح — كل هذا كان يذكره بصورة ضبابية ، مبهمة . في تلك الدقائق ، كان يتكرر أمام ناظريه مشهد واحد ، بقي راسخاً في شعوره إلى الأبد : هاهي قد نهضت إلى سور الجسر ، وكانت ترى من خلال المطر المنهمر ، وقد ظهرت في « المايوه » ، ووضعت يديها فوق رأسها ، وبعد أن صرخت داعية إياه ليتبعها ، التوت برشاقة وانسجام وقفزت إلى الماء .

ثم أخذ ينتظر أن يدعوه . كان يقف على عتبة الباب ، يدخن سيجارة إثر أخرى ، دون أن يكمل واحدة منها ، ويمسح حنجرته المنقبضة ، دون أن يفهم جيداً ، لماذا كانت الشمس ، بفرحتها الصيفية ، تلمع في البرك والغدران ، وتنعكس بصورة منعشة وبهيجة على الأوراق الثقيلة في الحديقة المبللة ، وعلى النباتات الطفيلية الرطبة ، وعلى العشب النظيف المغسول ، ولماذا كانت القطرات الثقيلة تتساقط ، بصورة مسموعة ، من السطح إلى الدلو المدهون ، الممتليء بالماء ، ولماذا كانت البقع البللورية تهتز مترنحة ثم تقفز على عتبة الباب ، وكانت إيرينا هناك في الطابق الثاني ، ترقد على السرير المتحرك في « المايوه » ، وقد ألقت رأسها بشعرها الأشقر المبلل ، برموشها الجامدة شبه المغلقة ، التي لم يجف من تحتها الكحل والأصباغ ، كانت ترقد في غرفة بيضاء ، ظيفة ، معقمة ، حيث لم يعد هناك أي أمل .

الفصل الخامس

كانت غرف مجموعة التصوير ، التي ألقى كريموف نظرة عليها ، خالية من الناس . وقد أحمت الشمس ، قبيل الظهيرة ، الأرضية الخشبية فيها ، وفاحت منها رائحة التنجيد المغبر للأرائك القديمة ، كما في المتحف . ووصلت إلى أذنيه من مكتب مدير الانتاج أصوات طرق سريعة ، وماكاد يفتح الباب حتى أصم أذنيه طرق الآلة الكاتبة ، وهب تيار من الهواء ، وتحركت الأوراق على الطاولة مقابل النافذة المفتوحة ، حيث كانت ضاربة الآلة الكاتبة ، الشابة ، تقلب بكفها حزم الورق ، ونظرت إلى كريموف بارتباك وذهول .

— لِوَحده ؟ — سأل كريموف ودفع الباب المؤدي إلى الغرفة الداخلية ، حيث سمع منها صوت خافت مثل صوت خرير الماء في الجدول .

مدير الإنتاج تيرنتي سيميونوفيتش مولوتشكوف ، رجل قصير القامة ، نحيف الجسم ، له وجه نشيط وديع ، ينشر الاهتمام والاحترام على الجميع ، كان ينهي حديثه على الهاتف ، وقال في الختام بلطف « التهاني متبادلة » — وبعد أن وضع السماعة ، نهض برشاقة ، وارتمى معانقاً كريموف ، معبراً عن اهتمامه ، واستعداده العاجل .

— فياتشيسلاف أندريفيتش ، كم أنا مسرور لرؤيتك ! أهنؤك بسلامة الوصول ، وبالفوز ، لقد كنا ننتظرك على أحر من الجمر ، نهنؤك ، من القلب ، من الأعماق ! . . .

وأثناء قوله هذا ، لمس بشفتيه مكاناً ما بالقرب من ذقن كريموف ، وتألقت عينا مولوتشكوف الشفافتان بالخلاص وسعادة هاو سينمائي ومعجب ، أسعفه الحظ بالاقتراب من نجمه ، ومن معبوده .

— مرحباً تيرنتي ، — قال كريموف دون اهتمام ، مقترباً من المنضدة الصغيرة وساكباً من الزجاجة الشفافة ماء غازياً ، طرطش في الكوب وقرقع . — أيها المتملق ، احفظ عن ظهر قلب ، أرجوك ، وهذه ليست المرة الأولى ، الرهيبون حقاً ليسوا أولئك الصقور الذين يلتهمون الجيفة ، بل هم أولئك الذين يأكلون الناس أحياء بتزلفهم وتملقهم . لن تأكلني يا تيرنتي ، ولن أقع في مصيدة صيحات تعجبك ، فليأخذك الشيطان ! مرحباً ، اطمئن ، وحدثني ، كيف تجري الأمور في مجموعة التصوير .

— يا إلهي ، ومن يقدر على أكلك ، فياتشيسلاف أندريفيتش ! — ورفع مولوتشكوف يديه إلى السقف بامتعاض شديد ، بحيث انحدر كما سترته الحريرية إلى المرفقين . — ومن يمكنه أن يزعجك ، أو يزعلك ، وأنت صامد كالطود ! آه ، فياتشيسلاف أندريفيتش ، أنت تحب نفسك وتقدرها بصورة سيئة . . . !

— كن هادئاً ، ولا حاجة للكلام الفارغ — قاطعه كريموف ، ورشف قليلاً من الكوب ، الناضح بالفقاقيع التي تبرد الحنجرة وكأنها

إبر جليدية . ـ أعتقد ، أنك على علم بالأمور ، أليس كذلك ! يبدو أنني لن أصور هذا الفيلم . . . .

ـ كيف ؟ على أي أساس ؟ وكيف يمكن ذلك ؟ ـ صاح مولوتشكوف مذعوراً ، وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، هازاً أطراف سترته العريضة على كتفيه ، ومارآً بسرواله الضيق المكرمش . ـ من أين أتيت بهذا الخبر ؟ من باريس نفسها ؟ إنك تقتلني بدون سكين ، إنك تضعني في موقف حرج للغاية !

ـ اجلس ، تيرنتي ، وتوقف عن الركض مثل النعامة . إنه يثير الأعصاب . تعال نتحادث .

جلس مولوتشكوف على الأريكة بانتظار مذعن ، وشعر مسبقاً بالخوف ، فأخذ يرف بعينيه الصفراوين المدورتين .

ـ إنك تقتلني بدون سكين . إنك تصعقني حقاً .

ـ اسمع يا تيرنتي ـ قال كريموف وشرب ما في الكوب من ماء معدني بجرعات بطيئة . ـ لن أصور الفيلم . على أية حال ، سأقول لك بصراحة ، ـ أضاف كريموف بصوت مختنق من برودة الماء المعدني ـ كان علي ألا أضع يدي على هذا الفيلم . إنني ، ببساطة ، لا أفهم يا تيرنتي ، ماهي الشبيبة المعاصرة ، وما هو حبها العصري .

ـ ألا تخشى الحقيقة ـ الأم ، فياتشيسلاف أندريفيتش !

ـ أجل، أخشاها ، بيد أن هذا واقع . على كل امرىء أن يعرف قدراته .

وجلس على رف النافذة ، مديراً جنبه لمولوتشكوف - كانت تتدفق من النافذة حرارة أوراق أشجار الحور .

أمسك مولوتشكوف برأسه ، وصاح بصوت عال :

- أنا أحزر السبب الذي يدعوك إلى هذا القول ! في هذه المسألة ، ليس عليك أي ذنب ، وإذا كان هناك من لا يدرك ذلك ، فان هذه المسألة ستزول سريعاً ، فياتشيسلاف أندريفيتش . لقد استدعوني قبل أسبوع إلى الدائرة . . . أو دعيت للمحادثة . . . طرحوا علي أسئلة حول علاقتك بالممثلة ايرينا سكفورتسوفا . وهكذا ينتج ، أنه لن يمنعهم أحد من التنقيب عن بواطن الأمور ، طالما أن المسألة تتعلق بوفاة إنسان في ظروف غامضة . . .

- في ظروف غامضة ؟ - سأل كريموف مبتعداً عن رف النافذة ، وسار في أنحاء الغرفة - لمن هذه الظروف غامضة ؟ غامضة بالنسبة لك أم للمحقق ، الذي كان يسألك ؟ . بناء على طلب المحقق ، كنت قد عرضت ، قبل سفري إلى المهرجان ، جميع ظروف الحادث كتابياً . وأنا كنت الشاهد الوحيد . . . الوحيد ، ولا يمكن لأي كان أن يضيف أي شيء . لا بالابانوف ولا أنت . لم يكن هناك أي مغزى من استدعائك- أو كما يقال هناك - لدعوتك للمحادثة .

- لم نستدعا نحن الاثنان فقط . أنا أعرف أن السائق غولين قد استدعي أيضاً . كان يجب ألا ترتبط معه ، إنه إنسان جاهل من رأسه حتى أخمص قدميه . - أضاف مولوتشكوف باستياء وسخط - إنني لا أفهم أبداً : هل من المعقول أنهم لا يثقون بك ؟

— في هذا العالم كل شيء محتمل .

— سيأتي لعندي الآن السائق غولين ، — قال مولوتشكوف ، ثم أضاف بصوت خافت — ألا تريد أن تتحدث معه ؟

— ليست لدي رغبة .

— إنه ذو اتجاه غبي للغاية ، عدواني ، ويمكن القول ، أنه ينوي رفع دعوى عليك إلى المحكمة . أوف ، كان لا حاجة لك إلى ذلك ، كان عليك ألا تصطدم مع هذا الغبي . ياإلهي ، لقد تذكرتك عندما كنت ضابطاً ، وشعرت برعب حقيقي . . . رغم أنه قد مر على ذلك خمسة وثلاثون عاماً . وهنا تخاطر ، فياتشيسلاف أندريفيتش ، إنك تخاطر من جديد بجرأتك .

— ماذا كان علي ألا أفعل ، ماذا قلت ؟

— كان عليك ألا تضرب هذا الحثالة ، هذا السكير ، جامع الروبلات ، كما أصبح معروفاً . إنني قلق عليك ، فياتشيسلاف أندريفيتش . ربما تكون صحتك وأعصابك ، عندي أغلى شيء في الدنيا . فنحن هنا ، في مجموعة التصوير ، بدونك مثل الكلاب العمياء ، أو مثل الأيتام . وأنا بدونك — صفر ، لا أحد ، مخطة من فورونيج ، أرتدي مزالق الغير . لهذا ، أشعر في أعماق نفسي بالحزن والألم . فياتشيسلاف آندريفيتش ، أنا أتألم جداً ، عندما يمسّك أحد بكتفه . . .

— لقد أردت أن أقول لك ، منذ مدة طويلة ، يا تيرنتي — قاطعه كريموف ساخطاً — كان عليك منذ زمن طويل ، أن تدع عواطف

الرجولة جانباً ، في شؤون العمل . قل لي ، أيها المدير ، لماذا ، ومن أجل أي شيء تتزلف إلي ؟

— إنك تسيء إلي . أنا احترمك جداً ، فياتشيسلاف أندريفيتش — قال مولوتشكوف غاضاً طرفه بهيام ، إنني لا أنسى حتى الموت ما فعلته من أجلي . أنا مدين لك بكل شيء ، وزوجتي ممتنة لك كثيراً . . .

— إنك تضعني في موقف حرج — قال كريموف متهيجاً ، مدركاً باشمئزاز ، أنه لا يتمالك نفسه ، سامحاً لنفسه باظهار نقطة ضعفه السابقة في سنوات شبابه ، التي يدينها هو نفسه ، وهي النزق وسرعة الغضب — إن دور المحسن والممتن — مفهوم عتيق في عصرنا ! — قال كريموف دون أن يقدر على كبت هياجه . — رغم أننا لم نكن أصدقاء في الحرب ، لكننا مع ذلك ، حاربنا معاً فترة من الوقت . وعلاقاتنا يجب أن تكون علاقات الند للند . اطمئن ، اهدأ ، يا تيرنتي ، أنت لست مديناً لي بشيء ! لاسيما أننا لن نكون أصدقاء في يوم من الأيام . . .

« لماذا أتحدث بهذه الفظاظة والصراحة ؟ وما الذي يدفعني إلى هذا القول ؟ » .

— كان بودي ذلك . . . كنت أحلم ، لولا أنك يا فياتشيسلاف أندريفيتش . . . بعيد — قال مولوتشكوف وحرك يديه بصورة دائرية ووضعهما على ركبتيه . — ولماذا أحلم ؟ لقد عملت الكثير من أجلي ، وأنا لا أطيق الخنازير الخسيسة ، ناكري المعروف والفضل . أنت طائر عالي التحليق ، أما أنا ، من أنا . . . أنا من قرية حقيرة ، من أوساخ المستنقعات برزت وأصبحت أميراً . تلقيت تعليمي في الدورات . وتعلمت الحساب جيداً . أما بالمقارنة معك ، فأنا بايد جاهل — وضرب

مولوتشكوف جبينه بقبضة يده ذات العروق البارزة . — رغم أنني أنهيت دورات الإداريين . في الحرب كنت غبياً ، وبقيت غبياً بعدها . إلى أن التقيتك ، يا فياتشيسلاف أندريفيتش . . .

— إن إهانة الذات أسوأ من الافتخار — قال كريموف — لقد فعلت من أجلك ليس أكثر مما يمكن أن يفعله إنسان آخر . حسناً ، يا تيرنتي ، اجعل نفسك دائماً ، عبداً ممتناً شاكراً ، وأنا سأقوم بدور المحسن ، وأتلذذ باهانتك الفخورة لذاتك .

« غير أنه يشبه الصرصور . هاهو جالس على الديوان ، ماداً رقبته ، متوتراً ، وقد وضع يديه على ركبتيه ؛ وعيناه طافحتان بالولاء المداهن المتملق ، هاهو ذا يستعد للقفز ومعانقتي ، بالرغم من صراحتي الفظة . . . » .

— أخشى يا تيرنتي ، أن تمل يوماً ما من كونك عبداً شكوراً . . .

« ما الذي يدفعني إلى قول مثل هذه السخافة ؟ »

— أبداً . أنت تسيء إليّ أشد الإساءة — اعترض مولوتشكوف باخلاص ، وضيق عينيه في ذهول المدين ، وقال متنهداً من حنجرته : — فلتحل علي لعنة سونيا آنذاك ، ولأموت .

« يموت من أجلي ؟ لعنة سونيا ؟ أم أنه مجنون ؟ » ، سأله كريموف :

— سونيا ؟

— زوجتي سونيا ، صوفيا بافلوفنا ، — أوضح مولوتشكوف بسرعة — إنها تعشقك ، إنها تعبدك . إنها تحفظ جميع أفلامك عن ظهر قلب .

آه ، أجل ، لقد أصبحت صوفيا بافاوفنا ، مؤخراً ، زوجة مولوتشكوف الذي عاش طويلاً في وحدته . وعشية الزواج قام مولوتشكوف ، الثمل من السعادة ، باصطحابها إلى منزل كريموف أولاً ، ثم إلى الاستوديو ، وقدم زوجته المقبلة بفخر واعتزاز إلى مجموعة التصوير . من حيث المهنة ، كانت صوفيا بافاوفنا ، معلمة الغناء ، وقد ذهل كريموف من رجليها القويتين السمينتين (الدالتين على المنحى الاقتصادي لعقلها) ، واتساع كتفيها الرجولي ، وامتلاء صدرها ، ومن صوتها الجهوري العميق ، عندما غنت ، دون حياء ، بناء على طلب الخطيب المغتبط ، وهي تضرب الأرض بقدميها ، أغنية سولفيج ، بمصاحبة مهندس التسجيل الصوتي ، الذي دعي إلى العزف على البيانو في غرفة الممثلين .

— آه ، أجل ، — قال كريموف متذكراً ارتباكه أثناء تعارفهما — أجل ، إنها امرأة فاتنة ، موهبة ، طبيعة غنائية ، لكن ليس هذا ما أردت قوله يا تيرنتي ، — قاطع نفسه كي لا يتحول إلى لهجته الساخرة المألوفة ، ويسخر ، دون داع ، في الواقع ، من زوجة مولوتشكوف ، التي لا يعرف عنها إلا القليل — هاك ما أردت قوله يا تيرنتي . وهذا شيء جدي — أضاف كريموف — لن أصور الفيلم . وقراري هذا لم أصرح به لبالابانوف . لذا ، ستضطر على الأغلب ، إلى العمل مع مخرج آخر . ليست هناك ممثلة ثانية مثل سكفورتسوفا . وأنا لست واثقاً من النجاح . على أية حال ، لم تعد هناك أهمية للنجاح أو الفشل . لذا ، سأبقى يا تيرنتي ، سنة كاملة على الأغلب ، دون عمل ، إذا لم أدخل السجن طبعاً . لأن كل شيء ممكن في أيامنا هذه ، المليئة بالأحداث الخلاقة المبدعة . . .

ـ أنت تمزح من جديد ؟ ـ اقشعر مولوتشكوف من البرد . ـ متى تتوقف عن السخرية من الجميع ؟

أجاب كريموف باهجة بين الجد والمزاح :

ـ ليس من الجميع ، بل من نفسي . وفي هذا شيء من الأمل ، طالما أننا لا نتردد إلى الكنيسة للاعتراف . إن الحكمة العليا تأتيك عندما تبدأ بادراك أن كل شيء ممكن .

ـ أوه ـ اهتز مولوتشكوف على الديوان ، وارتعبت عيناه الشفافتان ولمعتا . ـ إنني أخاف عليك من لسانك ، فياتشيسلاف أندريفيتش ، لقد أصبح الناس حساسين جداً ، سريعي التأثر ، معتدين بأنفسهم ، وأخشى ألا يفهموك على النحو الصحيح ، ويكونون رأياً سيئاً عنك .

ـ آه ، عزيزي تيرنتي ! ثمة حولنا كثير من الشهرات المزيفة ، والفقاقيع والأوداج المنفوخة الكثيرة ، والمشهورين العرضيين ، والمشهورين غير المعروفين ، بحيث أن انتزاع مجدي بـ « الرأي السيء » لا يزيد ولا ينقص شيئاً من تفاصيل سيرتي الشخصية .

ـ هناك أناس شريرون . . . يسعون إلى التهام أحد ما . . .

ـ فلننظر إلى شهيتهم. أما أنا فسأذهب إلى بيتي الريفي. مع السلا . . .

قال عبارته الدالة «مع السلا . . . » ، وبنفور من هذه الكلمات السينمائية ـ البوهيمية ، توجه إلى الباب ، رابتاً ، بطريقه ، على كتف مولوتشكوف .

« لا ، إنه خداع ! بصرف النظر عن إرادتي ، فأنا لا أستطيع أن أعمل شيئاً مع نفسي ، — فكر كريموف في نفسه ، متألماً من سخط شنيع . — بالمشاكسة الوديعة أسايه وأسلي نفسي ؟ في حين أنني في الواقع ، مريض بعصاب القرن العشرين ، مثل كل شيء في الفن لا يمكن إشباعه لا بالغرور ، ولا بعشق المجد . إنني طموح ، محب الرفعة ، محب لذاتي ، كما كنت بالأمس ، قبل خمسة وثلاثين عاماً في الحرب . وأعترف أمام ضميري ووجداني ، أنني لست أبداً لا مبال بما يظنه الناس ، وبما يقولونه عني . . . اذن ، ربما أن حياتي كلها كانت جبناً ، إذا كنت أخاف على سمعتي ، وأردت أن أحوز على إعجاب الناس ؟ من أجل أي شيء ؟ في الحرب — من أجل الأوسمة ؟ وبعد الحرب — من أجل النجاح ؟ من أنا كاذب منافق ، أم متظاهر متصنع ؟ » .

توقف كريموف برهة ، أثناء خروجه إلى الغرفة ، حيث كانت تعمل ضاربة الآلة الكاتبة ، التي كانت تضرب بسرعة على مفاتيح الأحرف ، في مجرى التيار . وفجأة اصطدم بشيء ما غريب ، معرقل ، ولم يدرك على الفور ، أن هذا الإحساس ظهر لديه عند رؤيته الشاب ، الذي كان يجلس محدودب الظهر على المقعد ، إلى جانب الخزائن ، المملوءة بأضابير السيناريو . كان يجلس محني الرأس ، بشعره الأسود المتدلي وكان يضغط بين ركبتيه المتباعدتين قبعته ويدعكها بعصبية بيديه المشبوكتين . وقد أرغم شيء ماح ما كريموف على التطلع بانتباه إلى هذا الشاب الذي رفع رأسه دفعة واحدة . على الفور ، تعرف كريموف على هاتين الوجنتين القويتين والجبين الصاب والشفتين

الكبيرتين ، اللتين ظهر عليهما الدم ، في ذلك اليوم . في تلك الأثناء التفت هذا الشاب ، وهو يتنفس من رقبته الثخينة ، ولعق الدم بلسانه . . . لقد كان هذا الشاب السائق غولين . واتجهت بسرعة عينا الشاب الملتهبتان ببياضهما المحمر ، نحو كريموف ، وقد تثبتت الأورام البارزة على عظم وجنتيه . وتذكر كريموف ، ملتهباً ، عجزه وهو ينتظر عودة السيارة ، وهمهمة السائق المبررة ، وشخيره المجنون ، عندما دهن هذا الجبان أنفه بالدم ، دون مقاومة ، وابتعد جانباً نحو باب السيارة المفتوح ، حيث كانت تبرز من المنفضة عقب السجاير .

« إذن ، هو قادم لمقابلة مولوتشكوف ؟ » — قرر كريموف على الفور .

ودون أن يتمكن من مقاومة اغراء اللعبة الشيطانية ، التي تدفعه إليها قوة غامضة ، معروفة في شبابه في تلك الأثناء ، والتي كانت تفجر ، بصورة مفاجئة ، تحفظه واحتراسه الذي اكتسبه بعد الحرب ، أمسك غولين من ذقنه المبللة بالعرق ، وبعد أن رفعه ، سأله بصوت منخفض ، بهدوء جليدي ، كان يظهر عنده في لحظة العزيمة الخارقة :

— إذن ، أنت تكره المثقفين ، أيها الشاب ؟ لو كان باستطاعتك لقضيت عليهم ، لضربتهم ضربة قاضية ، هؤلاء الملايين ، الفاسقين ، العاطلين عن العمل . . . .

— آه ! — سحب غولين ذقنه ، ورفع رأسه مثل حصان ماجوم ، وارتسمت تعابير الكراهية على حدقتيه ، وقال بصوت أجش : — لا تلمسني ، ثمة شهود عيان ! — وأشار باصبعه إلى ضاربة الآلة الكاتبة ، المصعوقة . — تريد أن تضربني من جديد ؟

- للأسف ، لا أسمح لنفسي بانتقام الأطفال المحظور ، - قال كريموف وخرج إلى الردهة ، خائفاً من ذلك الرضى الذي كان سيشعر به ، لو رأى آثار العقاب العادل على هذا الوجه ، ذي الوجنتين الصلبتين .

خلف بوابة الاستوديو ، اقترب من السيارة ، مفكراً ، لسبب غير معروف ، بأنه ، بالرغم من جميع النقائص ، فقد كان ، بصورة عامة ، محظوظاً في الحياة ، رغم تأخره الطويل في تسليم كل فيلم جاهز ، وبعد حوار طويل في المكاتب ، مثيراً من فترة لأخرى جلبة وهوشة في لجنة شؤون السينما ، التي كانت تخشى استلام الفيلم بدون التعديلات المصححة . في الوقت نفسه ، كان يثيره صبية الاستوديو ، الذين يحملون الأنواط على صدورهم الشعراء ، ويدمدمون بمغزى وذكاء عن يساريته التجديدية المبدعة . وكان يثيره بالدرجة نفسها ، الهمس الزاحف ، بصورة سامة ، مثل ثعبان خشخاش حول تهوره وعدم اتزانه وعدم السيطرة عليه . أما هو الذي عرف الحماسة اليسارية واليمينية في تواصلاته وعلاقاته المتنوعة ، لم يرغب أن يذيع صيته ، لا يمينياً ولا يسارياً ، ولا متزناً خاضعاً ، محاولاً البقاء ، مفتوحاً بصورة مفرطة ، ربما ، وناعماً باعتدال ، وبخاصة في أفلامه الماضية حول شباب جيله ، وحول الحرب بشجنها العاري ، وخسائرها ، وعلى الأغلب ، في أفلامه الأخيرة حول الأعوام السبعينيات وجراثيمها الاستهلاكية ، ولا مبالاتها الأخلاقية الذاوية ، وهمومها الآنية اليومية ، وحب الأرض الخالي من أي حب .

ولكن ، والحمد لله ، عليه الآن أن يذهب إلى البيت الريفي ، فقد اشتاق خلال ستة أيام من وجوده في الخارج ، إلى طفليه ، إلى زوجته أولغا ، بنظرتها الهادئة من الأسفل إلى الأعلى ، وبصوتها الرتيب البطيء ، الذي كان يؤثر فيه أحياناً ، تأثيراً كبيراً للغاية ، اشتاق إلى

اقترابها الخجول منه ، وإلى سؤالها المازح ، المداعب ، بعد القبلة الأولى : « ألم تنساني كثيراً ، مع ذلك ؟ » ، وكان هو أيضاً يجيب بشيء من الدعابة ، بأنه كان يموت حنيناً وشوقاً . لقد اشتاق إلى ولديه وأسرته ، وبالدرجة الأولى إلى تانكا ، ابنته المضحكة ، المشاكسة ، الصغرى في الأسرة ، إلى محبوبته الصريحة . لقد كان هادئاً في مشاعره نحو ابنه فالنتين ، طالب السنة الثالثة في معهد السينما ، الذي أصغى إلى نصحه وسار على خطاه . غير أن فالنتين كان قليل الكلام ، منغلقاً على نفسه ، وأحياناً غير متسامح بالنسبة لحنين « الأجداد » وفنهم ، أي أنه كان متحرراً من ترهة عاطفية تقادمت واهترأت في عصر التقنية والذرائعية . إن الاغتراب الصامت لابنه وبعده عن الناس ، لم يقربا فيما بينهما ، ولم يخلقا وداً متبادلاً ، أما كريموف ، فبسبب ضغط عمله الدائم وانعدام القدرات التربوية لديه لم يكن يبحث عن نقاط التقاء قريبة خاصة ، واعتبر ابنه شاباً عصرياً إلى حد الافراط ، لكنه مدير تصوير مقبل عادي جداً ، خال من النزعة الفنية ، يدعو إلى الصيغة التي يقبلها العقل والجديرة بهذا العصر وهي : أمل العالم في المدنية التكنولوجية .

في طريقه إلى البيت الريفي ، عرج كريموف إلى شقته في موسكو ، وعندما دخل إلى السكون الخانق ورأى أعمدة الشمس عبر شقوق الستائر في هواء الغرفة الحبيس ، فاح إهمال الشقة الصيفي باليتم والوحدة ، ولم يعد يرغب بالبقاء هنا وحيداً ، كما رغب بالأمس . فشرب قدحاً صغيراً من الكونياك ، لوضع حد لوجع رأسه ، ووضع حبة ملبس من النعناع في فمه ، لإزالة رائحة الكونياك (في حال لقاء مفاجيء مع شرطة المرور) ، وأخذ حقيبة السفر مع الهدايا ، التي كان يشتريها دائماً لـ « نسائه » من الخارج ، ونزل باتجاه السيارة .

الفصل السادس

في الضاحية الريفية ، الدفينة في عربدة شمس تموز القائظة ، أوقف كريموف سيارته بالقرب من الخوخة ، المستظلة بأشجار الزيزفون ، ودخل من الباب ، وعلى الفور ، ومن خلال أخشاب السور رأى في الحديقة بين أشجار التفاح ثلاثة مقاعد خشبية طويلة ، ورأى ابنته المحبوبة تانيا * ، تلميذة الصف التاسع ، وقد قصت شعرها قصيراً على طريقة الصبية . كانت ترتدي قميصاً رياضياً يكشف عن كتفيها الاثنين لوحتهما الشمس ، وكانت مستلقية بين الأعشاب فوق سجادة صغيرة ، وهي تقضم تفاحة ، وتقرأ وهي تحرك رجليها الحافيتين . التفتت تانيا بوجه مشرق ، عندما سمعت صرير الباب الخشبي ، وقفزت بمرونة ، ورمت بقراضة التفاحة بين الشجيرات ، وصاحت بفرح :

— بابا ، الحمد لله على السلامة ، أورا . . . ! تحية ومرحبا !

— مرحبا يا عزيزتي ، — قال كريموف وسار فوق الأعشاب التي كانت تصفعه على قدميه ، باتجاه ابنته التي ركضت نحوه — مرحبا ، يا شيطانة ، يا زقزاقتي — قال كريموف ، مقبلاً ابنته في شعرها ، الذي تفوح منه حرارة الشمس — اسمعي ، يا تاتيانا « خانم » ، كأنني لم

* تانيا ، تانكا ، تانيوشا ، كلها أسماء تصغير وتحبب للاسم الكامل تاتيانا — المترجم .

أرك منذ عام كامل ، لكن أنفك قد انسلخ من أشعة الشمس بشكل غير محتمل ، وأنت بكامل جسمك احترقت وأصبحت كالزنجية ! ماذا بك ، وهل تمضين النهار بكامله تحت أشعة الشمش ؟

– آه ، يا أبتي العزيز ، إنني مسرورة ، مسرورة ، لقد اشتقت إليك – قالت تانيا بمرح ، بما تميزت به علاقتهما من ثقة وصداقة ، كان يقدرها كريموف كثيراً – وأنت ، أصبحت نحيفاً في سفرك إلى الخارج ، وأصبحت رشيقاً وشاحباً . لقد قرأت وأمي في مجلة « الثقافة السوفييتية » أن فيلمك قد فاز بالجائزة ، وعرض في قاعة الاحتفالات . أليس كذلك ؟ أو لم يضف أصحاب القلم الكثير من خيالهم إلى هذا الخبر ؟ فهم يجيدون ذلك ، على نحو لا يصدق . . .

– إلى هذا الخبر ، لا – أجاب كريموف ، ولمس في قرارة نفسه خدمة ساخرة سعيدة ، تحت نظرة ابنته المرحة ، مستمتعاً بصوتها المشاكس ، ومشفقاً على أنفها المسلوخ من أشعة الشمس . – كانت القاعة غاصة بالجمهور ، وتحطمت شبابيك التذاكر ، وتكسرت أجهزة إطفاء الحريق ، والمتفرجون كانوا بين جالس ومستاق ، وواقف ، وهناك من تعلق بستائر النوافذ أما أكثرهم مهارة ، فقد تعلقوا بالثريات ، وكانوا يصرخون بملء حناجرهم « الكرة » تارة و «أبعدوا المخرج من الملعب » تارة أخرى .

– ها قد بدأت اللعبة – صاحت تانيا باعجاب شاجب لشريكة في الرأي ، أدركت بسرعة الأسلوب المعهود – من جديد يا بابا ؟ لا يفهم المرء أين المزاح وأين الجد . انتظر ، ماما ليست هنا : إنها تعمل في الحقل المشمس . اجلس على المقعد الطويل ، اجلس هنا !

وشدته من يده ، وأجلسته قبالة الشمس ، وجلست هي مقابله ، واتكأت بظهرها على المقعد الطويل المائل ، ناظرة نظرة خفية من تحت رموشها المبيضة من أشعة الشمس .

– بابا ، أريد أن أسألك – هل حقيقة أم لا ؟ رغم أنني لا أصدق منها شيئاً . . .

– ماذا تقصدين يا ابنتي ؟

غضنت تانيا أنفها ، وهي تقول :

– إشاعات سخيفة مرعبة ، يحمر الوجه خجلاً منها . البارحة في « البلاج » ، اقتربت مني تلك الفتاة السمينة سيمكا أنسيموفا ، ابنة مدير التصوير السابق عندك ، الذي اشترى الآن « فيللا » في بلدتنا ، وقالت بخبث واستهزاء : « أتعرفين ماذا حل بأبيك ؟ » – « لا ، وماذا تعرفين أنت ؟ » – « اذن ، أنت لا تعرفين ما يعرفه الجميع الآن ؟ » – « وماهي المسألة يا غبية ؟ » – أسألها فتجيب : « لاشيء ، ستعرفين كل شيء عندما سيلزم ذلك » . أتعرفين ، ألا تعرفين ، إنها تمساحة معروفة . – قالت تانيا ساخرة ، وكانت عيناها تلمعان مثل عيني ساحرة . – إنه أمر مذهل ! أنا ، طبعاً ، لقبتها بالشوبق المطبخي ، ولكن من يلفق هذه الإشاعات السخيفة ياترى . . .

– أية إشاعات يا ابنتي ؟ ، أنت لم تقولي بعد شيئاً .

– إشاعات تزعم أن ممثلة شابة من فرقة التمثيل في فيلمك قد ماتت ، وكأنك كنت تميل إليها ، – قالت تانيا واحمر وجهها ، وهزت رأسها بحرية واستقلال ، معترضة ورافضة . – معروف للجميع

أن الإشاعات ترددها وتنشرها الشوابق المطبخية . . . الواشيات اللقلاقات . . . .

ـ تانكا ، أنت ابنتي الحبيبة ـ قال كريموف وهو يرى على وجه ابنته الصدق ، وعدم القدرة على الكذب ، والقلق ، والاهتمام بالدفاع عن شرف الأسرة ، التي لايمكن لأبيها أن يدوسه أو يدنسه .

ـ هذا ما يدعى بأنني افتريت ! إنها إشاعات يا بابا ! ـ صاحت تانيا بقلق ، وضربت على ركبتيها بيديها . ـ أنت ، يا أبي ، لقد صرت حزيناً ! لا تصغ إلى هذه الإشاعات . أنا سأدخل الآن المرح إلى قلبك ، يا بابا ! إنه أمر مذهل ! هل تعرف ، سيكون عندنا زفاف عما قريب . ابنك ، أخي فالنتين فياتشيسلافوفيتش ، طالب السنة الثالثة ، أتعرف ماذا ؟ إنه سيتزوج . هذا لا يزال سراً تقريباً . لم تكتب الصحف بعد عن هذا الموضوع ، ولم تنشر أية مقابلة ، ولكن ، ولكن . . .

ـ ولكن ماذا ، يا تانيا ؟

ـ لكن كل شيء يسير بهذا الاتجاه . أمي مذعورة قلقة ، بصورة غير معقولة . ما إن يحضر الخطيب مع فتاته المختارة ، حتى تصاب بقلق شديد ، فتأخذ منصتها ، وتمضي اليوم كله وهي ترسم . ولا تحضر في موعد الغداء ، فهي تتغذى بالثمار البرية في الغابة على الأغلب . إنها تعاني كثيراً ، أما أنا فأشعر بالضحك رغم أنني لا أظهر شيئاً . لقد عثر لنفسه على « ألف ليلة وليلة » . . . على جولييت ، وحلّق معها باق ، باق ، باق .

لمح كريموف في صوتها غيرة لم تحسن اخفاءها ، بيد أنها سرعان ما ضحكت بصورة رنانة ، طبيعية ، لدرجة أنها كلها بجسدها الذي

كوته الشمس وشعرها الكتاني ، اشتعلت بالشباب والصحة والراحة ، أما هو فقد تملكه لهنيهة صغيرة ، شعور ثاقب ، غير مفهوم بالخشية عليها : فلو حدث شيء ما لتانيا ، لما أبقاه شيء على هذه الأرض .

— باق ؟ اسمها باق ؟ — سأل كريموف بصوت خافت ، رابطاً بصورة عفوية هذا الاحساس الذي تملكه لثانية واحدة بذلك اليوم الحزيراني الرهيب ، وبرودة الشعر المبتل الأشقر على خده .

— باق ، باق ، باق — كررت تانيا بصورة مضحكة ، وأرته بأصابعها المجرحة ، وكأنها تمط أنفها الذي تمزق جلده . غير مفهوم ؟ لدى خطيبتنا أنف كأنف البطة ، ذو رأس حاد مدبب . . . ويشبه القبقاب ، لدي رغبة شديدة بأن ألمسه ، حتى أنني لا أستطيع منع نفسي من لمسه إلا بصعوبة ، غير أنها ، أتعرف ؟ — ذات رأي مستقل ، ولها شخصيتها . ستراها . لقد اقتادها الطالب إلى « البلاج » منذ الصباح . سيأتيان عند الغداء .

— ألا تتعنّي كثيراً مع هذه البطة ؟

— لا أبداً . يروقني فقط أن أراقبها وأراقب فالنتين . إنه فقد عقله ببساطة ، يبدو وكأنه ديك حبش ، أما هي فكأنها طاووس ، حتى أن خنصرها يبرز عندما تمسك بالكأس وينتفخ : هذه البطة اسمها لودميلا : وهكذا العاشقان روسلان ولودميلا . إنه أمر ساخر إلى حد لا يطاق : كالسخر في أعمال أنطون تشيخوف الأدبية الباكرة . أما أمي ، فهي تعيش في ذعر حقيقي .

— لقد اشتقت إليك يا تانيا — قال كريموف ملاحظاً تانيا بدلال ، ونهض من على المقعد الطويل — واضح ، سأذهب إلى غرفتي : أما

انت فافتحي الحقيبة ، واختاري هدية . أظن أن الصندل ذا الأشرطة سيحوز على إعجابك .

* * *

في مكتبه ، كانت النوافذ مفتوحة على مصراعيها ، وكذلك الباب المؤدي إلى الشرفة ، وكان هواء الحديقة العليل يغمر الغرفة .

نظر كريموف إلى عليته ، ولاحظ على الفور أن أيدي غريبة قد لعبت بها . فعلى الديوان ، حيث كان يحب الاستلقاء أمام النافذة المفتوحة ، متأملاً غروب الشمس الذهبي على أشجار البتولا ، مستغرقاً وخاضعاً لسلطة أفكار المساء المتعبة (حسب تعبير أولغا) ، شاهد مخدة وشرشفاً يلمعان بلونهما الأبيض ، وقد غطيا إلى النصف بلحاف — فراش أصلح على عجل — وعلى ظهر الكرسي علق رداء نسائي باهمال . وقد رميت على السجادة الصغيرة بالقرب من المكتب حقيبة نسائية ذات زنار . ولم يكن مألوفاً له أن يكون جهاز الفونوغراف مكشوفاً ، والكتب قد مستها أيد غريبة . وعلى طرف طاولة المجلات ، كانت هناك مرآة مدورة لامعة . وإلى جانبها كانت هناك علبة أحمر شفاه وعلبة مسطحة لـ « البودرة » ومشط نسائي . وقد أزعجه أن خطيبة ابنه كانت تنام ، كما يبدو ، في غرفة مكتبه ، وقد أقلقت بتدخلها الفظ ممتلكاته الشخصية ، حيث كان يسود دوماً النظام الذي اختاره وحافظ عليه للعمل في مكتبه .

« اذن ، وصلت المسألة إلى هذا الحد ، طالما أنها تنام هنا في البيت الريفي ؟ » . خلع كريموف جاكيته ، وسار في أنحاء المكتب ، ملجأه المنير والهادىء دوماً ، ووقف أمام طاولة المجلات ، ونظر في المرآة المدورة الصغيرة ، التي كانت تنظر إليها ، في الصباح ، غالباً ، خطيبة

ابنه . لاحظ كريموف باستغراب ساخراً ، أن مرآتها قد وضعت فوق نماذج سيناريو الاخراج ، فقال بصوت مرتفع : « إن هذا مؤثر » — وخرج من مكتبه .

قبل أن ينزل إلى الأسفل ، ألقى كريموف نظرة إلى غرفة زوجته ، الغرفة الصغيرة ، المريحة ، التي كان يطيب له الدخول إليها ، إلى عالم الحنين إلى موسكو القديمة في العشرينات والأربعينات ، موسكو التي أصبحت الآن باردة ، شاهقة الأبنية ، وفقدت روحها السابقة .

هنا ، في حجرة أولغا ، كان يبدو كل ما كانت تحبه : انسجام الخطوط والثنايا ، الرشاقة والاستدارة في العمارة ، التي تنشر الدفء والاطمئنان ، وفرحة الخيال والظلال — رسوم وصور لبولفار بريشيستنينسكي ، وكاتدرائية المسيح المنقذ مع منظر لنهرزاموسكفوريتشي وبرج سوخاريف بزخارفه البيضاء ورواقه المكشوف ، ومنطقة زارياديي الربيعية ، وأزقتها الصباحية وكنائسها الصغيرة الأبدية ، ولوحة موسكو ، بريشة أولغا ، في الفجر الصقيعي المورد ، في الندى المثلج الذي شكلته حافلة الترام الأولى في الشارع المقفر ، وعلى مقربة منه ، منظر طبيعي يمثل مشهداً ريفياً يظهر فيه الغسق الذي يبعث المزاج الحزين : خلف النافذة يغدو الهواء الشتوي أكثر زرقة ، وتظهر زرقة الثلج على الأسطح المائلة بين أشجار الشوح السوداء ، بينما أشعلت الأنوار في بعض المنازل .

في كل مرة ، كان كريموف يتنسم هنا نقاء طاهراً ، منبعثاً من الصور القديمة ، من المشاهد والصور المعلقة على الجدران ، من طاولة الرسم والمصباح ذي القاعدة المرنة المركب عليها ، من الستائر الشفافة المزخرفة ، الممتدة حتى أرض الغرفة ، تلك الستائر التي توحي حركاتها المتموجة بشيء ما نسائي أنيق ، كما يوحي به سرير أولغا المرتب بأناقة .

قبل خمسة عشر عاماً ، عندما شيدا هذا البيت الريفي ، كانت هذه الغرفة هي الغرفة الأولى التي تم انجازها واكمالها . وقد استقبلا العام الجديد هنا ، في البيت الريفي وليس في موسكو ، وكانا مشغولين بالأحاديث ذات الطابع العملي مع النجارين ، وكانا مفعمين بأجمل الآمال المستقبلية ، عازمين على العيش صيفاً هنا ، والعمل في الحديقة ، واستقبال الضيوف هنا فقط . بيد أن هذا الاستقبال الأول للعام الجديد في البيت الريفي كان مصادفة ، وخاصاً . فقد انقطعا ، بسبب العاصفة الثلجية الكبيرة التي غطت الطريق ، ولم يذهبا إلى موسكو ، وبقيا هنا ، في البيت الريفي الذي لم يكتمل بناؤه ، الذي كان يفوح منه زيت التربنتين ونشارة الخشب الباردة على الدرج وخشب الصنوبر البارد في غرفة أولغا غير المدفئة ، التي كانت تهزها العاصفة الثلجية طيلة الليلة . وكانت تقول أولغا بأن كل ما كانت تعمله ، في تلك الأثناء ، كان مفعماً بحبها له : فقد كانت ترتسم في عينيها المخمليتين البريئتين ، المصوبتين نحو عينيه ، ابتسامة تارة ، وحنان خفر تارة أخرى ، عندما كان يمسها ، يمس زوجته ، أم طفليه ، لكنها بقيت دائماً مرتبكة ، كما في مرحلة عزوبتها ، خجولة من عدم صبره .

قطع شجرة عيد الميلاد من الغابة ، وحملها مع روح الثلج الباردة التي عصفت بها ، وأخذت أولغا تزينها بضفائر من بقايا ورق الجدران ، لم يكن كريموف يعيقها في عملها ، فقد كان يقف من الخلف ، يمازحها وينصحها ، ويرى رأسها المنحني ، وشعرها الذي سرحته بنعومة ، وجمعته إلى الوراء في عقدة مشدودة ، وكان من حين لآخر يمسك بكتفيها ويديرها نحوه . أما هي فقد كانت تنظر بعينيها إلى وجهه ، وتقول مرتبكة :

ــ هذا العام هو عام الحصان * ، لهذا عليك أن ترتدي بدلة بنية اللون .

ــ هكذا اذن ، يا أولا ، بنية اللون حتماً ؟ للأسف ، لقد نسيت خزانة ملابسي المؤلفة من خمسين طقم « سموكنغ » في بوينس آيرس ، في أجنحة فندق هيلتون . لا عليك ، سأرسل برقية .

ــ ماهذا الإهمال ! وما العمل ؟ إن عدة الحصان بنية ، بصورة عامة . أتعرف المراسيم في هذه المناسبة ؟ علينا أن نرتدي شيئاً مصنوعاً من الجلد . وأن يضع الرجل على رقبته سنسالاً ذهبياً . احن رأسك . سألبسك سنسالي . ــ وخلعت من رقبتها سنسالاً صغيراً ، ألبسته لزوجها ، وقالت مهمومة : ــ اعطني حزامك الجلدي لأرتديه أنا . علينا أن نضع على الطاولة لعبة على هيئة حصان . ويجب وضع الشوفان وقطعة من السكر في صحن أمامها . وماذا أيضاً ؟ في تمام الساعة الثانية عشر ليلاً لا يصح شرب الشمبانيا . على أية حال ليست لدينا شمبانيا . حسن جداً ! فقط الكونياك أو الفودكا . وهذا لدينا ، والحمد لله . قبل حلول منتصف الليل بدقيقة واحدة ، يجب فتح الباب وإخراج العام القديم . وفي الساعة الثانية عشرة تماماً ، يدخل العام الجديد . فنغلق الباب . وعندئذ علينا أن نشرب نخبه . تعال نستقبل العام الجديد على هذا النحو ، حسب التقويم القمري .

برغبة عظيمة ، وافق كريموف على مراسيم استقبال العام الجديد وفق التقويم القمري ، دون أن يعلم حتى الآن ، ما إذا كان هناك عام الحصان في هذا التقويم . أما أولغا ، التي كانت عيناها تضيئان على نحو خافت ، فقد كانت تجلس خلف المائدة ، وقد وضعت على خصرها

* حسب التقويم القمري الصيني القديم . ــ المترجم ــ

الحزام الجلدي الرجالي ، وعلق كريموف في رقبته سنسال أولغا ، الذي يحتفظ ، كما بدا له ، بدفء جسدها ، والذي كان يؤثر في خفة الوزن النسائية على كنزته الصوفية السميكة ، وفي منتصف الطاولة كانت هناك لعبة على هيئة حصان ، وبالقرب منها صحن فيه قطعة من السكر .
قبل دقيقة واحدة تماماً من حلول منتصف الليل ، اقترح كريموف على أولغا قائلاً : « تعالي نستقبل الحصان ، لكن خذي معك قدحك » — وخرج إلى الدرج الخشبي المظلم ، المشبع بالقار والنشارة ، حيث لم تمدد الإنارة الكهربائية بعد (كما في البيت كله) ، ونزل من العلية إلى المدخل ، وفتح الباب الخارجي للريح ، التي كانت تحمل ، بصورة ماثلة ، اللبدات الثلجية الزرقاء ، وعويل العاصفة ، التي أحاطت بهما كليهما بالبرد القارس الأخرس لهذه الليلة الحالكة . وخيل إليهما أنهما يسبحان في الظلمات في نهاية الكون ، وأنهما منفصلان عن الأرض ، في عزلة سعيدة مشتركة ، تماماً كما في أيام الشباب ، حيث لم يكونا بحاجة لأكثر من ديوان قديم مثقوب في غرفة استأجراها بثلاثين روبلا ضمن شقة مشتركة مع الجيران في منطقة ياكيمنكا .

— هاهو قادم ، أتسمع ؟ إنه يدبدب بحوافره بين ركام الثلوج ويهمهم بصوت مسموع — قالت أولغا مازحة بصورة غير متقنة ، ومرتجفة — أتسمع ؟ لقد أخرج السنة القديمة ودخل ، وأحضر البرد معه . أتشعر ؟

— وحمل الثلج معه يا عجوزي .

أغلق كريموف الباب (وقد تمكنت العاصفة من ادخال كومات بيضاء من الثلج إلى أرضية المنزل) وعانق أولغا ، طلباً للدفء ، وقرع

قدحه بقدحها ، وقبلها من شفتيها الباردتين ، الحلوتين — المرتين من الكونياك ، وقال شبه جاد ، مخفياً القلق الذي سيطر عليه :
— أهنئك بالسنة الجديدة ، يا زوجتي الحبيبة !

— لقد هنأتني ، وكأن لديك زوجات عديدات : زوجة حبيبة ، وزوجة غير حبيبة — أجابت أولغا ، وبعد أن تنفست الصعداء ، قبلته قبلة خفيفة .

وذهل من جديد ، من أنها قبلته بشفتين لم يدفئهما النبيذ البارد ، بسذاجة ، دون خبرة ، مثيرة لديه الظمأ السابق ، كما حدث في شبابه إثر الحرب ، حيث لم تتعلم ما تعلمه من لقاءاته السابقة مع الفتيات ، وقال متلذذاً بعدم معرفتها ونقائها الطاهر :

— أنت ، يا زوجتي الرائعة ، تقبلين من جديد كالغراب الصغير ، وفي كل مرة تغلقين عينيك وتتنهدين .

في الساعة الثانية ليلاً ، هدأت العاصفة ، وكانا محاطين بالصمت المطبق للصقيع المذهل ، فخرجا إلى الصحراء الغابية ، الريفية ، المثلجة . كان صرير الثلج تحت وطيء جزمات اللباد قوياً وحاداً كالجرس ، لدرجة أنهما احتبسا أنفاسهما . وكان القمر ينير ويلمع في دوائر صقيعية برتقالية ، وكان الصقيع يتراكم ، وكان كريموف يرى في دخان القمر انزلاق الظلال على الغطاء الثلجي الطري كانعكاس بقع شمسية على قعر رملي .

كانت أولغا تسير إلى جانبه ، وتتحدث عن شيء ما (كان لا يصغي إليها جيداً ، مفكراً في أنه لم يتوقف أبداً عن حبها) . وكانت تمس أحياناً كمه ، ناظرة إليه من الأسفل بابتسامة قصيرة ، أما هو فقد كان

مذهولاً قليلاً من هيامه المتكرر بها ، وينظر إلى وجهها الداعي إلى السرور الهادئ ، وابتسم أيضاً لنظرتها ، ولليلة السنة الجديدة هذه ، ولقرقعة الأشجار في الغابة ، حيث كانت تنهار طبقات الثلج بغبار ثلجي ممتد من على أغصان أشجار الشوح بطبقاتها الثلجية المتثاقلة .

غير أن كريموف كان يذكر أيضاً الصباح الفضي المشمس لليوم الأول من السنة الجديدة ، عندما استيقظ ، فرآها تنظر إليه ، واضعة كفيها على صدغيها ، دون حراك ، بتأمل واستغراق ، وكأنها أرادت أن تحفظ صورته ، قبل فراق طويل .

ــ ماذا بك ؟ ــ سألها قلقاً ، وعانقها ، محترقاً من جديد بالرغبة .

ــ لقد استيقظت ورأيت كيف تنام ، وفكرت بأن طفلينا لا يشبهانك . وهنا شعرت برعب كبير . وهل ياترى لن يرى أحدنا الآخر بعد عشرة أو خمسة عشر عاماً ؟ كم أشفق عليك وعلى الأطفال ، وعلى حياتنا القصيرة كلها على هذه الأرض ؟

ــ ولماذا الشفقة ، يا أولغا ؟

ــ لقد بدا لي أنني وأنت وحيدين في عالم كامل ، غير أنك لا تحبني . لا ، نحن وحيدان على أي حال . أنت وأنا . . . ــ وارتجفت عيناها الهادئتان المخمليتان ، فأدارت رأسها إلى الحائط لتخفي وجهها ؛ أما هو فأخذ ، بحزن يقطع القلب ، يقبل شفتيها الضعيفتين المتملصتين وهو يقول هامساً ، لاهثاً :

ــ عبثاً ، تقولين ذلك يا أولا . لقد كنا سعيدين في بعض الأحيان .

قال كريموف هذا ، خوفاً من أن تعترض أولغا وتحطم هيامه

الجديد ، الذي أصبح قبل بضعة ساعات من ابتعادهما عن موسكو مغزى لقربه منها ، ولهيامه وعشقه لامرأة قديسة ، أرسلها له القدر المبتسم له ، امرأة لم تخدعه أبداً في مشاعرها ، رغم أنه قد أذنب في حقها ، في شبابه ، أكثر من مرة .

— أي ظلم هذا — قالت بهمس ، واقتربت منه دافنة أنفها في صدره — إنني لا أريد فراقك .

— أنا أعرف ، أن الأحلام تخيفك — قال كريموف — انسي ما حلمت به .

* * *

أثناء هبوطه من العلية ، وخروجه إلى الجو الحار في الحديقة ، إلى الطريق المفروش بالرمل النهري ، والمخطط بالظلال ، رأى كريموف من جديد ، وسط النهار التموزي المشمس ، تلك الليلة الشتوية المقفرة ، والكثبان الثلجية المقمرة ، والصباح الصقيعي في غرفة أولغا بوحدتهما السعيدة .

— هل أساعدك بالعثور على أمي ؟ — صاحت تانيا من بعيد تاركة كتابها ، ومحركة قدميها الحافيتين — ماما تجلس على المرج المشمس . هل أقودك إليها ؟

— لاداع يا ابنتي ، سأعثر عليها .

« إنني لم أتوقف عن حبي لها — فكر كريموف وهو يسير على الممر في طرف الحديقة ، نحو الخوخة ، متوجهاً إلى الغابة — ولكن ، يبدو ، وكأن إخلاصي ينقصها » .

وجد كريموف أولغا تحت أشجار البتول في آخر الغابة . كانت تقف أمام منصة الرسم الغارقة في العشب ، وقد ابتعدت بشعور من التعب عن اللوحة ، واضعة قفا كفها على جبينها . كان كل شيء فيها قريب منه ، حبيب إلى قلبه : حركة التعب الخفيفة هذه بعد العمل الطويل ، وعقدة شعرها الأسود ، وخطوط ظهرها ، وكتفاها اللذان حافظا على فتوتهما وقوتهما ككتفي فتاة ، وذلك بفضل رياضة الجمباز واليوغا الصينية التي كانت تخصص لها مالا يقل عن ساعة يومياً ، معتقدة أن في هذه الرياضة « سراً » شرقياً للصحة والشباب الخالد .

شاهدته أولغا ، فأنزلت الريشة ، والتفتت صامتة ، ووقفت تنتظره ، إلى أن اقترب منها بخطوات سريعة .

— مرحبا يا زوجتي المحبوبة . . .

« من أين جاءني هذا الابتذال ؟ من يوجهني ؟ » .

وعانقها بقوة ، بصورة محرجة ، دون احتشام ، وكأنه لم يكن له الحق بهذا العناق ، فتجاوز هذا الحظر وتغلب عليه :

— مرحبا يا زوجي المحبوب . — لم تقدم له شفتيها ، بل وجنتها ، ونظرت إليه باهتمام ساخر من تحت حاجبيها المعقوفين . — وهل أنا عمود أو شجرة ؟ ألا تحسب حساب قوتك يا فياتشيسلاف أندريفيتش ؟

كان ينطلق من تحفظها هواء خريفي ، وقد خمن كريموف الأسباب المحتملة لهذا الفتور المزعج ، ومع ذلك عثر في نفسه على قدر كاف من الجرأة للتخفيف من فتورها قائلاً :

— أولا* ، يبدو أنني خلال الأسبوع الذي لم أرك فيه قد فقدت قدرتي على التعامل مع الأشياء الثمينة . إنني حمار هرم .

« ابتذال من جديد ! وماهذا الهذيان ؟ — بالفعل إنني غبي مطبق ! » .

— إذن ، دعني ، دع أشياءك الثمينة .

ولمعت عيناها بتلك الريبة الهادئة ذاتها ، وتحررت منه بحذر . فقال كريموف شاعراً بخطئه :

— لقد اشتقت إليك ، إذا كان باستطاعتك أن تصدقيني ولو قليلاً . . .

— لقد جئت في الوقت المناسب . نحن الآن سنذهب لتناول طعام الغداء . ساعدني في جمع منصة الرسم .

لم تطلب منه ، كعادتها ، أن ينظر إلى رسومها ، وأن ينتبه إلى الألوان المائية الرطبة ، التي لم تجف بعد (« ما قولك — هل هذا يعجبك ؟) ، وهي الرسوم التي كان يقومها بتساهل كبير لأنه كان يرى في المنظر الطبيعي البحت مجرد انعكاس مرآتي للواقع المتغير ، مفضلاً عليه لوحة الطبيعة — اللوحة الفلسفية ذات الجمال العقلاني الطبيعي ، المعارض للقوة البشرية المخربة بقسوة ، هذا التعبير عن العالم المتمدن ، المعاصر ، الفاسد والمغري للكثيرين ، الذي يعشقه القادمون من الأرياف ، الذين يشكلون الآن غالبية سكان المدن الحالية ، والذي لا يحبه في الوقت نفسه . ولم تكن أولغا لتغضب أو تعترض ، أما كريموف فكان يختتم موعظته الانتقادية شبه الجدية بلطف وطيبة قلب (« أنت عندي رسامة رائعة للمناظر الطبيعية ، رغم أنك مهندسة معمارية ») . وكان يقبلها

---

* اولا — تصغير وتحبب للاسم الكامل أولغا — المترجم

من شفتيها ، الباردتين بصورة غامضة ، اللتين كانتا تجيبانه ولا تجيبانه على طريقة الصغار .

غير أنه عندما جمع طاولة الرسم ، ونظر إلى الأاوان المائية التي لم تنشف بعد ، حيث يظهر مرج تحت أشعة الشمس القائظة — قرر أن الاستخفاف أو المزاح الآن سيزعجان أولغا ويصدانها ، لذلك قال مسالماً :

— في المنظر الطبيعي الذي رسمتيه تبدو الشمس قائظة ، ويبدو وكأن روح التوت الأرضي الناضج ينهض من تحت الأعشاب . أنت قديرة حقاً .

— أخيراً ، سمعت مديحاً — قالت دون أن تعبر عن موافقتها — حسناً ، أشكرك لأنني أصبحت أحوز على إعجابك ولو قليلاً . . . ولكن ، لماذا تجانب الحقيقة في قولك فجأة ؟

— أولا ، هل يمكنني أن أعرف الذنب الذي ارتكبته ؟ ما هو ذنبي ؟ — سأل كريموف بصورة ودية كما في السابق ، خائفاً ألا يكون صادقاً معها — يبدو أنك لم تفرحي بقدومي ؟ — تابع حديثه ، ممسكاً بها من كتفيها المشربتين بأشعة الشمس . — أما أنا فقد اشتقت إليك حقاً ، وتعبت بصورة مضنية ، لقد اشتقت إليكم جميعاً وعدت من السفر قبل الموعد المحدد .

— ماذا جرى لك ؟ — تنهدت أولغا ، وكأنه مقضي عليها— . الآن ، سنغرق في محيط من العبارات الغنائية التافهة . لندع هذا جانباً . إنني أرجوك شيئاً واحداً : تكلم اليوم مع فالنتين ، إنه يقدم ، كما

أرى ، على خطوة غير مدروسة ، خطوة مجنونة . . . أتعرف أنه ينوي الزواج ؟ غريب ، صبي بلا خبرة . . . غير أنه لا يصغي إلي ، لأنه لا ينظر إلي نظرة جدية ، مثلك تماماً .

ــ يا للشيطان ! أتريدين ، سأجثو على ركبتي ، وأبوح بحبي لك ؟

ــ كم رائع أنت ، يا فياتشيسلاف ، ودائماً لا يمكن صدك . شيطانك المفضل ، الشيطان والشيطان . لقد بقيت فيك نزعة الجندي وألفاظه . بودك أن تشتم ، فتستبدل تعابير الشتائم بالشيطان . إنك فارس ماهر حقاً !

سارت أمامه على الممشى ، وعندما رأى ظهرها القوي وفخذيها المحتفظتين بفتوتهما وصلابتهما في البنطال الذي ارتدته للعمل ، والملطخ بالألوان ، ويفوح منه أريج الأزهار وغبار الطلع ــ هذا كله أعاد إلى ذاكرته فجأة جنونهما المفرح الذي لا ينسى في أعوام الأمل التي لا تعوض بعد الحرب ، كما أعاد إلى ذاكرته تلك العاصفة الثلجية الكثيفة في ليلة عيد رأس السنة في البيت الريفي ، هذا الجنون الذي انطفأ فيما بعد ، بصورة مريعة ولم يعد يتكرر ، بسببها أم بسببه . وكاد كريموف أن يقول : « أولا ، حبيبتي ، من الذي يسبب لنا هذا كله ؟ » ــ غير أنه سار من ورائها باتجاه بلدة المنازل الريفية .

* * *

الفصل السابع

— ما هو الجديد لدى الشبيبة ؟

اشتدت حرارة الشمس ، التي كانت تنعكس ، من خلال أوراق الشجر ، على الشرفة والطاولة ، على الكراسي الخيزرانية والأرضية الخشبية ، لكن أشجار البتولا كانت تحجب النوافذ المفتوحة ، ومع ذلك ، لم يكن الحر شديداً وقائظاً هنا ، كما في الحديقة ، في تلك الساعة .

أثناء تناول طعام الغداء ، أراد كريموف أن يشرب شيئاً من المشروبات ، بيد أنه كان من فترة لأخرى يملىء لنفسه من ماء البئر البارد ، القاسي ، الذي كان يتلألأ في الابريق . لم يأكل إلا قليلاً ، متمنياً بأن يقف وقفة ممتعة الآن تحت « الدوش » ، ومن ثم الاستلقاء وحيداً في سكون مكتبه ، بين رفوف الكتب ، ويقلب المجلات في تراخ دون تفكير .غير أنه كان يعد رب الأسرة ، لكنه لم يكن يتذكر ذلك أبداً لانشغاله وأعماله ، وكان عليه الآن ، بناء على طلب أولغا ، أن يراعي قواعد آداب رب الأسرة ، أثناء تعارفه مع خطيبة ابنه .

قدم فالنتين وخطيبته إلى الغداء من النهر فتيين ، لوحت الشمس بشرتهما إلى حد السواد . كان فالنتين فارع الطول بشكل مفرط ،

وقد ارتدى بنطالاً قصيراً ، ولبس صندلاً على قدميه ، ورمى منشفة موبرة على رقبته ، أما خطيبته فكانت تسير حافية القدمين ، وقد ارتدت قميصاً أحمر اللون ، قصيراً يكشف عن بطن أملس رائع الجمال ، وبنطال « جينز » ، وكانت الخطيبة نحيلة دقيقة ، وقد وضعت على عينيها نظارتين شمسيتين بعدستين كبيرتين ، تغطيان نصف وجهها بغطاء قاتم . ولم ترفع النظارة عن عينيها حتى بعد أن قبل فالنتين والده على خده قبلة سريعة ، دون ابداء أية عواطف ، قائلاً : « تعارف ، أرجوك . هذه خطيبتي ليودميلا » . أما هي ، فقد انحنت قليلاً بمرونة ، ومدت كفاً قوياً ، وأنشدت بصوت أشبه بصوت الطيور : « ليوسا * » — ولاحظ كريموف أن وجه ابنه النحيف الجلدي قد توتر وتشنج ، وكان ينتظر بوضوح جواب أبيه ، كي يدرك الانطباع الذي تركه اختياره عليه . ضغط كريموف بصورة خفيفة على أصابعها الرطبة ، بانحناءة بشوشة ، وقال إنه مسرور جداً من رؤية خطيبة ابنه في هذا البيت . قال ذلك مندهشاً من أولغا وتانيا ، ومن غيرتهما المحتملة ، وعدم تقبلهما لهذه الفتاة ، التي لم تكن تختلف بشيء عن الفتيات ، والطالبات العصريات .

« إن كل شيء عصري في هذه الفتاة . . . ولكن وجهك ، لو أريتنيه ، الدقيقة واحدة ، على الأقل ، أيتها الخطيبة . وهل بسبب الحياء لا ترفعين النظارة عن وجهك ؟ » — فكر كريموف في نفسه مراقباً ، بصورة خفية ، ليودميلا التي كانت تجلس قبالته إلى جانب فالنتين ، ومخمناً نظراتها الحذرة نحوه من تحت العدستين القاتمتين الزرقاوين .

— ما الجديد ، اذن ، لدى الشبيبة ؟ — كرر كريموف سؤاله .

---

* ليوسا ، ليودا — تصغير وتلطيف للاسم الكامل « ليودميلا » — المترجم —

طرح هذا السؤال ، من أجل قطع حبل الصمت الذي امتد وطال وأصبح قاسياً محرجاً ، فمنذ بداية الغداء لم تتفوه أولغا بكلمة واحدة ، وكانت تقوم بتحفظ مهذب بدور ربة المنزل ، حتى أنها ابتسمت ابتسامة خفيفة لليودميلا ، مقدمة طبق الخبز لها ، عندما مدت الأخيرة شوكتها نحو الخبز ، ونظرت إلى تانيا محذرة ، حيث كانت تانيا تنظر يمنة ويسرة وتنحني فوق الصحن ، متهيئة لإطلاق ضحكة ، وقد لمع في عينيها الرماديتين بريق الخبث والشيطنة .

— بابا ، سؤال : هل تعتبرني من الشبيبة ؟ — سألت تانيا متهالة بروح الشقاوة — أم أنك تراني بين بين — مراهقة سخيفة ؟

— بلاشك ، أنت ممثلة رشيدة للشبيبة الطليعية — أجاب كريموف مازحاً — بدون أية خرافات باطلة .

حكت تانيا أنفها المتغضن وقالت :

— اذن ، هذه هي الأخبار : في برج المذنبات الشمالي ، ونتيجة انفجار قوي ، تشكل نجم جديد ، لم يكن معروفاً من قبل . هذا النجم يبعد عن الأرض مائة وخمسين مليون سنة ضوئية . مثل هذه الظاهرة لوحظت في مجرتنا الشمسية في القرن الثاني الميلاد . تلك هي الحادثة الغريبة التي حصلت . إن المرء يكاد يفقد عقله . . .

— طريف حقاً — قال كريموف — الحمد لله ، فقد ازداد عدد النجوم نجماً آخر .

— هذا اضمحلال — قال فالنتين بصوت صارم .

— ماذا ؟ ماذا ؟ — صاحت تانيا وهي تقفز على كرسيها — اشرح

لنا من فضلك ، ما هو الاضمحلال ، فعلاً . أنت ، عندنا ، تعرف كل شيء ، ماذا ، وإلى أين ، ولماذا والخ . . .

— لا ، لا أعرف كل شيء — قال فالنتين مصححاً ، ونظر إلى ليودميلا ، التي كانت تقطع الخيارة قطعاً دائرية بعناية ، وتدهنها بالقشدة الرائبة ، وتأكل بأناقة ، موجهة أنفها الحاد نحو الصحن . — إنني أعرف ما أعرفه . لا يمكن المرء أن يعرف كل شيء ، يا أختي العزيزة . أما بالنسبة لحكايتك حول ولادة نجم جديد ، فهو نتيجة الانهيار ، نتيجة تقلص المادة في الفضاء خلال التفاعلات الكيميائية الحرارية .

— آه ، ياله من شرح رائع ! مذهل ! — قالت تانيا موجهة نظرتها إلى ليودميلا أيضاً . وباندفاع صبياني ، عضت على نصف خيارة ، وقرضته بشهية وبصوت عال ، بحيث أن أولغا أوقفتها مؤنبة ، وهي تقول :

— تانيوشا ، أنت تصعقين الجميع بصوتك ، في النهاية ، أنت فتاة ولست حمالاً .

— ماما ، أنا أعيش في بلد ديموقراطي ، وأستطيع أن أقول ما أريد ! عاشت الحرية ! عاشت ، عاشت ، الخ .

«إن ليوسا الصامتة هذه لم ترق لالتانيا الساخرة ولا لأولغا المتحفظة » — قرر كريموف ، مشفقاً لسبب ما على هذه الفتاة الغريبة ، ذات الأنف الحاد ، والنظارات المريخية ، التي ظهرت في أسرتهم ، ومن أجل تخفيف الجو المتوتر على المائدة ، قال كريموف :

— أتعرفين ، يا ابنتي ، ثمة مقطع ، في مسرحية تشيخوف الرائعة

« السهب » ، حيث يأكل ، دينيسكا ، أحد شخوص المسرحية ، الخيار . وقد جاء في هذا المقطع مايلي بصورة تقريبية : ابتعد دينيسكا جانباً ، وأخذ يقضم الخيارة ، بشكل أخذت الخيول تنظر إليه .

ـ ياله من شاب شجاع ، ماهر ! ـ صاحت تانيا ، وهي تضرب كفاً بكف . ـ هكذا الرجال وإلا فلا ـ لقد أدخل الرعب إلى قلوب الجياد . غير أنني لم أقرأ « السهب » . لم ندرسها في المدرسة . لكنني رأيتها فيلماً سينمائياً . أما مادرسناه في الأدب فهو الآتي : فانكا جوكوف ، صبي في الخمسين من عمره ، يتدرب عند الحذاء آليخين ، وفي عشية عيد الميلاد ، لم يدخل النوم إلى جفونه ، والخ . . .

ـ صبي في الخمسين ؟ ـ هز فالنتين كتفيه . ـ ماهذه السخافة ! ماهذه الترهات !

ـ لأنني سئمت إلى حد شنيع مما يقال لنا في درس الأدب حول تشيخوف ـ فانكا ، فانكا ، بائس ، مهمل ، بلاطفولة ذهبية . وأيضاً ، الأطفال في عهد القياصرة كانوا يعيشون في ظروف لا تطاق ، كانوا يرتدون أخفافاً من ألياف الشجر ، ويعملون أربعة عشر ساعة في اليوم ، ويأكلون سمك الرنكة . ثم أيضاً : غسق الحياة البشرية ، انغمس الجميع في الدناءة والبذاءة ، في البحث عن عنب الثعالب ، ولا يحلمون إلا بشيء واحد : بالسماء الممتلئة بالماس والحدائق الغناء بعد مائتي عام . لا أستطيع احتمال مدرسة الأدب ماريغينر يخوفنا . . . إنها عمود خشبي ، خبزة مقددة في تنورة ، عانس عجوز ، شفتاها مدهونتان بحمرة شاحبة . تتكلم من أنفها : غو ـ غو ـ غو . . .

وقالت تانيا ، وهي تتابع قرض الخيارة ، بتعابير وجهها الصبياني .

مدرستها ماريغينريخوفنا « الخبزة المقددة في تنورة » ، وهديرها من أنفها ، ثم لوت وجهها بتحد نحو فالنتين ، الذي نظر إليها نظرة عابسة قاسية ، وقالت بحيوية وحماسة :

ــ إنها تدفعني إلى الجنون ! ذات يوم ، استدعت إلى السبورة كودينوف . وهو طالب أخرق ، ذو صوت عريض يشبه صوت الجاموس ، عندنا في الصف . طلبت منه أن يتلو قصيدة مايا كوفسكي « جواز السفر » . خرج كودينوف ، وأزاح قدمه جانباً ، وأخذ يصرخ بملء حنجرته : « لو كنت ذئباً لنهشت البيروقراطية ! » ــ أما المعلمة ماريغينريخوفنا ، فقد نهضت فجأة ، وسارت من ورائه وسدت أذنيها ، وأخذت تزعق : « ماهذه الفظاعة ! » ، فتسمر كودينوف مكانه ، ولم يحرك ساكناً ، مثل بقرة أمام آلة تصوير ، ولم يستطع المذهوله أن يغلق فمه بشكل من الأشكال ، ثم تحرك ومشى ، كالجمل فوق المقلاة ، والتفت إلى ماريغينريخوفنا ، أما نحن فقد كدنا نموت من الضحك وقام أحد رفاقنا ، من أصحاب النكتة ، وشبك بدبوس على ظهره ورقة كتب عليها بأحرف كبيرة : « لا أريد أن أتعلم ، أريد أن أتزوج ! » ، أتعرف يا بابا ، كم كان الموقف مضحكاً . . .

قهقهت تانيا بصورة جامحة ، ناظرة بخبث إلى الجميع ، وقد لمعت أسنانها ببريق النظافة الفتية ، كما لمع شعرها الكتاني المكتوي بأشعة الشمس ، ولم يستطع كريموف أن يصمد أمام مرأى مرح ابنته المحبوبة . فغطى جبينه بكفه ، وشرع يضحك بصمت ، وبدا وكأن ضحكه غير مناسب ، وهنا سمع صوت أولغا المؤنب :

ــ تانيوشا ، أية فتاة أنت ؟ ، فعلاً ، لا تسمحي لأحد بأن يقول كلمة واحدة . وتنطلقين بكلمات غير محتملة من اللغة المبتذلة المدرسية .

ـ هراء ـ قال فالنتين متذمراً ـ كلام غامض .

ـ ليس هراء ، وإنما روعة وبهجة . ـ قالت تانيا معترضة . وبالتحدي الخبيث نفسه ، لمعت عيناها المصوبتان نحو لوسيا الصامتة ، وسألت بصوت جدي فجأة : ـ وأنت ، يا ليودميلا فاسيليفنا ، تعتقدين أيضاً أن هذا هراء ؟ أجل ؟ صحيح ؟

رفعت ليودميلا نظارتها المريخية عن الصحن ، ومسحت شفتيها بعناية وأناقة بمنديل ورقي ، واعتدلت في جلستها أمام الطاولة ، بحيث ارتسم ثدياها الصغيران ، غير الملحوظين ، من تحت القميص الداخلي مثل أكمتين متشامختين ، وقالت بصوت ناعم ، وكأنه صوت فتاة صغيرة ذات ضمير حي :

ـ إنهم وقحون . لايصح أن يسخروا هكذا من المعلمة . يجب طردهم من المدرسة .

ـ ليسوا وقحين ، بل فتيان جيدون ـ اعترضت تانيا بحيوية ـ وليس من الواجب طردهم ، بل طرد ماريغيزيخوفنا . لأنها خنقتنا بالملل والسأم والسخافة المبتذلة .

ـ إنها امرأة بائسة . . .

ـ الأغبياء وحدهم هم السعداء .

ـ هذا يعني أنهم ليسوا أغبياء ياابنتي .

ـ لا أفهم يا بابا . . .

تدخل كريموف في الحديث ، بحذر كان يبديه دائماً ، عندما تحتد تانيا غيظاً ، مثبتة صحة رأيها ، محطمة كل شيء على طريق حقيقتها .

وعندما لاحظ الحمرة الخمرية على وجنتي ابنته ، وهي العلامة الأولى على عدم موافقتها ، التي تهدد بالانتقال إلى اندفاع لا طائل منه للبحث عن الحقيقة ، تابع حديثه مسترضياً ، مهادناً :

— ليسوا أغبياء يا ابنتي ، لأنهم سعداء . — وبعد أن هدّأ بنظرته ثانيا التي ضحكت ، توجه إلى ليودميلا بلهجة البساطة المحترمة التي أتقنها ، والتي كان يستخدمها في حديثه مع الممثلات الناشئات ، المدعوات إلى « البروفات » السينمائية : — وأنت ، يا ليوسا ، تدرسين مع فالنتين في السنة الدراسية ذاتها ؟

— كلا .

— ماذا تعملين اذن ؟ ، أين تدرسين ؟

— إنني أعمل .

— أين ؟

— فياتشيسلاف أندريفيتش ، إن مهنتي لن تحوز على إعجابك .

— اكشفي لنا هذا السر ، إن كان ذلك ممكناً .

— أبي — تدخل فالنتين ، وقد قطب حاجبيه القاتمين — إنك تطرح الأسئلة على ليودميلا ، كما في الامتحان . أليس الأمر سيان ، أين تعمل ، وماذا تدرس خطيبة ابنك — نحب الإنسان وليس مهنته .

— أنت على حق — قال كريموف — غير أن المهنة نصف الإنسان .

— والنصف الآخر ؟

ـ النصف الآخر هو عدم تحقق الحلم ، عدم إرضائه ، والاتكال على السعادة والحظ والوهم .

ـ نحن جميعاً ، يا أبي ، نعيش حياة مصطنعة . جميع الكناسين ، وجميع الوزراء ، وجميع العظماء النابليونيين من الدوغمائية .

ـ نحن نعيش في عالم مشؤوم . هكذا أصبح ـ صحح كريموف ، مشفقاً على عناد فالنتين ، المعروف به منذ الطفولة ، واتجه من جديد إلى ليودميلا بروح ودية : ـ ومع ذلك ، أنا فضولي ، ماهو عملك يا ليوسا ؟

« في الواقع ، من أين لي الحق بأن أطرح عليها هذه الأسئلة ؟ إنني أسألها باصرار مدير الذاتية ، هذا تطفل ، وبذاءة ، في أي معنى كان . . . » .

ـ إنني أعمل ، فياتشيسلاف أندريفيتش .

ـ يبدو أنك تعملين في مخبر إحدى مراكز البحوث العلمية ؟ ترتدين الرداء الأبيض ، وتسمين رئيسك معلماً ؟ هل حزرت ؟

ـ لم تحزر . إنني أعمل مفصلة ثياب في محل خياطة للسيدات .

ـ هكذا إذن ؟ أمر طريف .

« وما الداعي إلى دهشتي هذه ؟ أردت لابني خطيبة من مهنة أخرى ؟ هل انتظرت شيئاً آخر ؟ وماذا أردت تحديداً ؟ »

ـ فياتشيسلاف أندريفيتش ، لقد نظرت إلي نظرة غريبة ، غير مفهومة . . .

تردد صوتها الناعم بامتعاض مغناج ، لكن ما صدمه ليس صوتها ، بل تلك الغرابة ، غير الطبيعية ، التي تمثلت في الارتباط المرتقب بين فنانتين « المنفاسف » ، البعيد الغور ، العميق ، طالب معهد السينما ، وبين هذه الفتاة الناعمة ، مفصلة الثياب ، ذات النظارة الشمسية ، بقطرات العرق التي تلوح على أنفها الأخنس الحاد . كانت أولغا تجلس صامتة ، واجمة كئيبة ، دون أن تشارك في الحديث ، وكانت ترسم بملعقتها طغريات على السماط .

— نظرت نظرة غريبة ؟ عذراً يا ليوسا . وتقبلي ذلك على أنه مجرد فضول — قال كريموف باحترام — إنني ، ببساطة ، أهتم بمهنتك . ماذا تفعلين على وجه التحديد ، في مشغل الخياطة ؟ كيف تفصلين طرازاً أو نموذجاً من النماذج ، إن لم يكن سراً ؟ أنا أعرف ، كم يصعب أحياناً إرضاء كهنة « الموضة » .

— هذا غير ممتع أبداً ، فياتشيسلاف أندريفيتش — قالت ليودميلا — مهنتي عادية للغاية . غير أنني أحب أفلامك . هؤلاء الأشخاص الأقوياء ، الطيبون ، لماذا يموتون جميعاً تقريباً ، عندك ، في الحرب ؟ كم أشفق عليهم . كم كانوا جيدين هؤلاء الفتيان . وفيلمك الأخير ، الذي حصل على الجائزة في باريس . . . ماسمه ؟ « الحرب غير المعلنة » . . . إنك تريد أن تقول ، أن الناس يدمرون الطبيعة ، يدمرون الأرض ويدمرون أنفسهم ؟ لقد بقي في ذاكرتي هذا المقطع من فيلمك ، حيث يقول بطل الفيلم ، وهو عالم ، حزين جداً ، لصديقه : « مع ذلك ، فالإنسان لا يعيش من أجل أن يتحول إلى لقمة سائغة لستة أنواع من ديدان القبور . إن العثور على معنى الحياة هو السعادة ، أما السعادة ، فهي الشيء الذي لم نشعر به نحن . . . » .

— ذاكرتك جيدة ، ياليوسا . . .

— إن ليودميلا تعشق السينما ، إنها هاوية الأفلام السينمائية يا أبي — قال فالنتين برفق ودود — إنها لم تدع فيلماً يفوتها .

— فياتشيسلاف أندريفيتش ، لقد قرأت في مقابلة صحفية ، أنك اخترت لدور سينمائي ممثلة شابة من مسرح البولشوي ، وكان من المفروض أن تشارك في التصوير — قالت ليودميلا بصوت ناعم متلعثم — لقد سمعت ، أنه قد حصل لها حادث أليم ، وقد أسفت عليها كثيراً وأشفقت . . . في تلك المقابلة الصحفية ، كانت صورتها منشورة — إنها رائعة الجمال .

— أنت تتحدثين عن الفنانة التي توفيت منذ فترة قصيرة ؟ — سأل فالنتين ، ناظراً بعبوس إلى نظارة ليودميلا الشمسية .

— لقد حفظت اسمها — ايرينا سكفورتسوفا . وسمعت أنها كانت قد تعرضت لإصابة ، وقد منعت من الرقص ، وأنت اخترتها لأداء دور سينمائي . فياتشيسلاف أندريفيتش ، كم أنت إنسان طيب . . .

— كانت ممثلة موهوبة .

« كيف يمكن الجمع بينهم ؟ على أي نحو ؟ أولغا ، ليوسا ، فالنتين . . . أين الصلة ، أين الرابطة ؟ أين الخيط المنطقي ؟ أولغا المحافظة ، المرأة القديسة ، وإلى جنبها ليوسا ذات الأنف الحاد ، الفتاة المحدودة ذات الجرأة السخيفة . وماذا يجمع بينها وبين فالنتين الجدي بصورة مفرطة ، والمنغلق على نفسه ؟ الشهوة الجسدية ؟ » .

— إنني أشفق عليها كثيراً — كررت ليوسا بهمس ، وقد أحنت رأسها — كما أنني آسفة عليها ، فياتشيسلاف أندريفيتش . . .

قال فالنتين مكفهراً :

ـ ليوسا ، ماهذه العواطف ! استهلاك فارغ للخلايا العصبية . وقع حادث أليم ، ومثله تقع مئات الحوادث كل يوم في موسكو وحدها .

ـ لا تصدر الأوامر أيها الخطيب ، أنت لم تصبح زوجاً بعد !

ـ تدخلت تانيا بمشاكسة ـ ليودميلا فاسيلفنا نفسها تعرف متى عليها أن تستهلك خلاياها العصبية ، ومتى لا تستهلك . أي قائد عسكري ظهر !

ـ كم هذا غامض ، كم هذا وحشي ، كم هذا سخيف . . . ـ قالت أولغا بحركة من شفتيها ، وضعت الملعقة على السماط بصمت ، وشعر كريموف بألم في قلبه من معاناتها الخفية الصامتة .

ـ أختي العزيزة ! أنا منذ طفولتي ، أقف ضد المواعظ والتعليمات السخيفة ، وهذا أمر عليك أن تعرفيه جيداً . إنني أؤيد الحرية الكاملة للشخصية ـ اعترض فالنتين ، ثم قال ، مخاطباً ليودميلا ، وقد بدا أخرقاً ، طويل الرقبة ، مهموم الوجه ـ اخلعي النظارة ، إنها تضايقك .

فخلعت النظارة ، باذعان وطاعة ، أما هو فقد مسح لها جبينها وخديها بعناية ، دون أن يستحي من أحد ، وأعاد المنديل إلى جيبه ، وقال ببرودة ، وهو ينظر إلى أغصان أشجار البتولا ، المتكسرة أمام النوافذ المفتوحة على الشرفة :

ـ لقد تذكرت ليوسا فيامك الأخير ، يا أبي . وأنا أيضاً كنت أفكر به . هل تريد في عصرنا الذرائعي هذا ، أن يفكر الناس ، وهم كالنمل الضعيف العاجز ، بمعنى الحياة ، بالجمال ، وبنفوس بعضهم

بعضاً . هل تؤمن بفكرتك إلى النهاية ياأبي ؟ وهل تعتقد جاداً ، أن التقدم الأخلاقي أقوى. من التقدم التقني ؟

ـ آه ، لقد بدأت الفلسفة اللعينة ! ـ قالت تانيا ، وضربت كفاً بكف بامتعاض ـ كان صامتاً دون همسة ، فأصبح ثرثاراً لا يحتمل ، مناقش ومجادل ، لا يسمح لأحد بقول كلمة ! فاق رؤوس الجميع بثرثرته !

ـ تانيا . لا تزعجينا . مادخل الفلسفة اللعينة هنا ؟ إنني لم أر أبي منذ فترة طويلة .

ـ لم تعط لأحد معرفة الحقيقة الكاملة عن نفسه ـ قال كريموف والتقت نظرته بعيني أولغا المتوسلتين ـ والإنسان ليس إنساناً إلا لأنه يعيش بين الناس .

سأل فالنتين بعناد :

ـ لكن ، ماذا يكسن في نفوس الناس وأعماقهم : الخير أم الشر ؟

ـ لا تنتظر فرحاً مبتذلاً : الخير والشر معاً . الوقت لا يرحم الناس . تصور حواراً ذاتياً ، بين المرء ونفسه : « لقد أصبحت إنساناً آخراً ؟ » ـ « لا ، لقد بقيت كما كنت سابقاً . العصر تبدل ـ وأنا أصبحت إنساناً آخراً » . الناس يغيرون العصر ، والعصر يغير الناس .

ـ لهذا ، يا أبي ، أنا مقتنع بأن التقدم الروحي عاجز وضعيف أمام التقدم التقني . وجميع محاولات المفكرين المتشنجة لإدخال عاطفية الماضي الأخلاقية إلى القرن العشرين التكنولوجي هي محاولات عابثة . إن هذا ليس استهتاراً ولا مجوناً يا أبي . على المرء أن يجتاز إمتحان الشبع

والرفاهية ، وهذا لا يمكن اقترانه بالحياة الروحية . السيارات والآليات بحاجة إلى بنزين ، وهناك حاجة عامة إلى الوقود — هذا يعني أنه يجب استخراج النفط من باطن الأرض . أعمال البناء بحاجة إلى أخشاب ، إذن من الضروري قطع الأشجار والغابات . لا يمكنك خياطة جاكيت وبنطال من روح . ! !

— إن جرأتك ، يابني ، هي مثل من يريد أن يرى الملك العاري لابساً .

— أتقصد التقدم التكنولوجي ؟

— وثمة ناحية أخرى هي معنى الحياة البشرية ، التي لا نود أن نراها ملكاً عارياً .

— لو كان الإنسان خالداً ، لما فكر بمعنى الحياة ، يا أبي . والخلود لا يقدمه للإنسان إلا التقدم التكنولوجي ، التكنولوجيا ونشرها ، وليس إنجيل الأخلاق ، أو ما يدعى بالروح .

— أنت لا تزال فتياً ، يافالنتين . والإنسان أحياناً يحتاج إلى حياة كاملة ، كي يدرك ، أنه عاش حياته بلا معنى .

— مفارقة ، مفارقة .

— المفارقة أحد أشكال الحتمية . لاأود أبداً ، يا فالنتين ، أن تعيش حياتك تحت شعار التقنية التي تقرر كل شيء ، كما يُزعم . بهذا الصدد ، إن التقنية ، « كاميرتك » السينمائية ، لا تقرر شيئاً ، إذا لم تخدمها ، ولم تخدمك بصورة رشيدة .

ـ أبي ، لن أعيش حياتي بلا معنى .

ـ كم هذا الحديث غامض، كم هو سخيف ! ـ كررت أولغا بذهول ، والتقت نظرتها بنظرة فالنتين ، فسألته بصوت خافت : ـ الأفضل ، أن تحدثنا ، كيف ستعيش أنت وليودميلا . من أية موارد ، من أية أموال ؟ أنت لم تنهي دراستك الجامعية في المعهد ، وعليك أن تدرس عامين آخرين . . .

صمت فالنتين بانطواء ، وسكتت أولغا .

ـ أولغا يفغينيفنا ـ راتبي الشهري مائة وأربعون روبلاً ـ قالت فجأة لودميلا بصوت مستاء ـ ثم أنني أستطيع أن أمارس الخياطة في البيت . وأستطيع أن أحقق دخلاً أكبر بكثير . وهذا يكفينا الآن . سوف نعيش عند والدتي . . . لثلاثتنا غرفة مساحتها ثمانية عشر متراً مربعاً . صحيح ، أن الشقة مشتركة مع جيران . أنت لا تعارض ، أليس كذلك ؟ أنا أعرف أنك لا تمانع .

وربتت بصورة خفيفة على يد فالنتين ، وقد عرف كريموف من ايماءة رأس ابنه بالموافقة ، أن الإرادة غير الملحوظة لهذه الفتاة ذات الأنف الحاد قد سيطرت على ابنه بسلطة واضحة ، مخففة من عناده ، ومخضعة إياه ، وممسكة بقدرته على المعارضة الدائمة .

ـ ألستما مبكرين في تقرير مصيركما ؟ ـ سألت أولغا بعتاب هادىء . ـ لماذا تسرعان ؟ أرجوكما ، فكرا جيداً ، أنتما الاثنان . فالنتين ، أنت إنسان عاقل ، وأعتقد أن المستقبل ليس عندك سيان .

ـ ماما ، علينا أن نعيش حاضرنا أيضاً ، ـ اعترض فالنتين ـ المستقبل غامض ومجهول . إنه خلف سبعة أقفال .

ـ لكن هذه الأقفال ، عليك أن تكسرها أنت يا بني ـ قال كريموف .

ـ سأكسرها في الوقت المناسب .

كان الجو الحار ، الخالي من أية نسمة هواء ، مسيطراً على الشرفة المحاطة بالارتخاء بعد الغداء في الحديقة ، وبصوت رتيب ناعس طنت زرقطتان حول صحن توت العليق الحامض المهروس ، والتصق القميص الرطب من العرق بظهر كريموف ، وكانت تخطر بذهنه من حين لآخر ، فكرة غبطة « الدوش » الماطر ، الذي يغسل ذبوله ، وهذه الوعكة التي سيطرت عليه طيلة اليوم .

ـ أستميحكم المعذرة ـ قال أخيراً كريموف ووضع المنديل الورقي على المائدة ـ أولا ، أتعرفين ، لازلت أشعر بتعب السفر ، لذلك ، إنني أتمنى الدوش ، والمخدة الرطبة تحت رأسي .

وقبلها على صدغها ، شاعراً بذنبه ، وخرج متنهداً .

* * *

بعد أخذ الدوش المنعش في الحديقة ، وبعد طعم الماء الحديدي المطري الدافيء ، والرطوبة النهرية الدافئة ، والقضبان الخشبية الرطبة لقمرة الدوش ، بعد هذه الغبطة كلها ، استلقى كريموف على السرير في مكتبه . كان الهواء المنعش يتسلل من الحديقة ، حيث خفت حدة القيظ ، واقترب الوقت من المساء ، وهنا ، في العلية المفتوحة للهواء ، سمع في عزلته المتأملة صفيراً خفياً لصفارية خلف باب الشرفة .

ــ أبي ، ألست نائماً ؟ سامحني ، إن أيقظتك . نحن سنغادر البيت . . .

ــ هذا أنت يا فالنتين ؟ وعلام أسامحك يابني ؟

ــ لا ، أردت أن أقول لك . . .

وعاد كريموف على الفور إلى الواقع ، من حالة الاستراحة والاسترخاء تلك ، حيث كان من الممكن أن يستعرض ، كما في صالة سينمائية فارغة ، الشريط السينمائي لهذا اليوم ، ونهض من السرير وقال بصوت عادي :

ــ ماذا تريد أن تقول ؟ قل ، يافالنتين ، أنا لم أنم ، وأنت لم توقظني ، ولا حاجة للاعتذار .

كان المكتب كله ممتلئاً بدخان ذهبي ، عسلي ، من الشمس قبيل الغروب ، وكان زجاج رفوف الكتب يلمع كالكهرمان ، وكان الهدوء ينبعث من النوافذ . وفي هذا الدخان المشرق كان يقف فالنتين قبالة السرير ، ممسكاً بيده رداء ليودميلا وصندلها (يبدو أنه دخل من أجلهما) ، وقال بصوت جهوري ، بشيء من الارتباك :

ــ نحن سنسافر ، حان الوقت . موعد الحافلة الكهربائية المسائية بعد عشرين دقيقة . ليوسا تستحي منك ، وقد أرسلتني لأحضر لها حوائجها .

« عجباً يا ترى ، هل كان لدى فالنتين شعور مشابه لما شعرت به في أعوامه ، عندما استيقظت بعد الاستطلاع فوق عنبر الحشائش المجففة ؟ في تلك الأثناء ، رأيت نجماً خريفياً أزرق اللون فوقي ،

وأذكر ، أنني فكرت ، أنه في ذلك العالم البعيد ، تنتظرني المرأة ، الإنسانة التي سوف أحبها طيلة حياتي » .

— مفهوم — قال كريموف ، وهو يتأمل وجه ابنه النحيل ، محاولاً العثور على ملامح تشبهه ، تشبه كريموف الشاب ، وطلب منه قائلاً : — اجلس دقيقة . ماذا أردت أن تقول لي ؟

جلس فالنتين بشيء من التردد على حافة السرير ، وقد كوم الرداء فوق ركبتيه ، دون أن يترك الصندل ، ونظر نظرة جانبية ، بعينيه اللتين كانتا تخشيان الإلتقاء بنظرة والده ، باتجاه المكتب ، حيث كان يرقد شعاع الشمس الدخاني ، كالذهب الهادىء ، ثم قال متعثراً :

— أتعرف ، يا أبي ، لقد ذاع عندنا في المعهد خبر ورطتك في الاستوديو . أجل ، بصورة عامة . . . وكذلك موت الممثلة التراجيدي . . أنا أفهم أن لك أعداء ، وأشخاص لا يريدون الخير لك . — وتجهم فالنتين ، ممسكاً الصندل بيد ومتابعاً تكويم رداء خطيبته فوق ركبتيه بيده الأخرى دون أية ضرورة . — كل ما أرجوه ، ألا تصل الشائعات والنمائم إلى أمي . . .

— الشائعات والنمائم ؟ لقد حدثتني تانيا عن الشائعات التي سمعتها . فماذا تقصد أنت ؟

— هراء كامل — قال فالنتين بغضب — هرطقة ودناءة في غلاف ملون من الابتهاج الشرير المبتذل . إن ضيقي الأفق من السينما « الوطنية » يثرثرون عن علاقتك الخاصة المتميزة بالممثلة المتوفاة . ضجيج فارغ لا يساوي قرشاً واحداً . الحقيقة ، بالنسبة لي ، أنك لست دونجواناً ، وتحب أمي . لكنها سوف تتألم إذا ما سمعت بالشائعات الشامتة .

ومن خلال إنارة المكتب الصفراء ، رأى كريموف على مقربة منه يد ابنه الكبيرة ، الخشنة بفتوة ، الشبيهة إلى حد مريع بيد أخرى ، وكأنه حلم بها ، إنها يد والد كريموف ، عندما وصل إلى البيت صباح يوم ضبابي ، تفوح منه رائحة فحم القواطر البخارية ، من أيام شهر شباط . إنها اليد التي ربتت على كتف أمه السعيدة ، لكن هذه اليد ، الآن ، تكوم هذا الرداء النايلوني الدارج . ذهل كريموف من قوة مورثات الجد ، وشعر بفضول نادر نحو فالنتين ، الذي كان يتميز عن الجميع في الأسرة بعناد « العقارب » ، وقال بصوت هامس :

— شكراً يابني . أنت على حق . ولكن ، كيف أحوالك أنت ؟ قل لي برجولة : هل كان اختيارك صحيحاً ؟ ألن تفترقا بعد عام ، حيث لن يكون بينكما أي شيء مشترك ؟

— وهل المسألة متوقفة على ذلك يا أبي ؟ . . . حسناً ، أنا ذاهب ، إلى اللقاء ، اعذرني ، إن كنت . . .

— بالنسبة للاعتذار ، لا لزوم له ، يابني . قليل من الناس يعرف من يجب أن يعتذر من الآخر . . . ومن أجل أي شيء ، ولماذا .

— أنا أعرف أن المصادفة هي التي تسيطر .

أحنى فالنتين رأسه لأبيه مودعاً ، بتكلف ، (لم يجرأ على تقبيله) ، واتجه نحو الباب بصورة منحرفة ، حاملاً الرداء والصندل بخنوع . وبكتفيه الضيقين ، ومشيته ، وببنطال « الجينز » المهترىء الذي يرتديه ، انه كله قريب وغريب ، وفجأة شعر كريموف بروحه تتمزق شفقة عليه . « انني لا أعرف ابني ». فلذة كبدي . فهل يحق لي أن أسدي النصح له ؟ » .

غرق ثانية في وحدته ، في صالته السينمائية الفارغة ، ورأى في الأعلى وادياً ، ودخان الحدائق الشمسي ، والكروم ، وسقوف البلدة القرميدية ، وهب نسيم دافيء من الوادي الصباحي ، نسيم خفيف عذب . . . » وأين كان هذا ؟ في العام الخامس والأربعين ، في النمسا ؟ ».

ثم سمعت أصوات من الحديقة ، فخرج إلى الشرفة بصعوبة . كانت الشمس تميل إلى المغيب ، خلف أشجار الصنوبر . وكان يسيطر ، في كل مكان من الحديقة ، السكون ، والكسل المخدر ، كان كل شيء عبقاً ، ذكي الرائحة ، منهكاً ، وقد أخلدت الطيور المتعبة طيلة اليوم ، إلى السكينة وامتدت الظلال على العشب تحت أشجار التفاح . وفي هذا الهدوء الصيفي الساكن ، قبيل حلول البرودة والشفق ، كان يقف فالنتين أمام الخوخة ، وهو يكاد لا يرى بين أزهار البنفسج الطويلة ، ماسكاً بيده حقيبة سفر صغيرة ، تخص خطيبته على الأغلب . أما هي ، فكانت تخطو برشاقة ، بقدميها الرفيعتين ، منتصبة القامة ، كانت تقترب منه ، وترافقها أولغا ، التي تصغي إليها ، وتبعد شعرها البني الطويل عن خديها إلى الخلف .

— إلى اللقاء ياأبي — صاح فالنتين ، ملوحاً دون اهتمام بيده الكبيرة (« يد جده ») ، وهنا نظرت إليه ليودميلا ، وتهللت للحظة تعابير وجهها ، ذي الأنف الحاد ، ولوحت بيدها أيضاً باتجاه الشرفة ، متناسية أولغا ، ناظرة إلى العلية بقلق .

« إن أولغا لم تقبل بها . إنها خائفة ، متكدرة من قرار فالنتين » — فكر كريموف ، ولسبب ما ، قارن ليودميلا الدقيقة الصغيرة ، الشبيهة بالدمية ، بقوام أولغا الفتي ، الممشوق المتزن ، بتقشف ممارسي اليوغا ،

إنها أكبر من الخطيبة بمرتين ، وبتسريحتها الأنيقة المتميزة ، التي أخذت تسرح بها شعرها في السنوات الأخيرة . وبعد مقارنته هذه ، شعر كيف تقطع الشفقة روحه بصورة حادة ، على أولغا ، على ليودميلا ، على فالنتين ، وهو ماشعر به قبل بضعة دقائق ، عندما خرج ابنه من مكتبه ، إنها شفقة ممتزجة بالحب ، بالخوف والهاجس ، تشبه الحنين ، تشبه الشعور بالذنب بحقهم جميعاً ، لأنه لم يعرف أحد منهم نفسه، ولم يعرف أحدهم الآخر .

شاهد كريموف من الشرفة ، أولغا ، وقد ودعت فالنتين وخطيبته ، وعادت إلى البيت بخطوات سريعة ، وهي تشد تنورتها . كانت تسير ، خافضة رأسها إلى الأسفل ، فناداها مأخوذاً بنفسه من المشاركة في المعاناة .

ـ أولا !

وركض على الدرج ، متجهاً إلى الشرفة التي وصلت إليها أولغا من الحديقة ، فعانقها ، ودفنت أولا وجهها بخضوع إلى كتفه ، كما لو أنها تطلب الحماية .

ـ أولا ، نحن هنا ، غير قادرين على عمل أي شيء . لقد قررا بنفسيهما ، كما فعلنا نحن ، في ذلك الحين .

ـ أخشى أن أبقى وحيدة ، عندما تسافر . ـ همست أولغا ونظرت بعينين مخمليتين سوداوين . ـ انني أخاف عندما أكون وحيدة في البيت ، وأطفالي بعيدون عني . وأشعر بقلق كبير ، عندما ينقضي النهار ويحل الظلام . لاأريد أن ترحل إلى أي مكان . . .

أجاب وهو يقبلها من طرف أنفها :

— ياغبيي ، الناس الموسوسون يخافون الظلام لأن الخوف من الظلمة كامن في دمائهم ، لكنك امرأة مثقفة .

— هذا شيء آخر ، فياتشيسلاف — اعترضت أولغا — نحن نعيش في رفاهية مقلقة . شيء ما قد يحدث .

— لماذا تحدثت فجأة عن الخوف ؟

— إن هذا شيء أكبر من الخوف وأعظم ، إنه الرعب والذعر عشية ما قد يحدث . . .

— لا أفهم شيئاً .

— انني خائفة .

— حبيبتي أولا ، مم أنت خائفة ؟

— انني أخاف من كل شيء : من هذا الحر الغريب ، الذي لم يحدث مثله منذ مائة عام ، من ظلمة الليل المرعبة ، من الهدوء والسكينة في مكتبك . يحل هدوء مريع هنا ، عند الفجر . نحن نعيش في توقع رديء ، سيء . أعرف أن لديك ورطة ومشاكل . وفالنتين يدفعني إلى اليأس والقنوط . أوه ، ياإلهي ! وأية أقاويل لا يطلقونها عليك . وكم إخترعت من أعذار ومبررات . أخشى أن ينهار فجأة كل شيء . لم أعد أعرف ماذا علي أن أفعل ، هل أحبك أم أتوقف عن حبك ، — قالت بشيء من المزاح المرير ، ومرت باصبعها على شفتيه ، — ربما يكون كل شيء قد انتهى بيننا ؟

« لا ، لم تكن هناك رفاهية متألقة في حياتنا المشتركة . انها لم تكن واثقة بي . وكان هناك دائماً أثر لا ينطفأ ولا يخمد للقلق والخوف » .

– أولا ، أحبك الآن ، كما أحببتك في العام السادس والأربعين – قال كريموف بصوت أجش – هل تصدقين هذا ؟

– بصعوبة كبيرة .

– عبثاً يا أولا .

* * *

الفصل الثامن

غفا كريموف في وقت متأخر .

فمنذ المساء وحتى ساعة متأخرة من الليل ، كان يقرأ يوميات ليف تولستوي ، التي كانت متنفسه الوحيد وهاجسه ، والتي اكتشفها قبل عشر سنوات ، عندما كان ساذجاً ، جريئاً ، سريع التصديق وخالداً ، لأنه لم يكن يتوقع في تلك الأثناء كثيراً مما عرفه وأدركه بعد بلوغه الخمسين عاماً . إنه لم يكن يفكر بصورة جدية ، أنه في الموعد المحدد ، سوف يكون عليه الخروج في المحطة الأخيرة ، وأن يترك إلى الأبد ، في عربة القطار الشتوية المريحة والحزينة ، حقيبته كلها ، التي تعب من أجلها طيلة حياته ، والتي ستكون غير لازمة ، كما يبدو ، للمستقبل القاسي الذي لايرحم ، بعقلانيته وعصره التكنولوجي والآلي لاسيما وأن ذاكرة الناس هي بعد غير ثابت ، متحول .

غير أنه كان يعثر في كل مرة ، في اليوميات ، على ماكان يطمئن تولستوي من قناعات ، ويثير في نفسه إيماناً راسخاً بكمال العالم وسيره نحو الأحسن عن طريق التوجه إلى الذات ، الاستبطان ، من أجل ازدياد حب الإنسان لأخيه الإنسان ، ليس الحب الحسي ، البدني ، بل الحب الروحي . وكان يرى في عقلانية هذا الحب العارية ، بل

القاهرة ، مفتاحاً إلى الحياة الأخلاقية كلها للإنسان العظيم في أعوامه الأخيرة . وعند قراءته في الصفحة التالية العبارة المتعاطفة مع البشرية كلها : « كيف يمكننا أن لا نحب إنساناً آخر ، مع أننا نعلم أننا جميعاً محكومون » ، كان يعود من جديد إلى اليوميات حول العلم والفن ، اللذين « لا يمكنهما أن يصبحا شيئاً آخر إلا في حال الحياة الأخوية » .

« ماذا كان باستطاعته القول ؟ — فكر كريموف ، واضعاً الكتاب على صدره ، متأملاً في السقف الدائرة الخضراء المنعكسة من مصباح الطاولة المنار على طرف السرير . — للأسف ، لم يحدث ازدياد الحب ، ولم تحصل الحياة الأخوية ، رغم أننا كنا ننتظرها بجنون بعد الحرب . فالشبع وإغراء الخيرات المادية لم يجعلا الكثيرين منا أحسن مما كانوا . فمن المذنب ؟ نحن جميعاً . لقد وجهنا عنايتنا أكثر مما يجب نحو الحياة السهلة وتناسينا الرئيسي : في سبيل أي شيء أعطيت الحياة . أجل ، هنا ، في الصفحة الثلاثين . . . يالها من كلمات دقيقة ، معاصرة : « إن الخير الذي يظهر الناس في شرهم ، يعدونه شراً بصدق . وهكذا حتى أن الرحمة ، والاستكانة والحب — كل هذا يبدو لهم شيئاً مقرفاً ، مكروهاً ، شائناً ، مثيراً للاستياء » . ولماذا لم يحدث الكمال ، والتحسن المنشود ؟ هل بسبب الحرب ؟ الحرب التي أسقطت الجزء الأفضل من الأمة ؟ إن الأصح هو أننا حتى الآن لم نسد الثلمة . أين اختفت القواعد الأخلاقية الأخرى ، التي لا يمكن تصور روسيا بدونها ؟ وهاهي كلمات القلق وعدم الاطمئنان التي يكتبها : « إن مايدعونه بالمدنية هو نمو البشرية . النمو ضروري ، لايصح أن نقول عنه جيداً أم سيئاً . ففيه الحياة ذاتها ، مثله مثل نمو الشجرة . بيد أن غصن الحياة أو قواها النامية في الغصن ، ليست محقة ، إنها ضارة ، إذا كانت تبتلع قوة النمو كلها » . وبعد

ذلك ترد عبارة أشد يأساً : « متى سيكون في الناس نفس ماهو في الطبيعة ؟ في الطبيعة صراع ، لكنه صراع شريف ، بسيط ، جميل . أما هنا ، فهو صراع دنيء . إنني أعرفه ، وأكرهه ، لأنني أنا إنسان » . أما في يوم السادس والعشرين من تموز عام ألف وثمانمائة وست وتسعين فثمة عبارة أشد يأساً ومرارة : « ومن جديد ، أصلي ، وأصرخ من الألم . لقد التبس علي الأمر ، وتعقد ، أنا نفسي لا أستطيع ، لكنني أكره نفسي ، وأكره حياتي . . . » .

هذه الكراهية نحو ذاته ، والتعرية الحادة ، وعدم القبول بالرديء والمزيف ، حيث « يتأنق الجميع ، ويأكلون ويشربون ، ويطالبون » دون أن يعرفوا ضحايا الشعب في سبيل ذلك ، والأسى على ضياع أفراح الشباب ، ومرح الشباب ، والخوف من « الإنقلاب » ، والإنتظار الهادىء للموت ، وعدم الإستقرار اليومي في الأسرة (« . . . لا كرامة لنبي في بلده . . . ») ، الذي نشأ نتيجة عدم التفاهم بينه وبين الأبناء ، الإستكانة ، ثم فجأة البهجة أمام الوجود (« الحياة ، مهما كانت ، هي خير ، لاأسمى منه ») — إن هذا كله لم يكن بالنسبة لكريموف مجرد قراءة . بل كان لذة خاصة ، كان ألماً ، ومشاركة في تلك المأثرة المؤلمة ، والصادقة إلى أقصى حد ، المأثرة الأرضية والسماوية في الوقت نفسه ، حيث أراد المعذب العظيم المتطوع أن يأخذ على عاتقه مسؤولية جميع النقائص المشتركة والشهوات والطرق المزيفة والمصائب البشرية ، وأن يسامح غير محبيه ، مفكراً بهم بمحبة ، وأن ينقذ العالم . . .

بألم ولذة معاً ، مرتوياً بالتعرية الروحية لفكرة غيره ، ومناقشاً عقيدة النبي الجامحة والمتناقضة ، وأحياناً بالوقاحة المعاصرة المدعية بمعرفة كل شيء

(التي كانت تعيش فيه بخجل في تلك اللحظات) ، بدأ كريموف يكره طموحه الذاتي وعدم صدقه ، ويصفح عنهما من بعض الجوانب . كان يكره الزيف المتبادل للرفاقية المرغمة ، إعجاب الزملاء المتبادل ، الذي كان يشبه عيداً مزيفاً للنجاح الدائم لدى كل واحد ، تقريباً ، كان يقوم باخراج فيلم صغير مقبول (« آه ، ياعزيزي ، لقد شاهدته ، شاهدته ، إنني عاجز عن الكلام ، أنا نفسي أخرجت منديلي ، عندما ظهر في فيلمك مشهد الهجوم غير الناجح . . . ياله من انجاز ، يالها من قوة ! اسمح لي ، يا صديقي ، أن أعانقك وأقبلك من أعماق روحي ! »). ولكراهيته محبة الخير المتكلفة هذه ، التي كانت تمثل بصورة متقنة أحياناً وبصورة مفضوحة أحياناً أخرى ، ولكراهيته هذا الشكل المشروع للتزلف المأمون ، الذي لايعبر عن حب لموهبة الزميل ، بل عن عنجهية مقنعة وحسد ولا مبالاة ، أدرك كريموف أنه قد حدث للكثيرين شيء ما قبل خمسة عشر عاماً أو عشرين عاماً ، حدث لهم شيء مهدم ومدمر لأهم ماعنده ، لأهم ماعند كريموف (« الحالم ، المثالي ») ، — شيء دمر الأمل بالأخوة ، الأمل الضروري للجميع ، الذي ولد بعد الحرب واستبدل بصورة تدريجية ، غير ملحوظة بالإهتمام والتطلع إلى الخيرات المادية .

« لقد بلغت المدنية ازدهاراً لاسابق له في النصف الثاني من القرن العشرين . . . » ، «لقد ألبس الإنسان الطبيعة لجاماً . . . » ، « نحن نعيش في عصر عقلاني ، عصر تقدم تقني لم يسبق له مثيل » — تذكر كريموف ، متغضناً ، كلمات المناقشين والمشاركين في ندوة باريس حول فيلمه ، وأثناء تذكره تصور البعثة السينمائية التي قادها في العام الماضي إلى نهاية

العالم، إلى الشمال ، إلى بيتشورا ، حيث كان يصور اللقطات الأخيرة من فيلمه « الحرب غير المعلنة » . . .

* * *

اقترب المركب ، هادراً بمحركه من حين لآخر ، من الأطواق المثبتة ، الموزعة على عرض نهر بيتشورا ، حيث كانت أربعة زوارق تتمايل على الموجة القائمة ، وقد أخرجت الشبكة الثقيلة المبللة وانتشلتها . كانت ألبسة الصيادين المطاطية الصفراء تلمع بصورة دسمة ، لزجة ، وكانت قلانسهم مائلة على الجوانب ، وقد ارتدى الصيادون القفازات المطاطية على أيديهم . كانوا يعملون بسرعة ، مطوقين ومضيقين الدائرة حول كائن ما ، غير مرئي بعد ، في الماء الهادىء ، القاتم . وفجأة اندفعت نار بيضاء قوية بين الزوارق — ولمعت فوق الشبكة عدة شرارات من البرق . أدى انفجار الماء المفاجىء هذا إلى إحداث نوافير من الرذاذ في المسافة المتوسطة المحاطة بالزوارق . كان هذا الإنفجار بمثابة إشارة ملتقطة ، حدثت إثرها موجة ثانية من شرارات البرق ، وفجأة أخذ الماء كله عند الأطواق يضج ويهدر ، وظهرت خطوط متعرجة فضية من الأسماك الهائجة الكبيرة ، التي سيطر عليها الذعر .

كانت الأسماك تضرب بأذيالها وتندفع ، وقد وقعت في الشباك ، كانت تسعى باضطراب إلى الإفلات من الشباك والقفز إلى الحرية من الأسر ، من الدائرة التي كانت تضيق باستمرار . هذه الإناث الجميلة والذكور القوية من الأسماك ، التي أبدعتها يد الطبيعة ذاتها من الفضة الخالصة ، المشبعة بغريزة الحياة الأساسية — ألا وهي استمرار النوع ، والتي أوقفتها قوة لاترحم على الطريق نحو تجديد الحياة : كانت الشباك

ثغطي نهر بيتشورا على عرضه من الضفة إلى الضفة المقابلة . آنذاك ، كان يبدو لكريموف ، وكأنه يسمع نداء واستغاثة ، طلباً للعون ، وكأنه يسمع نواحاً وبكاء وأنيناً ، وتضرعاً ، طلباً للرحمة . وهذا ما كان يسمع غالباً ، بالقرب من غرف الغاز في معسكرات الإعتقال النازية ، التي اقتيدت إليها النساء العاريات والأطفال ، وكان معروفاً لماذا ، وإلى أين . . .

ــ نحن نقتلها بالتيار الكهربائي في الشباك ــ قال لكريموف رئيس فرقة الصيادين ، وهو شاب أسمر اللون ، نحيف ، يضع حزاماً في وسطه ، ذو عينين زرقاوين ضبابيتين ، يشبه زير نساء . ــ انظر كيف ، مأخذان كهربائيان وانتهى الأمر . هكذا ، أكثر إنسانية . أما في السابق ، فكنا ننهي الأمر بالعصي ، بيد أنه كانت تسيل دماء كثيرة !

ــ تعال ، هيا ! ــ صاح أحدهم بالقرب من أذن كريموف .

ومن فوق رأسه ، قفز إلى الماء المكتظ جسمان مرنان قويان لفرخين من سمك السلمون ، وظهر صندوقان معدنيان من الأسلاك . نظر عامل المحرك ، وهو شاب ضخم الوجه ،نظرة لامبالية إلى السماء الغائمة ، وأدار المحرك ، فسكن كل شيء على الفور في الماء الذي تحيط به المراكب ، ولم يعد هناك طرطشة ولا ضجيج ولا بريق . رقدت الأسماك الميتة دون حراك ، وأخذت تتأرجح على الشباك سبائك فضية ، تنظر بعيون سوداء مدورة إلى السماء المنخفضة فوق نهر بيتشورا ، التي كانت تزحف عليها غيوم سوداء ، نظر إليها عامل المحرك الذي لا يعرف الإبتسام ، والذي لم يرتكب أي ذنب سوى أنه قتل الأسماك .

وصلت إلى أنف كريموف رائحة الموت الحديدية من السكون المميت لجثث الأسماك بين الزوارق ، وشعر بتشنج مؤلم دفع به إلى الغثيان عندما فكر ، بأنه في الصباح أكل لحم السلمون المقتول بالكهرباء ، تماماً كما أن شيئاً ما متوقعاً سوف يأكل بنهم لحوم جميع هؤلاء القتلة من الذين كانوا الآن في الزوارق (سوف يأكل لحمه أيضاً) — لأن قانون المراحل للسلمون والديدان والإنسان هو قانون واحد في الطبيعة ، وليس هناك من اختلاف سوى في مراحل السلم البيولوجي ، مع التساوي التام للجميع أمام الخلود . بيد أن الاستهتار الواهي ، والمنقذ أحياناً ، الذي لجأ إليه طلباً للعون ، لم يقدم له تفسيراً معقولاً لهذا التطرف من جانب الإنسان .

لقد جاءت سمكات السلمون الجميلة هذه من المحيط الأطلسي ، مارة بالقرب من شبه جزيرة كول ، واخترقت حصار الشباك الأول الذي نصبه النرويجيون ، وسارت إلى نهر بيتشورا ، باتجاه منابعه ، إلى الأنهار الصغيرة ، حيث كان على الذكور أن تحفر بأنوفها في الأماكن الضحلة حفراً في الحصى النهري ، وتلقح فيها البيوض التي وضعتها إناثها ، ومن ثم تغلق هذه الحفر ، وبعد أن تخور قواها تموت ، أو أن تنحدر من جديد إلى البحر ما إن تدب في أبدانها الحركة . أما الأسماك الصغيرة التي تخرج من البيوض ، فقد كان عليها بعد ثلاثة أعوام أن تتجه إثرها ، كي تعود بعد ستة أعوام ، متشوقة إلى الحب ، وتقع في الأسر ، ومن ثم على « الكرسي الكهربائي » ، الذي اخترعه الإنسان المتفنن في أساليب القتل ، لا من أجل إنقاذ الناس من المجاعة ، بل من أجل تزيين « الموائد الرفيعة » في مطاعم المدن الراقية والمآدب الخاصة .

« عبثاً أتذكر كل هذا ، فليس هناك من جواب على اللاعقلانية المبرمجة ، التي سوف تبيد كل ماهو حي ، بعد عشرين عاماً ، حتى في أقصى الشمال . لقد قال رئيس فرقة الصيادين ذو العينين، الشبيهتين بعيني زير النساء : « بعد عشرات السنين لن نعثر على أصغر سمكة ، مهما حاولنا . . . إننا نصطاد الأسماك بطريقة متقدمة . كما هو الأمر بالنسبة للغابات : نقطع ونقطع » .

بيد أن ما أذهل كريموف أكثر من أي شيء آخر ، صفرة الموت ، وريح المقابر التي هبت على تلك الأراضي ، حيث كانت الملاذ الأخير لحبقوق * الذي لا يجاري .

لقد رأى هذا بعد ساعة من نهر بيتشورا .

– انظر إلى الأسفل ! هناك مدينة بوستوزيرسك * * .

– أين ؟ ، إنني لاأرى شيئاً !

– في الأسفل ، في الأسفل ، مدينة بوستوزيرسك

تعلقت الطائرة العمودية في الجو فوق الأرض ، باحثة عن نقطة الإرتفاع المطلوب ، ولكن ، هناك ، في الأسفل ، في الهوة المشمسة ، لم يكن هناك أي أثر لمدينة – هناك ، وسط المنظر الكئيب للسهوب ذات الشكل الواحد ، كانت تلمع وتتفجر مياه البحيرات الشبيهة بالمرآة ،

---

* حبقوق : القمس حبقوق (١٦٢١ – ١٦٨٢) أحد كبار رجال الكنيسة الأرثوذكسية . تزعم حركة الانقسام فيها . ولوقوفه ضد البدعة الكنسية للبطريرك نيكون نفي إلى سيبيريا عام ١٦٥٣ ، ولم يسمح له بمغادرة منفاه إلا في عام ١٦٦٣ ، بعد سقوط البطريرك نيكون .

* * بوستوزيرسك – وتعني بالروسية البحيرات الخاوية . – المترجم –

في لعبة عابثة ، وكانت ترقد حولها أعشاب التوندرا الميتة ، السمراء الداكنة ، التي تقبض النفس بقنوط مسافة وحشية خارج الزمن .

وبعد أن أصبحت الطائرة معلقة بين الشمس والأرض زأر المحرك بأنين ، وبدأت الطائرة تنخفض بسرعة ، وتهبط باتجاه الأرض ، وظهرت من النافذة الأعشاب الجافة وقد تمايلت بصورة حادة ، واستسلمت تحت رياح المروحة ، وسارت الأمواج بغتة فوق البحيرة القريبة . وصمت المحرك . وفي السكون البدائي الذي يصم الأذن ، أفاق الجميع وخلعوا الأحزمة ، ونهضوا من أماكنهم ، وبصورة مترددة ، غير واثقة ، بدأوا ينزلون على السلم الحديدي ، الذي نصبه الملاحون من على ظهر الطائرة العمودية إلى الأرض ، ذات النتوءات البارزة . أخذ ينظر كريموف ، الذي بهرته الشمس الساطعة ، واحتضنه السكون المتدفق من جميع الجهات ، والهواء اللذيذ المنعش من الأفق اللامحدود ، باحثاً عن علائم حياة الإنسان ، غير مصدق أن هذا المكان هو مدينة بوستوزيرسك .

— وأين المنازل والبيوت ؟ أين كان الناس يعيشون هنا ؟ — سأل كريموف مدير التصوير بذهول — يالها من كآبة . . . أليس كذلك ؟

قفر يباب ، يوم شمالي مشمس ، ريح فوق البحيرات المسطحة ، فوق هذا المتسع الرحب البدائي ، الذي نسيه الإله وأبقاه على بساطته البدائية وقدمه . وفي هذا المكان ، حيث كانت تقوم ، في وقت من الأوقات ، منازل وأبنية وطيدة بظلالها الفسيحة ، وآبار ومخازن ، ومحلات تجارية ومستودعات ، ومدرسة — حل التدمير القاسي الرهيب ، فلم يبق أية علائم تدل على الحياة . وكان من المحزن للمرء أن يرى

الأكمات المعشوشبة للقبور القديمة ، ورفات الصلبان شبة البالية ، وكان يبرز بصورة غريبة صليبان جديدان ثابتان ، دهنا باللون الأزرق الفاتح حديثاً . من دفن هنا ياترى ؟ وكيف نقل إلى هذا المكان جثمانا الميتين على بعد مئات الكيلومترات من توندرا الشمال ؟ وماهو الهدف من دفنهما ، هنا ، حيث لاوجود لأي مسكن ، ولا لصوت إنسان ؟ ماعدا الشمس والبحيرات ، والأجمات والرياح . . .

اقترب كريموف إثر مدير التصوير ، وقد تعثرت قدماه بعظم بين الأعشاب ، من حجر رمادي مرتفع على رابية مقبرة ، وقال :

ـ صور هنا كل شيء .

ـ اذن ، هو ؟ هذا هو المحروق بالنار ؟ ـ سأل مدير التصوير ؟

ـ أجل ، هو .

ـ كان هذا نصباً للقمس حبقوق ، محب الحقيقة المتحمس ، الذي أحرق في بوستوزيرسك بأمر القيصر في القرن السابع عشر،ومات حرقاً بالنار ، متألماً ، متعذباً لتمرده العنيف على البطريرك نيكون الجبار .

بالقرب من حجر حبقوق ، وعلى مقعد صغير ، جففته الشمس ، وضعه أحدهم منذ فترة طويلة ، وقد تشقق بفعل المطر والريح ، كانت تلوح جمجمتان صغيرتان ، بلونهما الأبيض ، لطفلين ، كما يبدو ، كما كان يظهر عظمان من عظام القصبة لطفلين ، وضعا هنا لسبب ما ، وربما من القبور المهدمة ، وقد غسلهما الزمن إلى حد البياض .

ـ هكذا نحن هنا ، نبدو تافهين حقيرين ـ قال مدير التصوير

وأنزل بوهن آلة التصوير السينمائية ، ولمس بكفه الحجر الخشن . — ياله من معذب . ويالها من قوة وإيمان وقناعة كان يتحلى بها !

— للأسف ، نحن جميعاً ، تنقصنا القناعة ، — قال كريموف .

— نحن ببساطة ، لا نعرف أين الحقيقة — قال مدير التصوير ساخراً — لقد قايضناها بربطة عنق دارجة ، وبتنورة دارجة ، ذات علامة أجنبية ملصقة على المؤخرة .

وقفا أمام الحجر ،يقرآن عليه كلمات القمس الصبور ، الثابت ، غير الراضخ ، الذي لم تمنح له السلطة ، لكنه سمى بنفسه إلى الأعلى ، في سبيل حقيقته وعقيدته ، ضد ألكسي ميخائيلوفيتش ، قيصر عموم روسيا ، وضد البطريرك المتسلط نيكون، يقرآن عايه كلمات القمس الذي لم يخضعه العذاب ولم يثنه الموت . وتخيل كريموف ، كما لو أنه كان مقيداً ، يحترق هنا في عزبة أحرقها السفاحون من جهاتها الأربع ، وهو يلعن الغادرين وخونة العقيدة ، وأخيراً أصبح واهناً خائر القوى ، لكن قوته الروحية لم تنفذ ، — وخلع قبعته المصنوعة من الفراء ، ناظراً إلى الحجر ، يطلب منه في ذهنه ، القوة والنصر في عمله في الإخراج السينمائي ، عارفاً أن المساعدة ويد العون لن تأتيه من أية قوى ، سوى قواه الذاتية .

كانت شمس الشمال تبعث الدفء ، وكانت الريح تنعش رأس كريموف على هذه الأرض الشمالية المهملة ،حيث حلت مقبرة مهملة ، وسط البحيرات ، مرصعة بالعظام المرمية على التراب ، محل البلدة الروسية القديمة ،والشوارع الخشبية والأصوات البشرية،والشباك المعلقة على الأعمدة .

إلى جانب كريموف ، كان يقف الطياران ، الشابان الجديان ، بصمت ، وقد رفعا قبعتيهما الزرقاوين عن رأسيهما . ثم اقترب عامل اللاسلكي القصير الأشقر ، وقال بحيوية ، أنه على مقربة من هنا ، عثر على قبرين منبوشين ، إما من قبل بشر أو من قبل وحوش . كان القبر الأول مليئاً بالجماجم ، بينما وضعت في الثاني أيدي وأرجل—وكأنهم قطعوا أطراف ورؤوس بعض الأشخاص ، ودعوا الناس لرؤية ذلك.

— لا ، رفض كريموف — هذا يكفي .

مضى الطياران وعامل اللاسلكي ، أما كريموف فقد جلس على المقعد بالقرب من قبر حبقوق ، حيث كانت ترقد على مقربة منه جماجم أطفال ، ابيضت من الشمس ، محاولاً أن يفهم سبب وضعها هنا ، على مقربة منه ، من نصير العقيدة ، المتحمس لها .

عندما أخذت الحوامة ترتفع عمودياً عن أرض بوستوزيرسك ، وهي تهدر بمحركها القوي ، سطعت ، كما في السابق ، الشمس القصديرية القطبية ، وتلألأت البحيرات الفارغة ، الميتة ، التي لا يستفيد أحد منها الآن ولا ينتفع ، بلون القصدير ، يحرسها حشد تافه من الصلبان والقبور المنبوشة في هذه المقبرة المهجورة . وكما في السابق ، كان القفر صامتاً بصورة خرساء ، أما الطائرة العمودية فقد اندفعت إلى الأعلى ، بعيداً عن الأرض المعدمة ، المحروقة ، الخالية من أي كائن حي . وعلى رابية شمعة رمادية بلا نار ، كان يقف وحيداً حجر حبقوق ، مذكراً بقناعة الصبور المتحمس المقدسة القوية ، وبقسوة السلطة التي لا تعرف الحدود ، وبتفاهة الجميع ومساواتهم أمام السماء الواحدة والشمس الواحدة . وعندها تخيل كريموف بأنه إذا ما خلت الأرض ،

ولم يعد هناك تحت قبة السماء ، مثل هذه الطاقة ، ولم تعد هناك روح شبيهة بروح القمس حبقوق ، الذي صمد ولم يعرف الإنهيار ، فستنتهي المدنية وتؤول إلى أن يحلق أحدهم فوق أرض مدمرة ، فوق صحراء دائرية ، لايرى سوى بقعاً سوداء من رفات الحياة البشرية .

لكن ، ماهو الشيء المشترك بين « الكرسي الكهربائي » على نهر بيتشورا ، المغطى بالشباك وبين مدينة بوستوزيرسك؟ولماذا عاد من الشمال مكتئباً ، رغم أن تياراً رفيعاً من الوعي كان يقاوم في نفسه ، وقد شق طريقه بمرح وبلاهموم ، أملاً بشيء آخر لانهاية له ، شيء منقذ ما . . .

« الأمل ؟ ماهو — أهو زيف أم حقيقة ؟ بماذا نأمل ؟ تنقصنا الثقة بأنفسنا » — فكر كريموف وأدار رأسه نحو النافذة المفتوحة فوق السرير ، حيث كان يفوح أريج ذكي طازج من الحديقة في الليل . ومن طرف النافذة ، كان يظهر خيال العلية ، أسود اللون من ثلاث زوايا ، في السماء الخافتة فوق أشجار البتولا الجامدة ، حيث كانت النجوم تضيء بنور هاديء خافت ، أما تحت القمر المنخفض فقد استدارت أدغال الحديقة ، التي كان يصمها نقيق الضفادع السعيد من النهر القريب .

* * *

الفصل التاسع

في الساعة العاشرة صباحاً ، وصل على سيارة الاستوديو المنتج مولوتشكوف ، ومعه المخرج أناتولي بتروفيتش ستيشوف . والمخرج ستيشوف صديق قديم لكريموف ، وهو رجل ذو نمط مريح ومحافظ . إنه رجل متأدب ، لبق على الطريقة القديمة ، إنه المعبود الدائم للممثلين الشباب الذين يشاركون في أفلامه ، ويأخذون بمعاملته الطيبة وملامح وجهه الدقيقة ، الشبيهة بملامح نبلاء الرومان ، وبحياته الغامضة كأرمل . ما إن رأى كريموف ستيشوف الطويل القامة ، الأنيق ببزته القاتمة الملتصقة بقامته النحيفة يدخل إلى الخوخة ، حتى هب فرحاً بلقائه ، وعانقه ، فاشتم رائحة الكولونيا العطرة الأجنبية ، التي تعطر بها بعد حلاقته الأنيقة ، وقال له باضطراب :

— حسناً فعلت يا توليا ، شكراً لقدومك . كنت مشتاقاً إليك كثيراً ياصديقي . . .

— شيء شبيه بالمديح التافه ، لاأعره أي إهتمام — قال ستيشوف برصانة ، ثم سأله بلهجة مغايرة ، تسحر بجمالها : — وأين نساؤك الرائعات ؟ كان بودي رؤيتهن ولو للحظة . هل هذا ممكن في هذا العالم ؟

— أوه ، أنا أيضاً بودي رؤية جميلاتك ! — صاح مولوتشكوف

وهو يقلب عينيه بفرح وإعجاب ، ضاغطاً بيديه الاثنتين على يد كريموف ، وهو يقول : — آه ، كم أنا مسرور ! . . .

— أنت مداهن جامح ، يا تيترنتي ، وهو أمر معروف عنك — قال كريموف وأمسك بستيشوف من مرفقه — المرأة الرائعة الأولى تقوم بالتمارين الرياضية قبل الذهاب إلى الشاطيء ، أما الثانية ، فهي للأسف قد ذهبت إلى معهدها ، معهد الهندسة المعمارية .

أجاب كريموف ستيشوف باللهجة نفسها ، عارفاً طريقة صديقه في الكلام ، وكان مذهولاً ، صراحة ، في الوقت نفسه ، من هذه الزيارة المشتركة (كان ستيشوف يزوره عادة بسيارته الخاصة) ، دون اتصال هاتفي مسبق ، بيد أنه لم يطرح أي سؤال ، واقتاد أناتولي بتروفيتش على الممشى إلى طرف الحديقة ، في الظلال الصباحية لأشجار الصنوبر التي دفئت أغصانها فوق المرآب ، حيث كانت تتنقل حول السيارة ، تانيا النعسة قليلاً ، الشبيهة بفتى ريفي ، بقميصها الذي شمرته حتى كوعيها ، وبسروالها المقلوب المهتريء ، وكانت تضرب بخرطوم الماء قوس قزح مرن ، متغبر بأشعة الشمس ، تشكل من تيار الماء المنساب على زجاج السيارة كالجداول ، مما كان يجلب لها السرور ، وقد تضيقت قليلاً عيناها المنتفختان من النوم .

— ابنتي ، عندنا ضيوف — قال كريموف ، بيد أن ستيشوف سبقه على الفور ، وقال بصوت مليء بلباقة كبيرة :

— عزيزتي تانيا ، رغم أنني أدرك أن حمل الأزهار من موسكو إلى الطبيعة لا معنى له ، ومع ذلك لم أستطع ألا أتذكر ، قرب مخزن الزهور ، أنك وأولغا يفغينيفنا ، تحبان أزهار القرنفل .

— حسن جداً أنك أتيت ، أحييك ، منذ فترة طويلة لم تأت لعندنا ، يا أناتولي بتروفيتش ، شكراً !

وتألقت أسنان تانيا ، وتهللت فرحاً ، بشبابها وصحتها ومشاكستها الدائمة ، فرمت خرطوم الماء على العشب ، وأزاحت شعرها إلى الوراء بغنج فتاة ناضجة ، أدهشت كريموف بغيرة، وأخذت باصبعين مبللين بالماء ، باقة أزهار القرنفل ، التي قدمها ستيشوف ، محيياً بانحناءة من رأسه .

— تانيا ، من الذي يستغلك ؟ أبوك ؟ وهل تعرفين ماهي القيمة الفائضة ؟

— أنا البطل الايجابي لواقعنا . لذا أنصحك وأنصح والدي بأداء التمارين الرياضية كل صباح ، — قالت تانيا ، وهي تشم أزهار القرنفل — واضح أنك لا تمارس الرياضة ، يا أناتولي بتروفيتش ؟

— آه ، يا تانيا — صاح مولوتشكوف وهو يضرب كفاً بكف — ان أناتولي بتروفيتش لاعب تنس ، انظري ، أية قامة رياضية ممشوقة لديه !

— افتراء ، وشاية — اعترض ستيشوف . — تصوري ، يا تانيا ، ان قلب الإنسان قد بُرمج ، بحيث يقوم خلال حياته بسبعين مليون نبضة . فما الداعي إلى إرغامه على بذل جهد فوق البرنامج المعد ؟ أليس جهداً بلا طائل ؟ على أية حال ، أنا أكذب عليك ، فهذه فلسفة الكسالى . أنني أقوم ببعض الحركات ، بالطبع ، من أجل المحافظة على اللياقة والمزاج الرومانسي . فمن الضرورة بمكان ، أن يستيقظ المرء صباحاً ، وينظر نظرة متفائلة إلى العالم الأمثل .

– أجل ، بالضبط : المزاج الرومانسي – قال كريموف مؤكداً ، واقتاد ستيشوف إلى داخل الحديقة ، إلى الطاولة ، تحت أشجار التفاح ، ناظراً إليه بشيء من التفكير . – أما بالنسبة لي ، فان مزاجي صباحاً ، كما في أيام الشباب . . . اجلس ، سوف نشرب القهوة . سوف تشعر بلذتها في الهواء الطلق . تيرتنتي ! أنت تعرف أين نحضر القهوة . اعمل معروفاً ، إن لم يكن صعباً . . .

أحس كريموف في لهجته الآمرة بمسحة من الزعل والضجر ، تماماً بعد حديثه بالأمس في الاستوديو ، وكأن المنتج كان الآن ، مزعجاً له ولستيشوف ، لكن مولوتشكوف تظاهر ، بهيئته الجافة ، باستعداد سعيد : « ثانية واحدة ، لحظة واحدة ! » – وبحركة تمثيلية ، مثل نادل في فيلم بوليسي ، أمسك بابريق القهوة من على الطاولة ، وسار بخفة على الممشى باتجاه الشرفة ، هازاً بسترته الحريرية على الأرض .

جلسا خلف الطاولة ، تحت أغصان شجرة التفاح التي تفوح منها ، بصورة عذبة ، رائحة أوراق الشجر ، المزينة بقطرات الندى . وهنا ، في الهواء الطلق فاحت رائحة الخبز اللذيذة ، الذي قطعته أولغا بعناية في السلة ، كما فاحت الرائحة الزكية الزبدة التي ابيضت حوافها في العلبة الخضراء ، والقطع الطازجة الجبن القشقوان على الصحن – وقد استقبل ستيشوف هذه الروائح كلها ، وأشعة الشمس المتموجة على غطاء الطاولة المشمعي وصوت الزرقطة على صحن المربى برضى إنسان يعرف معنى الحياة وجمالها .

– منذ مدة طويلة لم أستشم رائحة الخبز في الهواء الطلق .

وأحنى ظهره بارتياح على الكرسي القماشي القلاب ، وفك أزرار

الجاكيتة ، وقرب إلى وجهه الغصن المثقل بالتفاح الذي بدأ بالاحمرار ، ومد أنفه وهو يقول :

ـ روعة ، أسطورة . المربى ، الزراقط ، الزبدة ، التفاحات اليانعات . . . سوف آتي لعندك لتناول طعام الفطور ، وسأتحول إلى متطفل . وعند اقترابي من المائدة ، سوف أدندن بيني وبين نفسي ، وأنا أنحني حتى منتصفي : « صحة جيدة . . . هنيئاً مريئاً ! » ـ وبعد أن ترك الغصن ، وضع رجلاً على رجل ، ونظر بعينيه الزرقاوين إلى كريموف وهو يقول : ـ أما إذا ما أردت الجد ، فبالرغم من كل هذه الروعة ، ليس شكلك على ما يرام ، يافياتشيسلاف . . . ألن تعترض إذا ما طرحت عليك سؤالين ؟

ـ لا ، موافق ـ قال كريموف ـ لكن قل لي في البداية ، ماالذي جمعك مع مولوتشكوف في هذه السفرة ؟ كنت في البداية سأعبر عن دهشتي . . . على أية حال ، أستطيع أن أحزر . تقترح عليك إدارة الاستوديو ، على مايبدو ، أن تقوم بإخراج فيلمي ، الذي أوقف العمل فيه كما هو معروف .

ـ أعوذ بالله ! ـ قال ستيشوف معترضاً ـ هذا أمر لا يمكن أن أوافق عليه ، بشكل من الأشكال ، مهما كانت الظروف . حتى إذا ما وعدوني بمائة ألف لقاء كل ساعة تصوير ، وبجواري حريم السلطان كل يوم أحد . أنا ، كما تعرف ، لم أصبح حتى الآن كاسر الاضراب ، منتهز الفرص .

ـ أما أنا ، فسأكون مسروراً بترشيحك ، أنت بالذات . بيد أنهم ، من أجل الأمانة ، سوف يبحثون عن حرفي . فالفيلم المتوسط ، كما

تعلم ، لا يثير سخط الإدارة ، والمثلث المتساوي الأضلاع من النوع الوسط ، يناسب كثيرين .

— فياتشيسلاف ، كل شيء سينتهي ويزول . وأحجار إدارة الاستوديو ستبقى في مكانها على رقعة الشطرنج بانتظار تحريكها ، وسوف تصور فيلمك أنت بنفسك — قال ستيشوف ، وهو يدخن مستمتعاً ، مطفئاً عود الثقاب بتحريكه بمرونة ، وأطلق الدخان من فمه متلذذاً ، فابتسم كريموف شاكراً له قدرته المهذبة على التخفيف مما كاد يعجز اتزانه الصبور عن ضبطه . — والآن ، السؤال الأول : لماذا لم تتصل بي هاتفياً فور قدومك من باريس ، أنت رجل طائش ؟

— أردت أن أتمالك نفسي . كما أنني كنت منحرف الصحة بعض الشيء هناك .

— وماذا جرى لك ؟

— كيف يمكنني أن أقول لك باختصار . . . — وصمت كريموف برهة ، وهو يمسح وجنته غير الحليقة — إنني أغوص في أعماق نفسي طيلة شهرين . إن الاكتئاب هو شيء ساحر فتان . وماذا ، وهل هنالك من شيء آخر لدى الرجل المثقف الروسي المعاصر ، عندما يبدو له أنه مذنب ، ومسؤول أمام العالم كله .

— إذن ، تبحث عن الخلاص على هذا النحو . لست أول من يتبع هذا الطريق . نحن جميعاً ، يافياتشيسلاف ، قضينا حياتنا لا كما نريد . أين هي تلك الحقيقة التي بحثنا عنها طويلاً ، والتي توفق بين الجميع ؟ ما ان بدأ الإنسان التفكير بنفسه وباخوته ، حتى ذهل من نقائص الواقع ، والمقربين إليه .

ـ لا تستغرب ، ياتوليا ، اليوم ليلاً ، كنت أفكر بالقمس حبقوق ، وبخداع الذات الكبير ، الذي نتعرض له جميعاً ـ قال كريموف ، وهو يهرس سيجارته عابساً . ـ المسألة على الأغلب ، ياتوليا ، أن كل واحد منا ، خلال حياته ، تنقصه الإرادة الكافية لكي يكون هو ذاته ، كما هي على حقيقتها . نحن نؤدي دوراً معطى لنا ، ولا نعيش بصورة طبيعية . أتعرف ، ما هو ذنب المثقفين في العالم ، بمن فيهم مثقفينا ؟ إنه الحالم ، وعفوية الذهن ، والخضوع للظروف . نحن جميعاً عبيد الظروف . . .

ـ أما أنا ، فأرى أن اعتزازك المفرط بنفسك يخلق لك أعداء ، ويثير دهشة المسؤولين الساخطة .

ـ لو كان الأمر مسألة اعتزاز بالنفس ، لكانت بسيطة ، تافهة . إنني أفكر دوماً بايرينا سكفورتسوفا . إنها فتاة عزيزة ، طاهرة ، موهوبة . وهي بالذات ، لم تحتمل القذارة والكذب . وهذا هو الخنوع والخضوع .

ـ ربما العكس . ـ قال ستيشوف ، وبوجه مستغرق في التفكير وضع يده على ركبة كريموف ـ غير أنني لست واثقاً من هذا أيضاً . يصعب على المرء أن يتصور ، أن تقدم هذه الفتاة الرائعة ، بعد أن حصلت على الدور السينمائي ، فجأة على . . . إنه ، على الأغلب ، حادث مؤسف ، مأساوي .

ـ إن موتها بالنسبة لي أحجية ، سر ، لغز خفي ، ياتوليا .

تريث ستيشوف قليلاً ، وخلص الزرقطة بملعقة الشاي من صحن مربى التوت الأفرنجي ، ثم قال :

ـ هل سمعت ، ياصديقي ، أنه هناك دواء للأرق والتهدئة العامة ؟ ڤاليوم ، لقد جربته على نفسي . صدقني ، إنني أنام نوماً عميقاً ، مثل الديك الرومي ، دون أية أسئلة أبدية مستعصية ، وكأنني في ذهول كامل. أستريح ، وأحلم بدجاجات روميات صغيرات ، يرتدين مآزر قصيرة . لقد حدث اتجاه لعوب العقل عندي .

ـ هذه هي بالذات عفوية الذهن ، ياعزيزي توليا .

ـ الآن ، سوف تشتمني أنت بصورة أشد وأقوى ـ قال ستيشوف بحزن . اشتم هذا الحيوان الماكر . أرجوك ، اشتمني .

ـ سأشتمك ، لكن ، علام ؟

ـ بعقلي الضعيف ، أنا أدرك أنه ، في جميع الحماقات ، علينا أن نضع الذنب على أنفسنا . اسمح لي أن أسأل : ممن ينتقم الفاشل ، التعيس الحظ ؟ من نفسه . إن الفاشل ، المتعثر الحظ ، هو مضجر ، أناني . أود أن أبدو . أمام نفسي على الأقل ، أكثر ذكاء . ان هذا الفاشل ، التعيش الحظ هو أنا . لأنني بهيمة ، ضعيف الإرادة . لم أستطع أن أرفض . ان أحمقنا التركي دعاني اليوم في الثامنة صباحاً ، وقد احمر طيلة نصف ساعة ، بحيث كان من الممكن إشعال سيجارة من احمراره الشديد ، وكان يستميلني ويقنعني ، وهو يشمر عن ساعديه ، وأخذ يشخر ، حتى كاد أن يبكي وينوح . . .

ـ عم تتحدث ، ماذا في الأمر ؟

ـ كي أكون أكثر ذكاء ، أجب في البداية ، عن سؤالي الثاني ، ومن ثم أمسكني من رقبتي ، واطردني كالكلب . . . فياتشيسلاف ،

قل لي ، هل لديك رغبة بلقاء جون غريتشمار ؟ هذا الاسم ، بالطبع معروف لديك . . .

ـ ماذا يعني « رغبة بلقائه » ؟ ـ هز كريموف كتفيه بضجر ، دون أن يدرك السبب الذي دفع ستيشوف لهذا السؤال ، ولماذا ظهر اسم المخرج والمنتج الأمريكي جون غريتشمار ـ لقد التقيته مراراً في باريس ، وشربنا في الخمارات كثيراً من الويسكي . وهل هو في موسكو ؟

ـ لقد وصل أمس ، في طريق عودته من باريس إلى أمريكا . وهو مشتاق لك ، يريد أن يلتقيك أنت وحدك . ولا يعترف بأحد غيرك . قيل له في البداية ، أنك مريض ، وأعلن غريتشمار أنه سيبقى في موسكو إلى أن يلقاك . وعموماً ، الأحمق في ذعر هادئ ، وقد وصل إلى درجة الاحمرار الكامل ، ولمعرفته بعلاقتي الجيدة بك ، كاد أن يجثو على ركبتيه ، متضرعاً أن أقنعك بلقاء غريتشمار . بالمناسبة ، الاستوديو كله يتحدث عن الحوار الكبير الذي دار بينك وبين الأحمق . يا إلهي ، لقد التقى القطبان المتنافران . أتصور ، كيف كان يصرخ أحدكما على الآخر ، وكيف حطمتما المقاعد في المكتب .

ـ دار حديث شبه متأدب ، لبق ، لكن المقاعد لم يحطمها أحد . رغم أنه قد آن أوان تحطيمها ، ـ قال كريموف . ـ أتعرف ، أين تكمن السفالة ؟ يروق لبعض العاملين في الاستوديو ، لسبب ما ، وقوع أحد المشهورين في وضع معقد أو مربك . قل لي ، من أين تأتي الشماتة ؟ ربما تكون الشماتة حسداً مفرغاً ، مخففاً ، أصبح أقوى من الكراهية ؟ أنظر ، أترى هذا الرجل المشهور ، الممتلئ بالمال ، كل يوم يتحمم

بالشمبانيا . ومن هو هذا المشهور ، لقد تبين أنه منحل ، عربيد ، لئيم قاتل ، فليذهب إلى الشيطان ، وليقضى على هذا الوغد ، كالديك المشوي ، حتى يعرف القوانين ، ويعرف كيف يتسلق على أجساد الناس ، حتى يعرف ذلك . . .

— أنه أمر يدعو للحسرة والأسف — قال ستيشوف ، مراقباً كيف كانت تتفرق الغيوم المدورة بين أغصان أشجار التفاح في زرقة عالية ، وتتلاشى كالدخان — للأسف ، أن الحالة الوسط كانت ، منذ أقدم العصور مناسبة ، سلسة ، منقادة ، ومأمونة . أما الموهبة ، فالقسم الأكبر من الناس يحسدون صاحبها ، غير أنهم يخشونها ويحبونها رغماً عنهم . يحبونها حاقدين . . . هل ستلتقيه يا فياتشيسلاف أم ؟ . . . بماذا تأمرني أن أكذب على الأحمق ؟ — سأل ستيشوف ، واستلقى قليلاً على المقعد ، وكأنه يتلذذ ، مصوباً وجهه نحو الهواء وأشعة الشمس التي تمر عبر الأغصان . كان شعره الأبيض الفضي ووضعيته الاتكالية يوحيان بالرفاهية ، بالاتزان الروحي الهادىء ، غير أن صوته كان يسمع هادئاً بصورة غير طبيعية . — يمكنني أن أنصحك بألا تزيد من حدة التوتر في علاقتك بيالابانوف . إنه موظف ، بيروقراطي ، خطير ، وأحمق خبيث ، زد على ذلك أنه يحب الانتقام وهذا أسوأ شيء فيه . أنا لا أريدك أن تكتسب في الاستوديو عدواً رقم واحد . وماحاجتك إلى هذه المسرات ؟

— فليذهب ، فليذهب بعيداً ، ثم أبعد ، كما في النادرة المعروفة ، — قال كريموف غاضباً ، وعندما رأى في الممشى مولوتشكوف يطير طيراناً من الشرفة على قدميه الخفيفتين ، حاملاً إبريق القهوة ، قال

مادحاً بصورة متصنعة ، حتى أنه طقطق أصابعه : — ياهذا المنتج المهذب لدي ، إنه يظهر عند الضرورة . ياله من حدس مذهل .

— لاتغضب منه ، — قال ستيشوف بصورة وديعة — إنه رجل مأمور من جميع النواحي .

كان مولونشكوف يتألق نشاطاً وطاقة واستعداداً للخدمة ، ووضع إبريق القهوة دون أي صوت على الركيزة ، وقرب أنفه من إبريق القهوة ، ثم قال بسعادة العاشق :

— آه ، ياهذه الرائحة العبقة الفراحة ، إنها تدير الرأس ، ويحلو الموت فيها : الآن ، سنشرب القهوة في هواء الحديقة الطلق ، كما قال فياتشيسلاف أندريفيتش آنفاً ، وكل شيء سيكون رائعاً وساحراً — وغض طرفه عن عيني كريموف المنفعلتين ، الثائرتين ، وهو يسكب القهوة ، التي ينبعث منها البخار ، في الفناجين ، ثم قال بصوت خافت بعد أن استرد أنفاسه : — فياتشيسلاف أندريفيتش ، لاتقتل الأمريكي غريتشمار ، إنه يطلبك أنت وحدك ، حتى أن بالابانوف لم يجرأ على القدوم إليك . . . وقد ضغط علي ، من أجل أن أعثر عليك ، بحيث أنني لا أعرف كيف أستطيع العودة إلى الاستوديو . إنني أتضرع إليك . . . تحدث إلى الرأسمالي . . . إن بالابانوف سيطردني إذا لم تلتقي الأمريكي . إنه مليونير على أية حال ، وهو يود إنتاج فيلم مشترك معنا . . .

— يكفي ، يكفي ، يا تيرنتي ، تظاهراً بمظهر البائس ! — قاطعه كريموف — إن رؤيتك متضرعاً تسرني إلى حد لايوصف . وتراودني شكوك ، بأنك ستبدأ قريباً بكتابة سيناريوهات مأساوية عاطفية عن حياة المنتجين . . . .

الفصل العاشر

اسمع يا جون ، لن نتحدث الآن عن السينما العالمية . أعتقد ، أننا اغتبنا معاً ، في باريس ، جميع المخرجين في العالم . والأفضل ، قل لي ، كيف تعيش أمريكا . وتكلم بالروسية ، كما تقدر ، فستكون ممارسة عملية لك . وما هو صعب عليك ، سيترجمه أناتولي بتروفيتش ستيشوف ، صديقي . موافق ؟ هل لديك اقتراح آخر ؟

ـ أوه ، حسناً ، أستطيع التحدث قليلاً بالروسية . بالنسبة لأمريكا ، كل شيء على مايرام . أي ليس هناك من شيء على مايرام ، ومع ذلك فهو على مايرام. نيويورك لاتزال على ماهي عليه ، في مكانها ، وكذلك واشنطن . وأرى أن موسكو تقف بصورة ملدوية . . . لا ، لا . . . كيف أقول ، تقف بصورة راسخة ، ثابتة . هل صحيح ما قلته يافياتشيسلاف ؟

ـ أعتقد أنه صحيح .

كانوا يجلسون في الهواء الطلق ، في مطعم الطابق الأخير من فندق « موسكفا » الشهير ، حيث كان الهواء يهب رطباً منعشاً حينا ، ودافئاً حينا آخر ، وكانت الشمس قد كوت قماش المظلات ، فغدت قبابها فوق الطاولات أكثر شفافية ورقة . ولكن هنا ، بالقرب من السماء ،

كان الجو أكثر انعاشاً منه في الشوارع ، الملأى بالضجيج البعيد ، المنبعث من الأسفل . فهناك ، في الضباب الشمسي ، في التألق القائظ ، كانت السيارات تتزحلق وتزحف وفق الخطوط المنقطة المدهونة ، فتتفرق حول الساحة الدائرية ، لتلتقي من جديد أمام ساحة مانييج ، أمام حديقة ألكسندروفسكي . وهناك ، بعيداً في الأسفل ، الممتلىء بالغبار ، كانت تتساقط شرارات سيارات الترولي والغاز الكثيف المنفوث ، وكان الحر لايطاق غالباً ، هناك على الأرض الأسفلتية ، حيث كانت حشود الناس تتحرك بكثافة النمل .

وكان جون غريتشمار ، وهو رجل كهل ، كبير الجثة ، عريض المنكبين ، كبير الصدر مثل رافعي الأثقال ، الذين هجروا الرياضة (رغم أنه لم يمارس الرياضة مطلقاً) ، كان يمسح وجهه السمين المغبر بمنديله ، بنظافة ، ويشرق قليلاً من الكونياك ، ويدخن سيجارة إثر أخرى ، مضيقاً عينيه بسبب الدخان ، وبسبب قطرات العرق المنحدرة على صدغيه . أما عيناه الصغيرتان الذكيتان ، الشبيهتان بكرزتين يانعتين فكانتا تنظران بحدة واستطلاع . لم يكن يلحظ على هيأته البدينة أثر كبير لإرهاق الصيف ، ولا لذبوله وكسله ، وهذا لم يدهش كريموف ، فقد عرف ، بعد لقاءاته معه في باريس ، قدرة غريتشمار الكبيرة على الجلد وتحمل المشروبات والأحاديث ، والجلوس خلف المنصة في البار ، وعرف قدرته على البقاء يقظاً طيلة الليل ، والظهور في الصباح منتعشاً ، نشيطاً ، وكأنه أخذ قسطاً كافياً من النوم والراحة ، مستعداً لمشاهدة عروض الأفلام ، والمناقشات ولتناول المشروبات الكحولية القوية .

— مثل هذا الحر الشيطاني . . . صحيح ما أقول ؟ — الخيالي في

موسكو ، — قال غريتشماو وهو يحرك منديله ، وضحك فبرزت أسنانه البيضاء الفتية المتناظرة بصورة مريبة . — مثل هذا الجو وانحباس الهواء يحدث في نيويورك . . . إنه جهنم « مع تجاوز الخطة الإنتاجية » . هكذا يقال عندكم ؟ نهاراً وليلاً ، إنه أشبه بيوم القيامة . . . إنها نهاية العالم تزحف علينا وعليكم . أليس كذلك ؟ سوف نراها يافياتشيسلاف . انجيل يوحنا .

— محتمل جداً — أجاب كريموف دون أن يكون متهيأً بشكل كاف للمزاح ، متذكراً في الوقت نفسه ، أن غريتشمار خال من الحساسية النزقة وسرعة الغضب ، ذلك الدفاع السطحي الذاتي عن الأنفة وعزة النفس ، التي اضطر كريموف للاصطدام بها ، أثناء مخالطته الأمريكيين . —أنا أعرف ،ياجون ، قدرتك على التلاعب بالألفاظ . لذلك أرجوك رجاءً حاراً : الفكاهة الشريرة أكثر دقة . في هذه الحالة تحدث بالانكليزية أين أنت أيها الإله ، وليس بالروسية ، حيث تنسى بعض الألوان . وإلا ، فكيف سأتبادل الشتائم معك ؟

— أوه ، بدأنا نتشاتم في باريس ، وأين النهاية ؟

— نكمل مشاتمتنا هنا ، في موسكو ، إذا ما سنحت الفرصة .

— الشتائم المقذعة ؟

— وهذه أيضاً .

وهنا ، أنزل ستيشوف رأسه إلى الأسفل ، مراقباً بانتباه متحفظ ، ومديناً بوضوح ، فظاظة عبارات الاثنين . كان يتأمل ، صامتاً ، راحة يده البيضاء الرقيقة الأنيقة التي أبدعت تكوينها الطبيعة ذاتها ، وكان

الزر على كم قميصه الأبيض يلمع مثل عين القطة ، ثم مد يده نحو قدح ماء بورجوم المعدني ، معبراً بوجهه النبيل ، الذي لايمكن النفاذ إلى غوره ، عن توتر لم يفهمه كريموف . أما مولوتشكوف ، الذي عاد لتوه من عند رئيس الخدم في الفندق ، فقد امتص بسرور ، بشامونته ، الشراب غير الكحولي مع البرودة الذائبة فيه (« أنا أعتذر ، أقوم بتنفيذ عملي . كما أنه محظور علي تناول المشروبات الروحية ») ، وبمظهره المتواضع كله ، نشر وداعة مطمئنة لإنسان صغير ، يعي مكانه المناسب ، ويعرف أنه ليس من مرتبته التدخل في أحاديث الكبار . كان يعرف ، أن مهام كل إداري يحترم نفسه ، تكون محدودة في مثل هذه المواقف : العمل على تنشيط قوى المطعم الخفية ، من أجل توفير النظام الكامل والخدمة الممتازة على الطاولة من أجل ضيف أجنبي رفيع ، كما هو متعارف عليه عادة في روسيا .

« من أجل أي شيطان ، يجلس معي مولوتشكوف ؟ ـ لمعت هذه الفكرة فجأة ، في رأس كريموف ـ على الأغلب ، من أجل أن يخبر بالابانوف عن كيفية اللقاء ، وماذا حدث فيه » .

ـ تيرني ـ قال كريموف ساخطاً ، عازماً على القول بأنه ليس هنا ، وإنما في مجموعة التصوير ، قد اشتاقوا إلى قيادته الدقيقة ، ولكن على الفور ، أبعدته عن ذلك ، فكرة الوضع المتقاقل ، الذي نشأ في الاستوديو حول فيلمه ، وعندما رأى وجه مولوتشكوف المستكين ، الخنوع ، المستعد لتلبية أية رغبة يبديها كريموف حرفياً ، لم يقل شيئاً ، وتوجه نحو غريتشمار ، بلهجة أقرب إلى المزاح ، قائلاً : ـ قبل أن نبتعد عن المسألة الرئيسية ، ياجون ، هيا بنا نحدد حقيقة التاريخ المعاصر ،

رغم أنني أعرف ، أن التاريخ ليس ترجمة الحقيقة ولا سيرة له . . .
أم أن الحقيقة في الخمرة ؟ في صحتك . . .

رفع غريتشمار اصبعه ، تعبيراً عن فهمه ، وشرب جرعة من الكونياك ، ثم مسح العرق من على خديه السميكين دون أن يأكل شيئاً ، وسحب دخان سيجارته ونفثه ، وقد امتزج الدخان بضحكة لطيفة .

ـــ الكونياك هو أيضاً حقيقة . ولكن . . . التاريخ من جديد ؟ هل أتحدث بالروسية ؟ لا ، سيكون حديثاً سيئاً . ليست لدي كلمات كافية . سأتكلم بالانكليزية . مستر ستيشوف ، ترجم من فضلك . (هز ستيشوف رأسه باحترام) التاريخ ليس سيرة الحقيقة ، بل سيرة الكذب ، أليس كذلك ؟ لا ؟ إن تاريخ أمريكا هو سلسلة من الجرائم الإجبارية أو الجرائم فحسب ـــ لافرق . كما هو تاريخ جميع البلدان . كثيراً ما أفكر ، ياصديقي فيانشيسلاف ، بأنه لن يجيبني أحد في العالم المعاصر ، فيما إذا كان هناك سجل تأريخي للأيام ، أم أن هذا كله خداع . وهل يعقل ، أن الله خدع الإنسان ، عندما منحه الحياة ؟ يصعب قول هذا باللغة الروسية ـــ أضاف غريتشمار ، وصور صعوبة اللغة بحركة دائرية من سيجارته ـــ عندما أتحدث بالروسية ، قد لا أصدق في التعبير عن المعنى . . . وما قولك أنت عن أمريكا ؟

ـــ أجل ، لقد حولت الحديث بسرعة إلي . حسناً . ألايبدو لك ياجون أن الإنسان قد خدع الله الذي تؤمن به ؟ ـ قال كريموف وقد أخذته موجة من المقاومة ، واحتد بنار النقاش الذي كان يجابه له رضى الحماسة وراحتها ـ لاأريد الإساءة إلى مشاعرك الدينية ، ياجون ، ولكن هل الله ، الفاقد العقل ، قد ابتدع الإنسان ؟ ومنحه قدراً قليلاً من

الأخلاق والروح إلى درجة البخل . وكثيراً من الجشع والغباء . وفي نهاية الأمر ، ففي عصرنا هذا ، سخر الشيطان من الله وخدعه ، كما سخر من الإنسان ، الكائن العاقل : لقد استل منه الروح ، وربما اشتراه ، واستبدله ، أتفهم ياجون ؟ ووضع له ، بدلاً من الروح ، أفخم جهاز تلفزيون ، وحبوب منع الحمل ، التي تضمن الحرية للفتيات والشباب الطيبين . . .

— وبعد ، تابع حديثك .

— أتابع . ان الحسد والكذب ، العبدين الحقيرين ، قد أصبحا سيدين ، حاكمين مسيطرين . والعالم كله تقريباً ، يسيره قدر ، قضاء مجهول : المصارف . المافيا ، الساسة الدمى . أتعرف ، ماهو الرهيب في الأمر ؟ لقد أصبح الجهل الأمريكي وسلطة المال مشرّعين منيعين لايقهران لـ « الموضة » والتقاليعات المختلفة ، وحدث انحطاط في الذوق العالمي . فمن المنتصر ؟ ومالذي انتصر ؟ البريق الرخيص والمواهب الغثة في سوق البيع . وارتقت إلى المنصة العليا البهرجة والبلادة والاباحية . الشيطان وحده يعرف ماذا يجري ، الفيلم الذي يصور كهنة الحب الشاذ ، من أفراد الجنس الواحد ، يشاهده ملايين الناس ، أما المثقفون فيبتهجون ويفرحون بجرأة الاباحية . فلتعش سودوم وغومور * ، وليعش السيدان مازوخ ودوساد ** . أتذكر حفلة الرقص في باريس ،

* سودوم وغومور : مدينتان يهوديتان في فلسطين ، دمرتا بسبب فسق أهلهما ، كما جاء في التوراة — المترجم —

** مازوخ (أو ماسوش) (١٨٣٦ — ١٨٩٥) : كاتب نمساوي ، كان أول من وصف الانحراف الجنسي الذي يتلذذ فيه الفرد بما ينزل به من آلام ، وعرف هذا الانحراف فيما بعد بـ « المازوخية » أو الماسوكية — نسبة له .

دوساد : المركيز دوساد : كاتب فرنسي عاش في القرن الثامن عشر ، وكان أول من وصف جنون القسوة الجنسي ، والتلذذ بالقسوة ، وهو الانحراف الذي عرف فيما بعد بالسادية ، نسبة له . — المترجم —

حيث كانت الفتيات الفرنسيات يظهرن في فساتين من زي مارلين مونرو ، والشباب في قمصان قصيرة الأكمام ، رسم عليها وجه ألفيس بريسلي ، وكيف كانوا يرقصون كالأبالسة ، كالشياطين ، على أنغام الروك الأمريكية ذاتها ؟ إن نصف فتيات العالم كله ، يرتدي سراويل «الجينز» المضرة بالصحة من جميع النواحي ، عاقرات بذلك ، مؤخراتهن وأماكن الجلد الحساسة . انها «الموضة» العالمية ! انها لا تلقي بالاً إلى أطباء الأمراض البولية والنسائية .

— ليس بهذه الجلافة يا فياتشيسلاف - قال س. بيشوف هامساً . انك تستشيط غضباً .

— وماذا علي أن أفعل - أن ألثغ ، حسب ما يقتضيه البروتوكول ؟ إن ما يهمني هو رأي جون بهذا الخصوص ، وليس ما إذا كان يريحه أن يصغي إلى ما أقوله .

— تكلم ، تابع . كلي إهتمام . لقد نكست أذني . هكذا يقولون ؟

— نعم يا جون . بعد الحرب ، فرضت أمريكا على العالم كله إيقاعها المالي المجنون ، وتفرض الآن جميع أعاجيب مدنيتها الأمريكية — الحساسة الوقحة ، الدعاية ، الإعلان ، البطاقات والملصقات الجميلة ، والجمالية الجذابة للقنابل الذرية . أولم تفكر أنت ، أن أمريكا تعلم الإنسان المادي العالمي ، الضيق التفكير ، على تقبل الحرب وكأنها خاصية ملازمة للحياة المعاصرة ؟ أتعرف لماذا ؟ لأنكم لم تمروا عبر أية معاناة ، ولا بقرش واحد . . . أناتولي ، ترجم إلى الانكليزية ، ولا بقرش واحد . . .

-- لا ، لاحاجة — صاح غريتشمار رافعاً يديه الكبيرتين — أبي كان تاجراً روسياً ، أنا أفهم . تكلم ! . . .

— كانت الحرب العالمية الثانية ، بالنسبة لأمريكا ، « أوبريت » مرحة ، عرضاً عسكرياً ، ولكن دون فتيات عاريات . والحق يقال . آنذاك ، كنتم أكثر تواضعاً . جئتم ، في نهاية المعارك ، على أصوات « المارش العسكري » . قتلاكم كانوا ثلاثمائة ألف وليس عشرين مليوناً . في حوادث الطرق والسيارات تقتل عندكم أكثر مما قتل في الحرب . والشيء الخطير ياجون ، أن أمريكا تحمل الآن للعالم دعارة الروح والكذب الكبير الذي يدعى بالمدنية العليا والحقيقة . أتفهم ماذا أقول ؟ أم نترجم إلى الانكليزية ؟ كثيرون ، ياجون ، يعيشون تحت شعار كارثة الإنسان التي تحملها هذه المدنية المزيفة ، أنت تفهمني ؟ لقد انحدر عصرنا وتهافت من لا أخلاقية غالبية العلماء . كل شيء يغدو بلامعنى ، يا جون ، عندما يصبح التقدم التقني لا أخلاقياً . إنه يخلق ويبدع من أجل أن يهدم ويدمر . . . إنه ضد الإنسان ، ويحول الروح الإنسانية إلى صحراء ، إلى قفر . أتريد أن أعبر بصورة أشد قهراً ؟ ان جميع الأزياء والصرعات الأمريكية في العمارة ، والموسيقا ، وفي الألبسة . . . وفي كل شيء ، حتى في الكوكاكولا — هي معسكر اعتقال يومي وعقلي ينتشر على العالم كله . على أية حال ، كثيرون يرغبون بمعسكر الاعتقال الأمريكي هذا . إن الإنسان المادي ، الضيق الأفق ، تغريه البهرجة ، والغلاف الجميل ، والمشابك والأزرار ، إنه إنسان يسهل خداعه . . أرأيت ، يا جون ، كيف تحدثت بنزق وغضب عن بلادك . ولكن ، ليذهب كل شيء إلى الشيطان ، فنحن ، أنا وأنت ، لسنا

دبلوماسيين ، ملزمين بأن نقول «أبداً» ، «مطلقاً» ، ويهمني جداً ، أخيراً ، أن أعرف فكرتك عني . فهذا أمر يقلقني ، منذ خمسة عشر عاماً ، على الأقل . هيا ، اعترض ، أنا مستعد للإصغاء إليك . . .

واتكأ كريموف بمرفقيه على الطاولة ، متهيأ للإصغاء بانتباه ، وهو يبتسم بابتسامة ساخرة ودية ، وأسند ذقنه براحة كفه ، ثم تذكر فجأة على طريقة صاحب البيت المضيف وقال : « والماذا نحن صاحين بصورة مخجلة ؟ وأين الضيافة الروسية ؟ » - وملأ الأقداح ، وبحركة مضيافة مازحة ، أشار إلى المائدة المفروشة بالمقبلات ، والمغطاة بظل خفيف من المظلة الشمسية .

بيد أن غريتشمار ، رجل يتقن تعاطي المشروبات الروحية ، وربما لهذا السبب ، أو بسبب الحر ، نكش مرة واحدة ، بالشوكة ودون شهية ، قطع سمك السالمون ، وأبعد الصحن . وضيق ، بصمت ، عينيه الكرزيتين اللاذعتين بين جفنيه المنتفخين ، دون أن يترك قدح الكونياك من كفه الكبير المغطى بالشعر ، وابتسم كريموف ابتسامة ساخرة ، ملاحظاً ستيشوف الذي كان يمسح العرق عن جبينه ، وهو يراقب ، من بين أصابع يده ، غريتشمار ، بتوثب حساس . وكان يتراءى في نظرته اعتذار وحيرة على تلك الحدة المفرطة في الحديث ، التي اتبعها كريموف دون داع .

« كم نخشى نحن الإساءة إلى الضيف ، وبخاصة الأجنبي . أجل ، ياعزيزي توليا ، لا حدود لتهذيبنا وثقافتنا . ولكن ، هل هذا تهذيب ، وهل هذه ثقافة ، أم أننا لم نُخرج العبد من أنفسنا ومن أعماقنا ؟ . . . » — فكر كريموف غاضباً ، ونظر إلى مولوتشكوف (وهاهوذا خجول

آخر ! ») ، الذي كان يحرك بتواضع كأس المرطبات بالقشة ، وقد احمر عظما وجنتيه ، واستدار طرفا فمه الضيق بابتسامة اعتذار .

احتسى غريتشمار جرعة من القدح ، وأخذ نفساً من السيجارة بصوت مسموع ، ثم قال بالانكليزية ببطيء وبصوت أجش :

ـ إن المدنية كلها ـ مؤامرة ضد الإنسان . ولكن ، لا يرتعش أحد من الناس أبداً ، عندما يفكر بمئات الألوف من العبيد الذين كان عليهم أن يهلكوا في الصحارى من أجل تشييد الأهرامات الملعونة . وما الغرض منها ؟ قبور للفراعنة ؟ إنه جنون مطبق . الإنسان دائماً رخيص الثمن . كيف يسمى هذا بالروسية ؟ . . . وحرك غريتشمار بتركيز حاجبيه الكثيفين ، متذكراً ـ ثمن قليل . . . قليل من المال . . . هكذا ؟ ـ ثم تابع بالانكليزية ببطيء وثبات : ـ ثمة بعض من أصحاب سلطة المالكين يريد أن تكون غرفة العمليات مكاناً وقدراً لجميع الشعوب . عملية صغيرة في المخ أو حقنة . وللمثقفين باديء ذي بدء . بعضهم يريد تحويل البشرية إلى أغبياء وربوتات . الإنسان في العالم المعاصر ـ لاشيء ، مجرد طنين متشامخ . وهذا الطنين المتشامخ يحتاج إليه الأقوياء في العالم ، من أجل استغفال ملايين البسطاء . لهذا ، يسيطر الكذب في العالم اليوم أكثر من أي وقت مضى . ولهذا كانت السياسة كذب باسم الحرية . وكانت الأزياء و « الموضة » كذب باسم الجمال . والفن ، في ثلثيه ، قذارة مسلية ، فلسفة فارغة وجنس . إن الحقيقة هي خادمة الأقوياء . اذن ، هي زيف ، يفتح أمامه جميع الأبواب دون طرق ، ويتحدث دون انقطاع عن الحرية ، وهذا ما تتوق إليه المواهب الضعيفة السطحية . هل حديثي مفهوم ، . . . مستر . . . مستر ستيشوف ؟

— تماماً . لقد ترجمت حديثك حرفاً بحرف تقريباً ، مستر غريتشمار — أجاب ستيشوف بانحناءة مهذبة من رأسه ذي الشعر الأشيب ، المفروق ، والمسرح أحسن تسريحة ، وتردد بوضوح ، ثم أضاف مصححاً : — بيد أنني شخصياً ، لم أفهم جيداً جملتك حول الحرية التي تتوق إليها المواهب السطحية . ماذا تعني ؟

طرق غريتشمار راحة كفه على جبينه ، بصورة مستوحية ، وقال :

— الإنسان الذكي حر دائماً . حتى عندما يكون وراء القضبان . الفكر ، الفكر . . . لكن الحرية تجعل السطحي والحكيم متساويين ، وينشأ الحسد والظلم في العلاقات . والحسد ينتج الحقد ، ولهذا ، فالحرية مزيفة . هذه مسلمة من كتاب العهد القديم ، مستر ستيشوف . بالنسبة لي . لقد أدركت ذلك قبل ثلاثين عاماً .

— ممكن جداً — تدخل كريموف . — لكن الحرية ضرورية لشيء أساس — لحالة الإنسان الطبيعية ، كي يجد الطريق نحو أخيه الإنسان . إن الطائر لايقدر على الطيران دون هواء .

— أوه ، فياتشيسلاف ، سنبدأ المشاتمة الآن بقوة . لقد تحدثت كما لو أنك شاعر . ليس بمقدور أية حرية أن تحطم جدران العزلة ، إنها عاجزة تماماً . فهي غير قادرة على وقف طاعون المدنية الزاحف على العالم كله . هناك الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة . ولا وجود لليونان القديمة ولا وجود حتى لعيسى المسيح .

— ألم يخطر في ذهنك ، ياجون ، أن عيسى المسيح قد استنفد ذاته ، خلال ألفي عام ؟ قد يكون هناك من ينتظر ملاكاً جديداً برمحه

الناري ؟ ويتوق لعقاب التوراة للإنسانية على جميع ذنوبها ؟ بهذه المناسبة ، سمعت بهذا العقاب في أمريكا عام ست وستين وتسعمائة وألف ، على لسان أستاذ الفلسفة في جامعة بيركلي .

— لاخير في الولايات المتحدة — قال غريتشمار متجهماً — ولا خير في روسيا ، لأنه ليس هناك تكفير بعد . إن تاريخ روسيا هو مأساة . فقد قضت الأقلية على العقل والموهبة . وخربت المعابد . كان الأب يقتل ابنه ، والابن أباه ، والزوجة تسلم زوجها إلى أيدي أعدائه ، والأخت تحقد على أختها ، والأخ على أخيه . لقد قضي . . . قضي تقريباً على روح الشعب الروسي . أصبح بلا دين . أنت تعرف ، يا فياتشيسلاف ، أنا أرثوذكسي . أبي كان تاجراً من المرتبة الأولى ، غريتشماروف ، روسي الأصل ، كان ملك الشاي في بطرسبورغ . انه رأسمالي وليس بروليتارياً بدون وسائل الانتاج . وقد غادر روسيا أثناء الثورة . وأمي ايرلندية . أما أنا ، فأعتبر نفسي أمريكي المولد ، روسي القومية . مفارقة ؟ لا ! وقد سيطرت الروح الروسية في أسرتنا حتى وفاة أبي . أنا حافظ سيء للتقاليد ، ولكن ، بالإضافة إلى عيسى المسيح ، كان هناك في طفولتي إلهان آخران — غوغول ودوستويفسكي . إنني أحب روسيا القديمة . أبحث فيها عن الحضارة الروسية ، غير أنني ، ألقى ، أكثر ما ألقاه ، الحضارة الأوروبية . ألقى حضارة ليست جيدة جداً ، ليست من النوع الأول . أنتم تقلدون أمريكا ، إلى حد كبير في الركض وراء الثروة . وسيظهر عندكم قريباً ، شعار « النجاح بأي ثمن » . بيد أن هذه ستكون محاولة لتكرار نجاح الغير . وهذا ، كمثل من يطير بأجنحة الغير ، أجنحة غريبة ، لايثق بها كل الثقة . ويتناقص العنصر الروسي بالتدريج عندكم يافياتشيسلاف .

— ماذا تقصد ؟

— الانكلوسكسونيون يعتنقون الفلسفة الكلوينية ، فلسفة النجاح والتوفيق الأرضية . أما روسيا ، فقد كانت قوية بحياتها الروحية . . .

— وأنت تعتقد ، أنه لا وجود لها ؟

— مازلت أنت موجوداً حتى الآن ، — قال غريتشمار وقهقه بصوت عال ، ثم رفع قدحه ومسه بشفتيه ، ثم أضاف قائلاً : وقليل من أمثالك ، الذين يتألمون لكل شيء . بيد أن الروح أخذت تستبدل بالنزعة العملية . إن الإنسان مهما كان جاهلاً ، فهو يعرف جيداً أن حذاءه ضيق على قدميه . إن أحذيتكم العصرية التي تعرضونها ، تضيق على أقدام الكثيرين ، لأن قياسها هجين ، مختلط : روسي — أوروبي — أمريكي . وهناك أيضاً نزعة عملية من إنتاج سوفييتي . . .

— أما أنا ، ياجون ، فأفكر بطريقة معاكسة : إن أحذية من صنع أمريكي تضيق على أقدام العالم كله . إنها أحذية ذات مظهر خارجي رائع ، لكنها من الداخل صنعت من جلد قاس لا تحتمله القدم . الأمريكي مائة بالمائة ، كما عرفت ذلك في الولايات المتحدة ، يعتبر نفسه نصير الديموقراطية وشهيدها : فهو مستعد لمساعدة الجميع في التخلص من الشيوعية . بيد أن هؤلاء الشهداء سرعان ما يغدون سفاحين . واعذرني لهذه اللهجة الحادة . . .

— فييتنام ؟ فييتنام الملعونة ! . . .

— ليست فييتنام وحدها . حسناً ، ليس هذا ما كنت أريد قوله . . . ليست هناك حقيقة شاملة وأبدية . فالعقل والمعرفة نسبيان . وسيأتي

حين ، ونتخلى عن كثير من الأشياء ، ونغير الكثير منها . هذا إذا ما استمرت الحياة على الأرض بالطبع . . . لكنني لا أريد تبرير أي شيء . فكل شيء يمكن تبريره . يمكن تبرير جميع أخطائنا . ومن الممكن إيجاد آلاف البراهين من أجل تبريرها . هذا أعرفه جيداً .

— انني على شك ، يافياتشيسلاف ، أن الحياة ستستمر . ولكن هل سيكون بعث ، كما قال عيسى المسيح ؟

— مايزال بالامكان وقف الكارثة ؟ ياجون . مايزال ذلك ممكناً . . . وقد آن لنا جميعاً ، أن نقدس الطبيعة التي شوهناها ، وزيفناها ، واغتصبناها من أجل منافع آنية . وانقاذ الطبيعة يعني انقاذ أنفسنا وضميرنا .

— كيف ؟ كيف يمكن إيقاف العصر التكنولوجي ؟ وهل تتوقف أمريكا ؟ وهل يتوقف الاتحاد السوفييتي ؟ واليابان ؟ والألمان الغربيون ؟ هذا مستحيل ، يافياتشيسلاف ، أنت تتخيل .لقد بلغ القطار السريع سرعته القصوى ، والناس في عرباته يمرحون ، يشربون الكونياك ، كما نفعل أنا وأنت ، أما قائد القطار فقد فقد عقله ، لاوجود للمكابح ، ليست هناك فرامل ، ونحن نشرب ونعرف أن أمامنا الهلاك ، الهاوية . . .

— لاأود أن يحل الهلاك بهذه الأرض الرائعة . على أية حال ، أنت إنسان متوقد الذهن ، مرهف العقل ، ياجون . وحدة ذهنك الشرير هي انجيل الحقد والكراهية لهذه المدنية الخاطئة . ولكن ، لايحق لنا ، أنا وأنت ، أن نحقد ، ولو كان حقدنا مقدساً . أتعرف على وجه الدقة ، هل يحق للفنان أن يطرح تقديرات مؤكدة لاجدال فيها . . . وأن يحكم على الحياة ؟ على الأرجح ، علينا نحن أن ندرك ، ونتأسف . الناس جميعاً ينتظرون شيئاً ما ، وفي الوقت نفسه ، هم مصابون بعدم

القدرة على الإنتظار . علينا أن نبحث في العالم عن الروح التي فقدها الإنسان ، في سعيه إلى العيش حياة سهلة . وبالتحديد ، لقد فقد الإنسان الروح . بيد أنه ليست هناك حياة سهلة ، ثمة فقط موت سهل . . .

— فياتشيسلاف ، لنسترح قليلاً ، لقد سئمت الترجمة . اسمح لي . . . وأنت أيضاً تعبت .

« نعم ، لقد تعبت . عم كنا نتحدث ؟ وماذا يعطينا هذا التفلسف العقيم ؟ إنه تفلسف فارغ لمخرجين ، جمع بينهما رفض جنون المدنية وخداعها ، — قرر كريموف ملاحظاً بصورة خاطفة عيني ستيشوف الزرقاوين القلقتين المصوبتين نحو وجهه . — ثانية عن معنى الحياة ؟ أمر سخيف ! غالبية الناس تعيش ، دون تقرير هذه المسائل . ليس ثمة معنى واحداً للحياة : فالناس ليسوا متكافئين من حيث العقل والعاطفة . ووحدة الفكر مستحيلة . بيد أنه ثمة ذهان السخافة والقسوة . فأي كائن رهيب ، هذا الإنسان ، إذا كان يعذب أمثاله واخوته ؟ هل قلت — الشفقة ؟ أن ندرك ونتأسف ؟ أن لانحكم على الحياة ؟ ان هذا أشبه بالخيانة ، أيها المحترم فياتشيسلاف أندريفيتش . وهل أناقض نفسي بنفسي ؟ أين الحقيقة — في الوسط ؟ لا . أبداً . أظن أن ستيشوف قال ذات مرة في المجلس الفني : « أتريدون وحدة فكر المخرجين ؟ تفضلوا . إنها في أروقة الاستوديو شيء ، بينما هي على المنبر شيء آخر تماماً . نحن مربون جداً ، ومهذبون أكثر من اللازم ، كي يقول أحدنا الحقيقة للآخر في عينيه » . ولكن ، لماذا ينظر عزيزي ستيشوف ، الإنسان المهذب ، هذه النظرة إلي ، ولماذا أنا متكدر إلى هذه الدرجة ؟ عزيزي أناتولي ، أنت تخشى صراحتي وصدقي أمام الأجنبي ؟ وماهو

الشيء المثير ، فيما قلته ؟ أجل ، نحن حذرون أكثر مما ينبغي . . . إلى حد القرف . ولكن ، لماذا أشعر بهذا الذهول والغرابة والحرج ؟ . . . » .

على شرفة المطعم المكشوفة ، حمي كل شيء إلى درجة الاحتراق ، وكان يفوح من كل شيء فتور يوم تموزي قائظ ، حتى أن الحر كان شديداً تحت ظل المظلات الشمسية الواقية . وكانت تفوح من قماش المظلة الساخن فوق رؤوسهم ، بتأثير الشمس ، رائحة جافة مزعجة . كان يشعر كريموف بالاختناق والحر ، رغم أنه خلع سترته ، وفك ياقة قميصه ، وأرخى ربطة عنقه ، دون أن يفهم أبداً لماذا ارتدى ربطة العنق اليوم . وكان يتذكر ، في حفلات الاستقبال في باريس ، أن غريتشمار كان لايحب التأنق في اللباس ، ويتردد إلى حفلات الكوكتيل بالاستخفاف البوهيمي لشخصية شهيرة ، مرتدياً قمصاناً خفيفة ، غير رسمية ، مفكوكة الأزرار عند رقبته السمينة .

أما غريتشمار ، فقد كان يصغي إليه بانتباه ، وقد تحرك حاجباه العريضان بصورة مشعثة ، معبرين عن الموافقة أو عدمها ، وكانت عيناه البنيتان تضيقان في كل لحظة ، مشعتين بسخرية قاتلة لعقل خبيث ، منبسطتين تارة ، كانتا تضيئان ، بشيء من الرقة ، عندما كانت فكرة كريموف تطابق فكرته . وكلما زاد حديثهما حدة ، وكلما ابتعدا أكثر عن المسائل البسيطة إلى القضايا المعقدة ، كلما زاد إحساس كريموف بالألم ــ وضغط الضجر الحزين على عنقه . كان يخشى أن يسأل نفسه بثبات : ماذا حصل له ، وماهذا الذي أخذ يتكرر عنده ، بعد تلك الأزمة النفسية التي أصابته في الفندق الباريسي ؟ ــ كان يخشى أن يعرف عن حالته أكثر مما يجب ، لأنه لم يصب بأي مرض جدي

خلال السنوات الأخيرة . وظهر من جديد ، قلق وقشعريرة من اليأس والقنوط (« الأعصاب ارتعشت ، وقاومت ثم استسلمت ») عندما تذكر ذلك الرجل الذي يعرفه عن قرب في آخر ردهة الفندق ، وقد كان الوحيد بين جميع الذين ارتدوا ثياباً رسمية ، وحلقوا ذقونهم بعناية ، وكانوا يدخنون ، ويتحدثون بلا اكتراث ولا مبالاة قبل مشاهدة أفلام المشاهير — هو وحده كان يذكر ويشعر على صدغيه ، ببرودة الشعر الملتصق الذي تفوح منه رائحة الطمي النهري ، المختلطة برائحة الموت اللوزية ، ورأى الرموش الرطبة نصف الملتصقة ، التي كانت تسمح بمرور بريق العينين الخافت . لقد أراد أن يمسح — ولم يمسح — الصبغة التي سالت على وجنتيها من رموشها ، والتي كانت شبيهة بآثار الدموع السوداء ، التي أذهلته بضعف طفولي غريب . .

حاول ألا يتذكر تفاصيل ذلك اليوم ، بيد أن ما حدث بالأمس القريب قد انغرز ألماً متكرراً في قلبه ، وعجزاً آثماً ، وشفقة — وهذا الاختناق المفاجيء للدموع العاجزة عن الانسكاب قد حبس أنفاسه . وعندها بدت له الكلمات الرنانة والأفلام والأحاديث عن الجمال ثرثرة فارغة بلامعنى ، وبدا له ، أن العالم لم يكن عادلاً تجاه تلك الفتاة الطاهرة الموهوبة . « اسمع ، يافياتشيسلاف أندريفيتش ، أية كلمات رائعة هذه : « الفرح هو قضية الحياة وغرضها » ، — كان صوتها الممدود يتردد على مسامعه ، صوتها الذي كرر هذه العبارة في إحدى الأمسيات عندما قدم إليها في حي أوردينكا . ولسبب ما ، كان كريموف واثقاً في تلك اللحظات من أن الشقاء ليس عارضاً ، بيد أنه لم يستطع أن يصدق ، بأنها خرجت من « قصد الفرح » ، بمحض إرادتها .

وعندما قال لغريتشمار عبارة « لاوجود للحياة السهلة ، بل هناك موت سهل » ، لاحظ كريموف نظرة ستيشوف القلقة المحذرة . ولقلق صديقه الصامت ، البارد بصورة أريستوقراطية ، والشديد الاحترام نحو الجميع ، والذي لم يصطدم أبداً مع أي إنسان ، شعر كريموف بانزعاج منه ، بلاسبب .

« ياملاكي الحارس ، ذا العينين الزرقاوين ! لماذا تنظر إلي بهذا القلق الحزين ؟ » — أراد كريموف أن يقول ساخراً ، متنبئاً بما أقلق أناتولي بتروفيتش ، بيد أنه خاف فجأة ، على نحو غير رجولي ، من ألم في قلبه ، ومن دموع ارتفعت إلى حنجرته وتوقفت (وهذا لم يحدث له من قبل أبداً) ، بحيث أنه قال بصعوبة ، أخيراً ، بصوت مزيف :

— يكفي ، انتهت المناظرة الدولية ، وقيلت كلمات ذكية حكيمة . جميع الحقائق المنشودة أصبحت في متناول أيدينا . لهذا ننهي شرب الكونياك في هذا المكان ، ونتناول قهوة مركزة للخاتمة السعيدة . ونبدأ بالتفكير بكيفية العيش لاحقاً ، في ظل هذه المدنية الفاخرة ، وماذا علينا أن نفعل . . .

ترددت جملته الأخيرة بجشة مبهمة ، بصوت متقطع . وبعد أن بلع ريقه ، سعل بمرح ومسح صدره من العرق ، ورفع قدحاً ، متجهاً إلى غريتشمار ، وأكمل حديثه بصوت عال ، شديد الارتفاع :

— نخبك يا جون . بالمناسبة ، مارأيك أن تذهب اليوم إلى مسرح البولشوي ؟ مارأيك ؟

أخذ غريتشمار يتنفس مخرخراً بضجيج ، طارحاً الدخان من منخري أنفه الكبير ، وبدا وكأنه ينظر بريبة متسائلة إلى عيني كريموف ،

وإلى يده التي تمسح العرق من صدره ، وبعد فترة من الصمت ، سأله بالروسية :

— أنت منحرف الصحة قليلاً ؟ . . . أنت متعب ؟ قلبك يوجعك ؟ أذكر أنك كنت تبتلع الحبوب في باريس . . .

— الحياة صراع مع حتمية الموت . وقد جاء في التوراة ، أن الإنسان يولد للمعاناة . أنا في حالة صحية ممتازة . ومارأيك أنت بالذهاب إلى مسرح البولشوي ؟

— لماذا تمزح هذا المزاح ؟ — قال ستيشوف بتأنيب حزين ، متضرعاً بنظرته إلى كريموف ، ومفرقشاً بأصابعه — أنت لم تشرب كثيراً إلى هذا الحد ، غير أن الارهاق باد عليك بوضوح . . . لست على ما يرام أبداً . . .

— سامحني أرجوك ، يا أناتولي ، لقد مزحت بصورة غير موفقة ، فأنا مازلت خاضعاً لتأثير العبارات الفخمة والسامية ، — قال كريموف منتعشاً ، وغمز بعينه على الفور ، وشرب مابقي في قدحه من الكونياك ، ثم حث غريتشمار على الاسراع بود وخشونة : — هات ماعندك ، اقترح البرنامج الذي تريده ، أنا اليوم دليلك .

تأوه غريتشمار ، وأشار باصبعه الكبير ، الذي يشبه المقانق الغليظ ، طالباً الانتباه ، ثم كرع مافي قدحه حتى الثمالة ، وقلبه رأساً على عقب ، وهزه فوق الطاولة ، مبيناً أنه أصبح خالياً من أي قطرة ، وقال بتؤدة وتأن :

— قدحي . . . العزيز . . . أشكركم على حسن الضيافة . هكذا يقال بالروسية ؟

— تماماً ، ياجون . إن لفظك رائع باللغة الروسية . كم أتمنى أن أنطق الانكليزية على هذا النحو .

وبعد أن ضحك ضحكة صامتة ، حرك غريتشمار اصبعه — وكانت هذه عادة عنده كما يبدو — وتحدث بصورة مؤتمنة ، بحيرة إنسان لم يرغب بالحياء والخجل وسط هذه الجماعة .

— يقال عندكم ، اذهب إلى مسرح البولشوي ، ويقولون في باريس ، اذهب إلى فولي بيرجي ، إلى ليدو . صحيح أنه يمكن هناك تناول قدح من المشروبات على نحو رائع . لكنني لاأحب مسرح الأوبرا . لايمكن للأفكار أن تغني وترقص . إنني أجلس ، أشاهد ، ويسيطر علي ضحك سخيف ، عندما يعانون ويتألمون على خشبة المسرح . بيد أنه من غير اللائق أن يقهقه الأجنبي في المسرح . وهل تحب مسرح الأوبرا أنت يا فياتشيسلاف ؟

— لست مغرماً به إلى هذا الحد ، ولا أكرهه إلى تلك الدرجة . إن همي هو تأمين بطاقة لك ، ولكن لن أذهب معك إلى المسرح ، وأنت تفهمني . انني أشعر بانزعاج شديد ، عندما تتمايل الديكورات وتتراقص ، وينفتح شارب أمام الدون بازيليو في لحظة البطولة .

« علام ، لماذا أتحدث على هذا النحو ؟ أجل ، أجل ، سينتهي الآن كل شيء ، وأشعر بتحسن . أي حنين هذا ! . . . هل أشرب الكونياك ثانية ؟ وأتذكر طرفة من الطرائف ؟ إنه أمر غريب — ليست لدي ذاكرة لحفظ الطرائف والنوادر . أجل إنه رجل مثير غريتشمار هذا ، غريتشمار . . . ولكن لماذا ينظر إلي على هذا النحو ، بجد وإصرار ؟

— فياتشيسلاف ، أنا لم آت إلى موسكو من أجل المسرح ، ولم أفد سائحاً . لدي موضوع هام بالنسبة لك . يجب أن أناقش فكرة معك . لدي هدف . . . أريد أن أدعوك . . . باللغة الروسية أدعوك ، أليس كذلك ؟ . . . أدعوك لتقوم بالأخراج . . . لا ، أدعوك لاخراج فيلم . لدي سيناريو جيد ، ويلزمني ذهنك .

— هكذا اذن ، ياجون ! . . . — صاح كريموف بدهشة مغالية . — أنت تدعوني إلى هوليود ؟ لماذا لم تحدثني عن هذا الأمر في باريس ؟ هناك كان من الأسهل معالجة هذه المسألة في مزاج غير مكترث . .

— أنا منتج ، ولا يمكنني رمي عدة ملايين في المرحاض . لقد جئت إلى موسكو بصورة رسمية .

« آه ، أية أعاجيب تحدث في هذا العالم ! هذا طبعاً ، أمر لم أتوقعه . لقد شاهد جون فيلمي « الحرب غير المعلنة » ، وبعد أن فكر في الأمر ، وضع عينه علي ، كما يقول الأمريكيون » .

— فياتشيسلاف أندريفيتش ، أنت موهبة رائعة — قال مولوتشكوف باستعطاف وهو يمضغ « السندويش » بهدوء ، وقد برزت بقع بنفسجية على عظمي وجنتيه — كم هذا رائع ، أن تخرج فيلماً في أمريكا . هناك ستحظى بالشهرة العالمية . . .

— فلتذهب إلى الشيطان أنت والشهرة العالمية — قال كريموف بفظاظة ، وفجأة ابتهج وسيطر عليه المرح — أنا أحب الحكايات والأساطير لكني لاأؤمن بها .

—إن هوليود لاتحوي الأشياء السيئة والحكايات والخرافات فحسب. لقد صورت أربعة أفلام هناك. وأنا لست أسوأ مخرج .

— وهذا ما أردت قوله ، لديكم فائض من مخرجينكم الأمريكيين ، الذين سيلتهمونني بأحشائي ، باعتباري منافساً ، حالما أظهر هناك ، بقواعدي وأنظمي في دير غريب .

—هذا الفيلم يحتاج إلى مخرج روسي ، إليك أنت ، أنت يا كريموف ، كرر غريتشمار باصرار — يجب أن أتحدث إليك بالروسية ،« رأساً لرأس » . تعال نخرج من هذا المطعم اللذيذ جداً . لنتمشى سيراً على الأقدام ، هكذا يقال ، أجل ؟ ونتحدث عن السيناريو . ولن نتعب معنا مستر ستيشوف . سوف أتعب نفسي أنا وأتحدث بالروسية . شكراً جزيلاً . هكذا ، اتفقنا ؟ .

— الشكر متبادل — أجاب ستيشوف وشكره بابتسامة .

— ماذا ، لننهض — قال كريموف ، وقدم نقوداً لمولوتشكوف ، لسبب ما ، بصورة مهذبة وماهرة ، مغطياً إياها براحة كفه على الطاولة ، وكأنها بطاقة مخجلة . — ادفع الحساب من فضلك ، ياتيرنتي . ماذا بك ، تريد الإمساك بسيارة أجرة ؟ — قال متهكماً — دع السيارة لنا . أما أناتولي بتروفيتش ، فأوصله إلى بيته بسيارة أجرة .

نهضوا وساروا باتجاه المصعد الكهربائي ، أمام مظلات المطعم الذي خلا تماماً من الزبائن ، بين خطوط أشعة الشمس القائظة بين الطاولات ، التي كان بعضها مغطى بأغطية بيضاء ناصعة ، وعليها أطقم الملاعق والشوك الفضية . وسمع من الأسفل صوت الضجة الكبيرة

المنبعثة من الشوارع . وقد انزعج كريموف الآن من رؤية زرقة السماء فوق سطوح المنازل ، المعكرة بأبخرة المدينة الكبيرة ، ومن رؤية البزة السوداء الصارمة لكبير الندل في الفندق ، ومن رؤية مجموعة من الندل الشباب ، الذين مشطوا شعورهم بأناقة ، وتجمعوا أمام البار ، وهم يودعون بأعينهم باحترام ، الضيف الأجنبي الكبير الجثة ، الذي يشبه صخرة جامدة .

* * *

الفصل الحادي عشر

كانت الشمس لاتزال في قبة السماء ، لكنها بدأت تميل إلى الغروب ، عندما خرجا من السيارة ، بعد تنقلات طويلة في موسكو ، وبعد تناول كوكتيل خفيف في دار السينما ، وتناول المرطبات في شارع غوركي . خرجا من السيارة عند هضاب لينين « لينينسكيي غوري » ، واقتربا من ساحة الشرفة المطلة ، التي طلب منه غريتشمار أن يقوده إليها .

هنا ، كان سياح أجانب ، بسراويلهم القصيرة ، يقفون ويجلسون على الحاجز الحجري الغرانيتي ، مثل جماعة صاخبة ، وقد رموا تحت أقدامهم حقائب السفر . وبالقرب منهم ، كان عروسان يلتقطان الصور التذكارية ، وقد أحاط بهما الأصدقاء ، الذين كانوا يترجلون من السيارات . ضحك العروسان وتسمرا بأمل خالد ، مغرور ، بأن تبقى إلى الأبد هذه اللحظة المنقضية على الصورة اللامعة . كانت العروس ترتب على عجل ثنايا ثوبها على خصرها المكتنز ، ناظرة إلى طرفي حذائها اللذين كانا يبرزان قليلاً من تحت فستانها الأبيض الطويل ، وهي ترفع بايعاز من المصور ، وجهها البسيط الذي شوهته ضحكة لالزوم لها ، مدخلة يدها تحت كوع عريسها الشاب الأسمر ، ذي الشاربين المتغندرين

القصيرين . وتساءل كريموف في نفسه ، كم هما بعيدان ، هذان العروسان ، اللذان ينتظران أعجوبة جمالهما على الصورة ، وكم بعيدون ، هؤلاء السياح القادمون إلى بلد غريب، ببطاقات اشتروها ، بحثاً عن ملذات البصر — كم هم بعيدون، هؤلاء جميعاً عن كل ما كان يتناقش حوله مع غريتشمار ، وهو الذي ليس له أدنى أهمية بالنسبة للآخرين ، بالنسبة لغالبية الناس الذين يعملون ببساطة ، بعرق جبينهم ، ويعيشون حياة بسيطة ، دون أية أفكار أو آلام زائدة ، يعيشون بسعادة، ربما ، مثل نبات معافى تحت قبة السماء .

« حقاً ، يمكن العيش باطمئنان ، دون طرح أية أسئلة ، والإهتمام بالقوت الضروري فقط . مثلما تعيش مئات الملايين من الناس » — أخذ يوحي كريموف لنفسه ، ولحزنه على نفسه ، قال لغريتشمار الذي كان ينظر شزراً ، بفضول ، إلى العروسين :

— عندما عدت من أمريكا ، كان يطرح علي دائماً هذا السؤال : ماالذي أعجبك هناك أكثر من أي شيء آخر ؟ وكنت أغمغم مفكراً ، ماهو الذي أعجبني فعلاً . أما الصحفيون الشباب الأذكياء ، العارفون ماهو المطلوب ، فكانوا هم أنفسهم يوحون إلي : الشعب ، كما يجيب الجميع إطلاقاً ، عند عودتهم من رحلاتهم إلى الخارج . لا ، ياجون ، أنا لم أشعر بالشعب الأمريكي ، رغم أنني حاولت التحدث إلى كل عابر سبيل ألقاه ، ماعدا سمة واحدة من سماته ، وهي السذاجة . . .

اقترب غريتشمار الذي كان يجر قدميه بتثاقل على الاسفلت ، من الحجر الغرانيتي ، وهو يتنفس بصعوبة ، واتكأ بمرفقيه على الحجر ، ثم أخرج من جيب سترته علبة السجاير ، ثم تمتم بصوت مبحوح :

ـ وأنت ، هل تعرف الروس . . . هل تعرف الشعب الروسي ؟

ـ أعرفه قليلاً ، لأنني حاربت . لكن هذا كان في الأربعينات . لا أحد يعرف شعبه حتى النهاية ، معرفة كاملة . ولم يعرفه سقراط ولا تولستوي ، تماماً كالكون الذي لا يمكننا معرفته . بيد أن السذاجة ليست من سمات الروس . الثقة ، وسرعة التصديق ـ نعم هي سمة مميزة لهم . ولكن ليس السذاجة . أنا أتحدث عنك ياجون ، وعن السيناريو الذي حدثتني عنه . لن أستطيع إخراج فيلمك .

ـ لماذا ، قل لي ؟

ـ أنت لم تختر المخرج المطلوب . أتريد مني أن أخرج فيلماً عن يوم القيامة ؟ لن أتمكن من ذلك .

لاك غريتشمار السيجارة في فمه ، وكانت نظرته تنزلق بكآبة ونهم على الظلال المتكسرة لموسكو القابعة في الأسفل ، في ضباب ما قبل الغروب ، على رؤوس الأبنية الشاهقة البعيدة ، التي تشبه رؤوس المعابد ، والتي كانت تحمل شيئاً متخلفاً ، قوطياً ، على الدبوس الرمادي لبرج « أستانكينو » والأسطح الواقعة خلف الأفق ، على البقع الصفراء الباهتة لناطحات السحاب ، ذات الزوايا القائمة الرتيبة ، وعلى زجاج النوافذ الساطعة المتلألئة المواجهة للشمس ، وعلى القباب المذهبة لدير العذارى « نوفوديفيتشي » بأبراجه الصغيرة ، التي تشبه الدمى ، على ذلك الجانب من المنعطف المنحدر لنهر موسكو ، الذي أظلم ببرودة قبيل المساء المقترب ، حيث كانت تزحف ، بالقرب من دائرة الملعب الرياضي الكبير ، عربة الترام المائية مثل عجل أبيض ، منزلاً شاربيه في الماء ، نحو قنطرة الجسر الحديدية . ومن السطوح المتراكمة ، من الهدير المرتجف

لجسم المترو ، الذي كان يصل إلى الأذنين ، والذي كان يخترقه القطار ، من الضباب العاتم الكدر ، الذي ارتفع فوق الاسفلت المتسخن خلال النهار ، من كثافة الغازات المنفوثة ، وبدا لكريموف وكأنه تدفقت من الأسفل ، من هذا الجسم الكبير ، الحي ، رائحة زيت دافئة من عرق الآليات ، كما تدفق إرهاق وضيق المدينة الكثيفة السكان ، التي أحبها منذ صغره ، ولم يعد يتعرفها في السنوات الأخيرة .

— كان والدي يقول : في موسكو أربعون أربعينات كنيسة — تمتم غريتشمار ، وحرك بتجهم حاجبيه الكثيفين — أين هذه الأعداد الهائلة من كنائس موسكو ؟ ناطحات سحاب . . . قداحات مؤلفة من عشرين طابقاً ، كما في فيلادلفيا . لماذا هدم الروس المعابد ؟ لا يصح أن تضحك ، حيث ثمة سر . . . لا تفعل هكذا ، يافياتشيسلاف — قال بسخط ، منتقياً الكلمات ، وضارباً الحجر الغرانيتي بكفه — عليك أن تنتج الفيلم . عليك أن ترفع صوتك أمام العالم كله ، وتقول كلمتك للمنتحرين الأغبياء ، الحمير المتغطرسين . الموضوع — هلاك الكوكب الأرضي . أناس تافهون حقراء أشعلوا الحرب النووية . الأرض كلها تحترق . النار ، النار في كل مكان ، ثم تصبح الأرض كلها حجراً متفحماً . ولم يبق من الأحياء سوى سلحفاة واحدة . سلحفاة وحيدة ، بائسة ، تزحف وحيدة نحو شاطيء المحيط . فترى الشمس الحمراء الكبيرة . . . في الأمام ، في الدخان . الشمس كأنها بقة منتفخة ، متورمة . والسلحفاة تزحف . تقترب من المحيط ، فاذا هو جاف ، فارغ . إنه ميت . . . هكذا يقال بالروسية ؟ حفرة هائلة ، عظيمة ، وعظام الأسماك . تنظر السلحفاة ، تنظر إلى المحيط الميت ، تنظر إلى الشمس . وتموت على حافة الحفرة . تتجمد عيناها والشمس تنطفيء .

— شيء لايدعو للمرح — قال كريموف مفكراً ، متصوراً بوضوح نهاية الفيلم هذه : شاطيء متفحم ، بصورة حزينة ، لمحيط جفت مياهه بتأثير النار النووية ، عين السلحفاة الجامدة ، الكامدة ، المغطاة بطبقة رقيقة ، مع نقطة حمراء ، في قرص الشمس ، تنطفيء تدريجياً . إنه مرعب ، مرعب . إنه مصير أسود لامخرج منه .

— الفيلم يجب أن يدعى « السلحفاة الأخيرة » . — قال غريتشمار متأوهاً ، ومسح بمنديله حاجبيه المقطبين وعينيه الرطبتين ، ثم وجنتيه المرتعشتين بألم ، ثم خط بصورة دائرية وقال : — إنها القيامة . . . إنه يوم الحساب الرهيب بدون يسوع . هذا الفيلم يجب أن يكون . . . مثل صرخة أخيرة قبيل الموت . إنه عقاب الكذب والزيف والنقائص . عقاب البشرية الطائشة الرعناء . إن فيلمك « الحرب غير المعلنة » كان فيلماً مقلقاً جداً . إنه يعالج مشكلة البيئة الرهيبة . أما « السلحفاة » ، فهو فيلم يجب أن يصور رعب جهنم . يجب أن تسقط قلوب الجميع ، إنه الصدمة ، الموت ، هلاك المدنية والأرض البائسة ، وهلاك السياسة القذرة السيئة كلها . . . .

لفظ غريتشمار ، بعدة توقفات ، وبصوت متقطع ، الكلمات التي عثر عليها ، وتابع مسح وجهه ، دون عجل ، بمنديله ، وكأنه بهذه الحركة يكسب حديثه أهمية والحاحاً ثابتين . بيد أن كريموف رأى اضطرابه الأخرق ، وشاهد العرق على جفنيه المتورمين — فتذكر بوضوح فيلمه الأخير ، الذي عرض في مهرجان باريس . لقد هز هذا الفيلم كريموف بالمصير البائس التراجيدي للشخصية الإنسانية في نظام العالم الحالي ، الذي أدركه بطل الفيلم إدراكاً كاملاً ، بعد حادثة

السيارة ، حيث وقع بخطأ في مستشفى المجانين ، ووجد نفسه في هذا المستشفى ، الذي يديره أصحاب الأموال ، وجراحون لطفاء بزيف ورياء ، حيث يجعلون ، في قاعات وغرف عمليات مريحة ، من الناس المصابين باصابات بسيطة مرضى بأمراض مميتة ، لاأمل من شفائهم ، ومن المواهب الفائقة أشلاء بلا إرادة ، ومن الحقراء حكاماً وسلاطين . وينتهي الفيلم بوضع البطل على طاولة العمليات تحت همهمات جراح مجنون ، كاهن الزيف والرياء : « من يسامح ، من ينقذ ، من يشفي المدنية ! نحن . . . . » .

— أشكرك على هذا العرض يا جون ، — قال كريموف ، مرتجفاً من آثار وبقايا العالم المدمر ، المريعة المعروضة ، التي تمثل أقسى عقاب للبشرية الحية . — لقد ابتكرت فيلماً مروعاً ، بلا أفق ، ودون أي أمل . وأنا ، مع ذلك ، أحب الأرض ، لهذا لن أستطيع أن أكون جبريلاً ، يحمل سيفاً نارياً .

— شيء رهيب ، يا فياتشيسلاف ، أمر فظيع . ان الشر يبقى . . . بدون عقاب . . . — قال غريتشمار بصوت خافت وآسف ، وعقد جبينه ، باحثاً عن الكلمات اللازمة — وهل أنت واثق كل الثقة أنه يمكن تحقيق . . . لا . . . هكذا ؟ أجل ؟ — يمكن بلوغ المثل الأعلى للأخوة الإنسانية ؟ لا . بل وأسوأ .

— أجل ، انه أسوأ — أكد كريموف — غير أنني واثق بما يلي : يلزمنا الآن ، بطل ، يطرح على الناس المسائل والقضايا الأبدية حول كل داع أو سبب . كثيرون سوف يعتبرونه أبلهاً ، في البداية ، بيد أن هذه ليست مصيبة . ان دون كيشوت شخصية خالدة . لقد تزايد

واستشرى ، إلى حد مفرط ، عدد الأغبياء والمخادعين والمخربين ، والناس الصغار البيروقراطيين — من رئيس لجنة البناء وحتى الوزير ، الذين يسترشدون بمبدأ واحد : عش حياة سعيدة اليوم ، ولتغرق الدنيا من بعدنا . فيقطعون الغابات دون رحمة ، ويحولون الأنهار إلى ميازيب ، والسماء إلى ملقى للقاذورات . إنهم قتلة الأرض ، وقتلة كل كائن حي . هل لاحظت ، ياجون ، أنه لدى جميع هؤلاء الأشخاص ضيقي العقول ، في العالم ، عندنا وعندكم ، تعبير واحد في عيونهم ؟ اللامبالاة ، وعدم الاكتراث بكل شيء على وجه الأرض ، ماعدا الراحة والرفاهية لمؤخراتهم . ومن أجل هذه الغاية ، فهم مستعدون لبيع أراضيهم وبلادهم ، وأمتهم ، وخيانتها ، بل وبيع العالم كله وخيانته .

— دون كيشوت . . . أجل ، أنت . . . أنت تحلم بأنه يمكن تبديل الطبيعة البشرية .

— سأخذلك ، أنا لست دون كيشوتياً . أنا أعرف المسائل التي تقلقني . ولكن لاأعرف أجوبة دقيقة لها ، يا جون . أتفهم ؟ لهذا ، فأنا أشعر بالكآبة .

— وماهي الكآبة ؟

— الكآبة ؟ إنها الألم الذي ليس له موضع معين . أتفهم ؟

— أنا أعرف هذا . . . أعرفه جيداً .

وقفا على الساحة المطلة حوالي نصف ساعة ، بعيداً قليلاً عن السياح الذين كانوا يتوافدون ، ويغادرون من فترة لأخرى على سيارات الباص ، التي كانت تملأ الاسفلت بالغبار ، ثم هبطا على الدرج الحجري

الغرانيتي نحو كنيسة ترويتسكايا ، وسارا باتجاه الطرق الجديدة التي تقوم على طرفيها أشجار الزيزفون . وهنا ، على مقربة من الكنيسة ، خلف أسوار المقبرة القديمة المغلقة ، رأى كريموف بدهشة ، بين شواهد القبور التي نمت الأعشاب من حولها ، رجلاً ملتحياً ، يرتدي قميصاً مسبلاً فوق البنطال ، حافي القدمين ، كان يمشي على الممر الذي كانت تقطعه أشعة الشمس الساقطة من الأشجار ، مترنحاً ، ثملاً في تثاؤب مديد ، وخلفه ، وبتثاؤب متشنج ، كانت تنتقل بتراخ امرأة مكتنزة القدمين ، حاملة مخدة تحت ابطها ، وقد ارتدت ثوباً من القطن ، ورسمت بسرعة شارة الصليب أمام فمها * . انهما ، على الأغلب (كما تصور كريموف) حارس الكنيسة وزوجته . كانا يتنزهان في مكان ما تحت الأشجار . وشعر مباشرة ببرودة المخدة ، ودفء العشب النضر ، وحسد كريموف ، دون قصد ، غبطة الآخرين البريئة هذه ، وقال :

— أتعرف ، يا جون ، أي لذة ، أن يستلقي المرء على العشب وينام ؟ ألم تجربها ولا مرة ؟

— روس ، أجل ؟ إنها روس ** — قال غريتشمار ،وتوقف أمام السور محدقاً بعينيه الكرزيتين الحادتين بالرجل الملتحي ، الرازح تحت وطأة تشنجات التثاؤب . — كان أبي يقص علي . . . كان لديه عقار كبير . . في الأورال — قال غريتشمار ببطء — بالقرب من مدينة

* عادة يتبعها المتدينون ، وكبار السن في روسيا ، عند التثاؤب — المترجم —

** روس — الاسم القديم لأول دولة روسية للسلافيين الشرقيين ، تأسست على ضفاف نهر الدنيبر في القرن التاسع . — المترجم —

يكاتيرنبورغ ، تسمى عندكم الآن سفردلوفسك ، أجل ؟ هناك كان عنده عقار . حديقة واسعة كبيرة . كان هو ، أبي ، وجدي . . . يحبان النوم على الدريس . كان يقول ، بأنهم كانوا ينامون هناك في روسيا ، تحت أعين الله . وكان يقول . . . عندما كانت تطل نجمة الليل من النافذة، في البيت ، كانت تغدو روحي أكثر ثراء — وضرب غريتشمار صدره باصبعه — انه كان يعرف روسيا ، كثيراً ، معرفة مثالية . . .

— عفواً ، يا جون — قال كريموف بحزم جامح — لم يعرف أحد ولا يعرف روس ولا روسيا بصورة مثالية . حتى ليف تولستوي . لا وجود لروس الآن . أما روسيا فهي بلاد المفاجآت . وليس هناك من بلد آخر مثلها في الطبيعة . وإذا كان هناك من سينقذ المدنية الضالة ، التائهة ، فهي أيضاً روسيا . كما حصل في الحرب العالمية الثانية . كيف ؟ لا أدري . وبعد كم من السنين — لاأدري . وبأية تضحيات — لاأعرف . ولكن ، ربما ، قد يتمثل فيها ضمير العالم كله . ربما ، لم تُعطَ أمريكا مثل هذه الميزة . فقد فسدت روحها تماماً ، ووقعت حلفاً كاملاً مع الشيطان . . .

وصمت كريموف ، ثم قال بضجر «آه» — وتأبط ذراع غريتشمار ، داعياً إياه بهذه الآهة ، إلى السير بصمت على هذا الطريق المشجر ، واستنشاق الهواء العذب .

غير أن غريتشمار كان يقف بحيرة وارتباك أمام سور المقبرة ، ناظراً إلى القباب الخضراء المترائية بين الأشجار لكنيسة قريبة ، حيث

كانت تزقزق العصافير على امتداد قبة الأجراس ، وكانت الحمائم تمشي على الافريز الحديدي ، وهي تطرق بمخالبها .

— أريد أن أذهب إلى هناك — قال غريتشمار .

دخلا إلى الكنيسة الصغيرة ، الهادئة ، التي تفوح بالشموع الدافئة ، والتي تضيئها من الأعلى أعمدة الشمس المائلة . لهذا كانت نيران الشموع المشعلة أمام الايقونات القائمة تحترق على شكل جزيرات باهتة . ما إن دخلا ، حتى رفع غريتشمار نظره بخفر إلى القبة ، ورسم شارة الصليب بغيرة وحرارة ، وقد دهش كريموف من التبدل الخاطف المفاجىء ، الذي حدث على وجه غريتشمار المكتنز ،وفي كتفيه الثقيلين المحدودبين . كان هذا تعبيراً غير مألوف ، تعبيراً جديداً عن الخطيئة المستسلمة الخاضعة ، تشبه الخطيئة المتعمدة المصطنعة ، في هيئة غريتشمار الشبيهة بالصخرة الجامدة . أما هو ، فقد أمسك أنفاسه ، وتحرك دون ضجة إلى مكان ما ، في الزاوية ، إلى اليسار من المذبح ، في الظلام الذي تبدده الشموع . وهناك وقف بصورة خرقاء ، على طريقة الثور ، وقف أمام الأيقونة على ركبة واحدة ، ثم على الركبة الأخرى ، وتحركت يده اليمنى ، لترسم صليباً واسعاً كبيراً على صدره ، وكان رأسه يرتفع وينخفض في الركوع والسجود . أما كريموف ، الذي لم ينتظر هذا من غريتشمار القاسي ، الذي لا يعرف التسامح في أفلامه القاسية ، فقد أشاح بوجهه عنه ، مصدوماً من التصنع واللاطبيعية ، وكأنه كان مرغماً على مشاهدة إنسان يعرفه معرفة قريبة ، ويعرف أنه يخدعه على مرأى منه .

« وماذا أفعل أنا ؟ — امتعض كريموف من مشاعره الجارحة —

ولماذا أشك بصدق إيمانه ؟ ومن أعطاني هذا الحق ؟ لأنه لاينسجم مع أفلامه ؟ مع آرائه ؟ وأين على وجه التحديد ، أين أرى الخداع والتناقض ؟ وأين هو حقي السامي بأن أدينه وأحكم عليه ؟ كم ألفنا نحن ، أن نعتبر أنفسنا مثاليين أمام العالم كله ، متميزين خالين من العيوب ! أما هو ، فقد أخرج فيلمين من أقوى الأفلام ، برز فيهما ذلك الألم الإنساني الكبير . من المستبعد جداً أن يستطيع مخرج آخر التعبير عنه بمثل هذه القوة . . . » .

ولنفوره من إنسان ثان متكبر في ذاته ، تربى منذ طفولته على وعي التفوق الأخلاقي الواثق ، والذي عاش في بعد ملائكي كامل عن الخطيئة ، يعرف كل شيء ويدركه إدراكاً دقيقاً ، ارتجف كريموف من الخجل ، ونظر من بعد إلى غريتشمار ، الذي كان واقفاً بخشوع على ركبتيه ، وخرج بسرعة من الكنيسة ، هارباً من هذا الإنسان الثاني الحقير الكامن في نفسه .

توقف أمام المَخْرج ، حيث كان يتقد مصباح في هالة برتقالية ، وكان وجه العجوز ، بائعة الشموع ، المضيء المتجعد ، الملثم بمنديل أسود ، مائلاً إلى الطاولة ، بصورة بدت له حزينة وقانطة . وباحساسه الثاقب المعروف ، ولابعاد الخناق عن عنقه ، تلمس كريموف في جيب بنطاله ، بقلق واضطراب ، ورقة مالية كبيرة ، وبفكرة سرية للتخلص المحتمل من الكآبة ، وبأمل التفريج عن نفسه ، دون اقتناع بهذا التفريج ، رمى كريموف الورقة المالية على الطاولة ، وخرج إلى الهواء الطلق .

كان يمشي ، بانتظار غريتشمار ، جيئةً وذهاباً على الرصيف ،

أمام طنف الكنيسة ، وهو يدخن ، مكرراً الفكرة ذاتها التي تطمئنه دائماً : « الآن ستمر وتنتهي ، كما ينتهي كل شيء » . وبالتدريج تخلص من هذا الاختناق الشديد ، وظهر العرق على جبينه ، وأحس فعلاً بشيء من الراحة . وعندما ظهر غريتشمار المقطب الجبين ، بعينيه الملتهبتين ، وقال له : « . . . هذه كنيسة روسية حقيقية » ، اقتصر كريموف على سؤاله بصوت عادي :

— من أجل ماذا صليت ، إن لم يكن سراً ؟

— لاداعي للحديث .

— اعذرني ، إذا كان الأمر كذلك .

— سأقول لك . ابتهلت وصليت من أجل إنقاذ العالم . . . — خفف غريتشمار من سرعة تنفسه ، وهو يفتش بأصابعه في علبة السجاير ، وهنا عاد وجهه كما كان عليه سابقاً ، وكأن حديثهما لم ينقطع ، ولا لثانية واحدة . — أريد أن أسلمك العقد . انني أريد هذا الفيلم يافياتشيسلاف . أنت قادر على إخراجه . . . وتعال نشرب ثانية . .

— آه ، ياعزيزي جون . هذا ليس فيلمي — قال كريموف بحزم غير مزعج . — إن عرضك مغر ، لكن هذا ليس فيلمي . . . وكما يقال ، الأمل آخر ما يموت . من الشاعر القائل : إن القبرة على الحبل تحتفظ بأغنيتها طيلة فصل الشتاء ؟ أم أن هذا القول من عندياتي ؟

— هذه عواطف . . . رومانسيتكم السوفييتية السابقة .

— لا ، الحبل هو الأمل .

— أريد أن أشرب مشروباً روحياً من جديد ، يافياتشيسلاف ، وأريد أن أتحدث إليك .

الفصل الثاني عشر

في الرابع من تموز استدعي كريموف إلى المحقق ، ولم يذهب إلى البيت الريفي ، بل أمضى ليلته في المدينة .

عند الفجر ، سمع ، بوضوح في منامه ، شخصاً ، كان يحاول تكسير باب شقته من بهو الدرج — بحدة وقساوة ، كان حديد الأقفال المنتزعة يصرّ ، وكانت ألواح الخشب تطقطق وتتداعى . وسقط الباب تحت الضربات وتقوس . واندس شيء خطير ، لاشكل له ، من الطرف إلى غرفة مكتبه ، وأخذ يراقبه بلاعين ، وقد تجمد راقداً على الأريكة ، وأخذ هذا الشيء يمسه مهدداً ، أما هو ، فلعجزه وضعفه ، لم يستطع حتى أن يدير رأسه ، ويصرخ بحنجرة جافة : « من هنا ؟ » .

لقد رأى كل هذا بوضوح وواقعية ، لدرجة أنه أفاق من نومه والعرق يبلله ، ونظر طويلاً بريبة ، دون أن يصدق ، إلى الباب الذي يلمع بهدوء على ضوء الفجر ، من مكتبه الذي لم يمس . كان يرقد ويفكر بحديثه المقبل مع المحقق ، الذي حدد في الدعوة ، في الساعة الثانية عشر ظهراً ، وكانت ضربات قلبه العميقة تصم أذنيه ، وكان يشعر بعبء ثقيل وصعوبة ، نتيجة عجزه الكريه السابق في الحلم .

كانت هذه الدعوة الثانية إلى المحقق ، أما لقاؤهما الأول فقد جرى

عشية سفره إلى باريس ، وفي تلك الأثناء ، كان كريموف على قناعة تامة ، بأن كل شيء يجب أن يتضح حتى النهاية . لكن دعوته من جديد إلى بتروفكا * ، وواقع أن التحقيق ، كما هو مفترض ، لم ينته ، شكّلا ظلاً من التراق المبهم والغموض المريب . لم يتوقف خفقان قلبه ، ولم ينس ذاك الشيء الأبيض ، العديم العينين ، الذي دخل إلى مكتبه . ومن أجل أن يتنشط وينفض عن نفسه تخدير النوم ، أخذ « دوشاً » بارداً ، وفرك جسمه بمنشفة ذات وبر ، إلى أن سمع صوت التيار المخشخش في عضلاته . وعندما بدأ يحلق ذقنه ، لاحظ شعاعاً رفيعاً آتياً من النافذة عبر الغابة ، قد أصبح فضي اللون في المرآة . وبينما كان يرغي رغوة الحلاقة المعطرة ، التي تدفء الجلد برقة ، على ذقنه ، شعر كريموف فجأة بتدفق رشاقة روحية إلى نفسه ، كالتي كانت تحدث له أحياناً في الصباح الباكر . وعندما ارتدى قميصاً نظيفاً يجاب له الرطوبة ، ورأى عينيه البارقتين بالابتسام ، غمز بعينه بود وصداقة ، وكأنه يتابع حديثه الذي لم ينته مع غريتشمار : « سوف نعيش . . . حتى يوم القيامة ! » .

شرب كريموف كأساً من الشاي الثقيل ، ومشى في مكتبه باتجاه الهاتف ، عازماً على الاتصال بالبيت الريفي . اسودّ جهاز الهاتف على الطاولة مثل وحش صغير غريب ساكن ، ووقف كريموف أمام الهاتف غارقاً في أفكاره ، لكنه لم يهتف به ، لعدم رغبته بأن يكذب على أولغا ، ويفسر لها مالا يستحق الحديث عنه الآن . فحسبما استقبلته أولغا في

* بتروفكا — اسم الشارع الذي يقع فيه بناء الإدارة الداخلية في موسكو . وقد أصبح هذا الشارع رمزاً لهذه الإدارة المختصة بالتحقيقات الجنائية وملاحقة المجرمين — المترجم —

البيت الريفي ، حزر كريموف أن الشائعات قد وصلت إليها ولم تستثنيها ، بيد أن أي تفسير كان أشبه بالتبرير ، أشبه بالاعتراف الحزين .

« المهم ألا تتورط أولغا — فكر كريموف ، وهو يتمشى في شقته بين غرفها اليتيمة ، الناضحة بالغبار والفراغ المشمس . — علي أن أواجه هذه المسألة لوحدي » .

* * *

عندما وصل بسيارة الأجرة إلى بوليفار تسفيتنوي ، ومن هناك سار مشياً على قدميه باتجاه شارع بتروفكا ، كان الوقت وقت عمل ، قبيل الظهيرة ، وكانت الشوارع غاصة بالناس المتزاحمين ، الفوضويين العابثين ، مع حفيف مستمر لاينقطع ، ومع هدير وانخطاف السيارات الصغيرة التي تنطلق نحو غاية ما ، باتجاه ما ، ومع قرقعة وضجيج وصلصلة من السيل المتدفق بلامعنى ، كما بدا له ، من الشاحنات على محلّق « سادوفوي » الدائري ، ومع سيارات الترولي باص ، المحشورة حشراً بالركاب ، بزجاج نوافذها السميك اللامع ، ومع الضيق والهواء المحبوس في عربات الترام ، ومع الطوابير التي تحجب الأرصفة لشراء المياه المعدنية والمرطبات ، مع الوجوه المتعبة من الحر في الحشد المزدحم — ان لوحة المدينة هذه كلها ، الدائرة في القيظ الخانق كانت تلمع أمامه تحت أشعة الشمس الجهنمية الثقيلة ، المشبعة برائحة الاسفلت المدخنة . ولم تبق رطوبة الصباح الدافئة ، ورطوبة سيارات الرش التي صبت الماء البارد على الأشجار في الصباح الباكر ، الا في البوليفار ، تحت أغصان أشجار الزيزفون .

« حسناً ، سنعيش الآن . . . حتى نهاية العالم ، — فكر كريموف

ثانية ، محاولاً الاحتفاظ باتزانه النفسي عن طريق السخرية . — ولكن لماذا ، وعلام هذا كله ؟ — وهل عدم الثقة والريبة تعد ذنباً . . . ماذا حل بي ، كنت لا أرغب ، والآن أريد التعجيل بالحديث مع المحقق . ولماذا العجلة ؟ من أجل إزالة شكوك غير معقولة ؟ من أجل اثبات الحقيقة ؟ في هذه العجلة ثمة سخافة مماثلة لما في التأخير والتأجيل » .

بعد التحقق من الوثائق الشخصية في الممر (شاب برتبة ملازم بعد أن تعرف على كريموف ، نظر إلى البطاقة الشخصية ، ثم إلى وجهه ، وابتسم خلسة) ، صعد كريموف إلى الطابق الثاني واتجه في دهليز طويل إلى نهايته ، حيث كانت الغرفة رقم /٢٠٠/ ، كما يذكر ، إلى اليسار من النافذة ، بالقرب من منبسط الدرج . ووصل إلى نهاية الممر ، ذي السقف العالي ، الخالي من الناس ، بأبوابه الكبيرة (في مكان ما ، في الداخل ، كانت تسمع بصورة بعيدة ومنعزلة ضربات آلة كاتبة) ، ووجد رقم الغرفة المطلوب دون عناء ، وهنا وجد زائراً آخر ، يقف أمام النافذة ، عاقداً يديه خلف ظهره .

— أنت أيضاً إلى هذه الغرفة ؟

لم يتحرك الرجل الواقف أمام النافذة ، وطرق كريموف باب الغرفة . لم يسمع أي رد من داخل الغرفة . ضغط كريموف على الباب ، باصرار غير مقبول ، في مثل هذه الدائرة الحكومية ، لكن الباب كان موصداً ، فتمتم بارتباك : « لا أحد . . . » — وبعد أن أخرج سيجارة ، اقترب من المخرَج المؤدي إلى منبسط الدرج .

— أنت كريموف ؟ — سمع صوتاً خفراً باحثاً . — أنت المخرج كريموف ؟

التفت إلى الوراء ، فرأى الرجل الواقف أمام النافذة ينظر إليه بعينين فاتحتين ، محاطتين بجفنين أحمرين . كانت عينا الرجل معروفتين جيداً بالنسبة لكريموف ، وقد ذكرتاه بصورة مؤلمة ، بشيء ما ، وخفق قلب كريموف بحرارة . فتذكر على الفور ذلك الشيب الناعم ، النبيل الشعر الطويل ، الذي يوجد عادة لدى الممثلين المتقدمين في السن ، وتذكر الحاجبين الجميلين الذين خطهما الشيب ، والجلد القاتم اللون ، وأناقة الملابس ، وربطة العنق السوداء ، علامة الحداد ، وتذكر كيف كان يقف هذا الرجل في المقبرة ، وقد وضع قدميه تحته بصورة جامدة ، وكيف كان ينوح باختناق ، عندما انتهى توديع الجثمان ، وهو ينحني على التابوت بوجه مائل .

ـ أنت والد ايرينا ـ قال كريموف ، متغلباً على الموقف الحرج ـ اعذرني ، أنا أعرف اسمك الأول من اسم ايرينا الثاني ، لكن اسمك الثاني* قد انمحى من ذاكرتي . لقد تعارفنا في المقبرة في ذلك اليوم . . .

ـ للأسف ـ قال والد ايرينا بصوت جامد وغطى عينيه بحزن ـ إسمي فنيامين فلاديميروفيتش ، أعمل في إدارة التخطيط في جمهورية لاتفيا ، أقيم في مدينة ريغا . أما أنت ، فأذكرك جيداً . وأعرفك من خلال أعمالك ، يافياتشيسلاف أندرييفيتش . . . هل أناديك بالاسم الصحيح ؟

ـ اذن ، أنت تقصد هذه الغرفة أيضاً ، قال كريموف بصورة شبه متسائلة ، لاعناً سخافة كلامه ، وعدم ضرورة اللقاء في مكان ،

---

* الاسم الكامل بالروسية ثلاثي : الاسم الأول واسم الأب (الثاني) والكنية (الثالث) ، وصيغة النداء الرسمية : الاسم الأول واسم الأب — المترجم —

كان يجب ألا يحدث فيه . — لقد استدعوك من ريغا ؟ أمر غريب ، في الوقت نفسه . . . كم هو غامض وأخرق كل شيء . . . . — ولم يكمل كلامه، ورمى سيجارته التي لم يدخنها حتى النهاية في سلة المهملات.

— أجل ، أنا أقصد هذه الغرفة ، قدمت إلى هنا — قال فينيامين فلاديميروفيتش مشيراً إلى الباب ، وبصورة مسرحية غطى وجهه المشوه بيديه الصفراوين بعروقهما الزرقاء ، وقال بصوت مختنق : — صدقني ، أنني أفقد عقلي . . . علام عاقبني المصير بمثل هذا العقاب ؟ من يستطيع الآن الإجابة ؟ من يافياتشيسلاف أندريفيتش ؟ من يعيد إليّ ايرينا ، ابنتي ؟ ابنتي الوحيدة ، الرقيقة الناعمة ، الذكية . . . أنا أعرف كم كانت إيرينا موهوبة — تابع حديثه ، ساحباً يديه من على وجهه ، واستدار جانباً إلى كريموف ، ووضع لسبب ما ، كفيه على الزجاج ، وسالت الدموع على خده المرتجف — أنا أعرف كم كانت تعاني إيرينا ، وكم كانت تتألم ، عندما حدثت لها تلك الإصابة في مسرح البولشوي . كانت لديها آمال وتوقعات كبيرة . . . كانت ستصبح راقصة بالية عظيمة . . . لقد شعرت بموهبتها هذه منذ طفولتها ، منذ مراهقتها . . . الليونة ، المرونة ، الرقصات ، حركاتها الرقيقة الناعمة ، ثم مدرسة البالية ، واعجاب الأساتذة والمدربين . . . علام ، علام يعاقبني القدر بهذه القسوة ؟ علام اختطف مني ابنتي الوحيدة ؟ . . .

واستنشق الهواء بفمه، ثم نشج وتساقطت دموعه، واهتزت كتفاه، كما حدث أثناء الوداع الأخير في المقبرة ، وقال كريموف متجهماً:

— أرجوك ، اهدأ

— طبعاً ، طبعاً — قال فينيامين فلاديميروفيتش ، ماسحاً دموعه بتحريك جفنيه — متى سيبرأ هذا الجرح ؟ لن يبرأ ، أبداً ، أبداً !

ايرينا ، ابنتي ايرينا ، كانت فتاة غير عادية . . . يالها من فتاة مأساوية ... أية زهرة رائعة ضعيفة هي ، محكوم عليها بأن تداس ، بأن تدوس عليها الحياة بقسوة ! . . . .

« أنا أفهمه ، لكنني لا أستطيع مساعدته ، مبعداً نظره بانقباض كئيب عن وجه سكفور تسوف الجميل ، الطيب ، المغطى بالعرق . — انه صادق ، انه يعاني ويتألم . . . ولكن ، لم هذه الكلمات والايماءات الفظيعة عن ايرينا ؟ » .

— كانت تعرف ، لقد كان لديها شعور مسبق بأن شبح القدر يحوم حولها ، — قال فينيامين فلاديميروفيتش ، وهو ينظر إلى الدخان المشبع بالرطوبة في سماء موسكو من خلف النافذة . — أذكر ، أنها جاءت إلى ريغا ، بعد تخرجها بدرجة شرف من مدرسة البالية . وكان قد عرض عليها تمثيل دور . . . وجاءت لعندي لمدة يومين من أجل أن تراني . لم ترغب في قضاء اليومين في البيت ، ونزلت في فندق . كان الوقت مساء ، وقت الغروب ، وكانت تشعر بالبرد ، متدثرة بشال . كانت تقف أمام النافذة ، مستغرقة في التفكير ، كانت حزينة رغم أنه كان من المفروض أن تكون فرحة مسرورة . سألتها : « هل حدث لك شيء يا ايرينا ؟ » فاستدارت نحوي ، وابتسمت لي بحزن كبير ، وهي تقول : « أبي ، عزيزي ، ستكون نهايتي سيئة . . . » . ابنتي البائسة ، بماذا كانت تفكر في تلك الأمسية ؟ . . .

— هل كانت تزورك كثيراً ؟ — سأل كريموف بصوت خافت ، متذكراً لحظات استغراق ايرينا في التفكير .

— لا ، ليس كثيراً ، وأنا لاأستطيع أن أسامحها — اعترض فينيامين فلاديميروفيتش ، متنفساً من منخريه . — بعد موت زوجتي

الأولى ، انتقلنا إلى ريغا ، لكن ايرينا لم تعد تقطن معنا . . . أعني — التقيت بامرأة وتزوجتها ، فلم تستطع العيش معنا . كانت تحب أمها المتوفاة حباً جماً ، إلى حد المرض . وعاشت في موسكو ، في البناء السكني للمدرسة البالية أولاً ، ثم سكنت في بيت عمتها . أما أنا ، فكنت أشتاق كثيراً إليها بصورة لاتحتمل . كنت مستعداً لعمل أي شيء من أجلها ، كل ماتريده . لكن ايرينا لم تكن تتقبل المساعدة دائماً . أنت لاتستطيع أن تتصور ، كم كانت تحبني في طفولتها . أما في السنوات الأخيرة ، فأصبحت تشفق علي ، كما بدا لي . . .

— كانت تشفق عليك ؟

— أترى ماهي المسألة ، يافياتشيسلاف أندرينيتش . . .

« ماذا به يكلمني « أترى ماهي المسألة » ؟ من أين لهذا المثقف الكهل هذه الأناقة في الكلام ؟ انه ، لسبب ما ، يثير أعصابي ، وهذا يهيننا نحن الاثنين » .

— لقد قلت ، إيرينا كانت تشفق عليك ؟ اعذرني ، لم يكن بودي طرح أسئلة تسبب لك الألم .

— الألم ؟ الألم . . . انه أشد من الألم وأقوى ، يافياتشيسلاف أندرينيتش . لاأدري متى بدأت الحياة تنهار نهائياً . كانت ترى أنني غير سعيد في حياتي الجديدة . والحقيقة ، أن الحياة لم تلتئم بيننا فعلاً . . . غير أن ايرينا لم توجه لي أي لوم ، ولا كلمة واحدة . وكنت أنا أرى من خلال عينيها — كانت تعاني ، كانت تشفق علي . . . يادلاكي الحبيب ! أية عزة تلك ، أي نقاء ، أية رقة طاهرة ، وأي ضعف غير عصري ، أتدرك ذلك ؟ وكأنها هبطت من كوكب آخر إلى هذه الأرض . . . من أجل أن تزين الحياة . وقتلوها هنا ، قتلوها لطهارتها

وبراءتها . ؟ أي مرت غريب هذا كان مصيرها ـ ماتت لانكسار فقرات رقبتها ! وأنت ، أنت تدرك ، باعتبارك مخرجاً ، أراد العمل مع ابنتي ، باعتبارك عارفاً بالنفس البشرية ، هل تدرك ماذا حصل ؟ أجبني ، أتضرع إليك ! أرجوك ، أطلب منك . أجل ، أطالبك بأن تشرح لي أسباب هلاك ابنتي ! أنا لاأصدق أنها كسرت عظام رقبتها وغرقت ! لاأستطيع تصديق ذلك ! . . . .

« ماهذا ، جنون ؟ التقينا في الممر ، أمام باب المحقق ، وهو ، والد ايرينا ، هذا الرجل ذو المظهر النبيل ، ينطق بكلمات لايمكن تصورها ، ويطالبني بالمستحيل ! إنه أمر لايمكن احتماله . . . » .

ـ لاأستطيع الإجابة عن سؤالك ، فينيامين فلاديميروفيتش ـ قال كريموف بمرارة ـ لو كنت أعرف . . . ثمة شيء واحد واضح : حدث شيء لايمكن رده ، لايمكن دفعه ، ونحن كلانا عاجزان .

ـ كلانا ؟ عاجزان ؟ ـ كرر فينيامين فلاديميروفيتش بصوت خرج من حنجرته وهز رأسه قليلاً ، وكأنه في حالة من الغثيان ـ أنا ، لا ، أنا لست عاجزاً ! عزيزي ، ملاكي الحبيب ، ايرينا ، يا طفلتي الطاهرة البريئة ! أنا أعرف ايرينا أكثر منك ! كانت فتاة متطرفة ، مغالية . أنا نفسي ، كنت أحلم في وقت من الأوقات بالتمثيل والظهور على خشبة المسرح . انني أهوى المسرح طيلة حياتي وأفهم قليلاً في الفن . كان روح عصر النهضة في ايرينا ، كانت فيها رشاقة إلهية لراقصة بالية رائعة ، وكان فيها روح الفن الشعبي الروسي الرائع (البوب ـ آرت) ، والفن (المودرن) الأكثر حداثة ، كانت أعجوبة !

ـ وما علاقة « البوب ـ آرت » و « المودرن » هنا ؟ هذا كله هراء ! ـ لم يصبر كريموف ولم يحتمل ، خائفاً من اندفاعه الذي لم يستطع مقاومته ، ومن الانفجار الصاعق المفاجيء ، وبعد أن صمت

قليلاً ، وهو يضغط على أسنانه ، تابع حديثه بألم : جاء متأخراً :
— يبدو أنك لم تكن تعرف ابنتك جيداً .

— أنا لم أعرفها ؟ وأنت ؟ كنت تعرفها جيداً ؟

ارتفع كتفاه المحدودبان وارتجفا ، وكأن ذلك نتيجة نحيب داخلي ، وخطا على مقربة من النافذة ، وتقدم بكامل جسمه نحو كريموف ، موسعاً بصورة كبيرة عينيه الكبيرتين الفاتحتين ، وقال هامساً :

— ماالذي كنت ترمي إليه من اعطائك الدور لإيرينا؟لقد أغريتها بالأمل ! وليس بالأمل وحده . . . أنت ، فياتشيسلاف أندريفيتش ، أنت مذنب ، ويجب أن تعاقب . عليك أن تنال عقابك ! لقد جئت من أجل أن أطلب . . . أطلب محاكمتك ، لقد كنت شيطاناً — مغرياً ، أنت مشهور . . . ولهذا ، كنت لاأخلاقياً بالنسبة لابنتي ! — وشهق مبتلعاً الهواء بجشع ، كما لو كان يعاني من سكتة قلبية . — كان عليها أن تهجر الفن إلى الأبد ، إلى الأبد ! فبعد إصابتها تلك ، كان عليها ألا تعود إلى البالية من جديد . . . وبعد تلك الآمال الرائعة ، لم يعد بامكانها أداء الأدوار الصامتة والصغيرة الثانوية ! أما أنت ، فقد رشحتها لدور في السينما . . . ، أوه ، لقد أفسدتك الشهرة وشوهتك ، أفسدتك النساء ! لقد كنت أسأل ، وأستعلم ، فياتشيسلاف أندريفيتش ، عن سلوكك الأخلاقي عندكم في الاستوديو . لقد كنت هناك ، اليوم صباحاً ، لاتؤاخذني ، كنت هناك . . . وحتى مدير الاستوديو ، مدير ، وعضو اللجنة الحزبية ، الرجل المحترم ، لايستبعد . . . حتى هو قال لي : لاأستبعد . . . أجل ، أجل ، إنه لايستبعد علاقتك المجرمة بايرينا . . .

وتشبث سكفورتسوف بيديه الاثنتين بكم كريموف — ، وبكى بكاء مراً وأسقط رأسه الذي كان يفوح برائحة شعره وماء الكولونيا .

اصفر كريموف ، وشعر بقشعريرة حادة تسري في وجهه ؛ وقاطعه قائلاً :

— عم تتحدث ؟ ماهذه الترهات التي افتراها ولفقها بالابانوف ؟ وماهذا الحديث الغريب الذي يدور بيننا ! لم أرد ذلك ، فهذا مهين لنا نحن الاثنين ! هذا عيب ، ياللشيطان ! — ولم يعد باستطاعته أن يمسك بزمام نفسه ، وأن يهدىء نفسه بالبصيرة الناضجة ، السليمة ، المهدئة ، التي تحضره فيما بعد ، عندما يتذكر فترة حدته الجامحة — علي أن أقول لك شيئاً واحداً ، فينيامين فلاديميروفيتش : لاقدر لك الله أن تكون في موضعي في ذلك اليوم الرهيب ! . . . أتمنى لك أجمل الأمنيات ! تصرف كما تريد ، أنا مستعد لتقبل كل شيء ! . . .

كان مذهولاً من سخافة هذا اللقاء (« من أجل ماذا استدعينا نحن الاثنين في ساعة واحدة ، أم أنه مجرد تزامن عرضي ؟ ») ، ومع ذلك ، أمكن كريموف توديعه ببرودة أعصاب ، واحترام ، مدركاً التعبير الزائغ المحطم ، وغير المصدق لأي شيء ، في الوقت نفسه ، في عيني بنيامين فلاديميروفيتش ، ومشى بسرعة في الممر ، مقتنعاً بفكرة يائسة — فكرة ألا يحضر إلى هنا ، إلى أن يستدعى من جديد بصرامة كاملة .

ركض على الدرج الواسع في البهو ، متلمساً على عجل بطاقته الشخصية التي وضعها إلى جانب الدعوة في جيبه .

كان يدخل إلى البهو ضباط الشرطة ، جماعات ، وهم يتحدثون بلهجة صارمة ، مبرزين ، الواحد تلو الآخر ، بطاقة الدخول للملازم الشاب ، متبادلين الانحناءات برؤوسهم على عجل . توجه بعضهم إلى المصعد الكهربائي ، وتوجه بعضهم الآخر إلى الدرج ، وألقى آخرون

نظرة عاجلة إلى كريموف الذي كان ينتظر جانباً . وهنا ، وقبل خروجه إلى الشارع ، شعر بحدس سيء ، وكأنه سيحدث الآن شيء ما ، لاداع له أبداً ، شيء سخيف بلا معنى ، ينطلق بطرق لاواقعية وغير لازمة . وما إن فكر بهذا حتى برز من بين حشد الضباط نقيب يبتسم بفتوة ، أحمر الوجنتين ، متوسط العمر ، ذو شاربين (« توكاريف ، المحقق توكاريف ، لقد التقيته قبل سفري إلى باريس ») ، وقد غمره صوته المخملي الجميل بالدفء :

— فياتشيسلاف أندريفيتش ، مرحباً ، وعذراً ألف مرة ، لقد أذنبت بحقك ، اجتماع مفاجىء على أعلى المستويات ، لقد تأخرت أربعين دقيقة . انني مذنب . أدرك كم أنت مشغول ، لذا ، فقد أذنبت بحقك ، واني أعترف بذنبي . . .

— ماذا يعني انشغالي النفيس بالنسبة للعدالة ، وما علاقة ذنبك الأسطوري هنا ؟ — قال كريموف ، خائفاً ، أكثر من أي شيء آخر ، ألا يفلت الكلام من بين شفتيه ، بعد عبارات توكاريف المصطنعة ، بعد هذه الاعتذارات ذات الطابع اليومي المبتذل ، التي تخلو من أية أهمية . — عفواً ، أوليغ غريغوريفيتش ، أنا اليوم لست قادراً على التشرف بالإجابة ، بصورة معقولة ومنطقية ، على أسئلتك . فاذا كان من الممكن طبعاً ، سأودعك الآن ، لاسيما وأنه ثمة زائر بانتظارك ، يعرف أشياء كثيرة ، بما في ذلك عني . . .

محى توكاريف الابتسامة من على وجهه المتورد ، ونظر بعينين ثابتتين ، مختبرتين .

— اعطني دعوتك التأشير عليها . وإلا ، فان يسمح لك بالخروج

يافياتشيسلاف أندريفيتش ، رغم أنك مخرج سينمائي شهير . سأستدعيك خلال أيام .

— شكراً . سأكون مسروراً الغاية .

في ميدان تياترالنايا ، أوقف كريموف سيارة أجرة ، وانطلق باتجاه الاستوديو .

* * *

عندما دفع الأجرة لسيارة التكسي ، ودخل عبر كشك الاستعلامات إلى بوابة الاستوديو المشبعة بأبخرة الاسمنت ، المغطاة بوبر أشجار الحور المبعثر ، الطائر الذي يلتصق صيفاً بالوجه (لهذا كان يبدو القيظ أشد ، ولايطاق أبداً) ، وعندما اجتاز الردهة الرطبة الجنائزية المظلمة ، الداوية ، صعد إلى الطابق السادس ، ودخل إلى غرفة استقبال المدير . وهنا ، في هدوء قطني معتم ، وبين جدران مكسوة بخشب البلوط ظهر عدد من وجوه المخرجين والممثلين المألوفة ، وارتفع وجه السكرتيرة الأفطس ، المنكمش ، بشعرها المعلق على وجنتيها ، للقائه بخوف وذعر . كان يدرك تماماً أنه غير قادر على تغيير الطبيعة البشرية ، التي تذوقت حلاوة السلطة ، أية سلطة كانت ، وأنه لن يتمكن من هز شيء وزعزعته ، دون أن يلقى العقاب ، بيد أنه فتح بحزم الباب المغطى بالجلد السميك ، ودخل ، وقد أوقفه صراخ السكرتيرة المذعور :

— ممنوع ، فياتشيسلاف أندريفيتش . إنه مشغول !

— مسموح — قال كريموف — لن يسبب له دخولي كارثة ، حسب اطلاعي .

خلافاً لعادته ، لم يجلس بالابانوف وراء مكتبه الضخم ، المطمور من أطرافه بالأوراق ، ومخطوطات السيناريو المغلفة والأضابير ، بل كان يجلس خلف « الطربيزة » مقابل الباب المفتوح ، كان أحمر الوجه ، دون سترة ، يحرك كأس الشاي ، عاصراً قطعة الليمون فيها ، وكان يصغي بانتباه وتركيز ، إلى رجل نحيف ، يرتدي بذة لاتشوبها شائبة ، بوجهه العريض العظام ، الواسع الجبين . كان هذا الرجل يمسك الكوب بيده الشاحبة الرفيعة ، ضاغطاً الملعقة بين السبابة والوسطى ، فبدت وكأنها بين غصنين هشين ، وكان يرتشف الشاي بجرعات صغيرة . كان هذا الرجل نائب رئيس لجنة السينما بيسكاريف ، شاباً ، يسير على عكازين بسبب مرض ، لايقبل العلاج ، أصيبت به رجلاه منذ طفولته ، لكنه رغم ذلك ، كان خفيف الحركة إلى حد كبير ، وافر النشاط ، يتنقل بين الاستوديوهات السينمائية داخل الاتحاد السوفييتي وخارجه ، وهو رجل قارص ، لاذع ، صريح في أحكامه وآرائه المسموعة من جانب الكثيرين في المجالس الفنية واللجان .

— ماهذا ؟ ماذا ؟ ولماذا تندفع على هذا النحو ، فياتشيسلاف أندريفيتش ؟

قطع الاثنان حديثهما وأدارا رأسيهما إلى كريموف ، وأخذ ينمو بسرعة على وجه بالابانوف تعبير الامتعاض والسخط . فنهض وهو يتنفس ، كالمصاب بالربو ، رافعاً على عادته ، بصورة عدوانية ، أكمام قميصه المنحدرة على مرفقيه ، وكأنه يستعد للدفاع عن كرامته الشخصية ، وعن سمعة بيسكاريف ، وعن حرمة مكتبه .

— اسمح لي ، ولماذا ، على هذا النحو ؟ أنا مشغول ، مشغول .

عندما رأى كزيموف احمراره الشمندري وقامته القصيرة برقبته الصغيرة ، ومرفقيه المبعدين ، الموضوعين على خصره ، وشعره الساقط على جبينه مثل شعر القنفذ ، قال بشيء من المرح :

— اجلس ، ولا تخوفني ، من أجل كل القديسين ، ايفان كسينوفونتوفيتش ! حسن جداً ، أننا ثلاثة . انني طيب الحظ . لأن الرفيق بيسكاريف عندك ، وهو ممثل القيادة السينمائية العليا ، إن صح التعبير ، كم أنا سعيد الحظ . أتعرف ، أنني بحاجة إلى شاهد وقور . في هذا الجانب أو ذاك .

— أولاً ، مرحباً فياتشيسلاف أندريفيتش ، — قال بيسكاريف ببرود — ، ثانياً ، اجلس انت — وأشار إلى مقعد بالقرب من «الطربيزة» — وثالثاً ، بينك وبين المدير حديث ودي خاص ، على الأغلب ، وبالتالي يمكنني الخروج ، كي لاأضايقكما ، ونظر إلى عكازيه المسندين إلى الديوان .

— أوه ، لقد أخطأت ، ليس هناك أي حديث ودي خاص ليس هناك أي بروتوكول — صاح كريموف وهو يجلس على «الطربيزة»— أكرر : أنني بحاجة لشاهد ، أرجو ألاترفض أن تكون شاهدي .

— ماذا تقصد .

— أقصد ثلاثة أسئلة ، أريد طرحها على ايفان كسينوفونتوفيتش بحضورك . أولاً ، ثانياً ، ثالثاً . . . أولاً . . . — وتناول كريموف قطعة بسكويت من الإناء الزجاجي ، وقرط حافتها ولاكها ، ثم كرش وجهه — ياللعار ! ديْساً تأكل ياإيفان كسينوفونتوفيتش ! — قال

متلذذاً بالتلاعب بالوقاحة وبعيني بالابانوف المحتنقتين بالدم ، وبالخوف المريب الظاهر على جبينه — قل لي ، ايفان كسينوفونتوفيتش — سأل كريموف بوداعة — هل تم ايقاف فيلمي رسمياً من قبلك ، أم من قبل جهة عليا ؟

— هذا سؤال صعب ، — هدر بالابانوف ، ناظراً بوجل إلى بيسكاريف ، الذي كان يضغط على شفتيه الرماديتين بشدة . — إنه سؤال صعب ، فأنت نفسك تعرف كيف سارت الأحداث والوقائع . ثم هناك قوانين القضاء والتحقيق ، كما تدرك ذلك . . .

— أدرك ذلك — قال كريموف ، — ثم قضم بقرف طرف قطعة البسكويت ، متوجهاً بالحديث إلى بيسكاريف الصامت — لاأستطيع أن أفهم ، كيف يمكنك تناول هذا الشيء المفرط الحلاوة . إنه أقصر طريق إلى مرض السكر . . . وأنت ترى ذلك أيضاً ، يارفيق بيسكاريف ؟ التحقيق ، وقوانين القضاء ، واحتمال الجريمة ؟

ألقى بيسكاريف بغطرسة نظرة سافرة ، وانضغطت شفتاه بقوة ثم انفرجتا ، كاشفتين عن ظل ابتسامة ، أو عن تصعيرة صفراء .

— أنت تعرف ، أنني لاأتقن المواربة والخداع ؟

— أجل ، بالطبع .

— أنا شخصياً ، لم يرقني يوماً ما السيناريو الذي تكتبه — قال بيسكاريف بصوت بارز — فالسيناريو الذي تكتبه عن الشبيبة المعاصرة مفرط في التأملات ، والأسئلة الذاتية التي يطرحها المرء على نفسه ، والتنقيبات والبحث والاستغراق . وهذا ، أولاً ، لايطابق الواقع الحقيقي ، وثانياً ، لن يذهب ، بعده ، أي شاب ، إلى أي مكان . . .

— إلى أين ؟ ومن سيذهب ؟

— الشبيبة . لن تذهب إلى الأعمال الانشائية في سيبيريا ، على سبيل المثال . فالسيناريو الذي كتبته لاأثر فيه لحماسة الشبيبة ، ولا للنهوض بالعمل ، ولا للتطبيق العملي للخطط التاريخية العظيمة ليومنا المعاصر المعقد هذا . الجميع عندك يتعذبون ، ويعانون من أسئلة خالدة أبدية : كيف أحيا ؟ ماهو الضمير ؟ ماهي الحقيقة ، في حين أن . . .

— آه ، أجل ، الأسئلة الأبدية الخالدة ، تعرقل بلاشك . إنني لم آخذ هذا في اعتباري . عقل ضعيف ضيق لم يصل إلى الحقيقة .

— في حين أن الموقف اللاطبقي ، من مواقع النزعة الإنسانية التجريدية ، من هذه المفاهيم كالانسانية ، والضمير ، والعار ، والخير ، إن هذا الموقف مفعم بمختلف أنواع الأخطاء والتشويهات .

— أجل ، أجل ، إنه مفعم بمختلف أشكال الأخطاء والتشويهات . كم هي بائسة هذه السينما !

لمس بيسكاريف ، وهو يصعر خده بكآبة ، الملعقة في الكأس بأصابعه النحيفة (كانت أظافره زرقاء اللون ، مستديرة ، مقصوصة بصورة منتظمة) ، وسأل مستفهماً بحذلقة :

— لقد قلت ساخراً . السينما بائسة ؟ لماذا ؟

وتابع كريموف لعبته اليائسة ، قافزاً فوق الهوة ، ومتلذذاً بالمخاطرة دون تراجع :

— لقد صليت من أجلك وأضفت : السينما بائسة ، هل ستتمكن من تجاوز لحظات تحليقها ومجدها ؟ لقد تخلفنا عن أنفسنا مدة خمسين

عاماً . وذلك بسبب بعض الجماليين المدافعين عن سلامتهم الشخصية ، والمهتمين بالمجد العالمي لفننا السينمائي .

— ماذا تقصد ؟ أنت معروف برهافة ذهنك وفكاهتك ، فياتشيسلاف أندريفيتش ، ومع ذلك ، اشرح لي قصدك !

— سأشرح . هاهوذا أنت ، أبونا ومعلمنا ورب نعمتنا ، ليونيد فيكتوروفيتش ، أنهيت بامتياز كلية التاريخ في جامعة موسكو الموقرة ، هذا أنت ، خلال هذه الدقائق لم تقل الحقيقة ، ولا نصفها ولا ربعها . على أية حال ، أنت حارس — وأكسب صوته لهجة الامتنان اللبق — أنت حامي حياة خيالية مجهولة في الفن ، ممتلئة بالمشاعر الوهمية ، التي اخترعتموها ، أنت وغيرك ، بصورة موفقة ، من أجل راحتكم النفسية . اعذر جهلي البهيمي المطبق ، لم يكن في نيتي أبداً الإساءة إليك ، خرجتْ بصورة عفوية ، — تابع كريموف ، ونهض قليلاً ، وكأنه يطلب بصورة ذليلة ، الصفح والعفو من بيسكاريف ، أما عينا بيسكاريف (عينا طفل يعرف كل شيء ، طفل كبير منذ طفولته ، طفل مثقف قرأ الكثير) فقد جمدتا على نحو ميت ، وتثبتتا على قصبة أنف كريموف ، ممتلئتين بلمعان الجليد الأزرق . — كل هذا جاء بالمناسبة . لكنني لم أرد أن أطرح عليك الأسئلة . أعتذر ثانية ، بل أردت طرحها على مديرنا المحترم ايفان كسينوفونتوفيتش ، مشعلنا ومنارنا إلى ذرى السينما الوطنية . . . — . وانحنى كريموف باحترام وتملق ساخرين باتجاه بالابانوف ، وبعد أن رفع بنطاله على ركبتيه ، وضع رجلاً على رجل ، وكأنه يتهيأ بهدوء لحديث عائلي مريح حول مسألة قريبة ، عزيزة . — إذا كنت أنا متوقد الذهن ، محباً للفكاهة ، كما وصفني ليونيد

فيكتوروفيتش بصورة ليست دقيقة تماماً ، فأنت ، إيفان كسينوفونتوفيتش معروف للعالم الشريف كله بأنك راية الفكر الفخورة ، وفارس شريف ، وأخيراً ، نصير العقل وكادحه . لهذا ، علينا أن نأمل ، بأن عليك أن ترفع سيف الروح وليس السيف الصديء ، سيف جميع البيروقراطيين في العالم . هل لديك اعتراضات على هذه الصيغة ؟

— ماهذا الذي أراه ؟ ماهي المسألة ؟ — صاح بالابانوف بصوت جهير مكتوم ، جاذباً كمي قميصه إلى يديه القصيرتين المغطيتين بالشعر ، ورفع إلى الوراء شعره ، الشبيه بشعر القنفذ ، الساقط على جبينه المتعرق — الديموقراطية شيء وهذا شيء آخر ، انني لاأسمح لك ، رغم أنك مخرج تحمل لقب الجدارة ! فموهبتك لاتعطيك الحق . . . أنت لاتتمالك نفسك حتى بحضور ليونيد فيكتوروفيتش ، أنت تتصرف بصورة غير لائقة . . .

قفز كريموف من فوق « الطربيزة » ، وداعب بنعومة قبضة بالابانوف الضاغطة بقوة على يد المقعد .

— أنت لم تسمح لي بانهاء حديثي ، إيفان كسينوفونتوفيتش — قال كريموف بهدوء أرعبه نفسه ؛ هدوء الحنق وسورة الغضب ، كالهدوء قبيل القفز إلى الهاوية ، إلى أوقات الشباب في الحرب ، تلك الأوقات شبه المنسية ، التي تحجبها سنوات طويلة — أنت اليوم اقترفت كذبة ، وهي مرادفة للافتراء . في سبيل أي غرض قمت بتضليل والد إيرينا سكفورتسوفا ؟ من أجل أي غرض قلت له عن احتمال وجود علاقة بينها وبيني ؟ انني أرجع هذا إلى أنك لم تتمكن بعد من التفكير ، كما يحدث معك غالباً . . . أيها المثقف الكبير ، يامحرك الروح الأسمى ،

لقد صوبت سهامك نحوي ، لكنك أصبت روح الوالد الجريحة . إنني أقدر وعيك الحر ، ولكن هل يمكن اقتراف ذلك في الظلام ، وحتى العمل الشيطاني ؟ كم هو حقير الإنسان ، الخالي من الطيبة ، أليس كذلك يا إيفان كسينوفونتوفيتش .

— كيف . . . كيف تجرؤ ؟ — صاح بالابانوف ملتقطاً أنفاسه ، وضرب بقبضته يد المقعد ، وقد احمرت وجنتاه وأصبحتا بلون أرجواني ليلكي — جئت تسخر مني وتعلمني العقل والمنطق ؟ أما بالنسبة لعلاقاتك ، فلاحاجة للبحث بعيداً عن الاثبات والدليل — اتجه ، باديء ذي بدء ، إلى مواوتشكوف ، مدير إنتاج فيلمك ! هو سيحدثك عن الهدف من ذهابك من الاستوديو إلى أوردينكا ، إذا كنت قد نسيت ! يجب الافتراض ، أنك لم تذهب لمشاهدة الصور في كتاب تعليم القراءة ! كيف تتحدث معي على هذا النحو ؟ لا معارفك ، ولا خدماتك وفضائلك لا تعطيك الحق بالتصرف كما تريد . . . كما لو أنك مخرج أمريكي مدلل ، مثل صديقك غريتشمار !

— أرأيت ، ليونيد فيكتوروفيتش ، مهما كان الأمر محزناً ، فالمسألة تدور من جديد حول الضمير ، الذي يزعجك ويكدرك — وهنا أشاركك تماماً مخاوفك — بتجريديته . . . — قال كريموف بالهدوء نفسه ، هدوء سورة الغضب المكبوتة — الحديث لا يدور حول اهتزاز دعائم الأرض . إنه يدور ببساطة حول الحياة . . . بهذا الصدد ، أشير ، يا ليونيد فيكتوروفيتش ، إلى أن المخرج الأمريكي جون غريتشمار ، من حيث صدقه وإخلاصه ، أقرب إليّ بكثير من مديري العزيز ، مدير الاستوديو . إنها مفارقة ، يا للشيطان ، ولكن لامفر منها .

هذا التوجه إلى بيسكاريف ، جاء غالباً ، لأن كريموف كان يشعر على وجهه بالتماس المادي تقريباً ، الجليد القارص ، المنبعث من عيني بيسكاريف الطفوليتين ، عيني رجل عازم على الشر ، رجل كان يلتقط كلماته بصمت ، كي يرفضها فيما بعد . تماماً كما كان يرفض في المجالس الفنية آراء المخرجين ، المتمسكين بمواقفهم بعناد . ولكن ، ومن خلال إحساسه شبه المنسي ، المحجوب بحياة كاملة ، كان يعرف كريموف ، أنه لن يتمكن أي شيء الآن من إيقاف تحليقه الذي بدأه فوق الهاوية ، هذا التحليق الانتحاري ، السار ، اللذيذ ، وكأن المسرة العادلة كانت في الهلاك والسقوط في قاع الهاوية . ولنشوته وتلذذه بقوة التحدي التي أدارت له رأسه ، ولإدراكه بحقد وسعادة أن إحساس الشباب القديم اليائس ، لم يمت بعد في التعقل والحكمة ، في الخبرة المكتسبة ، قال كريموف باتزان وهدوء ، مبتسماً إبتسامة جذابة ، إبتسامة معبود الحظ والتوفيق :

— الرهيب في الأمر ، أننا نعيش في عصر المدنية المادية المدبرة . إن زيف العلاقات يطمئن الغباء ويحل النزاعات . أليس صحيحاً ، يا ايفان كسينوفونتوفيتش وليونيد فيكتوروفيتش ؟ لكن ، يالهي ، إنني مستعد للتخلي عن جميع معارفي ، وما يدعى بفضائلي ، التي نوه بها ايفان كسينوفونتوفيتش بصورة مؤثرة ، مستعد أن أصبح معدماً ، ويتيماً بائساً ، وأن يذاع صيتي على أي شكل ، واو أبلهاً ومجذوباً ، يا إيفان كسينوفونتوفيتش ، على أن . . . نعم ، نعم ، وعفواً ، على أن . . . أسمك بعلامة ، يا إيفان كسينوفونتوفيتش ، على بصمات أصابعك ، كما كانوا يسمون الحمقاء والسفهاء في القرن التاسع عشر

الطبيب المذكر . وهنا ، أقصد الفئة الثانية ... . إنك جدير بأن توسم ، بأن تكون موسوماً ، كي لايجد الآخرون ذريعة لتقليدك ... .

ونهض كريموف ، وفي اللحظة ذاتها ، ارتد بالابانوف بصرخة مبحوحة ، بقامته القصيرة إلى المقعد ، وكأنه ضُرب من الأسفل على وجهه ، ورفع ذقنه ، وبدأ بتحريك رجليه على الأرض على عجل ، محاولاً إبعاد المقعد ، وهو جالس عليه ، بعيداً عن « الطربيزة » التي تحميه . أما كريموف فقد وقف صامتاً ، ناظراً باشمئزاز إلى رقبة بالابانوف المنتفخة كالضفدع ، وسيطر عليه قرف شديد من جبن بالابانوف الدنيء ، المكشوف ، ومن هذه الحنجرة المنتفخة المتورمة ، وتعاظم نفوره من وجه بيسكاريف الجامد المتصنع ، ومن النظرة الطفولية لعينيه الجليديتين الجامدتين .

كل شيء كان تافهاً ، شريراً : لقد أُطبق على كريموف في حلقة غير ودية ، غير أنهم كانوا لايزالون يخشون مسه ، أما هو ، ولعدم تمالكه زمام نفسه ، وبكراهيته لعدم تمالكه هذا ، لم يستطع الآن أن يصفح عن نفسه وعن الآخرين . كما لم يستطع أن يعدل أو يبدل من اللهجة المازحة التي بدأها في اللعبة الكريهة ، إلى حد الغثيان (لم يكن لديه مايكفي من القوة لبدء هذا الحديث وانهائه بصورة جدية) ، وقال باحترام متأدب ، مخاطباً بيسكاريف :

ـ لي رجاء صادق عندك ، ليونيد فيكتوروفيتش ، أن تحفظ بعض تفاصيل هذا المشهد الغنائي ، الذي رأيته بأم عينيك . لقد كنت أخشى ، أن يقوم إيفان كسينوفونتوفيتش ، بدون شهود عيان ، بخلع حذائه من قدمه وإدماء بوزه ، عفواً ، أعتذر أشد الاعتذار ، بادماء وجهه ،

ومن ثم يتقدم بشكوى إلى اللجنة الحزبية ، بأنه قد ضُرِب ضرباً مبرحاً من قبل الفاسق الوقح كريموف . وهكذا ، فقد كنت سعيد الحظ . وأرجوك يا ليونيد فيكتوروفيتش ، أن تبلغ الرئيس أن الفيلم سوف أخرجه وأصوره أنا ، على الرغم من حالة الطقس السيئة . كان لي الشرف . اسمحوا لي بأن أودعكم .

طقطق كريموف بكعبي حذائه ، وأحنى رأسه انحناءة أكبر ، وباحترام أكبر ، وعلى هيئة الموظف الذي يؤدي خدمته الوظيفية باتقان ، توجه إلى الباب . ولكن ، هنا ، شاهد بصورة عارضة ، سترة بالابانوف ، معلقة على ظهر المقعد ، خلف الطاولة الكبيرة المعدة للاجتماعات ، فانتزع بسرعة السترة ، ومثل خياط خبير ماهر ، رماها بحركة رشيقة على المشجب الموجود إلى جانب الباب ، وقال بكدر :

ـ الشيطان وحده يعرف ماهذا الإهمال . ـ وعند العتبة تماماً التفت إلى بالابانوف ، الذي كان يجلس صامتاً ، وكرر في صوت غنائي : ـ لي الشرف ، لي الشرف ! . . .

« جنون ! خساسة ! أنا قَرِفٌ من نفسي ! وهل من الممكن أن أهين نفسي في هذه اللعبة بالتهريج والاستهزاء ؟ على أية حال ، هل كان من الممكن الحديث بصورة جدية ؟ كان ممكناً فقط ، الضحك ، الضحك بسخرية ! » .

* * *

ـ لي الشرف ، لي الشرف ـ قال كريموف متهكماً بهمس وفتح عينيه ، ناظراً ، دون أن يفهم ، إلى غرفة مألوفة .

ــ ماذا بك ، فياتشيسلاف أندريفيتش ؟ إنني أطرش قليلاً في الأذن اليمنى ، لم أفهم . لقد استغرقت في التفكير قليلاً .

ــ على الأغلب .

نظر كريموف نظرة مبهمة إلى مولوتشكوف ، الذي حول إليه بترقب وجهاً مبتسماً ، مخمناً كعادته مزاجه . تمالك كريموف نفسه على الفور ، فارتمى على المقعد بأنين ، متذكراً المشهد بكامله في غرفة الاستوديو بصورة مفصلة وساطعة ، لدرجة أنه توهم ، أن هذا المشهد قد تراءى له في سورة الغضب والنزق ــ وما يزال في نفسه باقياً حتى الآن ، الشعور بالارتياح المزدري ، والشفقة المتقززة نحو حنجرة بالابانوف المتورمة والمنتفخة ، أثناء التنفس ، نحو بالأبانوف الذي كان يضرب الأرض بقدميه ، بجلبة وهرج .

في الوقت نفسه ، عندما قدم كريموف إلى الاستوديو ، تصور اللقاء والحديث مع بالابانوف . . بعد المشهد الذي عاشه في خياله في طريق عودته من بتروفكا ــ انتقاماً مهيناً وفارغاً ، خالياً من أي معنى ، وغير قادر على تصحيح أي شيء ، لدرجة أنه شعر بالبرد ، وبالإرهاق فوراً ، فصعد بالمصعد الكهربائي إلى مجموعة التصوير ، وجلس هناك على المقعد في غرفته ، وطلب من مولوتشكوف إحضار ألبوم صور اللقطات السينمائية المقررة وغير المقررة .

« هل حدث هذا أم لم يحدث ؟ وهل كان هناك صبي ياترى ؟ »

ــ هل قلت شيئاً ، فياتشيسلاف أندريفيتش ــ كرر مولوتشكوف بقلق ، وهو يضع الألبوم على الطاولة ــ أحضرت لك الألبوم بنفسي . أما جينيا* نيتشوزالوف فهو في الجناح .

---

* جينيا : صيغة تصغير وتحبب للاسم الكامل يفغيني — المترجم —

ــ ادعه إلى مكتبي إذا كان في منطقة قريبة . أرسل أحداً إلى الجناح ليدعوه .

ــ إن يفغيني بافلوفيتش مع الممثلة . إنه يجري إختباراً مكرراً ، معتمداً على نفسه فقط . مايزال يبحث عن بطلة رئيسية . في حين أن الفيلم قد توقف عملياً ، فياتشيسلاف أندريفيتش . آه ، سوف يعاقبوني ، باعتباري منتجاً . المهم ــ الأموال . حيث أنني أخاطر احتراماً لك . . .

ــ لابأس ، ستتحمل ــ قال كريموف بجفاء ــ لاسيما وأن علاقتك جيدة بيالانوف . بل إن علاقاتك به مؤتمنة ، موثوقة .

ــ لاأفهم ، فياتشيسلاف أندريفيتش . علام هذا ؟

ــ حسناً ، لابأس ، اذهب ياتيرنتي ، دعني أجلس وأفكر .

بانتظار قدوم ميتشورالوف ، أخذ كريموف يدخن ، ويقلب الألبوم ، متصفحاً صور الممثلين المعتمدين لأداء الأدوار ، وكان ينظر بريبة مكفهرة إلى أعين الممثلات المرشحات للدور الرئيسي ، وشفاههن وحواجبهن . وبين الوجوه الفتية التي أصبحت مسطحة ، جميلة مملة ، نظرت إليه فجأة ، في بؤبؤي عينيه ، عينا إيرينا الشفافتان ، الضعيفتان بطفولة ، اللتان اخترقتهما أشعة الشمس ، وقد ارتسم عليهما ظل خفيف لابتسامة حزينة . في اللحظة ذاتها ، رأى وجهاً آخر ــ أبيض اللون ، مثل الجبس ، رأى رمشين شبه مغلقين ، يخترقهما ضوء العينين الأخضر الرطب ، والكحل الذي سال على وجنتها بضعف ، في هذه القذارة المتناهية القصوى ، غير المكترثة بالموت ــ ومن جديد ضربات المطر المتدفق على زجاج نافذة السيارة ، وهدير المحرك ، وبرودة شعرها المبلل اللوزية التي كانت تلاحقه منذ تلك اللحظات

الرهيبة في السيارة . ثم بدت له نافذة في نهاية ممر طويل ، ورائحة جسدية لتواليت الحلاقة أو ماء الكولونيا ، ورأس فينيامين فلاديميروفيتش الواضح البارز الملحوظ من كثرة الشيب في شعره — وهل يعقل أنه لاوجود في مكان ما من العالم لتعويذة منقذة ، لابتهال وصلاة للنسيان ، لتسامح الذاكرة ؟

« لو أنني استطعت ، بمعجزة خيرة ألا أتذكر ، لسهل وخف علي كثير من أمور حياتي . انه ، والد إيرينا ، كان محقاً ، ولم يكن الحق إلى جانبي ، كنت متهيجاً . ففي وحدته ، مع زوجته الجديدة ، كان يعيش من أجل ابنته فقط ، وأراد أن يعرف المذنب ، وصدّق كل ما قيل ضدي . وما العجب في ذلك ، فرهافة الألم ، والذنب والاتهامات — كلها أشياء معروفة ! أليست هذه كلها وليدة قرننا المتحضر العزيز ؟ » .

أغلق كريموف ألبوم الصور ، ماسحاً بتأمل مرهق جبينه وقصبة أنفه ، ثم فتحه من جديد ، ومن جديد ، ابتسمت له العينان الممتلئتان بضوء الشمس ، والمظللتان قليلاً بتيقظ ناء ، عندما واجهته الصورة المصقولة اللامعة . « إن المسرة هي قضية الحياة وغرضها » . تذكّر كيف كانت تنزل على الدرجات الحجرية ، وهي مضاءة من الخلف بشلال الشمس الأبيض ، النافذ من باحة الدير ، متمايلة قليلاً في ظلام الكنيسة الرطب الخفيف ، في ذلك اليوم الحزيراني . وكان قد قرر على نحو واع وبصورة حازمة ، أن من المستبعد جداً العثور على إيرينا ثانية للدور الرئيسي ، لذا فان الفيلم لن ينجح على النحو الذي رسمه ، وأن طعم الفشل المرير ، الذي لم يشعر به بشكله العاري أبداً من قبل ، ينتظره مستقبلاً .

— أتسمح لي ، فياتشيسلاف أندريفيتش ؟

دخل لاهثاً ، جينيا نيتشورالوف — المخرج الثاني ، ببنطاله المخملي المهترىء ، وسترته « الجينز » ، وهو شاب ذو عينين بنيتين مرحتين ، يخفي بلحيته فتوة سنه وحيائه لتخضب وجهه بلون أحمر مسمر . كان المخرج الثاني في مجموعة تصوير كريموف عاشقاً للسينما باخلاص ، وبصورة لاتنضب ، كان مولهاً بأفلام العالم العظيمة ، بالممثلين العظماء ، بالحركة التنظيمية للمرحلة التحضيرية ، بالاتصالات الهاتفية ، بالرحلات والتنقلات من أجل اختيار المناظر الطبيعية ، بالروح البنائية لألواح الخشب والغراء والورنيش والديكورات الحديثة للأجنحة ، كان مولهاً بالضوء المنطفىء بصورة سرية في صالة العرض أمام السِحْر المنتظر للمادة السينمائية المصورة ، كان مولهاً بكل ما كان يشكل أمارات السينما الجادة . هذا الوله ، هذا العشق ، من النظرة الأولى شعر به كريموف ، قبل عامين ، وأخذه معه للعمل في فيلم « الحرب غير المعلنة » ، وفيما بعد في الفيلم الجديد .

— كيف تسير الأمور ياجينيا ؟ — وأبعد كريموف ناظريه عن الألبوم ، مشيراً له بسيجارته باتجاه المقعد مقابل الطاولة .

— مازالت على قيد الحياة ، رغم جميع التدابير المتخذة .فياتشيسلاف أندريفيتش ، لايمكنك أن تتصور ، كم أنا سعيد الحظ اليوم ، لم أفكر أنك ستحضر ! — قال جينيا بنشاط وحركة ، حاطاً جسمه على حافة المقعد ، وناظراً باهتمام شديد إلى الصورة الظاهرة في الألبوم . — أتعرف ، أنني قمت قبل عشر دقائق ، باجراء التصوير التجريبي للممثلة

شاتروفا . . . انها من مسرح « المالي تياتر » * ، وأقسم لك أنها فريدة من نوعها : شابة ، رائعة القوام ، عيناها عميقتا القرار ـ يمكن الغرق فيهما وعدم الظهور على السطح . تتحرك بجمال رائع ، ابتسامتها ساحرة . قبل أسبوع انتهت من التصوير عند المخرج بوليشوك . كم هو رائع لو تشاهدها . انها لاتزال هنا ، الق عليها نظرة سريعة ، وقل نعم أو لا . سوف تقتنع أن فيها شيئاً ما يستحق ! هل أدعوها ؟

ـ شيء ما فيها ـ كرر كريموف دون اهتمام ، مغلقاً الألبوم ـ شيء ما ـ ليس كل شيء . إنه شيء ما .

ـ إذا أمكن ، فياتشيسلاف أندريفيتش ، طالما أنك جئت ، أنظر إلى شاتروفا ، إلى ماشا ! ـ توسل جينيا ، وأخذ جبينه يكتسب لوناً زهرياً تشوبه السمرة . ـ انها لاتزال هنا . سأحضرها الآن ، وستقتنع بنفسك ، كم هي قريبة من سكفورتسوفا .

« هذا شيء غير ممكن ، ـ فكر كريموف معارضاً ، وهو لايزال يشعر بلمعان العينين اللتين تنظران إليه في بؤبؤي عينيه ـ ماالذي جذبني إلى هذه الفتاة الضعيفة ، القوية ، ذات المصير الأليم ؟ المشاركة ؟ الشفقة ؟ أم الميل إلى موهبة أنوثتها غير العادية ، النادرة ؟ » .

ـ حسناً ، أحضرها ، لنرى ، ادع شاتروفا ـ قال كريموف متذمراً ، وسار في أنحاء الغرفة ، على مقربة من مجرى الهواء القادم من النوافذ ، المفتوحة على ضجيج فناء الاستوديو . ولسبب ما ، رغب بأن يسافر بعيداً إلى مكان ما . رغب بأن يجلس وحيداً في مقصورة

* هو المسرح الصغير بالمقارنة مع البولشوي ـ المسرح الكبير ـ المترجم ـ

قطار ، وأن يستلقي في استراحة دون تفكير ، في الأسفل على الفراش النظيف الذي يقرقع لنظافته في عربة منامة تئن وتندفع إلى الأمام ، قبيل الغسق ، وكأنها ممتلئة بغبار ذهبي اللون ، بزجاجها المزدوج المغبر ، الذي ينزلق عليه طويلاً غروب الشمس المتأخر ، متحولاً بصورة تدريجية إلى أشعة على لمعان البلاستيك ، منيراً بصورة متلألئة كهرمانية حافة السرير العلوي ، وأزرار الحاكتة على المشجب ، التي تترنح وتتمايل ذات اليمين وذات الشمال ، مذكرة بالعزلة اللذيذة في مقصورة قطار مغلقة ، ملاذك الوحيد ، حيث لاستوديو ولا اتصالات هاتفية ، وحيث يمكنك التلذذ بالأفكار البسيطة والسامية ، التي تخطر في ذهنك في القطار ، حيث تعرف أنه يحق لك ، دون أن تقول كلمة واحدة لأي إنسان ، أن تخرج من القطار في الساعة الخامسة صباحاً إلى محطة عرضية ، غير معروفة ، مثل رايكا ، وتستنشق رطوبة الندى الكثيف على الرصيف المنسي ، وأن ترى كيف يسبح قرص الشمس التوتي في الضباب ، وكيف تتبخر أطياف أشجار الصفصاف وأسطح القرية فوق الأرض في رجرجة بيضاء . . .

— فياتشيسلاف أندريفيتش ، أتسمح لي ؟

— تفضل يا جينيا ! — أجاب كريموف بصوت عال ، قاصداً إبعاد وسوسة الرحلة والطريق : فالحلم بالطريق كان علامة الإرهاق الشديد .

كان جينيا نيتشورالوف يقود شاتروفا إلى مكتب كريموف ، وقدمها إليه دون أن يخفي إعجابه المدلل بها . وقفت شاتروفا بخفر إلى جانب كريموف ، مضطربة ، ناظرة بحوّل ، بعينيها الزرقاوين الملائكيتين ، وقدمت له أصابع يدها الرطبة بخجل .

ـ أرجوك ، تفضلي ، ـ قال كريموف

جلست على « الديوان » وجمدت كلها ، بظهرها المستقيم ورقبتها المرنة المشدودة . أما وجهها الأصفر ، البيضوي ، الذي غسلته لتوها من الماكياج ، فقد كان متوتراً بصورة ملحوظة ، خوفاً من القرار القريب . فكر كريموف بألم كيف سيصعب عليها قراره بالرفض ، وكيف سيثبط هذا الرفض عزيمة جينيا المثابر ، السريع التأثر ، بيد أنه لم يكن قد استطاع أن يحدد بدقة ، ماسبب حذره من هيأة شاتروفا ، وماهو الذي لم يناسبه وأزعجه بصورة مثيرة ـ أوليس هذا الجمال النموذجي الصارم ، دون أي غموض أو ألغاز ؟

ـ هل تعرفين موضوع السيناريو ـ سألها برقة بالغة .

ـ حدثني عنه يفغيني بافلوفيتش ، عندما كنا نعد اللقطات التجريبية .

ـ وحسبما فهمت ، حول أي موضوع يدور ؟

ـ حول الشبيبة . عن الآباء والأبناء ـ وابتسمت بصورة خفيفة ، ثم طردت بخوف ، ابتسامتها من شفتيها المنفوختين ـ عن معنى الحياة . . .

ـ وهل تريدين أن تمثلي في هذا الفيلم ؟

ـ جداً .

ـ ولماذا ابتسمت عندما قلت عن معنى الحياة ؟

حركت كتفيها قليلاً ، ثم قالت :

ـ أعتقد أن غالبية الناس الآن تعيش يومها وحده ، فياتشيسلاف أندريفيتش .

ــ ربما لهذا السبب ، يجدر بنا أن نقرع الأجراس ؟

ــ لاأدري ، فياتشيسلاف أندرييفيتش . انني أعيش ، آملة تمثيل دور ليزا كاليتينا * المعاصرة ، ولايحالفني الحظ

ــ أتظنين ، أنهن موجودات في الحياة الواقعية فتيات تورغنيف ؟ ألم يزلن بزوال الضياع والدساكر الخاصة ؟

ــ ثمة عدد قليل منهن . . .

ــ حسناً ، لن أزعجك أكثر من ذلك . شكراً ، سنشاهد اللقطات التجريبية ، ونرى كيف تبدين على الشاشة .

ــ انني لم أحز على إعجابك . « لم أع » ، كما يقولون عندنا في المسرح

وفتحت قفل حقيبتها ، وهي تحرك رموشها الطويلة ، وأخرجت منها علبة السجاير ، بيد أنها غيرت رأيها على الفور ، وأعادت السجاير من جديد إلى الحقيبة ، وقالت بحزن مجرب ، أدهشه فيه عدم تطابقه مع مظهرها الخارجي الظافر :

ــ إن الشيء الذي لايحتمل ، والأكثر إهانة في مهنتنا ، اللحظة التي يختارونك فيها : شفتاك ليستا كما يجب ، قوامك غير مناسب ، صوتك لايصلح . إلى اللقاء فياتشيسلاف آندريفتش . كم أنت سعيد — فأنت من يَختار .

ــ أنت مخطئة على الأغلب . لاأحد يدري ، هل نحن نختار القدر

* ليزا كاليتينا — بطلة رواية تورغينيف « عش النبلاء » ، تميزت بالرومانسية المفرطة .
— المترجم —

أم القدر يختارنا — أجاب كريموف دون رغبة — سعيد بخطئه ذلك الذي يعتبر الآخرين سعداء . كلا ، لقد حزت على إعجابي ، رغم أنني لاأفهم شيئاً في فن هاتين العبارتين «أعْ» و «لم أعْ» . والضرورة هي التي تقرر ، كما تعرفين . غير أنني لاأريد أن أزرع في نفسك أملاً كبيراً خاصاً

— أنا أفهم ذلك . أتمنى النجاح لفيلمكم . إنني أحبك كمخرج . .

— أشكرك . — وصافح يدها المضطربة في راحة كفه ، دون أن يضغط بقوة .

فتح جينيا الباب مسبقاً وخرج لمرافقة شاتروفا إلى المصعد،وعاد بعد خمس دقائق مكتئباً . اتكأ بمرفقيه من الخلف على ظهر المقعد ، غارزاً قبضتيه في لحيته ، وقال بارتباك وحيرة :

— لماذا لم تعجبك ؟ أية عينان ، أي قوام ! تقف إلى جانبها ، ويسري جمالها في جسمك كالكهرباء !

— جينيا ، إن أفضل مافي الفن ، قد صنع على ضوء الشموع . يلزمنا في البطلة «القليل» وليس «كل شيء» . وإلا لن نتحرك من مكاننا . تعال نبحث عن النور الداخلي . على أية حال ، أنت تعرف هذا .شاتروفا ، رغم كل معطياتها ، لاتصلح . معطيات رائعة ، بيد أن هناك شيئاً خشناً ، قاسياً ، في وجهها ، في استقامة أنفها . . . لكن ، يا جينيا ، بدا لي أن . . .

— ماذا تقول ، فياتشيسلاف أندريفيتش ، ليس لدي أي شيء . . .

وقال جينيا متألماً ، وهو يضغط بقبضتيه على لحيته ، وظهر ما يشبه الغضون على جبينه الفتي :

فعلاً ، يجب أن يكون شعور الممثلين شنيعاً للغاية في اللقطات التجريبية . فنحن نختارهم ، كما يختارون الجياد في المعرض . أما النساء فنفحص أسنانهن ، أرجلهن ، مشيتهن . إن هذا مهين ومجوني ، فياتشيسلاف أندريفيتش ! قل لي ، ألم تخطيء ، ألم تندم ، لأنك رفضتها ؟

— ندمت وأخطأت . لكن الفيلم الجاهز لايمكن تصليحه بمقص أعوج . ولتكن عبقرياً ، بل وأعظم عبقري ، فلاوجود لأي فيلم بدون بطل أو بطلة . إن الفيلم السيء هو بعينه الوقاحة والمجون والاستهزاء ، أمام أعين الملايين . لذا ، جينيا ، علينا أن نكون صارمين ، قاسين ، شديدين ، لانعرف الرحمة ، في اختيارنا للممثلين . على أية حال ، أنت شاب ذكي ، موهوب ، وهذه الحكمة العميقة كلها تدركها جيداً .

— ليس كلها .

— وماذا بالذات ؟

— أنت ، فياتشيسلاف أندريفيتش ، هل بحثت طويلاً ، أثناء اختيارك لإيرينا سكفورتسوفا ؟

— رأيتها مرتين في المسرح قبل عامين ، حيث كانت لاتزال فكرة الفيلم غامضة ضبابية . لم تكن هناك حاجة لاجراء لقطات سينمائية تجريبية . كان كل شيء واضحاً : النظرة ، الايماءة ، الحركات ،

الرشاقة الداخلية . . . ابتسامتها وحدها ، مخطئة تارة ، وحزينة تارة أخرى ، كانت سيناريو كاملاً إن صح التعبير . كان يمكن تصور حبها ، ضعفها ، زواجها غير الموفق ، يأسها ، استسلامها ، أملها . . . إن مثيلات سكفورتسوفا نادرات جداً ، وبخاصة بين الممثلات .

قال جينيا بحرج :

— فياتشيسلاف أندريفيتش ، انني أكن لك احتراماً عميقاً .

بيد أن الأمر ليس كذلك . . .

— أي أمر ليس كذلك ؟ أكمل حديثك إلى النهاية ، طالما بدأته . ليس عن احترامك لي ، بل عما فكرت به .

أمسك جينيا لحيته الكستنائية بيديه الاثنتين ، ونظر إلى الأرض ، غير عازم على الإجابة ، متأسفاً لأنه لايحق له أن يصحح لأستاذه الموقر ، واثبات عدم صدقه . ورأى كريموف هذا التردد المؤلم ، والتوقف الوجل على وجهه ، فحثه بخشونة :

— هيا ، قل ، اقتحم ، اخترق ، قل الحقيقة كلها مرة واحدة ، لاتخجل !

— فياتشيسلاف أندريفيتش ، لايسرني ابداً أن أحدثك حديثاً مسيئاً . . . — قال جينيا بحيرة — ولكن ، قل لي ، ألم ترفض سكفورتسوفا عندما اتجهت وإياها في المرة الأخيرة لاكتشاف الطبيعة؟

— في أي شيء رفضتها ؟

— رفضت إعطاء الدور لها . .

— و ؟ . . . قل ، اندفع هيا إلى الأمام ، حطم جميع الأسوار والحواجز .

— انني أشعر بالحرج ، فياتشيسلاف أندريفيتش .

— وعلام الحرج ؟ تكلم بصراحة ، سيكون الأمر أوضح لنا نحن الاثنين .

— يقال أنها كانت مغرمة بك وأنت مغرم بها . وأنها طالبت بأن تطلق زوجتك وتتزوجها . ولم يكن باستطاعتك ذلك . . . وفي ذلك اليوم ، عندما انطلقتما إلى الطبيعة ، قطعت علاقتك بها ، فأرادت هي الإنتقام منك . . . بهذا الإنتحار الرهيب . . . .

قال جينيا ذلك ، بسرعة وتلعثم ، ثم صمت ، ناظراً إلى كريموف بعينين ممتلئتين خوفاً ، ثم أطرق وكأنه ضُرب على رأسه ، معبراً عن ذنبه برأسه المطأطأ ، وبرقبته المنحنية ، التي تشبه رقبة صبي ، وحتى بطوق سترته « الجينز » البارز ، الدالي .

— وهل تصدق ، أنت يا جينيا ، هذا التلفيق الهجين الجائر وهذا الهراء الوقح ؟ هل من المعقول أنك تصدق ؟ لقد سألتني ، وكأنك تؤنبني ، ثم خفت — قال كريموف كابتاً في نفسه نار التهيج المشتعلة — وهل تصدق الشائعات ؟ أم أنك تريد تصديقها ، لأنك ضعيف ، مثل جميع الناس ؟

— لا أريد ، لا . . . — أجاب جينيا بصوت مكبوت ، وكأنه يستعد لتحمل الجزاء . — ولكن ، لماذا ينسج حولك كثيرون

يا فياتشيسلاف أندريفيتش ، السخافات ، ويحيكون أحازير قذرة متنوعة ؟ لماذا ؟ . . .

— لأن كثيرين لم ينموا بعد ولم يصلوا إلى الكثير و — إذا أردت ، وبعبارة مخففة — لأنهم لايتعاملون بخير ومحبة نحو بعضهم بعضاً . نحن نتحايل ونخدع أنفسنا ، عندما نتحدث عن إنسان جديد كلياً ، في عصرنا هذا . ولكن ، يا جينيا ، وما الحاجة إلى فننا ، إذا كان الناس جميعاً ملائكة ؟ هذا ما أقصده . تصور ، لو أنك ، وأنت الشاب اللائق المناسب من جميع الجوانب ، جئت فتاة لاتقل عنك لياقة ، لكنها وحيدة . ومكثت عندها ساعة ، بصورة عفوية أم مقصودة ، ولحظك الجيران ، اليقظون ، ثاقبوا النظر . فماذا سيقول عنك الرأي العام في الغد ؟ سيكون رأياً مديناً ، وحيد الجانب — لقد ارتكبت خطيئة . ومن المستبعد أن يعترض أحد ، ويقول بأنك كنت تقلب الكتب عندها ، وتتناقش حول المخرج فيلليني . المحزن في الأمر ، أننا نقع في أسر تصورات كاذبة ، حسودة ، حقودة عن بعضنا بعضاً . أتفهم ياجينيا ؟ واحد من الذرائعيين يستبدل بمهارة ، أو ربما بسخافة كبيرة ، روح الإنسان بالحساسة والابتذال ؛ أما ضميره ، فقد كان غافلاً بمتعة ولذة أمام شاشة جهاز التلفزيون . على أية حال ، إن الضمير الحي شيء خطر على النفس وعلى الآخرين . إن الحياة تغدو غير محتملة ، في حين أنه يجب العيش وفق القوانين الأخلاقية ، لا من أجل الملذات والمسرات الآنية . هذا صحيح ، ياجينيا ، أم لا ؟

— فياتشيسلاف أندريفيتش — قال جينيا مقشعراً — بأي حزن كبير تنظر إلى الناس

— ليس بحزن بل بأسف عظيم — أجاب كريموف . — لأن هذا العصر هو عصري أكثر مما هو عصرك . عصرك سيأتي . بالمناسبة ، أنت أمام منعطف ، على الأغلب . . .

— أنا ؟ أمام منعطف ؟ إلى أين ؟

— أقصد من حيث منصبك . — قال كريموف بعدم اكتراث بالغ — فاذا ما انهارت سمعتي بصورة نهائية و.... غيره.... وغيره ، فأنت ستشغل مكاني ، يا جينيا ، وسوف تقوم بتصوير فيلمي .

فارتعش جينيا ، وحرك رأسه إلى الأعلى حركة حادة ، وتشوه وجهه بصورة بائسة من الماكياج ببقع لامعة حمراء ، بحيث بدا : وكأن ألماً مفاجئاً اخترقه !

— لا ، أبداً ، أبداً . .

— اشرح ، ماذا تقصد .

— لن أشغل مكانك أبداً ! — قال جينيا لاهثاً بصورة محتدمة — إن من يريد أن يشغل مكانك هو غبي ، أبله مطلق ! من خطرت له هذه الفكرة في رأسه ؟

— لقد خطرت لأبله ، هو أنا . لقد كنت سأرضى بذلك .

— فياتشيسلاف أندريفيتش ، انني أنحني إجلالاً واحتراماً لموهبتك ، لهذا لن أتمكن من إخراج هذا الفيلم . إنني عاجز عن ذلك . لقد تعلمت منك ، وأنا أذكر ، أن على كل امرء أن يغرف من قصعته ، هو ، عليه أن يرتدي حذاءه ، هو

— يغرف من قصعته، يرتدي حذاءه — هذا صحيح — قال كريموف ، وضحك مستغرقاً في التفكير ، ومع ذلك ، ففي الحياة الأرضية كل شيء ممكن .

— فياتشيسلاف أندريفيتش ! أنا لست خائناً ! — قال جينيا محتداً بغيظ — لن أوافق أبداً ، في يوم من الأيام .

ولاضطرابه وعجلته ، أخذ يسحب بصورة طائشة ، غير رشيقة ، علبة من السجاير الرخيصة من جيب سترته الصدري ، وبعد أن أشعل سيجارة وسحب منها نفساً ، وسعل ، طارداً الدخان ، قال :

— لن أوافق أبداً ، أبداً — كرر جينيا بسرعة ، باستياء — أنا أعرف ، لماذا لا يحبك بعضهم في لجنة الدولة للسينما ، بل وحتى بعض الرؤساء في الاستوديو ! انهم لا يحبونك ويخشونك ! لأنك تغرف من قصعتك ، وتسير وفق رأيك ، وحسب طريقك الذي اخترته . وهذا أمر لا يقدرونه . إن عقولهم انتهازية جبانة . كما أنهم لا يريدون أن يفقدوا مراكزهم . لقد سمعت غبياً منهم ، ممتلىء الجيوب بالأموال ، يقول ذات يوم في مكتبه لأحد الأشخاص : « إنها مذهلة ، قدرة كريموف على اكتساب المقرظين المادحين ، بتعبير مخفف وماالذي ينقصه ؟ الشهرة ؟ المال ؟ إنه مرتش وأناني ! » . لقد انتشر هؤلاء المقرظون المادحون في المكاتب بأعداد كبيرة ، وكل منهم يتشبث بمقعده بيديه ، وبطاولته بأسنانه ، وكلهم تقريباً ، بلا معرفة ولا قدرة

ضحك كريموف من جديد وقال :

— كفانا حديثاً عن موظفي السينما البيروقراطيين . تعال ، يا جينيا ، نفكر معاً ، كيف سنعيش في المستقبل ، كيف سنعمل . هل سنقاتل

حتى آخر طلقة ، أم سوف نستسلم ونضع أنفسنا تحت رحمة المادحين المقرظين ؟

وأمسك جينيا من مرفقه بود ، مواجهاً عينيه الداكنتين المشرقتين بابتسامة خافتة ، وتابع حديثه بثقته المازحة العادية :

— سوف نقاتل ونرد على النار حتى آخر طلقة ، يا جينيا . تابع بحثك عن البطلة . وعندما يصبح العبء ثقيلاً مرهقاً لايطاق ، سأعطيك إشارة . وتخرج أنت من الحصار . وسأنهي إطلاق النار لوحدي .

— فياتشيسلاف أندريفيتش ! لماذا تقول ؟

— عزيزي جينيا ، أنت لاتزال شاباً ، ولاتعرف أنه قد تكون الظروف أقوى منا . شكراً لمشاركتك .

— فياتشيسلاف أندريفيتش !

— ألاتريد أن تتقبل مني عبارة شكر ؟

* * *

الفصل الثالث عشر

بعد نصف ساعة ، قاد مولوتشكوف بالسيارة كريموف إلى بيته الريفي . وفي الطريق أسند كريموف رقبته بتعب واعياء إلى ظهر المقعد ، وأغمض عينيه ، وأخذ يسترجع في ذهنه بألم وحزن ، الممر الفارغ في بناء بتروفكا ، حيث التقى ، دون أن يتوقع ، فينيامين فلاديميروفيتش بحركاته المسرحية التي لا نطاق ، ولا يستطيع السيطرة عليها ، كما بدا له ، والناشئة عن فجيعته الحقيقية الصادقة . وبعد هذا الجنون ، رأى ، إما في الواقع ، أو في مخيلته ، بالابانوف الأحمر اللون ، الذي شمر أكمامه ، كالمحارب ، عن يديه القصيرتين ، وبيسكاريف بوجهه المعظم النحيف ، وبقدميه المعقوفتين تحت المقعد ، وهما يشربان الشاي ، واسترجع في أذنه خطابه التهريجي البهلواني المتأنق ، المعد لكليهما ، وتأسف ولم يتأسف ، في آن واحد ، على السخرية المتدفقة في لعبته الوقحة التهريجية معهما . ولكن هل حدث هذا ، أم لم يحدث ؟ وكان يزعجه شيء ما ، ويثيره بقلق جديد غير مفهوم ، لم يستطع تحديد أسبابه ، تماماً ، كما يحدث أحياناً ، عندما يحاول تذكر كنية شخص ما ، ولا يستطيع تذكرها ، وكأنها ظل متسلل ، تعجز الذاكرة عن الإمساك به .

ما إن غادرا الاستوديو بالسيارة إلى المركز المزدحم لشوارع موسكو ، ولبقائهما طويلاً ، أخذا يرزحان تحت نتن الغازات المنفوثة على تقاطعات الطرق المكتظة بالسيارات ، وحاول مولوتشكوف الإجتماعي بطبعه ، أن يقول شيئاً ما (« أوه ، يمكن المرء أن يموت ، صحراء حقيقية ») ، وتأوه بلطف ماسحاً من لحظة لأخرى بحرقة ، يديه المتعرقتين الممسكتين بمقود السيارة ، غير أن كريموف قال بتثاقل : « تيرنتي ، لنأخذ نفساً ونسكت ، إن كنت لا تعارض ؟ » — وصمت غير مكترث بالقيظ الاسفلتي ، وجحيم الشوارع المغبر ، وبجهود مولوتشكوف لأن يكون سباقاً ، مرحاً ، كما يتوقع له أن يكون ، على الأغلب ، مالك الأفلام المالي في جميع الظروف الحياتية .

« إذن ، أنا ذاهب إلى البيت الريفي ؟ — كان يفكر كريموف ، متكيفاً مع الجو المنزلي . — أجل ، « دوش » تحت أشجار التفاح ، ابنتي الحبيبة تانيا ، عيدي الدائم ، وأولغا ، بعينيها المخمليتين الوديعتين ، القادرة على الصمت الطويل عندما لا تكون راضية عني . . . الكائنان المحبوبان على نحو خاص على سطح الأرض ، وبدونهما لما كانت لي حياة . نعم ، نعم ، الرقة والنعومة . . . وفالنتين الجدي بافراط ، الغامض في جانب ما ، الذي يرغب ، بصورة مكتومة بأن يأخذ دوره ، وخطيبته لوسيا ، ليودميلا ، المنطوية على نفسها ، ذات الأنف الحاد الأرنبة ، والراغبة أيضاً بأخذ حصتها . . . ماذا بي ؟ في السابق ، كنت أتوجه إلى البيت الريفي بفرح ، أما الآن ؟ هناك ، مكتبي في العلية ، كتبي ، وسريري تحت النافذة المفتوحة ، والاطمئنان والهدوء ، حيث يمكن للإنسان أن يفكر ويستغرق . . . غريب ، لقد جئت من الخارج ، وحتى الآن لم أتحادث مع أولغا . . . » .

من جديد ، ما كاد يبدأ التفكير بأولغا ، مشتاقاً إليها ، حتى أخذ يشعر بتعب ، بالربيع الباكر ، والبرودة الجبلية في الهواء (كانت جبال الآلب على مقربة منه) ، وبحشود العيد المارة أمام الواجهات الحارة المحلات التجارية ، ورأى بعيداً في الأسفل ، خلف الحاجز الحجري الذي كان يفوح منه الدفء ، ويفوح منه شهر نيسان ، رأى ساحة محجوبة بالسيارات ، غطيت بكاملها بالخضرة الناعمة لأشجار الدلب ، في الشبكة الربيعية الممتدة على المسطحات الخضراء من الظلال والشمس — في تلك الفترة من رحلاته الأولى إلى الخارج ، كان يشعر بالفرحة القريبة ، بالحب والشباب المتواكل . هذه الساحة المريحة الأنيقة ، كان يبحث عنها على عجل في زياراته اللاحقة النمسا ، ولم يستطع العثور عليها ، لا في فيينا ولا في زالسبورغ . وكان يتصور أحياناً ، أنه لم يستطع العثور ، لا على تلك الساحة التي يدفئها النهار النيساني ، بل ولا على ذلك الربيع ، الشباب ، ذلك الأمل السعيد للسنوات الخمسينيات الذي لم يتحقق . . . » ومع ذلك ، أحقاً أن هذه الساحة يربطها بأولغا خيط من الماضي ؟ كنت في الخارج لوحدي ، أما هي فبقيت بعيداً في موسكو . . . كنت أشتاق ، أحلم بلقائها على تلك الساحة ، لكي يحس كلانا بهواء اللامبالاة الفتي هذا . . . » .

— فياتشيسلاف أندريفيتش ، أنت تغفو ، أليس كذلك ؟ — من خلال هدير المحرك ، برز صوت مستعطف ، بابتذاله ، ولهذا بازعاج ، مطفئاً بذلك الربيع وخضرة أشجار الدلب على الساحة ، وكرر ثانية : — ألم تغفو ، من ضجيج المحرك ، أليس كذلك ؟

— إنني يقظ .

— إن يفغيني بافلوفيتش رجل جدي ، ولديه إهتمام بالعمل .

« ثانية ، تيرتي بطبعه الإجتماعي الذي لا يفارقه وعنايته بأمور العمل ، اصبر قليلاً ، يا عزيزي » .

— تتحدث عن نيتشورالبف ؟ — سأله كريموف دون أن يفتح عينيه .

— عنه ، فياتشيسلاف أندريفيتش

فتح كريموف جفنيه المثقلين بالنسيان . عبرت السيارة الأبراج الرمادية في ضواحي موسكو ، منطلقة على الاسفلت المحروق إلى حد البياض في الطريق المحاق الدائري ، وكانت تلوح من اليسار ، من خلال رؤوس الأسيجة ، أشجار الشوح ، وبينها كانت تتراءى السهول المصفرة ، في الشلال الضوئي الريفي ، كان يرتجف فم مولوتشكوف الضيق الذي انفرج عن ابتسامة مترقبة .

« أمر طريف — وجهه حليق بنعومة بالغة ، وكأن الشعر لاينمو عليه ، أما رقبته فكلها تجاعيد كبيرة — لاحظ كريموف — يبدو أنه قوي وصحته جيدة ، رغم نحافته وهزاله » .

— إنه إيجابي ، يفغيني بافلوفيتش . ألا توافقني ؟

— أوافقك . أنت انظر إلى الطريق ، ليس ضرورياً أن تنظر إلي ..

— لا تقلق ، أعرف أنا من أقود — قال مولوتشكوف مطمئناً ، على طريقة النساء ، بصوت أقرب إلى الغناء ، — اعتبر أنني أقودك إلى الجبهة : في مكان ما ، قرب نهر الدنيبر مثلاً : لو قدمت في تلك الأثناء فحص السواقة ، لما كنت معك في وحدة الاستطلاع .

ــ ولماذا تذكرت وحدة الاستطلاع ، يا تيرينتي ؟

ــ لقد نسيت كل شيء تماماً . ولا أريد أن أتذكر شيئاً . غير أنني أذكرك أنت وحدك ، ولهذا أحبك .

إن رقة صوته المتموجة ، ولباقته المفرطة في المعاملة ، ورشاقة حركات قامته القصيرة ، واحترامه الدائم الزائد الذي يبديه نحو كريموف ، ومخاطبته له بلغة الجمع ولهجة الاحترام ، كما يخاطب الجندي قائده ــ إن سمات مولوتشكوف هذه كلها ، التي لم تنكشف حتى القاع في الحرب ، قد اكتشفها كريموف باهتمام لدى لقائهما الأول قبل ستة أعوام . ونسب كريموف هذه السمات الجديدة ، التي أصبحت جزءاً لا يتجزأ من مولوتشكوف إلى شكل الدفاع عن الذات ، الذي تكون مرة واحدة وإلى الأبد ، لدى تيرنتي ، الكشاف السابق الفاشل ، الذي صدمته الحياة بقوة في السنوات اللاحقة بعد الحرب أيضاً .

التقيا بصورة مفاجئة ، غير متوقعة في ساحة كالوجسكايا بالقرب من العلب الآلية للمياه المعدنية في يوم أحد من أيام حزيران ، كان يدور فيه زغب أشجار الحور وكأنه في عاصفة . ولولا زغابة التصقت في قعر كأس كريموف ، لما انتبه أحدهما للآخر . « أنظر ، أين حطت ، إنها تطير إلى فمك مباشرة ، الملعونة » ــ قال شخص اقترب منه ، من الجانب ، وبعد أن أطلق قهقهة لامبالية ، مد يداً سمراء متشبثة ، كيد القرود ، إلى كأس في العلبة الآلية المجاورة . نظر كريموف ولم يصدق في البداية : « هذا مستحيل ! » .

من فصيلة استطلاع الفوج التي وصلت إلى ألمانيا لم يبق جندياً واحداً في عداد الأحياء . لم يعد يذكر وجوههم بوضوح ، بيد أن هذه اليد

المعروقة المتشبثة رسخت في ذاكرته مدى الحياة ، حتى أنه رآها في منامه ، وهي تخدش باضطراب في الثلج المسود كالبارود في منحدر الحفرة . . . نعم ، كان هذا مولوتشكوف ، جندي من فصيلة الاستطلاع ، وكان آنذاك نحيفاً جداً ، شبيهاً بالمراهق الشرير ، ذا عينين صفراوين وقحتين ، سليط اللسان ، يحمل نطاقاً مغتنماً عليه مسدس « بارابلاو » ، وهو مسدس يطلق بدقة وصلابة ورنين ، حسب رأي أصحاب الخبرة من رجال الاستطلاع ، وكان يلبس جزمة ضباط ألمانية ، جمع أطرافها من فوق على شكل أوكورديون على رجليه الرفيعتين . غير أن مولوتشكوف ، الذي تعرفه كريموف في يوم زغب الحور من خلال يده ، التي أمسكت الكأس باندفاع ، لم يكن ذلك الشاب الماهر الهاوي للفكاهات والأغاني الروسية الشعبية الريفية ، ذلك الشاب الطائش ، المرتعد خوفاً من نيران الرشاشات على خط المنطقة المحايدة ، الذي كان يفقد إرادته خلال ساعات ، بل كان رجلاً متغضناً ، مكرمشاً ، قصير القامة ، يرتدي بزة رثة مبتذلة ، وقميصاً غُسل حتى اهترأ ، مع ربطة عنق مربوطة بلادراية ، أما عيناه فقد أجهدتا من اللمعان بخفة ، لكنهما كانتا مثل قندين ماحوسين ، وكشف شحوبه المرضي عن شعر كثيف رمادي على خديه . ورأى كريموف نظرته الكلبية ، المداهنة ، المتزلفة ، عندما سأله بعد أن أجلسه في سيارته ، إلى أين يذهبان لتناول قدح من المشروب من أجل اللقاء — إلى البيت أم إلى المطعم . وأجاب مولوتشكوف ، دون أن يجرأ على الجلوس براحة أو على إسناد ظهره إلى ظهر المقعد ، أن من الأفضل إلى البيت ، ان أمكن ، ليتعرف على زوجته ، ونظر بوجل إلى صالون السيارة ، إلى أغطية المقاعد ، إلى اللعبة المشعثة الشعر التي علقتها تانيا على المرآة ، على شكل تعويذة .

في منزل كريموف ، سرعان ما ثمل مولوتشكوف وانتشى ، وانتعش . كان يمسك بالسكين والشوكة بأصابعه ، مزيحاً خنصره ، وروى ، متلعثماً ، بحضور أولغا المضيافة المتحفظة ، قصته الكئيبة بعد الحرب : في عام ألف وتسعمائة وخمس وأربعين ، عاد إلى الكولخوز ، بالقرب من مدينة فورونيج . كان عدد الرجال رجل ونصف ، والباقي نساء . لهذا ، ودون أي تفكير ، وبسبب من جرحه ، عثر لنفسه على عمل ، أميناً لمستودع . غير أن حياته سارت على الفشل الماكر الخبيث ، مثل ميزان حرارة وسط عاصفة : لم يتمكن من الزواج ، فالنساء الجميلات لم يسمحن له باختيار امرأة لوحدها ، وأسقينه الساماغون * ، كالثور ، وبعد ذلك انقلب كل شيء على عقب وانتكس . فقد سرق لصوص المدينة المستودع وأحرقوه ، واضطر لتحمل المسؤولية ، حسب قوانين بعد الحرب الصارمة ، وفي العام التاسع والأربعين أصدرت المحكمة حكمها الصارم عليه وفق نص القانون ، ولهذا أخذ يقطع أخشاب الغابات في أنهار الشمال ، متحملاً الجوع والبرد . وبعد أن أمضى فترة حكمه ، لم يعد إلى القرية ، فقد قرر جمع مبلغ كبير من الروبلات بالعمل الحر في سيبيريا ، وذلك بقطع الأشجار بالمنشار الكهربائي والفأس ، لكنه لم يستطع تجميع مبلغ كبير من المال في غابات التايغا ، فقد تزوج ، وأخذت تخور قواه ، وبدأ يتطلع إلى عمل في القطاع الإقتصادي . وسنحت له فرصة العمل في وظيفة جيدة : في تموين بعثة جيولوجية على نهر نيجنايا تونغوسكا ، (حيث تتنزه الدببة معانقة نوافذ البيوت) . غير أن البعثة الجيولوجية أنهت أعمالها خلال ثلاث سنوات ،

* الساماغون : مشروب كحولي بيتي قوي مصنوع من الفواكه المخمرة — المترجم —

ورماه القدر بعد ذلك في مدينة كيرنساك ، الواقعة في غابات التايغا ، أولاً ، ثم في مدينة ايركوتسك ، حيث عمل أمين مستودع لمؤسسة الخضار ، ثم مدير مرآب ، ثم مدير مطعم عمالي ، إلى أن أصيب صدفة في كليتيه بالمرض (« فقد شرب كثيراً من مياه المستنقعات أثناء الصيد ، حيث تقفته جرثومة ما ») . مرض مولوتشكوف وهجرته زوجته ، هجرت مريضاً ، وليس زوجاً أو عاملاً ، أما هو فبعد مرضه ، وبعد علاج طويل ، تحقق حلمه في سنوات الكهولة بالاقتراب من موسكو ، وقدم إلى منطقة خيميكي ، إلى أخته ، الأرملة ، التي كانت تعيش وحيدة . وهنا أراد العثور على عمل باختصاصه ، في التموين في مصنع بناء القاطرات الحديدية ، بيد أنه لم يستطع حتى الآن الحصول على أي شيء جيد ، على وظيفة لائقة . « يعدوني باستمرار : تردد إلينا ، تردد ، وليس في الجيب شروى نقير ، ولا يسمح لي ضميري بالعيش عالة على كنف أختي براتبها التقاعدي ، وحالتي يرثى لها ، أعيش على الكعك وحده ، ولا أتناول طعام الغذاء عند أختي . أشتري الكعك في مكان ما في البولفار ، وأقضمه ، وأشعر كأنني شبع على طريقة الجنود ! » .

خلال حديثه ، كان ثملاً بصورة قوية ، وبكى فعلاً بكاء خافتاً من أنفه . فشعر كريموف بالألم والشفقة من رؤية سترة مولوتشكوف المجعدة الملطخة ، وشفتيه الممدودتين بسبب البكاء ، ومن كيفية غرزه الشوكة في طبق الخبز ، ممسكاً بكسرات الخبز الصغيرة ، ومن نظرته إلى اللوحات الفنية المعلقة على جدران غرفة الطعام ، وإلى المزهريات وإلى الثريا ، معتبراً هذا ، كما يبدو ، بمثابة ثراء كبير وبذخ وترف ، استحقه قائد الفصيلة السابق ، وهو الآن إنسان واسع الشهرة . وانطبع

في ذاكرة كريموف الاحمرار الشمل لوجنتيه ، اللتين أصبحتا على الفور كالحوّار الممتقع بسبب إثارته وانفعاله — وبرز عليهما شعر ذقنه بلون أغمق ، وأشد وخزاً ، وكأنه انتطال فجأة . وعندما مسح الدموع بقبضته المعروقة ، قال مولوتشكوف بصوت متقطع : « أنا عبدك يا فياتشيسلاف أنلدرييفيتش . وسوف أخدمك بإخلاص . فنحن مرتبطان معاً بخيط واحد — لقد حاربنا معاً . أنا مدين الك بحياتي . خلني العمل عندك . أنا أعرف أنك قادر على عمل الكثير » .

لا ، لم يكونا صديقين في الجبهة ، كان كل شيء أكثر بساطة ، وبالتالي أكثر وضوحاً . وربما كان الخيط الوحيد الذي يربطهما هو العملية الاستطلاعية غير الموفقة التي اشتركا فيها في شتاء عام أربع وأربعين . لم ينس كريموف تلك العملية الاستطلاعية الفاشلة ، وربما لشفقته على مولوتشكوف ، أو لشعوره بذنبه الشخصي ، ساعده في إيجاد عمل له بصفة مدير إداري في إحدى مجموعات التصوير في الاستوديو ، ثم مساعداً لمدير الإنتاج ، ثم مدير إنتاج في مجموعته ، وكان راضياً عن نشاطه وسعيه الحثيث . وإن الخفة الشديدة الدائمة والنشاط المستمر وطاقة مولوتشكوف التي لاتنضب ، وعلاقاته المريحة للغاية مع إداريي الاستوديو ، وقدرته البشوشة على عقد أطيب العلاقات والروابط مع المؤسسات والهيئات المختلفة ، التي يمكن أن يتوقف عليها تنظيم اللقطات على الطبيعة ، واستعداده المسبق لتنفيذ أي طلب يبديه كريموف ، وابتسامة شكره الخنوعة الرقيقة على ماضيه وحاضره ، وتقديس المخرج في المجموعة — كل هذا ، غير المتوقع من مولوتشكوف قبل سنوات عديدة ، أكد لكريموف شيئاً واحداً : أنه في المراحل المختلفة من حياة الإنسان يكمن فيه شيطان أو ملاك . « كان فيه شيطان

هناك ، وملاك هنا . أم العكس ؟ » . بالنسبة لدقة مولوتشكوف التنفيذية التبجيلية المخلصة ، المزعجة أحياناً ، كالتملق ، كان يقف كريموف منها موقفه الساخر المألوف ، لكن المهم ، أن الأمور المالية والإدارية والتنظيمية ، تحت سلطة المدير اليقظة الساهرة ، كانت خالية من أية عيوب أو شوائب ذات شأن . وخلال ست سنوات من العمل شغل مولوتشكوف في الاستوديو مكانة مرموقة بين مدراء مجموعات التصوير ، وحصل بمساعدة كريموف على شقة ، وأخذ يرتدي البزات الأنيقة النظيفة ، وأصبح نظيفاً وأنيقاً لدرجة يصعب معها التعرف عليه ، أخذ يحلق ذقنه بعناية بالغة ، ويعقد ربطة عنقه بمهارة ، واشترى سيارة « موسكوفيتش » بعد حصوله على حوافز إنتاجية من ثلاثة أفلام ، وأخيراً تزوج في العام الماضي . والأمر العجيب ، أن مولوتشكوف في يوم تسجيل عقد الزواج قدم إلى بيت كريموف لنصف ساعة ، من أجل أمر هام — « من أجل عرض عروستي ، إذا ما سمحت » — جاء إلى بيته مع امرأة ممتلئة الجسم ، طويلة القامة ، مستديرة الوجه ، وسيمة القسمات ، غارقة في فستان فاخر ، فاتح اللون ، ذي حواشي متماوجة وثنيات مروحية ، مثل الريش الأبيض . وفجأة امتلأت الشقة برائحة عطر قوية ، وبجسم دافيء وصوت رنان غليظ ، كانت تخفضه إلى حد التذبذب الغنائي ، ودون خجل أو حياء ، أخذت تتحدث عن أنها تعشق الأفلام التاريخية ، حيث الأزياء الأنيقة والبزات الفاخرة ، والعربات المترفة ، وحفلات الرقص ، حيث يستمتع المرء روحياً . أما كريموف فكان يبتسم ، شاكراً الله لأن أولغا لم تكن في البيت (كانت أولغا لاتطيق الإبتهاج المفرط ورائحة العطر القوية) ، وأصيب بيأس كئيب ، دون أن يتوقف عن الابتسام بجمود ، عندما جلست بدهشة جذلة («آه ،

يالروعة ، يا للأعجوبة ») أمام البيانو ، وبحركة منسجمة متأنقة سوت حول وركيها الثنيات المتماوجة لفستانها ، وجربت بأصابعها المتورمة مفاتيح البيانو . أما مولوتشكوف ، الذي كان يتبعها بعشق وهيام ، فقد أصبح كله كأنه وتر مشدود ، في بزته الجديدة المزينة بقرنفلة وضعها في عروة « الجاكتة » ، ولمع أمام مرآها بخضوع ، بعيني عريس سعيدتين ، وأومأ برأسه راجياً : « غني ، يا سونتشكا ، من فضلك ، ليصغ فياتشيسلاف أندرييفيتش إلى صوتك » — وهمس في أذن كريموف بأهمية ، وكأنه يفشي سراً هاماً « سونتشكا تعلم الغناء في المدرسة » .

وغنت بصوت رنان منخفض ، عن شمعة كانت تحترق قرب شرفة ؛ غنت أغنية سولفيج . أما كريموف ، الذي لم يكن يحب غناء الحجرة ، الذي يولد دائماً التجمد والتقيد ، فكان يلاحظ مولوتشكوف ، الذي يتأمل عروسه ، وينظر باعجاب إلى شفتيها الممطوطتين ، المستديرتين ، القرمزيتين من أحمر الشفاه ، كان مولوتشكوف متأثراً للغاية ، مذهولاً من قوة صوتها المرتجفة ، ولاحظ كريموف كيف صفق مولوتشكوف باعجاب ، أما هي فقد نهضت ، مسندة أطراف أصابعها باهمال إلى غطاء البيانو ، وكأنها تستعد للانحناء . « سوف يخدمها ، هذا واضح » . وبعد ساعة ذهبا ، بعد أن باركهما كريموف ، الذي اضطر أن يقول لمولوتشكوف ، على انفراد ، دون احتفاء ، غير ما أراد سماعه الأخير (« فياتشيسلاف أندرييفيتش ، ما قولك ؟ ماتقوله سأنفذه : أتزوجها أم لا . إنني أحبها ، وأطلب النصح منك لأنك بمنزلة والدي ») . أجاب كريموف ، أنه في مثل هذه الأمور لايحق لأي إنسان تقديم النصح . فالناس ، منذ عهد آدم وحواء ، يخضعون لتأثير العاطفة ، التي يمكنها أن تجعل من كل امريء سعيداً وبائساً ، ولكن كما ظهر ، كان قد

تم الإختيار . فقد تزوجا ، ومنذ تلك الأثناء ، كان كريموف يلتقي سونتشكا على عجل ، في العروض الأولى للأفلام ، مذهولاً في كل مرة من بدانة جسمها ، مثل أجسام نساء التجار اللواتي رسمهن كوستوديف ، ومن فمها الصغير كالقلب ، وصيحاتها الغنائية العاصفة ، ورائحة العطر القوية ، ومن شيء ما ، فاخر ، أبيض ، متحرك بثنياته وتموجاته على صدرها ووركيها ، وكان غريباً أن يرى المرء إلى جانب سونتشكا ، مولوتشكوف ، الأقصر منها مسافة رأس ، مولوتشكوف المستقيم ، الوديع ، وهو يتجول بهيام وعشق قرب زوجته في الصالة .

* * *

— لا أريد أن أتذكر العرق والدم والقمل . ثمة حياة أخرى تدور ، تغلي . حياة السلم يا فياتشيسلاف أندرييفيتش .

— إذن ، لا تتذكر ؟ — قال كريموف عرَضاً ، وهو ينظر إلى وجه مولوتشكوف المتورد ، الملتفت إليه ، الذي لا يعاني الآن ، كما هو واضح ، من أية هموم أو هواجس ، والراضي عن حياته — وهل تذكر أحداً من شباب فصيلتنا ؟ — سأله مدركاً في نفسه انزعاجاً شديداً من مولوتشكوف . — كالرقيب أحمد دينوف ، مثلاً ؟

— كان شاباً مليئاً بالجرأة الكبيرة ، استشهد بصورة مروعة — قال مولوتشكوف ومسح بقفا كفه قطرات العرق من على ذقنه — أما أنا ، فقد جئت إلى الفصيلة كلباً غبياً أخرقاً . انني لا أحادث سونتشكا عن الحرب أبداً . انني أشعر بالخجل ، عندما أتذكر نفسي ، الغبي ، الجلف ، الغشيم .

ـ أنت تبالغ ، يا تيرنتي ، ـ ابتسم كريموف ساخراً ـ فقد كنت تبدو أحياناً ، شاباً ، عنيداً ، يابس الرأس ، إن صح التعبير .

ـ كنت فلاحاً ، مطلياً بالقطران ، ـ هكذا كنت يا فياتشيسلاف أندرييفيتش ـ وضحك قليلاً مولوتشكوف ـ لا أستطيع أن أتذكر نفسي بهدوء واطمئنان . أنا لا أحب نفسي عندما كنت شاباً . كنت غبياً أحمقاً . لم يكن هناك من يريد الموت ، ولم يرغب به أحد . أما أنا فكنت في الاستطلاع ، أغدو أحياناً ، كالمجنون . كنت أخاف من الوقوع في الأسر ، ومن التعذيب حتى الموت . شكراً لك . . . الحرب ، لا أريد تذكرها أبداً ، أما أنت فلن أنساك أبد الدهر . لولاك لانتخرت عظامي في أوكراينا . . . لانتخرت في تلك الحفرة . . .

وضحك من جديد ، ثم كرر على الفور وهو يسعل من حنجرته ، هازاً رأسه :

ـ أوه ، أي غبي كنت ! أنا لا أحب نفسي شاباً . في تلك الأثناء أنت أشفقت علي ، أنا الغبي ، الفج ، في عام أربع وأربعين . . . ولو كان غيرك ، لأطلق علي النار كالكلب . قوانينكم في الاستطلاع كانت صارمة لاتطاق . فاذا ما خفت أو استرسلت في البكاء في المنطقة المحايدة ، عليك أن تضع المسدس على جبينك وتطلق النار !

وأجهد مولوتشكوف وجهه بضحكة صامتة وفم مغلق ، ولكن برز من هذه الحركة غضب خبيث داخلي ، كان يبدو ، وكأنه فقده إلى الأبد، في حياته الحاضرة، شيء ما تبدل في نفسه، كخضخضة مفاجئة في ذاكرة المصيبة المهينة الماضية .

وتذكر كريموف ، مالم يرغب باسترجاعه بالتفصيل إلى ذاكرته ، تذكر وضعه شبه المنسي ذاك ، الذي كان يعيشه في حياة أخرى ، على أرض أوكرايينا في عام أربع وأربعين ، على خط التماس ، في المنطقة المحايدة ، حيث كانا راقدين ، مستلقيين ، هو ومواوتشكوف ، في حفرة قنبلة ، بانتظار عناصر الاستطلاع المتقدمين ، حيث اتضح لكليهما ، أن وحدة الاستطلاع قد اصطدمت بالألمان ولن ترجع .

* * *

الفصل الرابع عشر

في تلك اللحظة ، عندما سمع كريموف صرخات وطلقات على تلك الضفة ، أدرك أنه قد حدث شيء غير متوقع لوحدته الاستطلاعية .

أما هو ، فكان مقتنعاً بأنه كان من الواجب التحرك على الخط المحايد في تلك الضفة باتجاه الكومة المنهارة المحترقة في الحقل ، ولم يشك أبداً ، بأنه من هناك في المنحدر ، كان يجدر بهم السير إلى اليسار ، ومن ثم الخروج إلى مؤخرة القرية ، حيث كان على المجموعة أن تنفذ مهمتها : وقد جاءته هذه الثقة ، بعد زحف استمر يومين وليلة في خنادقنا ذات الحماية القتالية ، وبعد دراسة طبيعية دقيقة للغاية للمكان ، عشية المهمة الاستطلاعية ، التي لم يستطع هو نفسه المشاركة فيها ، بأمر من الرائد آزاروف ، ولسبب طائش غير مقنع ، بصورة غير مقبولة .

في تلك الأثناء ، كان يتألم ويتعذب ، ليس من ألم الدمامل الذي لايطاق في ظهره ، بقدر ما كان يتألم من مباغتة هذا المرض الشنيع له ، وفشل الاستطلاع الأخير ، الذي قامت به فصيلته قبيل عيد رأس السنة . فبعد استرجاع كييف والهجوم الذي أوقف في منتصف تشرين الثاني على جيتومير ، انتقلت الفرقة إلى الدفاع ، وكما يحدث عادة في نهاية الهجوم ، نشأ تعطش شديد إلى المعلومات عن العدو ، عن إعادة تشكيل تجمعاته على الضفة اليمنى . كان الرائد آزاروف ، قائد الاستطلاع ،

المسؤول عن جمع المعلومات ، مزعوجاً للغاية لقيام وحدات الاستطلاع الألمانية ، قبل ثلاثة أيام من عيد رأس السنة ، باختطاف حرسنا النائم تحت الدريئة من خندق حراستنا القتالية ، الأمر الذي استدعى من جانبنا عملية استطلاع عاجلة لم تحقق أي نجاح . فبعد أن خرجت مجموعة كريموف الاستطلاعية إلى مؤخرة الألمان ، استلقت على الثلج بالقرب من الطريق العام خمس ساعات دون نتيجة . وخلال تلك الليلة القارسة البرودة ، لم تسر ولا سيارة ضباط واحدة ، ولا مركبة واحدة إلى القرية ، وعاد الكشافون ، أدراجهم ، فارغين ، عراة ، كما نعتهم باختصار الرائد آزاروف ، الذي لم يعترف بأية أسباب موضوعية . غير أن الليل بكامله ، الذي قضاه في الثلج والرياح الصقيعية ، قد أقعد كريموف فجأة ، وأصابه ألم رهيب وحرارة عالية ، ووُضِع في الوحدة الطبية ، حيث تم اكتشاف دمامل على ظهره ، أما هو ، ولسخطه على نفسه من فشل الفصيلة ، ومن هذه النزلة الصدرية السخيفة التي تصيبه للمرة الأولى في الحرب ، فقد قرر الخروج من الوحدة الطبية ، والاكتفاء باجراء الضمادات ، والبقاء ضمن الفصيلة ، مدركاً إدراكاً تاماً ، بماذا يمكن أن يفكر الرائد آزاروف ، إذا ما بقي هو ، كريموف قائد الفصيلة ، راقداً على السرير في الوحدة الطبية التابعة للسرية ، بعيداً عن المهمة .

لهذا ، ومع انهاكه قواه في الزيارات اليومية للوحدة الطبية من أجل تغيير الضمادات ، فقد كان كريموف يدرب فصيلته بنفسه ، ويعدها إعداداً دقيقاً للمهمة . إنه لم يعهد بالتدريب إلى الرقيب أحمد دينوف ، الشاب المجازف ذي الحاجبين السوداوين ، الملاكم السابق ، الذي كان موضع ثقته الكاملة ، وزحف ليلتين بكاملهما على الخط الأمامي ،

مراقباً الرشاشات المعادية المناوبة ، وملاحظاً كل كثيب ثلجي على الخط المحايد ، على ضفتي النهر اليمنى واليسرى .

ولكن ، في الدقائق الأخيرة من الليلة الشتوية ، عندما أصدر أمره لمجموعة الاستطلاع ، وبقي مع مولتشكوف في حفرة قنبلة كبيرة على الخط المحايد ، وقال أحمد دينوف بمرح « سلام ! » ، وتلاشى مع أربعة من الكشافين في الغسق الأزرق بلون النجوم على ضفة النهر ، أخذ يشعر كريموف باحساس مسبق سيء ، يحذره بمختلف الأمارات والعلائم . فقد كان يسود في كل مكان الهدوء والصمت الرنان لصقيع شهر كانون الثاني ، وفي الأعلى ، في السماء السوداء ، الشبيهة بالصحراء ، كانت النجوم تنير بضوء ماسي ، أما في الأسفل ، على الأرض ، في ضواحي البلدة التي احترق نصفها ، فكانت تطير وتحلق الطلقات الخطاطة الألمانية . هناك ، لاذت بالصمت ، بصورة غير مألوفة ، الرشاشات المناوبة . كان هذا الصمت مريباً ، منبئاً بجمود الموت المضمر . وبعد أن صرف جماعة أحمد دينوف ، أخذ ينصت طويلاً إلى هذا السكون والصمت المطبق على المنطقة المحايدة . كانت هذه المنطقة تمتد قرابة ثلاثمائة متر إلى الأسفل نحو النهر المتجمد ، وكانت تمتد خلف النهر مائتي متر نحو الأعلى ، نحو خنادق الألمان الأولى قبل البلدة ، حيث كانت تسطع فوق الأسطح النادرة النجوم المتوهجة في السماء . كان ألم الدمامل المستقرنة ينهش ظهره ، يقصمه بين عظمي اللوح ، وكانت تخنقه قشعريرة البرداء الخشنة . وشعر بأن حرارته قد قفزت إلى الأعلى ، وربما زاد هذا من قلقه ، الذي دفع كريموف إلى اتخاذ قرار مستحيل — إلغاء المهمة ، واستدعاء جماعة الاستطلاع ، وإعلام الرائد آزاروف بالسكون الغريب المريب عند الألمان . ولكن ، في

الوقت نفسه ، لم يكن لديه أية حجة ذات وزن (فسكوت الرشاشات ليس بحجة) . علاوة على ذلك ، فقد يسيء آزاروف فهم إلغاء المهمة ، وقاوم كريموف شكوكه ، معتبراً أن العملية كلها ، إذا ما توفرت لها الظروف المناسبة ، ستشغل ساعة ونصف أو ساعتين : قطع خط المنطقة المحايدة بحذر ، من الشريط الضيق الذي أزال منه عناصر الهندسة الألغام ، بالأمس ، وسط الحقول الملغومة ، وأخذ أسير من الخندق الأول .

غير أن الومضات المختلطة المشوشة للرشاشات الآلية ، التي أعمت الليل ، والصرخات البعيدة التي طمست العيارات النارية ، والتنقل المبهم لكتلة من الأخيلة والظلال في العتمة البنفسجية إلى يسار طرف القرية ، وانفجار اللغم الصداح — كل هذا ، الذي حدث فجأة على الضفة اليمنى ، بدا له في تلك اللحظة مستحيلاً ، لدرجة أن كريموف ضغط بشدة على أسنانه ، وضرب بقبضته على حافة الحفرة ، قائلاً : «هاهوذا ! وهل هذا معقول ؟ . . . » . لا ، في أية عملية استطلاعية (مهما أعدت بعناية) ، لم تكن مستبعدة عشرات الأشكال الممكنة للمصادفات ، ولكن ، في كل مرة ، عندما كان كريموف نفسه يذهب في عملية الاستطلاع ، كان يشطب بغطرسة إحتمال الفشل القدري .

« هذا هو حدسي ، هذا هو إحساسي المسبق — لمعت هذه الفكرة في رأس كريموف — لم أذهب معهم — وهاهي ذي النتيجة ! . . . » .

— مسدس الطلقات الخطاطة ! مولوتشكوف ، مسدس الطلقات الخطاطة ! — صاح كريموف همساً ، وعندما رأى وجه مولوتشكوف المرتد بهلع في القبعة الصوفية التي ارتداها فوق الخوذة ، شتم بخشونة .

— اصطدموا ، اصطدموا . . . أليس كذلك ، أيها الرفيق الملازم وهل من الممكن أن يكونوا قد وقعوا في كمين ؟ — تمتم مولوتشكوف ناشجاً وأدخل من الجانب الشبطانة الصلبة للطلقة في المسدس ، ودفعه نحو قفاز كريموف دفعات مرتجفة — هل هذا معقول ؟ . . .

— كف عن التوجع وراقب ! — أمر كريموف خاطفاً المسدس من يد مولوتشكوف . — هل ترى بوضوح ، أين رجالنا وأين الألمان ؟

— اصطدموا . . . انهم خلف الخندق . . . اجل ، وهل من المعقول أنهم وقعوا في الأسر ؟

— اخرس ، قيل لك !

حسب الاتفاق الصارم والدقيق مع مدفعية الفوج ، كان باستطاعة كريموف ، بصاروخ خطاط أحمر ، قصف خندق الألمان الأول بالمدفعية على عجل ، على نقاط الرشاشات التي تمشط المنطقة المحايدة ، وبالتالي ، تغطية انسحاب رجال الاستطلاع إلى خنادقنا ، وهذا ما حدث أكثر من مرة في مثل هذه الأحوال . غير أن اطلاق نيران المدفعية الآن كان بلامعنى — حيث يمكن للنار أن تغطي كشافينا أيضاً ، — ورمى كريموف مسدس الطلقات الخطاطة إلى مولوتشكوف .

— اخف هذه اللعبة ! ما فائدتها الآن ! اخفها ، ليأخذها الشيطان ! . . .

كان راقداً بصدره على الحفرة ، ينظر إلى امتداد الليل ، المتصدع برشات الرعد في تلك الضفة ، حيث التمعت خلف الخنادق الأولى رشات مستمرة من الطلقات ، مخمناً المعركة المتكررة لرشاشات «شمايسر» الألمانية ، والطقطقة المدوية لبنادقنا الآلية ، والانفجارات المحدودة

للرمانات الألمانية ، والرنين المتبعثر للقنابل اليدوية السوفييتية ، — ومن خلال وميض الرشاشات ، وألسنة اللهب المتراقصة القافزة ، ومن خلال الخط الناري خلف النهر ، بدا لكريموف ، وكأنه رأى عن قرب كل ما حدث وجرى هناك ، لجماعته الاستكشافية . على الأغلب ، أن الرقيب أحمد دينوف قد اصطدم ، قبيل الخندق ، اما بجماعة استكشافية ألمانية مواجهة ، وإما بزارعي الألغام الألمان ، العاملين في المنطقة المحايدة .

— ابتعد ، أحمد دينوف ، إلى الوراء ، إلى الوراء ! — كرر كريموف دون وعي ، منصتاً إلى توقف فرقعة البنادق الآلية واحدة إثر أخرى ، وكان يسمع بصورة شريرة ، ظافرة ، « تطريز » مدافع « شمايسر » الرشاشة الألمانية .

وعلى الفور ، سقط من السماء سكون غريب ، وامتلأ امتداد الليل الصقيعي بصمت أخرس كثيف مطبق ، كما لو أنه لم يحدث قبل دقيقة واحدة إطلاق العيارات النارية ولا انفجار القنابل اليدوية ، وكأنه لم تطلق أية صرخات . ولكن ، ومن بعيد جداً ، تناثرت في الأفق إلى اليمين ، تحت النجوم المنخفضة ، سلاسل حمراء من الرصاص ، ومن هناك وصل متأخراً وقع ضعيف لمدفع رشاش . وهنا ، صمت بصورة مريبة ، خطنا الأمامي والخط الأمامي الألماني ، ولم يعد يسمع أي صوت أو حركة ، في كل مكان ، ماعدا القشعريرة المعدنية للبنادق الآلية .

— وهل أخذوهم أسرى ؟ — وصل إلى أذنيه من الجانب صوت مولوتشكوف اللاهث ، وظهر إحساس غامض ، بأنه يتحرك في مكان ما

قريب ، ويتنفس بصعوبة ، زاحفاً بجزمته اللبادية الشتوية على الثلج . — وكيف جرى ياترى ؟ محكوم علينا بالموت ، أيها الرفيق الملازم ، محكوم علينا بالموت .

— مولوتشكوف ، اخرس ! أمر كريموف بصرامة ، كارهاً نفسه ومولوتشكوف لعجزهما وضعفهما ، هنا على الأرض المحايدة ، في حفرة القذيفة ، حيث لم يكن باستطاعتهما مساعدة أحمد دينوف ، لا بنار البنادق الآلية ولا بنار المدفعية . — لا أصدق ، أن الجميع ، — قال كريموف بصوت أجش — سار ثلاثة منهم في المقدمة ، واثنان خلفهم — جماعة الحماية . . . لا أصدق ، أن الجميع . لابد أن يكون أحدهم قد ابتعد . . .

خلع كريموف قفازه المصنوع من الفراء ، وأمسك حفنة من الثلج ، ورغبة منه في تبريد وجهه بالبرد القارس ، فرك وجهه بالثلج إلى حد الألم . فاختلط هذا البرد بالقشعريرة التي كانت تمسك به بثقل حار في رأسه ، واصطكت أسنانه ، كما في نوبة ملاريا قاسية .

— ماذا بك ، أيها الرفيق الملازم ؟ ماذا ؟ — ارتجف صوت مولوتشكوف فوق أذنه — أنت مريض تماماً . . .

— الآن — اعتصر كريموف وبدأ يتحرك على حافة الحفرة . — سننتظر الآن . . . ثم إلى هناك . . . سنعرف بأنفسنا ماذا حدث . سننتظر قليلاً ثم إلى هناك . . .

عض بأسنانه على قفازه ، كي لا تصطك ، وأحس بالطعم الحامض المعدني للثلج والجلد المتجمد ، وشعر بحاجة للتقيؤ ، وبتشنج في حنجرته ، فأن ، ولهث من مساعيه الفاشلة ، وكرر بهمس لاهث :

– سننتظر قليلاً . . . ونذهب إلى هناك لعندهم ، زحفاً . . . لننتظر قليلاً . . .

– أيها الرفيق الملازم ، أخيراً مرضت أنت . . . إلى أين سنذهب ؟ إلى قبضة الألمان ؟ إلى أين ؟

أبعد كريموف رأسه عن القفاز ، ونظر إلى مولوتشكوف ، المستلقي إلى اليمين على الثلج المتراكم في حفرة القنبلة ، ومع ضوء النجوم الصقيعي في الغسق ، بدا وجهه المثلث ، المضغوط بالقبعة الصوفية ، والغطاء الأبيض لبزة التمويه ، وكأنه وجه نسائي مخبول ، شبح شاحب بعينين زجاجيتين ، ينفث بخاراً من الهدب الكثيف للندى المثلج حول فمه ، وبدا له ، وكأن هذا ليس ذلك الشاب الريفي الخفيف مولوتشكوف الذي يردد بجرأة أغاني فورونيج الشعبية في الفصيلة ، بل شخص آخر ، مترنح ، أدرك من أعماقه المصير المحتوم .

– أتسمع ؟ – همس مولوتشكوف بصوت متقطع ، وخيل إليه أن نظرته الرطبة كانت تضيع على وجه كريموف . – انهم يصرخون . . . أليس كذلك ؟

وفجأة ، أطلقت المدافع الرشاشة الألمانية نيرانها على المنطقة المحايدة ، ولمعت الطلقات النارية الممتدة ، وحامت رشقات المدفعية كالاعصار الوحشي فوق الحفرة ، معمية الأعين بنيرانها القرمزية ، أما مولوتشكوف فقد ضغط رأسه بين كتفيه وسقط من حافة الحفرة إلى الأسفل ، ومنه إلى القاع ، وصاح بصوت رفيع :

– أشعر ، أن مصيرنا اليوم ! . . . مجموعتنا اصطدمت ، وجاء الآن دورنا . . .

ـ لقد سئمت منك ! ـ قاطعه كريموف بغضب ، ونزل إلى قاع الحفرة مترنحاً ، كان رأسه متكدراً بصورة ضبابية ، وأراد أن يستلقي ، ويلف جسمه على شكل كومة كي يشعر بالدفء . ـ أين يصرخون ؟ هل تخيلت ؟ ـ سأله كريموف كابحاً اصطكاك أسنانه ، مصغياً بجهد كبير ، غير أنه لم يسمع سوى الهدير المتقطع للمدافع الرشاشة الألمانية المضطربة التي تطلق النار على المنطقة المحايدة .

ـ أحدهم يصرخ في الضفة المقابلة . . . أنا أسمع ـ همس مولوتشكوف بحرارة ، مقترباً منه كثيراً . ـ أليس أحمد دينوف هذا ؟ ربما يعذبونه ؟ لقد جرحوه ويمزقونه الآن بالحراب . . . أتذكر كيف عثرنا على سيدوريوك ؟ لقد فقأ الألمان عينيه ، وقطعوا يديه . . .

ـ مابك ، أخذت تشكو وتنوح ؟ ماذا بك ، أنا أسألك ؟ . . .

وشتم كريموف من جديد ، مهيناً مولوتشكوف بشتمه على هذا الهمس الناضح بالمصيبة ، على خوفه العاري الحقير من المصير المحتوم الذي حدث لكشافيه ، وهذا ما لم يستطع كريموف أن يصدقه ، لمعرفته بخبرة أحمد دينوف وأولئك الذين ذهبوا في مجموعة القبض على أسير ، ولم يرد كريموف أن يصدق بسهولة ، ماكان يمكن أن يحدث هناك ، أمام الخنادق الألمانية .

ـ سننتظر ، ـ قال كريموف بحدة ، ناظراً من الأسفل إلى خطوط نيران المدافع الرشاشة ، التي كانت تمزق ظلام السماء حول الحفرة . ـ سننتظر حتى انتهاء إطلاق النار ونتحقق . سنزحف إلى هناك . . . أريد أن أتحقق بنفسي .

ارتفع مولوتشكوف قليلاً ، واتسعت عيناه الزجاجيتان في محيطي الندى المثلج على جفنيه ، ناضحتين بالرطوبة :

— لقد وقعوا في قبضة الألمان الفاشيين . . . إلى أين سنزحف ؟ إلى أين ؟ . . . وأنت مريض جداً . . .

ضغط كريموف على أسنانه .

— إلى هناك ، أليس واضحاً ؟ — قال كريموف بقرف واشمئزاز شديد ، من عجزه أمام المجهول ، وقد أثارته كلمات مولوتشكوف « أنت مريض جداً » التي لفظها بتأنيب حائر ، إلى حد الاحتدام . — مالك تشتكي وتنشج ؟ وأي شيطان يدفعك إلى الذعر ؟ أنت كشاف أم خرقة للمسح ؟ اصعد إلى الأعلى وراقب المنطقة المحايدة ، وإلا فسيقترب الألمان ويأخذونك أيها الغبي ، ويجرونك في عدل !

— وهل سيأخذوني أنا . . . وأنت كيف ؟ وهل أنت حديدي ؟

— إن الألماني الذي سيأخذني ويجري لم تلده أمه بعد ، واضح مفهوم ؟ أنا نفسي سأتصرف بنفسي .

— أوه ، يايسوع . . . لن أتمكن من قتل نفسي . — همس مولوتشكوف ناشجاً ، وبعد أن رفع رأسه ، زحف على بطنه إلى الأعلى ، على منحدر الحفرة ، وهنا مد قامته وتجمد ، مغطياً وجهه بقفازيه ، وكان بالكاد يرى الأكمة الزرقاء تحت الخطوط النارية المتنقلة فوقه .

— ماذا ؟ ماذا حدث لك هناك ؟ هل نمت ؟ ، — صاح كريموف ، متغلباً على الوهن الساري إلى جسده المهتز بقشعريرة حرارته الداخلية المرتفعة ، وبالألم الذي ينهشه من ظهره الذي التصق به قميصه الداخلي

المرطب بالقيح ، وهنا شعر بظمأ قاتل ، برغبة شديدة لإرواء بدنه المتوهج الذي يحرقه .

التقط الثلج بأسنانه ، وأخذ يقرض مادته العذبة الواخذة ، التي كان لها طعم الحديد المتجمد الصدىء ، وقبل أن يلوكه ، وخوفاً ، من أن يتقيأ وتجيش نفسه ، بصق كتلة لدنة مقرحة . صعر خده بغضب ، زاحفاً إلى حافة الحفرة ، واستلقى بصدره على كتلة الأرض المتجمدة ، ورأى أمامه زرقة الثلج الكيميائية غير العادية ،والخنادق الألمانية البارزة خلف النهر ، والنيران المتراقصة التي تطلقها المدافع الرشاشة ، والمظلة الساقطة للصاروخ الحطاط . وانطفأ الصاروخ ، وأخذ يلتوي صاروخ آخر بأزيز قارص ويتناثر في الجو ، وتبعه صاروخ ثالث — كانت الصواريخ الحطاطة تتصاعد واحداً إثر آخر . لقد أزاح الألمان بضوء سماوي ، الظلام الأرضي فوق الخط الأمامي ، ومسحوا المنطقة المحايدة على امتدادها برشقات متقاطعة من المدافع الرشاشة . ومع الطنين الغامض في أذنيه ، نظر كريموف طويلاً إلى البيوت الريفية المتطرفة ، العائمة فوق الليل ، من القرية التي احترق نصفها ، حيث كانت تتراءى بخط أزرق الخنادق الألمانية الأولى ، حيث حدث على مقربة منها لجماعته الاستطلاعية أسوأ ما يمكن أن يحدث في الحرب . غير أنه الآن ، وبعد أن رأى في المنخفض إلى يسار القرية ، الفراغ المنحدر للثلج المغمور ببصيص الصواريخ ، رفض ثانية فكرة أن يكون عناصره الخمسة كلهم قد استشهدوا أو خطفوا وأسروا . كان واثقاً كل الثقة ، بخبرة الرقيب أحمد ديزوف وحذره ، فهو الذي ذهب عشرات المرات من أجل أسر جنود ألمان ، وكان لا يزال يعيش في نفسه ، دون أن ينطفىء الأمل ، الذي لا يخضع لأي شيء ، في أن يكون أحدهم قد ابتعد من تحت

النيران ، أثناء اصطدامه مع الألمان ، واختبأ في المنخفض وسيعود منه ، حالما تتوقف المدافع الرشاشة عن إطلاق النار ، وتتوقف الصواريخ الكشافة عن التحليق .

– سننتظر ، سننتظر ، – قال كريموف ، متلقفاً بشراهة الثلج في فمه ، للتخفيف من الحرارة الشديدة في حنجرته .

– هاهوذا ! سمعت ؟ – صاح بحسرة مولوتشكوف ورفع رأسه ، على طريقة السلحفاة ، من القلنسوة . – الصوت من هنا ، من هنا ، من تلك البيوت الريفية . . . هل سمعت ؟

إنك تهذي ، يا رضيع !

نهض كريموف قليلاً متكئاً على مرفقيه ، فشعر وكأن ناراً تثقب ظهره ، وكأن فقراته اجتثت وفصلت بكماشة ، وحبس نفسه ، ثم نزع قلنسوة التمويه ، وخلع قبعة الفرو من رأسه الملتهب ، الذي تهوى على الفور بالريح الثلجية الصقيعية ، وأصاخ بسمعه . . .

كانت المدافع الرشاشة تتوقف قليلاً بين الرشقات النارية ، وفي أثناء هذه التوقفات القصيرة المليئة بالفراغ ، وصلت بوضوح إلى مسامعه أصوات متحاربة غريبة ، في مكان ما ، في المنطقة المحايدة . كانت هذه الأصوات غير واضحة ، أجشة مبحوحة ، كانت تظهر وتختفي في الليل ، لم يكن باستطاعة إنسان أن يصرخ مثل هذا الصراخ ، إنه صراخ ، أشبه بصراخ وحش يعاني آلاماً شديدة ، دون أن يرجو أحداً الرحمة قبيل الموت ، ودون أن يطالب المساعدة من أحد – لقد كان هذا صراخ الموت والغم والكآبة ، موجهاً دون وعي أو ذاكرة إلى

النجوم ، إلى الصقيع ، إلى الثلج ، إلى أي مكان ، حيث لا مجال للنجاة ولا إمكان للإنقاذ .

تشنج كريموف من هذا العويل الحيواني ، عويل القنوط واليأس ، الذي أصدره على الأغلب ، جريح محكوم عليه بالموت الأليم ، وهو يودع الحياة . في الدقيقة الأولى كان من السهل عليه أن يوحي لنفسه ، أنه كان يصرخ على هذا النحو ألماني مجروح أثناء تبادل إطلاق النار ، وليس كشافنا المجروح جرحاً بليغاً ، في المنطقة المحايدة . لكنه كان واضحاً أن الألمان من غير الممكن أن يتركوا جريحهم على الخط المحايد بالقرب من خنادقهم . وأدرك كريموف ، أنه هناك ، إلى الأمام ، خلف النهر ، كان كشافنا ينزف دماً وينازع أمام الخنادق المعادية الغربية . أما الألمان ، فعندما سمعوا صرخاته الفظيعة ، لم يقتربوا منه ، ولم يمسكوا بالجريح ، بل على العكس غالباً ، رغبوا بأن يصل عويل الجريح الذي يموت إلى الخنادق الروسية ، ليسبب الألم ويزرع الخوف في بمثابة عقاب إنتقامي لهم على استطلاعهم

ـ إنه هو . . . إنه هو يصرخ . . . ـ تزحف صوت مولو تشكوف كالثعبان وراء ظهره ـ لقد أمسكوا بأحمد دينوف . . . إنهم يعذبونه . .

دون أن يجيب ، أغمض كريموف عينيه من انفجارات الصواريخ الخطاطة التي تؤذي العين ، فوق النهر ، والتصق بصدره على حافة الحفرة ، وبدأ بلتقط من جاليد الثلج الرصاصي بأسنانه ، بالعاً إياه بأقصى جهده. أما في اذنيه ، فقد نما واقترب عواء غير بشري ، صادر من المنطقة المحايدة ، المضاءة بالصواريخ الكشافة دون انقطاع . وكان هذا العواء

يتشبث ويغرز بظهره ويمزقه ببراثن فولاذية ، وأصبح ظهره جامداً من الألم .

لو أنني ذهبت معهم لكان كل شيء على ما يرام » — كان يفكر كريموف في نفسه ، محتقراً بصورة موسوسة ، هذا الفشل الأول بعد معركة قوس كورسك . ولم يعد يحاول وقف اصطكاك أسنانه ، وبقشعريرة كانت تمزقه ، أخذ يلعن نفسه ، ويلعن هذه الحفرة الآمنة على الضفة ، حيث كان لايزال ينتظر عودة واحد ما من كشافيه ، رغم أن الزمن نفسه قد غار في مكان ما ، في لجة هاوية .

أيها الرفيق الملازم . . . ماذا تقول ؟ لا أسمع شيئاً . . . إنك تدمدم بشيء ما .

وهزته من كتفه يد متشبثة ، أما هو ، فعندما رفع رأسه ، رأى فوقه وجه مولوتشكوف الرمادي ، المضغوط بقبعة الفرو تحت القلنسوة ، المكشوف بضوء الصواريخ الأبيض ، وطبقات الندى فوق حاجبيه ، ورأى فمه الذي ينفث البخار ، وقال كريموف بهمس أجش ، محتملاً بلع قطع الثلج القاسية ، التي وقفت في حنجرته ، ولم تبرد حرارته العالية :

الآن . . . ستهدأ . . . لن ندع الجرحى في المنطقة المحايدة . لن نترك أحداً منهم . افحص بندقيتك الآلية ، يا مولوتشكوف ، وتدفء الآن . . .

قال هذا ، وهو متجمد . ويحترق من حرارته ، وكأنه كان يرقد بلا معطف على الجليد ، وتنفذ الريح القوية المحمومة إلى عظامه ، وعندما

نظر إليه مولوتشكوف بفم مبلتو مرعوب ، ارتد عنه ، وأصبح ظلاً أبيض في الظلام ، وأخذ يخشخش ويدوس الثلج ، نازلاً إلى أسفل الحفرة ، وصاح بصوت مخنوق : « يا إلهي ! يا عيسى ! يا إلهي ! . . . » — وصمت هناك ، وتلوى ، وتكوم مثل نابض بانتظار النفس الأخير .

« أشد ما أخشاه ألا يقعدني الألم والمرض ، أشعر أن حالتي قد أصبحت سيئة . . . — كرر كريموف هاذياً . — المهم ألا أفقد الوعي ، وأن أصمد ، حتى تهدأ . . . ولو لنصف ساعة » .

بيد أن النار لم تهدأ ، وبقيت المدافع الرشاشة تطلق دون انقطاع ، وانكشفت المنطقة المحايدة فارغة ، ميتة ولمع ماء النهر المتجمد مثل منعطف شديد الانحدار مزين بالثريات المتأرجحة في السماء ، ثم أخذ يبدو ، وكأن كل شيء يتحرك في الأمام من تحليق الصواريخ اللجوج واحتراقها ، ويقفز من الظلام إلى النور ، ومن النور إلى الظلام . واندلع الجليد رذاذاً كالدموع في العين وانطفأ ، — وشعر بدوار شديد في رأسه بسبب الصراخ الذي هدأ وأصبح ضعيفاً في المنطقة المحايدة ، وبسبب اللمعان الخاطف المستمر ، وقفزات النيران المندفعة ، ورواسب الصواريخ الخطافة ، والظلام الذي كان ينهال على النور . وسعل كريموف ، وبعد أن التقط أنفاسه ، شعر من خلال الدوائر السوداء التي ظهرت في عينيه ، وتعزز في نفسه خوف لا يقهر ، من ألا يفقد السيطرة على نفسه ويغيب عن الوعي .

« الآن ، يجب الآن ، — فكر في نفسه . — إن المدفع الرشاش اليساري لا يبدل قطاع رميه . يجب اذن ، الزحف على الجانب اليميني من المنخفض . فهو على هذا النحو لن يمسنا . . . حان الوقت ! » .

ونادى بصوت أجش :

- مولوتشكوف

لم يسمع أي رد . أدار رأسه ، متغلباً على الألم في رقبته : وألقى نظرة - هنالك ، في الأسفل ، في قاع الحفرة ، كان يرتسم جسم مولوتشكوف بصوت غير واضحة وبلون أبيض . لم يتحرك على الثلج ، جاذباً ركبتيه إلى ذقنه ، ووصلت إلى أذني كريموف أصوات تخور بهمهمة غامضة . فنادى بصوت أعلى :

- مولوتشكوف ! تعال لعندي

وصل إلى سمعه نشيج غير مفهوم من الأسفل :

- أيها الرفيق الملازم . . . .

- ماذا بك ، مولوتشكوف ! هل صرت أطرشاً ؟

ونزل كريموف بعجالة إلى منحدر الحفرة ، وانحنى فوق مولوتشكوف وهزه من كتفه بعنف ، فانتفض الأخير مثل طائر منهوش ، ناشراً مرفقيه مثل جناحين مقصوصين حليقين ، وتباعدت نظرتا عينيه الحارتان من الفراغ بخبل

- إلى أين ؟ إلى أين

- اصغ بانتباه يا مولوتشكوف - قال كريموف بصوت متقطع . - سنسير كما يلي : وثباً نحو النهر ، ثم زحفاً نحو الضفة الأخرى . وزحفاً

نحو الخنادق الألمانية . وسنلتصق بالمنحدر الأيمن للمنخفض . ونعمل كل شيء تحت ضجيج المدافع الرشاشة . تابع إشاراتي بعينيك الاثنتين . عندما أرفع يدي — يعني إلى الأمام ، وألوح بها — يعني اجمد مكانك . . .

كان يجد صعوبة كبيرة في الكلام ، ويعتصر الكلمات بصعوبة من خلال اصطكاك أسنانه ، وفجأة أصدر أمراً بهمس متقطع لضيق شديد ألم بصدر

— انتهى ! اتبعني

واستدار مترنحاً ، واتجه إلى الأعلى على منحدر الحفرة ، في اللحظة ذاتها حيث صمتت المدافع الرشاشة ، وفي الصمت المطبق الرنان ، وحيث ظهر صاروخ كشاف مضيء شتت الظلام على الخط الأول

— لاداع ، لاداع لذلك أيها الرفيق الملازم .

توقف كريموف عند منتصف المنحدر ، غير فاهم معنى الصرخة المتوسلة الرفيعة خلف ظهره (« لاداع لأي شيء ؟ عم يتحدث هذا ؟ ») ، وشعر بانفعال غاضب لمعارضة أمره ، وهذا ما لم يسمح به أبداً في فصيلته ، ونظر من الأعلى فرأى البريق الزجاجي على وجه مولوتشكوف المبقع بقطرات العرق ، ووصلت إلى مسامعه الألفاظ القافزة لصوته على شكل حزم مقوسة :

— لاداع لأخذي ، أيها الرفيق الملازم ، لاداع . . . — رن صوت مولوتشيكوف نادباً ، وتحول على عجل إلى كلام سريع غير مترابط وكأنه بلا وعي : — إن الذي صرخ هو أحمد دينوف . . . وآنذاك ،

بالقرب من « سومي » ، فقأ الألمان عيني سيدوريوك بالحربة . فالى أين سنذهب ؟ . . . .

— ماذا أصابك مولوتشكوف ؟ هل فقدت عقلك ؟ هيا ، انهض ، تمالك نفسك .

وحلق فوق المنطقة المحايدة صاروخ كشاف ، بصوت واضح ، حاملاً معه الضوء الكاشف ، وتناثر في السماء مطر مائل إلى الحمرة ، أضاء الحفرة كلها باللون القرمزي . — وعلى الفور تحركت عينا مولوتشكوف وتزحلقتا مثل نقطتين حاميتين بنفسجيتين ، كعيون الكلاب المريضة ، التي تطلب الغوث .

— لا أستطيع ، أيها الرفيق الملازم ، إن فرائصي ترتعد ، انني خائف . . . — قال مولوتشكوف متوسلاً ، وخفق حاجباه الأبيضان بسرعة وبصورة ذليلة مثل دودتين صغيرتين . — اشفق علي ، أنا الغبي القروي ، بالله عليك . لا تأخذني . أخاف الوقوع في الأسر ، سوف يعذبوني . أنا لست كشافاً ، أيها الرفيق الملازم . أنا أصلح للسير في قافلة ، لا أكثر . وها قد جمدت يداي أخيراً ، انني لا أسيطر عليهما . مثل قطعتين خشبيتين . . . لا أستطيع الإمساك بالبندقية الآلية .

كان مولوتشكوف جاثياً على ركبتيه ، وبسط يديه المرتجفتين في القفازين المتجمدين المتحجرين ، ثم جذب بأسنانه قفازاً واحداً بجهد كبير ، وحاول جاهداً تحريك أصابعه ، دون جدوى ، فكشر عن أنيابه ، وبكى بصمت ، وتراجع إلى الوراء ، بحيث برز منخراه المبللان ، اللذان كانا ينتفخان وينقبضان بالتناوب .

ــ ماهذه الترهات ! ــ صاح كريموف بسخط .

ــ انني لا أقوى على شيء ، أيها الرفيق الملازم ، ــ زعق مولوتشكوف بصوت رفيع ، مترنحاً على ركبتيه ، وانحدرت دموع ناعمة على شفتيه الزرقاوين . ــ كل مرة ، كنت أذهب معك في مهمة استطلاعية ، كنت أموت خوفاً ، وكانت روحي تنزل إلى أسفل قدماي . لكن الموت كان يمر بجانبي دون أن يمسني ، أما الآن . . . فقد اختلط كل شيء في رأسي . تجمدت بكاملي ، وانخلع دماغي من مكانه . كم أتمنى لو اقتادوني إلى المستشفى . . . . فليقطعوا رجلي أو يدي ، آه لو اقتدت إلى المستشفى ، ليست لدي قوة . أريد أن أعيش ، أيها الرفيق الملازم ، لا أريد أن أدمر حياتي شاباً ! ــ ومسح دموعه ، ثم شهق ناحباً : ــ يا إلهي ، أيها المسيح ، انقذني ! . . .

سبق لكريموف أن رأى درجة اليأس الأخيرة في الحرب ، غير أن كآبة وخوف هذا الشاب الغض ، الذي فرزه كريموف شخصياً للاستطلاع لتكملة الملاك ، بسبب نظرته الحزينة ، وحركة جسمه النحيف الماهرة ، ان خوف مولوتشكوف المسكوب ، ليس أنه لم يكن متوقعاً ، بل أذهله بصدقه الشنيع ، بصراحة المستغيث ، وكأنه ليس هناك من شيء في الوجود سوى الرعب العاري ، أمام الحد الأخير الذي كان ينتظرهما في المنطقة المحايدة .

ــ لا أستطيع الخدمة في الاستطلاع ، أيها الرفيق الملازم ، ــ كرر مولوتشكوف ، منحنياً على الأرض ومستغرقاً في النحيب . ــ كنت أنتظر أمرك وأبتهل إلى الله : إلهي ، ابق على حياتي وأنقذني . . .

— اخرس يا جرو ! نطق كريموف ، وتوجه نحو مولوتشكوف ، والدم يضربه على مصدغيه ، وضغط بأصابعه على كتفه . — ماذا تظن ، هل نترك الجرحى في المنطقة المحايدة ؟ الأفضل ، أن نموت نحن أيضاً ، مفهوم ؟ قف — أمر كريموف — هيا ! بسرعة ! انهض !

— اقتلني ، أيها الرفيق الملازم ، اقتلني على الفور كي لا أتعذب . . . اقتلني . . .

— كفاك بكاء ! انهض ، قلت لك !

وضغط بكامل قوته على كتف مولوتشكوف ، الذي التوى بمرونة ، ملاحظاً عن قرب ، وجهه المبلل ، المشوه بالبكاء . وبدا لكريموف هذا الوجه ، على ضوء الصاروخ ، مثل وجه صبي صغير ، أما هذا الارتجاف الخفيف لكتفه ، وكأن جسمه الثابت قد فقد توازنه ، فقد تهيأ له ، وكأنه علامة منذرة بالموت ، يرسمها القدر نفسه .

وفكر كريموف في نفسه ، أنه اليوم ، وبعد نصف ساعة ، بعد ساعة — سيُقتل مولوتشكوف ، وبشفقة عدائية دفعه ، وقال وكأنه في حالة من النسيان :

— ما العمل إذن ! . . . ماذا سأفعل بك ، أنت وغد لئيم ، ولست كشافاً ؟ أأطلق عليك النار ، كالجبان ، لعدم تنفيذك الأمر ؟

— أيها الرفيق الملازم ، عزيزي ، كن شفوقاً ، سوف أغسل لك قدميك بالماء وأشربه ! — أخذ مولوتشكوف يصيح ، وترنح إلى الأمام ثم سقط على الأرض ، أما يده اليسرى العارية ، التي لم تطاوعه أصابعها والتي لم يلبسها القفاز المتخشب . فكانت تبحث جاسة بزمة

كريثوف البادية ، والتوى بصورة مسحوقة ، ثم تمدد برأسه على جزمة كريموف ، مغمغماً ، مصدراً أصوات قبلات سريعة ..

— أنت ، أيها الغبي ، هل فقدت عقلك ! — قال كريموف مؤنباً ، ولم يعد يحتمل هذا الذل المجنون ، فأمره بغيظ : — هيا ، انهض ، قيل لك !

— يا عزيزي الملازم ، سوف أقبل قدميك ، سأكون خادماً لك ، اشفق علي من أجل شبابي — أخذ يصرخ مولوتشكوف ، زاحفاً على الثلج حول كريموف — وكان في ندبه الجنوني الأخرق هذا شيء معيب ، ونسائي ، بعيد عن الرجولة — لو أرسلتني إلى المستشفى . . . أنا غير قادر على الخدمة في الاستطلاع . أخاف الوقوع في أيدي الألمان . انهم وحوش ، سوف يمزقوني قطعاً . ليس لدي الآن أي فهم أو إدراك ، أيها الرفيق الملازم ، انني غبي كالحمار ، كن شفوقاً تجاه صباي ، الخالي من الخبرة والمعرفة . . . انني أصغرك بثلاث سنوات ، وأرى الموت ماثلاً أمامي باستمرار . . .

— اذن ، تريد الذهاب إلى المستشفى ؟ وترى الموت أمامك ؟ أوه ، كم أنت مقرف وقميء ، — نطق كريموف باشمئزاز وتقزز ، ناظراً إلى ظهره الأبيض الذي كان يلتوي كالدودة بين قدميه ، وبجزم صارم يقطع الرأس ، أمره قائلاً : هيا ، اجلس !

وانتزع القفاز من يده اليسرى ، وجذب بها بشدة الرداء التمويهي لمولوتشكوف ، الذي جلس على عجل على الثلج في ذهول أخرس (عيناه وحدهما ، الممتلئتان بالدموع ، كانتا تتألقان ، وتندفعان ،

وتتوسعان في رعب قاتل) . وبيده اليمنى ، انتزع متحسساً ، الغطاء اللزج ، المبلل والمغطى بالثلج لقراب المسدس على نطاقه ، متلمساً القبضة المتجمدة لمسدس « البرابللـو » المغتنم . ولم تنصع القبضة ، فقد تجمدت بالجليد في زوايا القراب الضيقة ، عندئذ انتزع مسدس « البرابللو » انتزاعاً حاداً . بصرير قوي ، بحيث انسلخ الجلد من على أصابعه ، وتغضن وجهه ، وفي تلك اللحظة صعقه صراخ رفيع :

— لا ، لا داعي ، أيها الرفيق الملازم ، عزيزي ! . .

وسقط مولوتشكوف بأنين خانق على يديه ورجليه ، وزحف بهرج جانباً في قعر الحفرة ، ونظر بحفرتي عينيه السوداوين ، وهو منهك ، وقال بصوت أجش وهو ينحب : « لا داعي ! » — ودفن وجهه في الثلج ، محركاً جزمته اللبادية من جهة لأخرى .

— ليس شفقة عليك ، أيها الوغد ، بل شفقة على أمك ! . . . لقد أخطأت في اختيارك أيها العير ! . . . قلت لك ، اجلس ! — كرر كريموف متقززاً ، ومن جديد ، وبدفعة قوية ، رفع مولوتشكوف من الأرض ، وبعد أن رفعه ، شعر برجفة جسمه الواهن ، القارسة ، وبنفسه الثقيل من فمه المفتوح بصورة مستديرة خرساء ، وأمره بصوت أصم : — هيا ، انظر إلى السماء ، واعطني يدك ، إذا كنت تريد البقاء حياً ! انظر إلى الأعلى ، يا ابن الأبالسة ! — صاح كريموف وأمسك بيد مولوتشكوف المعدومة الإرادة ، وبحركة سريعة وضع حفنة من الثلج على كم بزته التمويهية ، وأطلق النار بصورة دقيقة ، مدروسة ، على حافة الحفنة الثلجية ، عارفاً ماذا يفعل . . .

(فيما بعد ، بعد مرور عدة سنوات ، ودون أن ينسى تلك السنوات من الخطر اليائس والقاسي ، ناسياً مع ذلك الملازم كريموف . هذا الشاب الحازم بصورة مفرطة ، القائد الموفق دائماً تقريباً لفصيلة استطلاع الفوج ، كثيراً ما كان كريموف يفكر بجرأته السابقة في التصرف بمصائر الناس ، بخشونة تصرفاته وأفعاله الشخصية ، بتهوره وجرأته ، عندما كان ملازماً ، بالبحث السريع عن المخرج ، حيث لم تكن هناك تلك الشكوك التي رافقت حياته كلها فيما بعد .)

لكن ، في تلك الأثناء ، في تلك الليلة الكانونية ، وبعد طلقة كريموف هذه ، تأوه مولوتشكوف ، وحرك عينيه المبيضتين كعيني الميت إلى الأعلى ، وسقط على ظهره على منحدر الحفرة ، فاتلاً قدميه ، كما في سكرة الموت . أما كريموف فقد انتظر قليلاً ، وجلس بقربه ، ومزق بسبطانة المسدس الجعبة الفردية ، ثم ضمد بصمت الكم المتورم الغامق لردائه التمويهي الأبيض ، وعندما شعر بالتشنج والرغبة في التقيؤ في حنجرته ، وأحس برائحة الدم المشربة بالأملاح الحديدية ، وبالدبق اللزج على أصابعه ، خاطب مولوتشكوف بعنف وازدراء :

— والآن ، اركض إلى المؤخرة ، دون أدنى التفاتة إلى الوراء ! لن يصدقوك هناك إذا كنت سليماً معافى ، لهذا ، اصرخ هناك بأعلى صوتك : جرحني الألمان ، وضمد جرحي الملازم ! ستبقى على قيد الحياة ، أيها الوغد . على أن لا أراك بعد اليوم ، بالقرب من وحدة الاستطلاع . فاذا ما رأيتك ، سأتذكر كل شيء ، وعندها لن آسف على رصاصة . هيا ، اركض ، بأقصى سرعتك ، بحيث ترتطم قدماك بمؤخرتك !

ولكن بعد يوم واحد ، قدر لكريموف مجدداً أن يرى مولوتشكوف في مركز الكتيبة الطبي ، حيث اقتيد إليه كريموف في فجر تلك الليلة المشؤومة ، التي ابتلعت خمسة رجال من فصيلته الاستطلاعية .

لقد رسخت في ذاكرته إلى الأبد تلك الدقائق الحرجة ، عندما زحف وحيداً ، تعصف به الرياح الثلجية المعترضة ، إلى الضفة اليمنى ، ثم استلقى منهكاً ، تحت السماء الباردة المرصعة بالنجوم ، في السكون المطبق ، الذي ساد لسبب مجهول ، في المنطقة المحايدة المكتومة .

في الأمام كانت قد صمتت المدافع الرشاشة ، ولا أثر لأي صاروخ كشاف ، وانقطع العويل البشري في المنطقة المحايدة ، ماعدا الجليد في الأسفل ، الذي كان ينهار بخشخشة رنانة في زمهرير وحشي في النهر ، حيث كان الدخان يتصاعد من نقرة سوداء ، غير متجمدة ، فتحتها قذيفة في منتصف النهر . أما هو ، المخبول ، الفاقد الوعي من الحرارة والألم ، والذي كان يضنيه الظمأ ، فقد زحف متخيلاً الرطوبة النقية البللورية ، المشبعة بالصقيع ، متصوراً كيف يغمس ذقنه في الماء البارد بلذة ، ويشرب ، دون أن يرتوي ، قطرات كبيرة ، أدخلت البرودة إلى حنجرته ، دون أن يروي ظمأه .

وكان آخر ما بقي واضحاً في ذاكرته ، الموجة السوداء الثقيلة التي اندفعت من النقرة غير المتجمدة (حيث اهتزت النجوم وامتدت خيوطاً طويلة !) ، ومذاق الماء الجليدية القارسة ، التي اختنق بسببها وتجمدت أوصاله ، والشفق المعتم السماوي للضفة اليمنى ، التي زحف إليها ، ساحباً على مرفقه البندقية الآلية ، التي كان أخمصها يصلصل بصورة خطيرة على حدبات صقيع النهر .

ثم انجرف كل شيء وامحت حدوده ـ المنخفض ، الكثبان الثلجية للخنادق الألمانية الأولى التي يصعب تمييزها من الأعلى ، والليلة الشتوية المديدة ، فوق الحدائق المتخدرة من البرد للبلدة التي احترق نصفها ، وضربات الدم المتدفق في أذنيه ، والفكرة الملحة بأن عليه ، مهما كلف الأمر ، أن يعرف ماذا حدث هنا . وحفيف الريح الثلجية في المنخفض العاري ، ولم يكن هناك أي شيء ، لا طلقة نارية ، ولا ضوء صاروخ ، ولا أي علامة تفسر ما حدث للجماعة الاستطلاعية ، رغم أنه تخيل ، أن الريح الثلجية تفوح ببارود بارد . . .

وحدثوه فيما بعد ، أنهم قد عثروا عليه في المنطقة المحايدة ، بالقرب من الحفرة ، على الضفة اليسرى . غير أنه لم يستطع أن يفهم ، كيف استطاع العودة من الضفة اليمنى .

عندما وجد نفسه في مركز الكتيبة الطبي ، رأى في اليوم نفسه كشافه مولوتشكوف ، الذي قدم إليه في غرفته ، وهو يبتسم إبتسامة اعتذار وفرح ، وكانت يده معلقة على ضماد جديد ، أما وجهه المدهون بدهون بني اللون ، فكان مبقعاً ببقع رمادية زرقاء ، لكن عينيه الصفراوين الجريئتين كانتا ترقصان بفتوة ونشاط ، ورن صوته مداهناً ، ملاطفاً :

ـ أيها الرفيق الملازم ، الحمد لله ، أنت حي . . . خنصري قد التوى وتخدر . هاهو ذا ، انظر . إنها أشياء بسيطة ، تافهة . لقد ثقبت الرصاصة اللحم .

ـ اغرب عن وجهي ، ـ قال كريموف بلا مبالاة .

* * *

ـــ أنت محق ، يا تيرنتي ، فالطلقة أحياناً ، قد تكون خلاصاً وإنقاذاً ـــ قال كريموف ، شاعراً بصورة خاطفة ، بالعجز القديم والوحدة في المنطقة المحايدة ، ولكن دون حدة الغضب السابقة ، وكأن الماضي كله قد غاص في حلم بعيد . ـــ على كل حال ، لن نستعيد ذكرى الحرب ، وكل شيء قد انقضى ، في نهاية الأمر . الأفضل حدثني ، كيف تعيش الآن ؟ كيف أحوالك العائلية .

« وهل ثمة داع للتفكير بكيف كنا قبل ثلاثين عاماً ؟ إن تيرنتي مدير إنتاج جيد ، مخلص لعمله . . . » .

ـــ كيف سونيا ؟ ألا تنتظران ولي العهد ؟

ـــ إن حياتي كلها متوقفة عليك ، يا فياتشيسلاف أندرييفيتش ، طيلة الوقت أفكر بك . أنا لا أؤمن بالله ، وإلا لتضرعت إليه وصليت ، ـــ قال مولوتشكوف متأثراً ، بعاطفية واسترد أنفاسه بقلق . ـــ من أنا بدون مساعدتك ؟ حتى أنك باركتني ، باركت زواجي الشرعي . ربما ستلد سونيا طفلاً ، قريباً . أنا أريد إبناً ، وهي تريد إبنة . وهناك نقاشات عائلية بهذا الخصوص . إنه أمر مخيف ، فياتشيسلاف أندريفيتش ، مخيف جداً .

ـــ وما هو المخيف ؟

ـــ إن سونيا مصابة بالربو . وقد انقطعت تماماً عن الغناء . أحياناً ، تشعر وكأنها تكاد تختنق . في هذا العام ، استدعينا الإسعاف السريع ثلاث مرات . لا ينصحونها الأطباء بالعيش في المدينة . عليها أن تسكن في الضواحي ، حيث الهواء النظيف المنعش . وقد أخذت الآن من

الاستوديو قطعة أرض تعاونية . علي أن أجمع قواي وأبني بيتاً صغيراً ، فياتشيسلاف أندريفيتش ، ـ هذا سيكون إنقاذاً لسونيا . آه ، لو تمكنت من ذلك ! . . . .

ـ مفهوم . ستتمكن من ذلك . أنت ستنجح .

ـ ولماذا قلت ذلك ؟

ـ الآن ، أنت تنجح في كل شيء يا تيرنتي . لقد دخلت في منطقة النجاح والتوفيق . في الحياة ثمة خط للتوفيق وخط للحظ السيء . أنت الآن في منطقة التوفيق والحظ السعيد . تنطلق فيها بسرعة ، على ظهر سيارتك الـ « موسكفيتش » .

ـ أتسخر مني ؟ وكيف أنت ؟

ـ أنا خرجت من منطقة التوفيق . وأنا أضحك على نفسي بالطبع .

نظر مولوتشكوف نظرة جانبية إلى كريموف ، واستدارت عيناه المستعطفتان ، المتألقتان بصورة معبرة ، مظهراً فهمه لفكاهة المثقفين بيد أنه عندما استدار ثانية نحو المقود ، أصبح قذاله مستقيماً ، مترقباً ، أما صوته الرنان فقد أبدى بوضوح شكه وريبته .

ـ وهل الإشاعات السخيفة والإفتراءات واقع ؟ أنت رجل معروف للعالم كله ، ولن يستطيع أحد أن يمسك باصبعه ! وهل يستطيع أحد أن يقضي عليك ؟

أنزل كريموف زجاج النافذة ، واستنشق الهواء الدافيء المشبع بالهدب الصنوبري الجاف ، وهو ينظر إلى تخاريم الشمس بين أشجار الشوح على حافة الطريق ، وقال :

— ليس هناك أشخاص لا يمكن مسهم على الأرض . يسقط ذاك الذي يركض ، أما ذاك الذي يزحف ، فلا يمكن أن يقع . لقد ركضت طويلاً ، وطويلاً جداً . وهذا أمر لا يحبه الجميع ، دون استثناء . على أية حال ، كنت أنا ، بكل بساطة ، أعمل ، وأعمل ، وأعمل . حاولت الإمساك بطائر السعادة من ذيله . أتفهم يا تيرنتي ؟

— أيقوم نيتشورالوف باخراج الفيلم بدلاً منك ؟ إن الإشاعات تدور حوله . — قال مولوتشكوف وجلاً ، وتجمد قفاه المستقيم بترقب من جديد . — وكيف سأكون أنا بدونك ؟ وهل المسألة جدية فعلاً ؟

— لن يصيبك شيء ، أيها المدير — قال كريموف وربت على كتفه مشجعاً . — تيرنتي ، أنت رجل محنك ، لبق ، قادر على التفاهم والتعامل . بالابانوف يحبك ، وأنت تخدمه جيداً . قل لي ، يا عزيزي تيرنتي ، في سبيل أي شيء تكذب عليه ، وتفتري على الأساطير والترهات المختلفة ، وتلفق القصص الخيالية التي لا أساس لها من الصحة ؟

« هذا ما كان يؤرقني طيلة اليوم ، مثل الغموض الكئيب » .

— إنني أخدمه وأخدمك ، فياتشيسلاف أندرييفيتش ، — رد مولوتشكوف بلهجة الموافقة الهادئة ، الخنوعة — وأخدم السلطة السوفييتية أيضاً . أنا رجل صغير ، في زمن الحرب ، كنت مأموراً ، والآن ، أنفذ الأوامر أيضاً . إنني لا أفتري عليك شيئاً ، ولا أتحدث عنك بسوء ، بل العكس صحيح — أساعدك ، عذراً ، قوتي محدودة للمساعدة . بقدر استطاعتي . وهل أنا ضدك ؟

وغص صوت مولوتشكوف الهادىء بالاستياء والضيم ، وأصبح سائلاً ، يصدر عن أنفه ، وقال كريموف بأسى :

— هاهي ذي أبهة أخرى ، ها قد بدأ مشهد الميلودراما .هل تعلمت التمثيل في السينما ؟ كفاك توجعاً ، هذا مضحك ! أنت خبيثه بلا حدود ، يا ثيرنتي ، وتعرف جيداً أن التملق يلتهم الضعفاء وهم أحياء .

— أتضحك علي ؟ انك تسيء إليّ ، — قال مولوتشكوف بصوت مرتج ، مريض ، وهز رأسه بحزن وأسى . — وأنا اليوم بالذات ، علي أن أتحدث معك حول مسألة هامة . تتعلق بك . ألم تحزر ، لماذا لم أرسلك إلى البيت بسيارة الاستوديو ، بل أقودك بسيارتي ؟ ذلك أن السائق غولين أحمق غبي ، وقد كنت محقاً في ضربه على سحنته السكيرة الرعناء . أما هو ، فيلجأ إلى القانون ، ويريد رفع قضية عليك إلى المحكمة . إنه نذل ، سافل ، لئيم ! — جاء لعندي اليوم ، يدعوني لأكون شاهداً .

— هذه مسألة تخصه ، — قال كريموف بصورة غامضة ، متذكراً نظرة غولين العابسة المتقلبة ، عندما التقاه منذ أيام في مجموعة التصوير . — وماذا أجبته ؟

رف مولوتشكوف بعينيه الجامدتين ، شاعراً بذنبه ، وتوتر منخرا أنفه الصغير الغضروفي إلى حد البياض .

— إنه أحمق — أليس هو خطير ، يا فياتشيسلاف أندرييفيتش ؟ من يدري ، ماالذي يدور في رأسه . لقد تكلمت معه طويلاً ، بقي عندي ساعة كاملة ، حاولت إقناعه بمختلف العبارات والكلمات ، بأنه هو نفسه ، السكير ، الجاهل ، يمكن محاكمته بسهولة ، فقال لي : « لقد أراد كريموف أن يشوهني ، لأنني رأيت كيف كان مستلقياً على العشب مع العاهرة سكفورتسوفا ، وقد كان يهددني . فلتنظر

المحكمة ، على حد زعمه ، في هذه القضية المريبة كلها » . إنه عنيد ، دنيء ، وحش وليس إنساناً ! إنه جاهل إلى أقصى حد . . .

— وماذا بعد ؟ ولماذا سكت ؟ أكمل حتى النهاية ، يا تيرنتي .

« هراء ، جنون . . . وما الفائدة من معرفتي ؟ وماذا سيحصل لنا جميعاً بعد ذلك ؟ — فكر كريموف فجأة ، وبلع من النافذة نسمة من تيار الهواء ، من أجل تخفيف الألم في قلبه . — ومن سينقذنا من الأغبياء الغادرين ؟ » .

— سكير ، إنه سكير ، بيد أنه كانت له حساباته في رأسه ، — وتابع مولوتشكوف بادانة لاذعة . — قال لي ، إنه أراد أن يشوهني ، فليدفع لي ، اذن ، لقاء ذلك بالعدل والقسطاط ، عندئذ سأسامحه ، ونكون قد تخالصنا ، ولن أرفع قضية ضده إلى المحكمة . إذا ما دعس سائق رجلاً ، فانه يدفع له بسبب تشويهه وإصابته راتباً شهرياً لقاء تعطيله واقعاده عن العمل . وقال لي ، ليست لدي سيارتي الخاصة ، وليس عندي بيتاً ريفياً ، أما كريموف فهو رجل غني . فليقدم أربعة آلاف روبل لرجل فقير ، إذا كان مذنباً ، — ونسوي الأمر بالود والاتفاق وبنظافة ، وسوف أصمت ، وكأني لا أعرف شيئاً ولم أر شيئاً .

— مفهوم ، مفهوم . أربعة آلاف ؟

تأوه مولوتشكوف بازدراء واستخفاف ، لاعباً بأصابعه القابضة على المقود ، وقال بصوت جاف غير مألوف :

— لقد قلت له ، لهذا الأحمق : « ماذا بك ، هل عزمت على نهب رجل طيب ؟ أربعة آلاف ! وماحاجتك إلى أربعة آلاف ؟ ستنفقها

دون فائدة على الخمرة ، أيها الغبي ! أنت لم تحو في جيبك على خمسمائة روبل في يوم من الأيام . ألا تخاف من أن تثرثر أمامي عن الآلاف ؟ » .
أما هو ، فكان حاسباً لكل شيء حسابه . لقد اتضح أن هذا الغبي خبيث وذكي . قال لي : « نحن اثنان ، لا ثالث بيننا ، ليس هناك شهود ، ولم يسمعني أحد غيرك . انني أقول ما أريده في الخفاء . أنا أطلب أربعة آلاف بصورة مشروعة ، وليكن ثلاثة فقط ، ولا أعرف أي شيء » .
أرأيت هذا الدنيء الحقير ، الذي برز ؟ !

— اذن ، أربعة أو ثلاثة آلاف ؟ وكل شيء سيكون على ما يرام ؟

— يطلب الآن ثلاثة بعد حديثي معه ، هذا النذل ، الخالي من الضمير .

— أليس كثيراً يا تيرنتي ، ما رأيك ؟

— كيف يجرأ هذا السكير على النطق بذلك ! — قال مولوتشكوف وهو يبتسم إبتسامة لاذعة ، سامة ، متأثراً ، وناظراً بعصبية من وراء كتفه المرفوع إلى كريموف . — حتى أنه اتخذني وسيطاً دون خوف أو وجل ! إنه إنسان فارغ ، عديم النفع ، لكنه خطر . وماذا تطلب منه — كما تطلب من الأهبل ! وهو ، على غبائه وحماقته ، قادر على الحاق ضرر كبير . وقد صدق المثل الشعبي : لا تمس الغائط ، فلا رائحة ذكية ترجى منه . آه ، فياتشيسلاف أندريفيتش ، إنها قضية قبيحة ، سخيفة ، ولا حاجة لنشر هذه الرائحة . لو أعطيته هذه النقود ، وليختنق بها ، بشرط ألا ينشر الروائح الكريهة ! فلتذهب النقود إلى الجحيم ، إن النقود تأتي مع الزمن ، أما الاطمئنان فهو أغلى ، قسماً بالله . ستصرف من أعصابك وآلامك مع هذا الغبي الأخرق ما يعادل عشرة آلاف !

— أجل ، على أعصابك ستصرف عشرة آلاف — كرر كريموف مقلداً لهجة مولوتشكوف ، وكأن ماقاله لا علاقة له به ، وفي الوقت نفسه ، كان يخنقه التقزز الغاضب ، وغدا كل شيء ، على الفور مقرفاً كريهاً بصورة لا تحتمل : صوت مولوتشكوف المفكر هذا بصورة مقنعة ، وقذاه المستقيم والممتعض ، وابتسامته المحتقرة للأخرق غولين ، ومن جديد ، قال له شخص ما ، في داخله ، حنكته الخبرة الفاجعة ، والشك القابض ، شخص محكوم عليه في روحه بالوحدة إلى الأبد ، ويفهم بطلان كل ما كان يرغب به ويريده ، ويتطلع إليه ويثير فضوله باستمرار : « ومن أجل ماذا ؟ وأين مغزى هذا الكذب الرخيص ؟ في الحصول على ثلاثة آلاف — وماذا بعد ؟ وهل ستحل في حياته الغبطة والسعادة ؟ سيشتري الخلود ؟ » . واعترض شخص آخر في روحه ، بعدم تسامح ، وبخبث ، غير راغب بوزن أي شيء في ميزان الحكمة الأليمة ، وقال : « على أي نحو طمست أنت في القذارة ؟ وجه اتهامك ولومك إلى ثقتك الساذجة ، بأن كل شيء سينتهي !» .

— تيرينتي سيميونوفيتش . . .

— نعم يا عيوني ؟ أصغي إليك ، فياتشيسلاف أندرييفيتش .

— شكراً لك على هذا الرد اللطيف « يا عيوني » مثل الجدة . لقد كان ردك رائعاً !

— من حبي لك . . .

— شكراً ، شكراً . قل من فضلك ، تيرنتي سيميونوفيتش — قال كريموف هامساً ، وقد مال بجسمه على أذن مولوتشكوف ، ومسه

من كتفه مشجعاً — وكيف قررتما اقتسام هذا المبلغ ؟ ألفان وخمسمائة لك وخمسمائة لغولين ؟ أم بشكل آخر — ألف لغولين وألفان لك ؟ أتعرف ، هذا مهم جداً بالنسبة لي .

أدار مولوتشكوف نحوه رأسه الطويل ببطء ، وتقوس حاجباه القصيران بمرح مثل علامة استفهام ، وانفتحت شفتاه المتحركتان وانغلقتا مصورتين ضحكة كوميدية .

— أتمزح ؟ — قال بلطف وعتاب ، ولكن دون أي دفاع عن كرامته المهدورة ، ودون حرج من الصراحة الغريبة الوقحة — آه ، فياتشيسلاف أندرييفيتش .

— إنني أتحدث بجدية كاملة ، — تابع كريموف ، رابتاً على كتف مولوتشكوف المكتنز بعطف . — إنها فكرة رائعة ، وهي بالطبع ، لم تخطر في ذهنك على الفور ، دفعة واحدة ، يا تيرنتي سيميونوفيتش . ولم لا ؟ ان كريموف ، كما يبدو ، لم يعد كما كان . لا تترك الغنيمة ، إقطعها بأسنانك قطعاً صغيرة وكبيرة ، اغتنم الفرصة المواتية ، فلعل هذا المثقف سيجبن ، ويسعفنا الحظ ، نحن الفقراء في هذا الهرج والمرج . هكذا ، أليس كذلك ، يا تيرنتي ، يا صديقي العزيز ؟

— دعني ! أنت المذنب في كل شيء ! — صرخ مولوتشكوف بصوت نشاز عال ، هازاً كتفيه ، وانحنى قليلاً جانباً ، راداً لسبب ما بيد واحدة ، السترة على صدره ، وفي الدقيقة التالية ظهر في نظرته الحولاء شيء ما نزيه ، حتمي ، محقق .

— ماذا ستقول ، اذن ، أيها الكشاف ؟ — سأله كريموف . — أية جملة تريد أن تنطق ؟

– لقد كنت أقوى مني – صاح مولوتشكوف بالصوت القوي ذاته ، ومن جديد بسط فمه بصورة متكلفة وكشف عن ابتسامة كوميدية صامتة – لقد كنت ، يا فياتشيسلاف أندريفيتش ! أما الآن ، فأنا أيضاً ، لست ضعيفاً . كنت خادمك وعبدك ، وكان هذا يروق لك ، أما الآن ، فأنا ، أكاد أن أكون حراً ، مستقلاً عنك ! يمكن لأي مخرج أن يأخذني . هكذا يحدث في الحياة ! كما في الأغنية : تارة ترفعه عالياً ، وتارة أخرى ترميه إلى القاع بلا أثر . لقد انتهت سعادتك وولت . لقد شوهت لي يدي هذه في الجبهة . وعطلت عصبها ، أنظر ، كيف يتحرك إصبعي بصورة سيئة ! – أبعد مولوتشكوف يده اليسرى السريعة ، كالقرد ، عن المقود ، وهز أصابعه مهدداً ، وحرك خنصره المعوج البارز ، دون أن يضحك بصمت هذه المرة ، مكشراً بجدة عن ابتسامة شخص مستعد للهجوم على مكمن حيوان متوحش – وأنت بحقي ، فياتشيسلاف أندريفيتش ، مسيء ومذنب جداً ! أنا أيضاً يمكنني أن أرفع عليك دعوى إلى المحكمة – كيف أطلقت النار وجرحتني عامداً متعمداً !

كان مولوتشكوف ، وكأنه في عجلة من أمره ، يمدح نفسه ، ويتباهى بإصرار ، وعبر ابتسامته الحادة ، ومضت عيناه الحاقدتان بصورة غير مألوفة ، بنار صفراء . وبعد أن تمسك كريموف بقدر كاف من الهدوء الساخر وتمالك نفسه ، قال :

– وأنت ، بروتوس * ، إذن ؟

* بروتوس ، مرقص يوليوس ، (٨٥ – ٤٢ ق . م) سياسي روماني كانت له الباع الطولى في المؤامرة على يوليوس قيصر ولي نعمته . – المترجم –

— ومن اين بروتوس هذا ؟ ومن أنا أيضاً ؟ . . . أنت لا . . .

— حمار ! — قال كريموف بارتياح واحتقار ، وتابع قوله ، مرتباً الكلمات بصورة مستهزئة ، كما في السابق : — يبدو أن هذه كانت مشيئة القدر ، أن أشفق عليك ، في العام الرابع والأربعين . . . أليس كذلك ؟

صرخ مولوتشكوف بصوت غير مألوف ، مفعماً بحدة الامتعاض :

— آه ، أنا أيضاً ثمة حاجة إلي على هذه الأرض ! وماذا حققت ، ماذا اكتسبت ؟ أما الظلم ، فقد كان وسوف يبقى ! لديك شقة كبيرة ، وبيت ريفي ، ومال وفير ، كل شيء متوفر لديك ! وماذا لدي ؟ شقة صغيرة جداً ، سيارة — مهزلة « موسكوفيتش » ، زوجتي مريضة ، أما بالنسبة للمال ، فدائماً على الحافة ، يا فياتشيسلاف أندرييفيتش ! لقد استوعبت جيداً حديثك مع الأمريكي . إنك تضع نفسك في مرتبة أعلى من الجميع ! أنت سيد نبيل بالمقارنة معي ، مع حياتي البائسة ! أنت تحتقرني ، تقرف مني ، تصبر علي ، أنا أشعر بذلك ، بجلدي وجسدي . في الحرب كنت تحتقرني ، وكذلك الآن تحتقرني !

أسرع مولوتشكوف في اكمال حديثه هذا بصورة دامغة ، منفعلة ، وكانت ترتسم على شفتيه إبتسامة انتقام ممطوطة ، وشعر كريموف أن الوتر الحاد الطنان الذي يربط بينهما قد انشد وتوتر إلى حده الأقصى ، ولإحساسه الحارق بالكراهية الجامحة المتكشفة التي يكنها نحوه كشافه السابق ، الوحيد الذي بقي حياً من فصيلته ، قال بصوت هامس :

— هذا صحيح . لقد كنت دائماً عبداً ، بطبيعتك . ولن تثير

في نفسي أية عاطفة أخرى سوى الإحتقار والإزدراء . أوقف السيارة ، يا بروتس العصري ، — أمره بصوت خافت ومسيطر ، كما في الأيام المنصرمة عندما كان ملازماً ، وضغط على كتف مولوتشكوف المكتنز الحار . الذي توتر بسرعة ، وعندما رأى وجهه الذي ارتسم عليه شحوب الموت من التوقع والخوف ، أمره ثانية : — قف !

أخذت سيارة الـ « موسكفيتش » تزعق بفراملها ، وعرجت على حافة الطريق ، وتوقفت عند متراس من الطريق الفارغ في هذا المكان ، فوق الحقول المصفرة ، وعندما فتح كريموف باب السيارة بحزم ، وخرج منها بهدوء ، انصب عليه قيظ الطريق الملتهب بأشعة الشمس مع هواء الحقول الجاف . وهنا تأخر قليلاً ، والتفت إلى مولوتشكوف ، ناظراً بفضول لم يكتمل إلى وجهه الذي أصبح بلون الحوار ، والذي فقد بشاشته المتملقة المعتادة ، وتعبير الطاقة العملية ، المستعدة دائماً للعمل ، الضروري للغاية من أجل تنشيط مجموعة التصوير ، وبالدرجة الأولى بالنسبة له ، للمخرج كريموف .

— هكذا ، اذن ، يا تيرنتي ، شكراً على الصراحة ، فهي أيضاً غالية جداً ، أغلى بكثير من الآلاف الثلاثة — قال كريموف : مذهولاً من أعماقه من قدر الكراهية الكبير الذي نفثه مولوتشكوف ، ومن درجة رباطة جأشه وبرودة أعصابه . — لكن ، وكما تدركون جيداً ، تيرنتي سيميونوفيتش — تابع كريموف ، منتقلاً إلى صيغة الجمع باحترام ، — في مثل هذه الظروف الناشئة ، لا مجال للعمل معاً نحن الاثنان في مجموعة تصوير واحدة . وغداً سأتخذ قراراً ، إذا لم تتخذه قبلي . بهذه المناسبة ، قل السائق ستيبان غولين ، أنني باسم العدالة .

مستعد لأن أخسر ثلاثة آلاف . ولكن ، بالطبع ، بشرط ألا أحرم من سعادة النظر إلى وجهه . . . كما أرى وجهك الآن ، كي أرى عن قرب ، من هو المحسن إلي منكما . هذا كل شيء ، كما أعتقد ، لا تقلقوا ، يا حضرة المدير ، سأصطاد أية سيارة عابرة . أتمنى لكم سفراً سعيداً . تيرنتي سيميونوفيتش ! لقد حالفك الحظ من جديد ، كما حدث في تلك الأثناء في الحفرة . . . إنك تعود وحيداً . .

وأغلق باب السيارة بتلك الدرجة ذاتها من رباطة الجأش ، عندما كان ملازماً ، والتي كانت ضرورية في تلك الأثناء ، كما كانت ضرورية الآن ، بصورة خاصة .

« وهل يمكن أن يحدث هذا – في عام أربع وأربعين ، في أوكرايينا ، أراد أن يحتال على القدر . . . وهاهو مرة ثانية الآن ؟ تبدلت هيأته الخارجية ، البزة ؟ – فكر كريموف ، ماشياً على الطريق ، وسيطر عليه الأسى بصورة خانقة . – لا ، شيء آخر ، انضاف إليه شيء آخر ، شيء آخر . . . انه كان يثبت إخلاصه ويدافع عن نفسه بوداعة مزيفة في الاختلاط مع الجميع ، أما رعايتي الطيبة له فقد ساعدته على الوصول إلى أشياء كثيرة . فما الذي دفعه إلى التفكير بالأربعة آلاف المشؤومة ؟ ليس غواين ، واضح أنه ليس غواين . انها فكرة مولوتشكوف فكيف ظهرت ؟ هل بسبب مرض زوجته سونتشكا ؟ أم من أجل شراء بيت ريفي ؟ أم أنه قرر ، أن اللحظة قد حانت لنهش قطعة أكبر بلا عقاب ؟ أي حساب لئيم هذا ؟ أية فراسة شيطانية هذه ؟ . . . » .

– فياتشيسلاف أندرييفيتش ! انتظر يا عزيزي ! إلى أين تمضي ؟ – سمع خلف ظهر كريموف صوت يزعق محذراً ، وكانت خطوات

تطرق الاسفلت في الخلف ، وركض مولوتشكوف اللاهث ، المبلل ، إلى الأمام ، راقصاً بالتماس ، راجياً بذهول وارتباك ، بعينين مرفرفتين ، مستعداً للبكاء ، وقد حبس دموعه . — فياتشيسلاف أندريفيتش ، عزيزي ، لقد أسأت إليك ! — قال مولوتشكوف لاهثاً — اعذرني ، اعذر حيواناً جاهلاً ، ماهذا الإفتراء السخيف الذي افتريته عليك ، خرج من لساني دون قصد ، أنا نفسي لا أعرف ، انني غبي ، انني بهيم أخرق ! يالي من ديبلوماسي ، أخذت أمارس الثرثرة الفارغة ، في حين أنني مدين لك حتى الممات ، وسأقول لأطفالي أنك إنسان طيب ، انك ، بروحك ، إنسان طيب . . . أما أنا ، فأخذت أدافع عن السكير غولين ! . . . .

« هاهوذا . مولوتشكوف الآخر ، في البزة الواقية » .

— إن الطيبة في عصرنا نقيصة لا تغتفر . صحيح ، يا تيرنتي سيميونوفيتش ؟ — قال كريموف وابتسم ابتسامة ساخرة . — قل لماذا احتجت إلى ثلاثة آلاف ونصف ؟ انني أعرف جيداً ، أن غولين لن يحصل من هذا المبلغ إلا على خمسمائة . لماذا لم تطلب مني ، ببساطة ، ديناً ، قرضاً ؟ .

— فياتشيسلاف أندرييفيتش ، النقود ليست من أجلي ، ليست من أجلي — صاح مولوتشكوف بصوت معترض وفجأة اندفع بحمية خرقاء . بشفتين ممطوطتين ، وبوجهه كله نحو كتف كريموف ، مما كان يعني به قبلة شكر جارفة . — وهل بامكاني ذلك ! النقود لغولين ، لغولين ! لقد أردت أن أحميك من شره ، ثم اختلط كل شيء في

رأسي ، وبدأت أكلمك بكلمات قائمة ! كم أفضل لو تضربني ، لشعرت بشيء من الراحة ! لماذا قلت لك هذه القبائح ، لا أدري . لا أستطيع أن أفسر ذلك لنفسي ، أنا الغبي . فأنا أحبك ، يا فياتشيسلاف أندرييفيتش ، وتكلمت عليك بتلك النمائم والعبارات ، وكأنني عدو لك ! لقد أنقذت حياتي . . .

ـ كذلك تذللاً وتضرعاً ! ـ أوقفه كريموف ، محاولاً قمع غضبه ـ بالله ، إنه شيء مقرف . لا حاجة لك الآن للذهاب في مهمة استطلاعية ، ولن تذهب معي إلى الضفة الأخرى . حتى عندما كنت شاباً ، كنت دائماً تعرف ما تريد . وهل تظن ، أنني صدقتك ، في تلك الأثناء ، في الحفرة ، أن يديك تجمدتا وفقدت عقلك ؟ كل شيء كان واضحاً . كل ما في الأمر أنني أشفقت عليك ـ وذهبت إلى المؤخرة يا سعيد الحظ ، وبقيت حياً . في حين أنه كان من الواجب قتلك بالرصاص . وهل تعتقد أن هذه القذارة المتعلقة بالنقود ليست مفهومة بالنسبة لي ؟ شيئاً واحداً لم أفهمه ـ لماذا كنت دائماً أمد لك يد العون ؟ لماذا أساعدك ؟ على أية حال ، فالطبيعة خلقت ، لسبب ما ، هؤلاء الظربان أيضاً . هل أصبح موقفي منك واضحاً الآن ، يا تيرنتي سيميونوفيتش ؟ اذهب إلى الجحيم ، ولا أريد أن أراك بعد الآن !

ـ يا إلهي ، يا مسيح . . .

أصغى مولوتشكوف إلى الكلمات الساحقة ، وذقنه ترتجف ، ثم ألصق قبضتيه بعينيه وأنّ ، وبكى بكاءً خفيفاً ، وهو يزعق كالكلب ، ولوى كريموف وجهه قائلاً :

ـ كفى توجعاً ، كفى أخيراً .

ــ يا إلهي ، يا مسيح ، النقود ليست من أجلي ، ليست من أجلي أنا خادمك ، كنت ولا أزال ، فياتشيسلاف أندرييفيتش ! . . . .

ــ قلت لك ، اذهب إلى الشيطان ، اذهب إلى الجحيم !

ــ علام ؟ علام تكرهني ؟ إنك تكرهني أليس كذلك ؟

ــ بل وأسوأ من ذلك .

ــ هكذا ، اذن !

ودون أن يرفع قبضتيه عن جبينه ، رقص ، وخطا خطوات سريعة حول كريموف ، وفجأة ، ثاب إلى رشده ، واتجه نحو السيارة هازاً رأسه ، وكأنه مقتول من ظلم إنسان كان يؤلّهه ويقدره من أعماق روحه ، لكنه رفضه ، ونبذه ولم يفهمه . وعندما أنزل قبضتيه والتفت كان وجهه المزهر معوجاً ، مفعماً بالحقد .

ــ أما النقود فستعطيها لغولين ، وإلا فسيوقعك في مأزق ، انه قادر على ذلك ، سيوقعك في مصيبة ! . . .

« فعلاً ، لماذا يكنّ لي هذه الكراهية ؟ ربما تكون هذه الكراهية كلها من الماضي ، ومن تلك الحفرة ؟ توقع الانتقام ؟ » .

* * *

وقف كريموف على قارعة الطريق العام ، كاسراً عيدان الثقاب ومشعلاً سيجارة ، ونظر نظرة سريعة إلى السيارة ، التي استدارت على الطريق ، وتمكن من رؤية كتفي مولوتشكوف المستقيمين ، وفمه

المضغوط بثبات ، بل وبصرامة — هذه أول مرة يرى فيها تيرنتي سيميونوفيتش على هذا الشكل — وعلى الفور ، خطر في ذهنه ، أنه ، مولوتشكوف ، عموماً ، سيد الموقف ، لأنه لن يتورع عن أي شيء ، مستغلاً الفرص المناسبة . لقد لاح وجهه الصارم العدائي سريعاً واختفى ، وكأنه لم يدر بينهما أي حديث ، وكأن مولوتشكوف لم يعتذر بصورة ذليلة ، مهينة ، ولم يحاول البكاء بعويل منقبض كالكلاب . « ماذا يحدث لي ومن حولي — جنون ؟ — فكر كريموف بأسى . — من المستحيل أن تكون شفقتي قد أهلكت ايرينا ، وأن يكون أبوها على حق : لم يكن علي أن أزرع في نفسها الأمل ، — ارتعشت في ذهنه هذه الفكرة ، وشعر بألم موجع في صدغيه . — إذا كان الأمر كذلك ، فالشفقة ، اذن ، تنقلب تعاسة وشقاء ؟ وهل هناك من منطق ثابت ؟ الجوع فقط ، والولادة والموت — هذه وحدها فقط الحقائق الثابتة ، أما ماعدا ذلك فهو مزدوج ، ذو وجهين ، خاضع للظروف : الحقيقة ، الشر ، الخير . أجل ، أجل ، نحن جميعاً أسرى الظروف . وليس هناك من أحد حر ، مستقل . إن هذا رهيب ، بلا مخرج ، وحقير . . . لكن ، يجب أن يكون في هذا أيضاً ، مغزى سديداً ما ! وهل للفكر السديد علاقة ما بالجبان الماكر بالابانوف ، وبمولوتشكوف ، بحقده ولعبة العبد التي يمارسها ، وبوالد ايرينا الذي يقتله الألم والوحدة ؟ وفي نهاية الأمر ، هل هناك من هدف لدى الشهير غريتشمار ، المصعوق بعدم قبوله المدنية المريضة ؟ وأي هدف لي من هذا الإيمان المضجر ، الذي لا يبرأ ، بالحقيقة ؟ . . . وما هي الحقيقة — هل أعرف على وجه الدقة ؟ وكيف الخلاص ؟ — بسخريتي المتكلفة ، وبلعبتي بالحياة . وفي سبيل أي شيء ؟ أجل ، هل هو عجز المثقف وضعفه أمام الظروف — هذه

هي سخريتي . عجز أمام الحساسة والدناءة والكذب ، ورغبة بالتخفيف وليس زيادة التوتر ! . . . . كلا ، من المستبعد أن أخاف شيئاً ، وأنا في عمري هذا . لكن سخريتي هي أيضاً حل وسط ، هي أيضاً استسلام للظروف وتوافق معها ، وأخيراً ، خيانة تجاه نفسي ذاتها ! . . . إنه مضحك ! لقد تعب المتحمسون ومحبو الحقيقة . لقد أُنهك العادلون وسئموا . والناس يتملصون منهم وينبذونهم ، ولا يبتسمون لهم إلا شفقة . ومع ذلك ، ففي لحظات اليأس ، أتذكر رجلاً لا يعرف الوسطية والحلول الوسط في التاريخ ، إنه الشهيد والمعاني ، الذي لا مثيل له . من أعطاه الإيمان والتعلق به — الرب ، الله ؟ فمن الذي يمنحني الإيمان ، وأنا رجل غير مؤمن ، — الفن ؟ القِمّس حبقوق ؟ وبأية قوانين يمكن أن يؤثر ظهور الحقارة والدناءة الذليلة على النفس بمثل قوة التراجيديا العظيمة ؟ حبقوق ، الكاهن الأكبر حبقوق ، المتأجج المشاعر والعواطف ، القديس ؛ والعالم المعاصر الفقير روحياً ، الراغب بالملذات بصورة تشنجية ، وكأنه عشية يوم القيامة . ومن جديد جون غريتشمار ، « مدينة المدائن » باريس وشعور الألم الخانق ، كالذي انتابني هناك في الليلة قبل الأخيرة . . . » .

ساحة بيغال ، الحي المرح ، السابح في الملذات ، ليلاً ونهاراً ، من « مدينة المدائن » ، الحي الذي اقتاده إليه غريتشمار الذي لا يعرف الكلل والنصب . كانت ساحة بيغال تلمع وتغلي ، وتتلون ، بدا له بالألوان ذاتها والأضواء ذاتها ، وبالأسماء ذاتها للبارات والكباريهات الليلية ، وبأسواق الجنس وأفلام الجنس ، كالتي رآها كريوف في هامبورغ ، وفي بروكسل وسان فرانسيسكو ، النُدل أنفسهم في بزاتهم الحمراء الفاحشة ، في قبعاتهم السوداء العالية الأريستوقراطية ، وتلك

السحنات الشاحبة المهلهلة للقوادين ، الذين يعرضون ، في جميع الزوايا باغراء واصرار ، الدخول إلى المفاجأة المثيرة ، ومعاناة الشعور الذي لم يشعر به المرء من قبل ، الازدحام البشري ذاته ، الحركة الضيقة لحشود الناس ذات الوجوه والألوان المختلفة ، الهواء الفاسد المشبع بروائح العطور المنوعة ، والمختلط بالرائحة الساخنة لحبات الكستناء المشوية قرب دور السينما ، والعذوبة الآسرة للقهوة في محلات «السندويش» ذات الأبواب المفتوحة ، وفي كل مكان أمام الأرصفة ، ترى السيارات اللامعة ، ذات الظهور المدهونة ، المنطلقة إلى مكان ما في العدم الضوئي ، والضجيج الذي لا ينقطع ، ذو النغمة الواحدة ، بالاختلاط مع صرير آلات اللعب الأتوماتيكية ، والأصوات المحنكة ذاتها أمام البوابات والمداخل ، ولمس سماعات الهاتف : « ألو ! » — والنظرات المتواضعة إلى الأعين مع الانحناءة الداعية ، المنادية ، والعفة المتصنعة لبائعات الهوى ، الصغيرات السن أحياناً ، الشبيهات بطالبات جامعة السوربون ، وقد ارتدين النظارات البريئة البسيطة ، وإلى جانبهن الحدقات المتوسعة للشباب — متعاطي المخدرات ، المصوبة على الوجوه الخالية من الدم ، وجماعات من الزنوج المرنين الممشوقين ، مثل الإيلة ، في قمصان بيضاء داخلية ، المتربصين بضجة أمام المطاعم ، ينتظرون عروض السائحات الأمريكيات الغنيات ، اللواتي يُثِرن خارج أمريكا خيالاً متزايداً ، والرجال المحترمون الذين ينقلون نظراتهم اللامبالية على واجهات الأندية الليلية ، وعلى صور الأجساد العارية بأوضاعها المختلفة .

المنعطفات والأزقة ذاتها ، حيث الأنوار الخافتة ، والظلام الخفيف ، التي تفوح منها موجة دافئة من « البودرة » ، ورطوبة الحمامات أحياناً مع تدفق عطري لأشياء مالحة ، حيث بالقرب من جدران منازل شبه مظلمة ، وأمام أبواب شبه مفتوحة كانت تتنزه المومسات المتقدمات في السن ، متوترات السيقان في جوارب من لون أجسادهن ، وفي

سراويل ذات مثلثات ملونة في أسفل بطونهن ، فكن يبدين وكأنهن عاريات تماماً ، وكن يتحادثن فيما بينهن بحرية ، بأصوات مدمنة على التدخين . وكن في الوقت نفسه ، بلامبالاة متكلفة ، يصطدن بنظرات جانبية من أعينهن المرعبة المنقشة كأعين المهرجين ، أقل اهتمام يبديه المارة من الرجال . صاحت إحداهن ، وكانت نحيفة مسطحة الصدر ، وهي تهز شعرها الطويل ، وقد أسدلت أحرفاً مزخرفة باسمها على كتفيها العريضين ، صاحت منادية غريتشمار بضحكة فظة :

— ايه ، أيها البدين ، أنا أعرف أنك ألماني غني ، اصعد إلي ، سأعمل ما تريد ! لدي صديقة . . .

— وكم ستكلف ، يا عزيزتي ؟ — رد غريتشمار بحماسة مفتعلة وغمز كريموف بجرأة . — أين صديقتك يا عزيزتي ؟

— اصعد إلى العلية وستراها . إنها شقراء مثل سافو . وأصلها من ليسبوس . هل تفهم شيئاً من هذا ؟

— وكم فرنكاً ستأخذين يا عزيزتي ؟

— ستدفع إيجار شقتنا .

— وكم سأدفع ؟

— لن تندم على نقودك أيها البدين بعد أن ترى .

كانا يتحدثان بالفرنسية ، ولم يفهم كريموف حديثهما كاملاً . كانت ترهقه هذه الحركة المسائية الجشعة للناس ، الباحثين عن الملذات السريعة في الساحة ، وفي هذه الأزقة العاتمة ، حيث كان يباع على المكشوف الجسد البشري الحي — أفخاذ وأوراك ، سيقان وشفاه ، وكذلك تلك الحركات الآلية من جانب المشتري أثناء اختياره ، وشعر بذلك الإحساس الضاغط ، الذي كان قد عانى منه قبل عامين في مخزن بمدينة هامبورغ ، يدعى بسذاجة مخزناً صحياً ، وذلك عندما شاهد

لعبة مطاطية ضخمة كريهة ، مدعوة باسم ليندا ، تتمتع بدفء « جسد نسائي طبيعي » (وهذا ما عرفه من الإعلان التجاري) ، يمكن شراؤها بثلاثين ماركاً ، كعشيقة دائمة ، لا تختلف إطلاقاً عن أي امرأة . كما أذهله في هذا المخزن زبون غريب ، رجل نحيف ، دقيق الرجلين ، في حوالي الأربعين من عمره ، كان يدور حول باب المخزن . وكان يربط لسبب ما ، منديلاً على وجهه إلى مستوى العينين ، وكان يخطو خطوة نحو منضدة البيع تارة ،ويتراجع إلى الوراء تارة أخرى ،وهوينظر نظرة شبه مجنونة لصريع خجل مرضي ، وهوس وخوف مجهولين . . .

أما هنا ، في ساحة بيغال الباريسية ، بالقرب من الأزقة المظلمة ، كان كل شيء يغلي بالألعاب النارية الساهرة لمصابيح النيون والكهرباء . كانت تتدفق في كل مكان حشود متسكعة فضولية من الراغبين بمعرفة أو رؤية مواد الملذات ، وكانت المومسات الشابات يقفن ، وقد ارتدين سترات ، مثل حلقة متربصة أمام نوافذ البار الساطعة ، وكان رجل مقعد ممتلىء الجسم عند رقبته وكتفيه ، يرتدي قبعة ذات تفصيلة عسكرية ، يتنقل على عربته من مومس إلى أخرى ، وكان يقنعهن طويلاً بشيء ما ، رافعاً إليهن عينيه بتضرع وتوسل ، غير أنهن كن يشرن إليه سلباً بسباباتهن ، ويدرن له ظهورهن ، وبدا ، وكأنهم لم يتفقوا على السعر ، فابتعد مضطرباً ساخطاً بوجه متعرق ، ثم انطلق متعباً أخيراً نحو الحاجز المعدني الذي يفصل الرصيف عن الشارع ، ووضع بحركة واحدة قبضتيه المرتجفتين على الحاجز ، وخيل لكريموف ، غالباً ، أن الدموع الحاقدة قد انحدرت بسرعة على وجنتي المقعد الفتيتين المستديرتين . نظر المقعد ، عبر الطريق ، إلى الواجهات المضاءة بالشموع القرمزية لملهى أمريكي جديد ، وهناك ، على الطرف الآخر من الشارع

دوت صفارة بصورة حادة ، وازداد الحشد المتراكم على الواجهات ومدخل الكاباريه . وتوقفت سيارة البوليس التي تطلق وميضاً دواراً من الإشارات الزرقاء بعنف أمام الرصيف . واقتاد شرطيان شخصاً مغطى بالدماء عبر الحشد المتجمع أمام المدخل ، ودفعاه إلى داخل السيارة التي فتح بابها على مصراعيه . ودوت الصفارة من جديد ، وأثناء تحركها من مكانها بصورة جامحة من بين جموع السيارات الواقفة على حافة الطريق ، اصطدمت سيارة البوليس من الجانب بعمود حديدي كتبت عليه يافطة باسم الشارع ،فأنّ العمود وتمايل،وضحك الحشد كله بشماتة. وانطلقت السيارة التي كانت تشق طريقها بدوي الصفارة الرهيب ، تحت الحلزونات الوامضة للإعلانات ، واختفت في فوضى الأنوار والأضواء الغازية ، وسط سيل السيارات .

في تلك الأمسية ، لم تفارق كريموف حالة من السخافة البلهاء الجارية فيما حوله ، وكان قد تناول من المسكرات أكثر من عادته ، وكان يصغي بصمت إلى غريتشمار ، وجلس في البار حتى الساعة الثالثة ليلاً ، جرياً وراء أمل باطل بالتخلص من تلك الحالة المرضية المضجرة التي استمرت خارج جدران البار،وفي شوارع باريس الليلية.

« بم أفكر ؟ بالكاهن الأكبر حبقوق ، بساحة بيغال ، ببائعات الهوى في ستر هن الطلابية ، بالمقعد البا ئي وهو على عربته . . . وبالأربعة آلاف ، وبفم مولوتشكوف المضغوط بصورة لا تعرف الشفقة ؟ أي ارتباط ، أي ترابط ؟ أين ؟ أشكال ومتغيرات . هكذا أو بصورة تقريبية على هذا النحو ، حدث في روما القديمة . وربما كان يحدث دائماً ، في التاريخ كله . لا ، فحتى بعد الحرب ، لم يكن هنالك مثل هذا الإحساس المتطرف بالجنون . فما العمل ؟ إلى أين يتحرك كل شيء ؟ »

الفصل الخامس عشر

أوقف سيارة خاصة ، تعمل بالأجرة بصورة غير قانونية ، ولم يستطع ، طول الطريق إلى بيته الريفي ، التخلص من الفكرة العالقة في ذهنه ، المتكررة بالحاح : « لماذا كان يلوح في حدقتي عينيه ذلفر مسطح ؟ »

كانت تانيا تقرأ وهي جالسة في الأرجوحة ، وكانت تهز رجلها وتتأرجح ، وعن بعد ، وخوفاً من أن يزعجها ، كان يسير على الممر أناتولي بتروفيتش ستيشوف ، وكان يُرى بوضوح تحت أشعة الشمس بين أشجار التفاح ببزته الفاتحة اللون ، وشعره الأشيب الفضي ، والأناقة الكبيرة لفرق شعره المائل . وما كاد كريموف يفتح خوخة الباب ، حتى استدار ستيشوف للقائه بخطوات عاجلة :

ــ وصلت قبل ساعة ، أنا أنتظرك ــ قال ستيشوف قلقاً على غير عادته . ــ علي أن أقول لك شيئاً . سأشغل من وقتك عشرين دقيقة . اليوم كنت عند المحقق ، الذي يحقق في القضية . . . .

ــ دقيقة ، يا توليا ، لن نستعجل الأمور .

قاطعه كريموف ، وتحلى بشكاله المازح ، الساخر المألوف ، ثم

اقترب من تانيا ، أما هي ، فقد قفزت من الأرجوحة ، وقد سطعت عيناها الرماديتان ، وقبلته على وجنته بصورة غير مسموعة .

— سلام يا بابا .

— مرحباً أيتها العنزة — الشيطانة ، ألم تشتاقي إليّ ؟

ضحكت تانيا وقالت :

— والدي العزيز ، أمرت أن أطعمك . ماما في الهواء الطلق ، كما يقال ، سوف تنتظر غروب الشمس . أما أنا فكنت بانتظارك . ولم أذهب إلى الشاطىء ، رغم أن الخطيب والخطيبة قد دعواني باصرار . أخبرك ، أن اليوم عندنا حساء «أوكروشكا» البارد اللذيذ. أين ستتناول طعام الغداء ، على الشرفة أم في الحديقة ؟

« هذه هي الوحيدة ، القريبة ، المخلصة التي لن تخونني أبداً . . . » — فكر كريموف ، وشعر بالدموع ، التي أخافته لفجاءتها ، تندفع إلى حنجرته .

— ليست لدي رغبة بالطعام ، يا تانيوشا الحبيبة ، — قال كريموف ، وقبلها من رأسها بحنان جديد إلى صوت ابنته ، إلى شعرها الأشقر المقصوص كشعر الصبي ، الذي تفوح منه الشمس . — أتعرفين ، لقد تغديت في الاستوديو . سأصبر حتى العشاء . إذا سمحت ، احضري لنا ماء « بورجومي » المعدني ، أو ماهو موجود في البراد ، إلى غرفة مكتبي . مفهوم ، أيها النقيب ؟

— سمعاً وطاعة أيها القائد ، — ردت تانيا بموافقة مشاكسة ، ممارسة اللعبة اللذيذة التي يمارسانها ، بيد أنها سألته على الفور بقلق : — ألم تكن اليوم هناك حرب باردة ؟ ألست مرهقاً كثيراً اليوم يا بابا ؟

— لا ، — أجاب بطيبة خاطر . — لست مرهقاً كثيراً . ولكن ما الأمر ، يا ابنتي ؟

— اعطني يدك ، وسأعرف كل شيء بسرعة ، من خلال خطوط راحة كفك . أتريد أن تعرف نفسك ؟ لقد كنت أحاول رؤية لوحة حياة أناتولي بتروفيتش ، لكن كل شيء مدرع مخفي في راحة كفه ، كما السلحفاة . ضباب مشوش .

— تلك هي حياتي ، تاتيانا فياتشسلافوفنا ، — قال ستيشوف ، منحنياً بأناقة واحترام .

— يدي ؟ تعرفين صورة الحياة من خلال الخطوط ؟ هذا ممتع — قال كريموف بمرح كبير . — لكن ، ربما فيما بعد ؟ حسناً ، أيتها البصارة ، تعرفي وبصّري .

أمسكت يده ، وركزت انتباهها بصرامة ، وجمعت حاجبيها المستقيمين على قصبة أنفها ، وصمتت دقيقة . ثم نظرت إلى راحة كفها الزهرية ، وإلى راحة كفه ، وقالت وهي تهز شعرها ، بصورة غامضة :

— أنت إنسان طيب ، وكذلك أنا . انتقلت إليّ الطيبة عن طريق الهرمونات . سوف تعيش ثمانية وسبعين عاماً . أما أنا فخمسة وسبعين .

— تانيوشا ، لا تخيفيني .

— أنت اسمع من فضلك ، لديك خطوط طريفة في راحة كفك . زوجتك تحبك ، أما أنت فتحبها بدرجة أقل ، هكذا اذن . وأطفالك مختلفون تماما .

— ترهات ، ماهذا ؟

— أنت اسمع واصمت . النصف النسائي في الأسرة يحبك . لكن الأبناء ، كما قلت مختلفون تماما . أحدهما يذهب باتجاه الغابة ، والآخر باتجاه الفطر . أنا باتجاه الفطر . وعموما ، ان مصيرك سعيد . هذا كل شيء . بيد أنه يجب وضع جميع الأغبياء على ظهر سفينة فضائية ، وارسالهم إلى كوكب غير مأهول .

— هذا اقتراح معقول ، يا تانيوشا ، يجب أخذه بعين الاعتبار . هذا طريف جداً . وأين تعلمت التبصير وقراءة الكف ؟ — سأل كريموف بلهجة رعناء ، متابعاً لعبته ، وشاعراً في الوقت نفسه ، بشيء جدي ، مقصود في تصرفات ابنته .

— اليوم صباحا على الشاطىء ، — أجابت تانيا بعدم اكتراث — علمتني التبصير امرأة ذكية . وهي بالمناسبة ، مشاهدة ومعجبة بأفلامك ، تكن لك الإحترام والتقدير ، وقد رجتني أن أبلغك الآتي : « قولي لفياتشيسلاف أندرييفيتش ألا يعر أي اهتمام لجميع المرائين ، أصحاب الآذان الطويلة ، المتواجدين الآن بكثرة » . أنقل لك قولها هذا . وهذا ، رغم كل شيء ، صوت الجمهور ، فخذه في اعتبارك ، وأنا مع الجماهير يا بابا . آه ، كم أكره جميع المرائين المفترين الأغبياء .

سيطر فجأة على كريموف ألم لذيذ ، نابع من عاطفة الأبوة ، ومن الحدس القابض بأن ابنته ، رغم أدائها لدورها المرح السابق ، كانت ترفض ، بارتباك وبطريقة طفولية ، الأمور السيئة ، وتريد مساعدته . ودون أن ينطق بكلمة واحدة ، نظر كريموف إلى وجهها المرفوع ، الحر ، المستعد للدفاع عن أبيها ، وداعب شعرها الطري في نقرتها بخفة ولطافة وشكر ، والتشنج في حنجرته .

— شكراً يا حبيبتي .

قالت بشفتين مرتجفتين :

— ألا تصدقني ؟ أنا ساحرة وبصارة . سوف ترى .

— شكراً يا تانيوشا . أنا أصدقك ، أصدق تبصيرك وقراءتك للكف . أتجلبين لنا شيئاً ما ، بارداً ؟ احمليه إلي في الأعلى . — وأشار لستيشوف الذي كان ينتظر بصبر ، وخلع سترته على عجل ، متخلصا من ضيقها ، ورماها من يده . — أنت إنسان مثقف يا توليا ، فقل لي متى ستنحسر موجة الحر ؟

— كان بودي أن أزف لك خبراً ساراً ، يا فياتشيسلاف ، لكنني لست راصداً جوياً ، وأنا عاجز في هذه المسألة .

— مؤسف جداً ، أننا نكون أحياناً عاجزين ، ضعفاء .

كان كريموف محطماً ، منهار القوى من هذا اليوم كله ، وما ان صعد إلى العلية حتى سيطرت عليه رغبة جامحة ، بأن يسقط بجسمه الآن على الأريكة ، مستمتعاً بنسمات الهواء العليلة (كانت النوافذ والأبواب ، المطلة على الشرفة مفتوحة على مصاريعها) أو الاستلقاء

على الأرض التي تبدو وكأنها مغطاة بأوراق الشجر بالقرب من السرير ، والاستسلام للصمت والتدخين ، وتأمل التذبذب المائي لأشعة الشمس على السقف ، وعدم التفكير بأي شيء . لقد كان هذا إحساساً بقلق ما ، مبهم ، هادىء ، خامد مكتوم ومن أجل إخماد الامتصاص المختبىء الخامد للأسى ، رمى الحاكتة على السرير (لم يكن لديه ما يكفي من القوة لتعليقها في الخزانة) . وقال : « آه ، حسناً » – رمى غطاء البار الصغير ، الواقع بين رفوف الكتب ، وسكب في قدحين قليلاً من الكونياك ، ثم نظر بطمأنينة إلى ستيشوف الذي كان واقفاً أمام باب العلية ، غارقاً في أفكاره ، وقد صالب يديه على صدره .

– لماذا أنت واقف هكذا ، مثل نابليون على جبل بوكلونايا * ؟ الوفود لن تأتي ، والمفاتيح لن تُسلّم ، ولا يعترف أحد بأنه مغلوب . وفي النصر – نصف الهزيمة .

– في أي نصر ؟

– في نصر لايخص أحداً . ليس هناك من نصر لأي طرف . طالما بقي هناك إله وشيطان ، – قال كريموف ومد قدح الكونياك إلى ستيشوف – أعتقد ، يا توليا ، أن كل نابليون مبرمج عصري ، حتى عندما ينام ، يصالب يديه على صدره كل ليلة . أنا لا أدخلك في عداد

---

* جبل صغير ، يقع غربي موسكو ، وقف عليه نابليون أثناء لروسيا عام ١٨١٢
– المترجم –

مختصي السلطة . فلست قادراً على الإحتفاظ بها . ولكن ما رأيك ، هل ينام مدير إنتاجي مولوتشكوف بيدين متصالبتين على صدره ؟

— أنا أقود سيارة ، وتعلم أنني أكره الكحول ، — رفض ستيشوف الكونياك ووضع القدح على رف البار . — وفي مثل هذا الحر ، لا أنصحك به : إنه عبء على القلب .

— إنها روح انضباطية مذهلة . أحيي فيك الإعتدال والتحفظ . لقد كان سقراط عظيماً . . . بصحتك يا توليا .

شرب كريموف قدح الكونياك وتنحنح ، متنفساً الصعداء ، وسقط على الأريكة ، متمدداً بكامل قامته ، حالماً بهدوء طال انتظاره — هكذا ، براحة واسترخاء ، بودي أن أستلقي على الأريكة ، وأغرق في السكون ، وأسبح في النسيان المريح بلا تفكير . لكن ستيشوف كان يقف منتظراً أمام الأريكة ، وقد سلط عليه ضوء النهار الصيفي القوي ، القادم من الحديقة ، وقد بدا هذا الضوء ، المجزأ بأوراق الشجر ، المنعكس على عينيه الزرقاوين الجاحظتين ، شتوياً خافتاً .

— توليا ، — قال كريموف ، — إن حُزن كانون الأول يطل من عينيك ، فما السبب يا صديقي ؟

— فياتشيسلاف ، انني مذهول من خسة الناس غير المفهومة ، إذا ما تحدثنا صراحة .

— مذهول مم ؟ من الخسة ؟

— نعم بالذات ، انني مذهول من خستهم ، من خفرهم الذليل ، من خبثهم الشرير ! ماذا حدث ؟ بالأمس فقط ، كانوا يبتسمون من

السعادة باجتماعهم معك ، ومحادثتك ، ويعبرون عن حبهم الك ، ويندفعون نحوك مقبلين ، ويبكون في أفلامك من فرط التأثر ! . . .

ـ ماذا تقصد ، ومن ؟

ـ لا تأخذك الدهشة ، فياتشيسلاف ، واسمح بالإصغاء إلي ـ تابع ستيشوف حديثه غاضباً . ـ اليوم ، أخيراً ، لم أعد أستطع احتمال إشاعات الاستوديو السخيفة إلى درجة الذهول ، وذهبت في الساعة الرابعة إلى ذلك البناء الشهير في شارع بتروفكا ، إلى محققك أوليغ غريغوريفيتش توكاريف . . . اتصلت به هاتفياً وذهبت لعنده . اعذرني ، أنا أعرف أنك كنت صباحاً هناك ، ولكن لم تتم المحادثة معك لأسباب ما . أعرف كل شيء كما ترى . وهاك جوهر المسألة . جوهر المسألة ، أن المحقق ، بصورة عامة ، هو رجل غير متحامل أبداً ، انه يتمنى لك كل الخير ، كل الخير ، وأضيف إلى هذا،أنه في موقف عسير ، كما قال بنفسه . . .

ـ اشرح لي ، ماذا يعني ذلك ؟

ـ انني غاضب ، وعموماً ، أشعر بأنني طيلة اليوم لست على مايرام ، ـ قال ستيشوف وحرك يده بعنف ، تعبيراً عن يأسه ، فلمع كالذهب ، زر كمه النظيف المنشى . ـ لقد أتيت لعنده مضطرباً ، أحمل معي سؤالاً واحداً ، متى أخيراً ، ستضع ربة العدالة تيميس المبجلة نهاية للشك في رجل محترم ، بما هو بريىء منه ؟ لقد خرجت عن طوري . أتعرف ، ماذا أجابني ؟ قال لي : « للأسف ، إنني مندهش من الموقف الغامض للاستوديو وبعض زملائه ، الذين لا يتخذون أي موقف شخصي محدد ، والمستعدين للموافقة على أي افتراض في المأساة

الرهيبة التي حصلت . و « نعم » ، و « لا » ، و « ممكن » ، و «غير ممكن » . فما هذه الحقارة وما هذه الخسة ! يالهم من سفلة أصلاء ! — صاح ستيشوف متعجباً ، وبعد أن فك زر الجاكتة العلوي ، دخل إلى المكتب . — لم يكن لديه الحق بذكر أية أسماء والتحدث بالتفاصيل ، غير أنني ، عموماً ، أحزر من هؤلاء الزملاء ، الذين لم يتخذوا موقفاً ! انهم لا يستطيعون أن يغفروا لك . . .

— ماذا يغفرون لي على وجه التحديد ؟

— بعضهم لا يغفرون لك موهبتك ، وآخرون لا يغفرون لك استقلاليتك .

— فلتذهب الإستقلالية إلى الشيطان ! — لم يوافقه كريموف — من منا مستقل على هذه الأرض ؟ من فضلك ، لا تبالغ . ليس هناك من إنسان مستقل . حتى أولئك الذين يسيّرون هذا العالم ليسوا مستقلين .

— أنا لا أبالغ ، يا فياتشيسلاف ، بل أقلل من شأن ذلك ! — اعترض ستيشوف بحماسة — أتريد مثالاً على ذلك ؟ تفضل . هذا الأبله ، بالأبانوف ، يخاف منك ، رغم أنه في سره ، ميال إلى الرذائل والسوء . كان يعرف أنك تستطيع أن ترفض طلبه وترسله إلى الشيطان ، لكنه كان في أمس الحاجة إلى إرضاء المخرج الأمريكي الشهير ، الذي يمكن معه إنتاج فيلم مشترك والقيام برحلة لطيفة إلى أمريكا . فأرسلني إليك كي أقنع صديقي المتمرد . إنهم يحتاجونك كواجهة . ومع ذلك ، فبودهم أن يتخلصوا منك بحزن وبكاء . ان من السهل على المرء أن يعيش مع الناس العاديين البسطاء . تصور ، وصل إلى المحقق تقرير

مجهول بلا توقيع ، ليست له أية علاقة بالقضية ، ومع ذلك ، فهو بيضة ملونة في يوم الفصح . يتهمونك بالموقف اللاسياسي في حديثك مع غريتشمار ، كما قال لي المحقق . وبما أن هذا اللقاء حضره اثنان فقط — مدير إنتاجك مولوتشكوف وأنا — فهذا التقرير المغفل كتبه واحد من هذين الاثنين . . .

— ليس تماماً — ابتسم كريموف ساخراً . — أثناء اللقاء كنا أربعة . لذا ، فالوشاية قد تكون صادرة عني ، بعد أن صحوت وثبت إلى رشدي ، وتبت . أو كتبها غريتشمار ، الذي اهتم بأخلاقيتي وروحي الضالة ، بعد أن تناول قليلاً من المشروب في بار المطار ، قبل إقلاعه بالطائرة .

— ألا يزال لديك من القوة ما يكفي للسخرية يا فياتشيسلاف أندرييفيتش ، — قال ستيشوف ، واصفر وجهه الناعم ، الرابط الجاش ، الذي يشبه وجه نبيل روماني ، وبدا حزيناً . — أجل ، فياتشيسلاف أندرييفيتش ، في سنوات هرمي ، هذه هي المرة الأولى التي أصل فيها إلى نتيجة مؤلمة . وهل يمكن للمرء أن يكون خارج بيته ، كما هو في داخله ؟ من المستبعد ذلك يا فياتشيسلاف ، من المستبعد . لايمكن المحافظة على البراءة والسذاجة . إرض الأذواق المختلفة ، ابتسم للناقدين العديمي الموهبة — وأنت عزيز على الجميع ، موهوب كبير ، حاذق ، لقد كدت أن تصبح إنساناً عظيماً ! أما أنا فأشمئز ، أقرف ، وأخشى الثعالب الحانقين والحمقى . . . آه ، أو ليست سفالة ! — صاح ستيشوف متعجباً ، ومقترباً من البار ، وكان من المضحك والمحزن في الآن نفسه ، رؤية هذا الرجل الطويل القامة ، ذا الشعر الأشيب ، المهيب ، العازب

الأنيق ، ذا الملامح الشابة ، وقد أمسك بيديه بشيء من الاشمئزاز والقرف ، قدح الكونياك ، وأخذ يشمه ، ويديره من طرف إلى آخر أمام أنفه (كما يشم شيئاً ما فظاً ، سمجاً ، كريه الرائحة)، وقال بأسف ساخر : — لو كان بامكاني ، لسكرت حتى فقدت وعيي ، كما فعل عامل التمديدات الصحية من ورشة إصلاح منازل الحي في يوم السبت ، وعندها كان باستطاعتي أن أتفوه ، بصورة رائعة ، بالشتائم المقذعة ، وأنظر إلى الدنيا !

— لست قادراً ، يا توليا ، لا على هذا ولا على ذاك ، — قال كريموف . — ليست وظيفتك ، وليس دورك . أما أنا فقادر على الشراب باعتدال ، والتفوه بالشتائم بافراط ، باعتباري ضابط استطلاع سابق . أما أنت فهذا لا يليق بك . وان يفهمك أحد . لقد تربيت وفق تقاليد أخرى ، وفق تقاليد النبلاء ، ذوي الدم الأزرق .

— سيفهمون ! — اعترض ستيشوف محتداً ، ودفع بالقدح إلى دعامة البار بحيث اندلق الكونياك قذفاً . — سيفهمون ! — كور ستيشوف ، وبارتباك قليل مسح راحة كفه بمنديله المطوي بعناية . — عليك أن تذهب إلى حيث يجب الذهاب ، وتمزيق خيوط العناكب الكافرة ! وإلا فستخنقك هذه الخيوط ! . . .

— إلى أين سأذهب ؟ للشكوى على أحد ؟ للتذمر من زملائي في العمل ؟ لا أعرف مع من تحادث المحقق . هل أشتكي على بالابانوف ؟ لديه أكثر مني بعشرات المرات مما يدعى بالبراهين والحجج : ممثلة شابة ماتت في ظروف غامضة ، لهذا يجري التحقيق ، أما المخرج كريموف نفسه ، فهو رجل مدلل إلى حد كبير ، أفسده المجد ، اغتر

بنفسه ، وظن أن كل شيء مباح له . علاوة على ذلك . فالشكوى دليل ضعف يا توليا .

— آه ، ماذا اقترفت أنت هناك مع بالابانوف ؟ — أخذ ستيشوف يئن وأمسك برأسه يائساً . — إن الاستوديو كله يتحدث عن تلك الفضيحة التي لم يسبق لها مثيل ! وهل صحيح ، أن « الحنبلي » بيسكاريوف ، الموظف ذو العقد الفرويدية كان جالساً في مكتبه ؟ انني أتصور تقريره إلى الرئاسة ، والألوان الزاهية التي سيزينه بها ! وأنت ، ماذا بك — وهل أردت فعلاً أن تكيل صفعة لبالابانوف ؟ ما لطريقة الفرسان القديمة التي تستخدمها ! على أسوأ إحتمال ، كان من الافضل لو رميت قفازك . تحدياً له .

« إذن ، لقد حدث هذا . وهل من المعقول أنه قد حدث ؟ » .

— لاوجود الآن لقفازات الفرسان البيضاء ! ولو حدث هذا قبل ثلاثين عاماً لضربته على وجهه الناعم ، بدون تفكير ، وبسرور عظيم . للأسف ، لقد فقدت منذ زمن طويل خفة الجندي وسرعته . اذن ، فضيحة ؟ رائع ! في حين كنت أظن ، أن كل هذا حدث في خيالي الجبان .

— أنت تقتل نفسك بنفسك يا فياتشيسلاف . إنك فظيع ، مثل صبي مشاكس ! إنك تبحث عن قاع الهاوية معصوب العينين !

— مرة أخرى ، ليس تماماً يا توليا . تصور ، قدمت إلى القيادة العليا : مديرنا ذو الخدين السميكين يركض في مكتبه ، هاباً لاقائي ، كله لهفة ، مشعاً بالبهجة : « آه ، أنت قادم لعندي ، أي ضيف كبير ،

انك لا تنعم علي كثيراً بزياراتك ! » مضطرب اليدين ، فرحاً ، حتى كاد أن يقبلني بفرح ، شاي مع الكعك ، لمعان عينيه السعيد ، أسئلة مرهفة ، وعود : « طبعاً ، طبعاً ، سنتدارك كل شيء ! إذا لم نساعد الموهوبين ، فعلام نجلس هنا نحن الموظفون ؟» و . . . لاشيء إطلاقاً! لا يحرك حتى إصبعه . هذه هي الصيغة العصرية البقاء على قيد الحياة . كل شيء مجرب ، يا توليا .

— أكرر : أنت مشاكس ، وتقدم على الانتحار ! وكأنك تريد هلاكك عامداً ! . . . أتوسل إليك ! استسلم واقبل ! أرجوك ! أتوسل إليك ! — صرخ ستيشوف فجأة ووضع يديه على صدره معتذراً — هل تريد أن تتعذب وتتألم دون ذنب ؟

— بماذا أقبل ، لأي شيء أستسلم ؟

— لا تدخل في صراع مع أي كان ، يا فياتشيسلاف ، أرجوك .

— تصور ، أن أشياء كثيرة ليست متوقفة عليّ ، يا توليا .

سُمعت خطوات راكضة على الدرج المؤدي إلى العلية ،وبعد أن سألت على العتبة « بابا ، الدخول مسموح ؟ » — دخلت ثانيا إلى المكتب ، وهزت شعرها بريبة ماكرة ، باتجاه كريموف ، ثم باتجاه ستيشوف ، ووضعت على ذعامة البار المفتوحة الابريق الذي مال بسائله الزهري ، ثم قالت :

— أرى أن لديكما أسراراً . بابا ، هذا عصير من صنعي . توت عليق مهروس مع ماء البئر . انه رائع ! على المرء أن يشرب منه ، ويغرق في أحلامه . سأصب الآن .

ملأت ، بجود وسخاء ، قدحين نظيفين حتّى الثمالة ، وقدمت لهما العصير ، وانحنت محيية بمزاح ، على أصابع قدميها :

— إذا كان وجودي لا داعي له ، فأنا ذاهبة إلى الشاطىء لألعب كرة الطائرة وأستحم . أليست هناك اعتراضات جوهرية على ذلك يا بابا ؟ الغداء في المطبخ .

قبلت تانيا أباها على جبينه وخرجت ، وهي تخطو بخفة بقدميها الملفوحتين بأشعة الشمس . أما هو ، فعندما أحس بشفتيها الطفوليتين على جبينه ، وكأنهما نسمة عليلة من الهواء ، جسم من جسمه ، لم يسمع على الفور صوت ستيشوف ، الذي غص بجرعة من العصير الشديد البرودة :

— أنت غير مذنب إطلاقاً ، بينما يريد بعضهم أن يصطاد في الماء العكر : وقد يكون كريموف مذنباً !

— أنا مذنب ، على الأغلب يا توليا ، على الأغلب .

— ماذا تقول أيها المجنون !

— أتذكر دمعة الطفل ؟ . . . لذلك ، نحن كلنا مذنبون . مذنبون ، بحق دمعة الطفل المراقة بلا ذنب . نحن ، كل من هو قادر على الاحساس والشعور . وإلاّ ، فلا قيمة لأي كان ، كائناً من كان .

— قل لي من فضلك ، وما علاقة فيودور ميخائيلوفيتش * ؟ أنا أرى أن نزعة عاطفية قد ظهرت عندك .

* المقصود هنا : فيودور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي — المترجم —

— صدقني ، يا توليا ، أن المقاعد في الحدائق العامة لا تكفي للجلوس والتفكير بالنزعة العاطفية التي يشتمها العمليون .

كان أحدهما يعرف الآخر جيداً ، منذ أعوام ، وكان أحدهما يفهم الآخر من أقل من كلمة ، وهما الآن كانا ينظران ، — أو أرادا أن ينظرا — إلى شيء واحد من وجهين مختلفين ، ربما لأن ستيشوف القلق ، من فرط التأثر ، قد بدل على نحو ما ، طريقته المألوفة ، وهو الرجل المهذب إلى حد نادر ، في نشر جوّ الاجتماع اللطيف المريح من حوله ، وهذا ما كان كريموف في أشد الحاجة إليه أحياناً ، فكان كالمرفأ الهادىء ، بعد العوم العاصف في أثناء اللقطات السينمائية . لم ينتقم ستيشوف من القدر للسنوات العديدة ، التي عاشها بدون أسرة (فقد طلق زوجته منذ أن كان شاباً) ، وبدون أطفال ، مع محافظته على صلته الراسخة الوحيدة مع أمه ، المرأة الحكيمة ، التي كرست حياتها كلها لابنها ، وتوفيت للأسف قبل عشرة أعوام . كان دائماً حليق الذقن بعناية ، أنيقاً بصورة ملحوظة ، مسرح الشعر (وكان شعره الأشيب ذا بريق فضي) ، وكان حتى في البيت ، في مكتبه ، بين الرفوف الكثيرة الغاصة بالكتب ، أنيقاً ، حسن الهندام ، كان يرتدي القمصان الدارجة التي تكسبه هيأة الشباب . وكان كريموف يرى ، أن قمصانه هذه وربطات عنقه ، والألوان الفاتحة لستراته وجاكتاته المخصرة ، التي تشد قامته الرياضية الطويلة بصورة ممشوقة ، وبنطاله الضيق المكوي — كل هذا كان تعبيراً واضحاً عن رغبته العنيدة بالظهور بالمظهر المناسب ، ومقاومته الدائمة الدؤوبة لتقدم السن الزاحف بخطى ثابتة . ولتفضيله الليونة على الحدة ، كان يبتعد عن الخشونة والكلمات الحادة ، ولم يكن باستطاعته حتى قتل بعوضة تحط على يده ،

مهما بدا ذلك غريباً (كان يلوح لها مهدداً بالمنديل ، مقتنعاً بالارتباط العالمي الشامل لجميع الكائنات الحية) . بيد أنه كان ثمة شيء آخر يذهل كريموف إلى حد كبير أحياناً : وهو اخلاص ستيشوف الذي لا يتزعزع للسينما ، وتكريسه نفسه لها ، ووفاءه الثابت للفن ، الذي جعل مرتبته أعلى من الحياة .

ـ وما علاقة فيودور ميخائيلوفيتش هنا ؟ ـ كرر ستيشوف بذهول ، رافضاً الموافقة على كاتبه المحبوب دوستويفسكي . ـ دمعة : كلمة قديمة ، غير مستعملة . أما الواقع فهو دموع . وإذا كان الأمر كذلك ، فأود أن أقول لك شيئاً آخر . أين الآلهة المعاصرون ؟ أين المعبودون والعباقرة الذين يمكن للمرء أن يرغب بتقليدهم ؟ ليس هناك من مدارس جدية ، ولا يريد أحد أعلاماً بارزين في الفن ، لأن كل واحد يعتبر نفسه الأول . هل نكتب مثل تولستوي ؟ انه نمط قديم . مثل ريبين ؟ انه أسلوب ممل ، محافظ . هل نصور أفلاماً مثل ايزنشتين ؟ لقد أصبح هذا الشيخ مملاً مضجراً . لهذا ، فان التشتت والصيحات العقيمة ، ووليمة الكثيرين ، من غير الجديرين بالدخول إلى محراب الفن ، الذين يؤلفون ويكتبون السيناريوهات بحمية ، ويصورون الأفلام بحركة وجلبة ، ويهرجون ويمرجون بلا نهاية ، انهم يحسدون ، ويندفعون ويتدافعون في السكون الدافىء . ومع ذلك ، لدينا بعض الناس ، ومن بينهم صديق لي ، يمكنهم أن يزينوا أية سينما في العالم ، ولكن . . .

وضع ستيشوف القدح على شفتيه ، وكأنه لسع من البرد ، وأكمل شرب قدح العصير ، وكانت يده البيضاء الناعمة ترتجف (وهذا أمر لم يلاحظه كريموف سابقاً) ، كما كان الزر الذهبي على الكم الأبيض يرتجف أيضاً .

— لماذا ينحني الناس احتراماً للموهوبين وتبجيلاً لهم ، ويريدون إهانتهم في الوقت نفسه ؟ وهذا الحادث المأساوي المؤسف ، الذي يبحثون فيه عن شيء ما . . . ويرتابون بك بشيء ما . بأي شيء ؟ بالدمعة ؟ ، بالدموع . . . أمر لا يدركه العقل ! مسألة فظيعة ، مرعبة . أتوسل اليك ، لا تفكر أبداً بالتحدث عن ذنبك الأسطوري الخيالي هذا إلى المحقق . ستعتقد بذلك كل شيء ، ولن يفهمك أحد ، ولا لثانية واحدة . أنت ، أنت أنّبتني يوماً ، لأنني أعتبر الفن موازياً للحياة ، وأعلى من الواقع . لكنك أنت ، أنت القائد السابق لفصيلة الاستطلاع ، ذو الصدر الممتليء بالميداليات ، آنت الواقعي الصارم ، لا تكن دونكيشوتياً عصرياً . . . فارس الشخصية الحزينة من العاطفة الكونية !

صمت كريمون ، وغرز نقرته في غطاء الأريكة الدافيء .

— في يوم الحساب الرهيب ، — قال ، وهو غارق في أفكاره ، وغمز بدهاء ، — ستبرز البشرية هذا الكتاب العظيم في تبريرها . نحن جميعاً تنقصنا الدونكيشوتية أتفهم ؟ من جديد ، فيودور ميخائيلوفيتش ...

وأغمض عينيه ، ومن جديد ، مر عبر حنجرته تشنج مفاجيء ، باختناق لذيذ ، كما حصل معه سابقاً ، في لقائه لتانيا ، وكرر بهمس ، ضاغطاً على نفسه بصعوبة ، وخائفاً من نوبات هذه الوعكة .

— هل تفهمني يا توليا ؟

— من جديد دوستويفسكي ، يا صديقي العزيز ؟ غير أنك إنسان قوي ، أقوى مني بألف مرة . . .

— هذا ليس دوستويفسكي ، هذه حياتنا .

ولمس ستيشوف في ذهول ، بأصابعه المجمدة ، يد كريموف :
وسأله غير واثق :

— ماذا بك يا فياتشيسلاف ؟ لقد أصبحت إنساناً غير أرضي . . . صعب الإدراك بالنسبة لي . أنا فعلاً ، لم أعد قادراً على فهمك . وهل نستطيع أن نأخذ على عاتقنا عيوب العالم كله ونحمل أنفسنا مسؤوليتها ؟

— عيوب العالم . . . أنا لا أتحدث عن هذا ، — قال كريموف بصوت خافت ، وعينين مغلقتين ، وأطبق بشدة على أسنانه . — ان قلبي ينفطر . — قال بصوت أجش — عندما أتذكر برودة شعرها المبلل على وجنتي ، عندما نقلتها إلى المستشفى . والفظيع في الأمر — أن السيارة كانت تهتز بعنف ، وانزلق رأسها على صدري ، وكانت وكأنها تطلب مني الغوث . . . أتعرف أية فكرة مرعبة خطرت لي في تلك الأثناء ؟ أنني أنقل ابنتي تانيا ، وأن هذه نهاية حياتي . كان من الممكن أن أفقد عقلي . صدقني ، لم يكن بيننا أي شيء . ولم يكن ، بالامكان أن يحدث أي شيء . لا ، إنها عاطفة أخرى ، تماماً ، أسمى من الشفقة .

— إشرح ، من فضلك — طلب ستيشوف .

— اعذرني لهذا الكلام المنمق والمبتذل ، لا أعثر الآن على عبارات أخرى . ان أولئك الناس ، مثل ايرينا ، موهوبون ، مثل الزهرة ، لكنهم ضعفاء ، عاجزون ، تحطمهم الرياح . . .

— وكان بودك أن تساعدها ؟

— لم أستطع . أخشى ، يا توليا ، أن ماحدث ، لم يكن حادث قضاء وقدر .

— ماذا تريد أن تقول ؟

— لا أريد أن أقول شيئاً . ليست لدي قوة ، يا توليا . لقد كان هذا اليوم يوماً مجنوناً ، مرهقاً . . . على أية حال ، مثل بقية الأيام الأخيرة . — وحاول الابتسام بعينيه . — اشرب العصير الذي أعدته تانيا ، أما أنا فسأشرب كونياك . هذا أقوى . لا أقوى على النهوض . اسكب لي .

— ألا تفرط في الشراب في السنوات الأخيرة ؟ وكما لاحظت ، فلم تتخلف عن غريتشمار الشهير في هذا المجال ، — أنبه ستيشوف ، وعندما أخذ يسكب الكونياك ، أوقف يده ، ونظر بقلق إلى كريموف ، الذي هز رأسه بموافقة ساخرة — مدركة .

— الله أدرى بذلك ، يا توليا . انني أشرب ولا أثمل . أنا نفسي متعجب . هذا بسبب « الافراط » ، بسبب الجهد المفرط ، بسبب الارهاق المفرط ، وبسبب أشكال الافراط الأخرى . لم تكن لدي أية فرصة أو استراحة بين الأفلام ، لم أتمتع بأي قسط من الراحة ، وأنام نوماً رديئاً . آه ، لو أخلدت للنوم ، كالدب ، ثلاثة أيام بلياليها ، لأصبح كل شيء على مايرام .

وكأنه نسي الكونياك ، وتمدد بسبب اعيائه وخور قواه ، وأضحى شبه مستلق على الأريكة ، وصالب يديه على صدره ، وقال هامساً :

— لا تتذمر مني ، أكاد أموت من النعاس . أتتصور كم كان ينام نابليون بعد كل معركة يربحها ؟ فكيف لو أنه خسرها ؟ ومع ذلك ، . . .

– لماذا تؤدي أمامي دور الاستبطان الرائع لمؤرخ غريب ؟ ورغم أنك لا تحب التذمر والشكوى ، لكنني لست غريباً ، بالنسبة لك . . . – قال ستيشوف باستياء غاضب ، وسار في غرفة المكتب جيئة وذهاباً . ماشياً على البساط الأرضي الجاف ذي الصرير . – يا للانتليجنسيا الروسية بذنبها الأبدي تجاه العالم كله !

– لكن ، هذا شامل ، عام جداً ، يا توليا .

– عام جداً ، أكثر من اللازم ! انني أكبر منك بعشر سنوات ، وقد عشت حياة في ضجيج الصراع الهائج ، رأيت كل شيء – قال ستيشوف . – لذا أسمح لنفسي بالتصرف بصورة مستقلة ، إلى أن يَدَعوك بسلام ، ويتخلوا عن ازعاجك . أنا لست صديقك فحسب ، أنا أحد أفراد جمهورك . اعتبرني معجباً بك .

قال كريموف شبه جاد :

– شكراً ، يا توليا ، هنا من المستبعد جداً ، أن تستطيع المساعدة بشيء . كل شيء سيكون مرهوناً بي ، متوقفاً علي . علاوة على ذلك ، أنا متفائل ، وآمل أن ألتقي ، مع مرور الزمن ، جميع مناظري ومحاججي في مملكة الظلام ، وأتحدث إليهم حديثاً صريحاً ، من القلب للقلب ، إذا لم أتمكن هنا من ذلك .

– طبعاً ، وبخاصة إذا كنت سوف تبحث ، على طريقة الانتيليجنسيا الروسية ، عن الذنب والمسؤولية في ذاتك ، وتصرح به للمحقق ، وللاستوديو كله ، تحت التصفيق الحاد للأشخاص المتشوقين إلى هذا الاعتراف .

ـ أترى ، كيف بدأت المزاح غاضباً ، في حين أنك لمتني . أي اعتراف ؟

ـ أنا لا أمزح ، يا فياتشيسلاف . انني غاضب بكل بساطة . أتفهم ، انهم قادرون على تطويقك وانهاكك ، وعصرك ، مثل الليمونة ؟ ان جميع هذه الدعابات مع القضاء تكلف غالياً . خذ قرصاً من سيدوكسين ، ونم يا صديقي . سأتصل بك بالهاتف اليوم مساء أو غداً صباحاً . نم نوماً كافياً ، خذ قسطك كاملاً من النوم ، بحق كل مقدس لديك : آمل أنك لم تكن تشعر بذنوب العالم على كاهلك ، قبل ثلاثين عاماً ؟ أنا لا أودعك .

« لم أعرفه على هذا النحو ، ـ فكر كريموف ، مصغياً إلى خطوات سريعة في الأسفل على الدرج ، ثم صرير الرمل فوق ممر الحديقة . ـ مثقف نقي ، خالص ، لا تشوبه شائبة ، متقن للغاية ، لا يدخل أبداً في أية نزاعات ، في أي وقت من الأوقات ، يشمئز من الكلمة غير الحذرة ، ـ وفجأة قال بسخرية قاتلة وسخط غير مألوف ـ وهل من المعقول أنه مخلص لصداقتنا إلى هذه الدرجة ؟ لماذا لم أكن معه صريحاً حتى النهاية ، وكنت أسخر مثل أبله مخلوق ؟ وهل لدي صديق أكثر إخلاصاً ووفاء منه بين زملائي ؟ » .

وصل إلى مسامعه من النوافذ المفتوحة ، أصوات متحمسة من الحديقة ، وصوت ضرب خوخة الباب ، ونهض رغماً عنه ، وخرج إلى الشرفة ، الممتلئة بالهواء والضوء في هذا اليوم الصحو ، والخضرة الدافئة ، والحرارة العسلية لرائحة الأزهار الناضجة من الأسفل ، المرتخية في ساعات بعد الظهر القائظة . وشعر للحظة واحدة بروعة الصيف ،

ففكر متأثراً : « أجل ، أجل ، الحياة رائعة ! فمن الذي يرغمنا على جعلها فارغة ، تافهة ؟ » وفي الحال ، رأى في الأسفل ، خلف الخوخة ، ستيشوف إلى جانب السيارة الواقفة على قارعة الطريق وبجانبه فالنتين ، الفارع الطول ، بصورة غير معقولة ، وهو عار حتى خصره ، وقد ارتدى قبعة « كاسكيت » ذات رسوم مربعة ، وخطيبته لودميلا ، كالقصبة الرفيعة ، واضعة على عينيها نظارات شمسية ضخمة ، مسدلة شعرها البني على كتفيها . يبدو أنهما كانا عائدين من الشاطىء والتقيا ستيشوف . فقال بشيء ما للودميلا ، وقبل يدها ، ابداء لاحترامه لها . دخلت الخطيبة من خوخة الباب ، وهي تهز وركين رفيعين ، ملوحة بقبعتها البانامية بدلال ، كالمروحة . وبقي الرجلان وحيدين خلف باب الحديقة . أخذ ستيشوف فالنتين من مرفقه ، وقاده إلى الطريق ، ورغم أن كريموف لم يستطع أن يسمع حديثهما ، فقد تكدر في سره : « كم هو مزعج ، الافتراض أن الحديث يدور عنك » .

وعاد إلى مكتبه ، مرغماً نفسه على التفكير بخطيبة ابنه ، التي تعايشت مع أسرتهم ، دون حياء كبير ، مثيرة خوف أولغا ، التي اعتبرت فتاة ورشة الخياطة هذه ليست مناسبة لابنها فالنتين لأسباب عدة .

« ربما تكون الخطيئة ، أحياناً ، انقاذاً وخيراً ، والخير خطيئة ؟ نحن جميعاً وحيدون وعميان في أخطائنا . الخير ، الخير ... البجعات البيض في البحيرات الزرقاء ، أزهار اللوتس الناعمة والثياب البيضاء الملائكية ، كما في الجنة البوذية ؟ أنا لا أؤمن بنعيم الجنة ... اذن ، بم أؤمن ؟ أؤمن بأنه لا مكان لي في العالم بدون الفن . فهذا الوحيد الذي أؤمن به . أنا أعرف ، أن الحق يرتفع فوق الحياة مع الاحساس بوجود

الموت . . . بيد أنني لم أدرك أبداً حتى الآن هذا بالدرجة التي أردتها . أنا أعرف : لقد تغيرت المشاعر الانسانية . ألم يخن الإنسان نفسه ؟ هذا ما أريد أن أفهمه » .

ابتسم ابتسامة ساخرة ، وهو ينظر إلى رفوف الكتب ، باحثاً بعينيه عن مجلدات ليف تولستوي ، حيث كانت توجد يومياته التي يحبها (إنجيله في ليالي الأرق) ، وحيث كل جملة ، مثل حبة ملح مرة ، مترعة بتعذيب النفس ، باحتقار ضعفه الشخصي ، حيث كانت آلام الكاتب العظيم الروحية مرتبطة أحياناً بصغائر الوجود ، التي كانت تسبب له آلاماً ومعاناة لا تقل عن الأحداث الخطيرة . بيد أنه هكذا كان هو ، ليف تولستوي ، بولعه بالأفكار ، وندمه ، وبأفكاره حول البساطة والحب والأخوة ، حول ما أراد أن يفهمه كريموف بعد الحرب ، بيد أنها كانت أعلى من القدرة على الفهم ، حيث بدأ يذوب ويضيع في العالم كله ، بصورة جامحة لا تعرف الشفقة ، كل ما هو جوهري هام ، تاركاً مجرد كلمات ، كنُصُبٍ تذكارية للوفاء والاخلاص والطيبة السابقة .

« إذا كنت أريد أن أؤمن بالفن ، فهذا يعني أن أؤمن بالطيبة أيضاً ، وإلاّ فما هو المعنى من حياة المرء ؟ — كان كريموف يوحي لنفسه بشعور خانق بالعجز . — فمن هم هؤلاء ، المدعوون بمحاججي ، بأبناء بلدي ، باخوتي ، وبالتالي شركائي في الرأي ؟ إنه خوف النعامة من النظر بامعان فيما حولها وإلى نفسها . خوف الحقيقة . . . وماذا بعد ، ماذا بعد ؟ » .

وأثناء تكراره بصوت مسموع « وماذا بعد ؟ » ، اقترب كريموف من مكتبه ، الذي لم يجلس خلفه للعمل منذ فترة طويلة ، والمغرق بالأضابير والرسائل والمجلات التي لم يفتحها بعد ، والمهمل كاليتيم بسبب هذه الفوضى ، وسحب الجارور الأسفل ، وأخذ منه ظرفاً فيه أوراق مالية (كان يحتفظ بها في البيت من أجل النفقات غير المنظورة). هذه النقود كانت جزءاً من مكافأته عن الفيلم الأخير ، وأحصى هذه النقود من جديد : ألف وخمسمائة روبل . « أوه ، يا للأسف ، يا للأسف ، لم يسعفني الحظ . . . » . رمى كريموف الأوراق المالية ثانية في الجارور ، دون أي شك ، بأنه إذا ما وجد في الظرف ، لمجرد توافق الأحداث ، أربعة آلاف ، لأعطاها في اليوم التالي لمولوتشكوف بصورة مشروطة ، لاسيما وأن أيدي غولين طليقة لكتابة أية رسائل . ودهش كريموف بسرعة ، مما أراد أن يفعله — أن يعطي هذه الأتاوة الغامضة لمولوتشكوف ، لنفسه الذليل ووضاعته ، لمداهنته العبودية ، ولتشبثه بالحياة — هذا التشبث الذي يمتد بخيط من الحفرة في المنطقة المحايدة عام أربع وأربعين إلى ذلك اللقاء العابر أمام الصناديق الآلية للمياه الغازية ، اللقاء السعيد الذي أنقذه ، وأوصله إلى حياة طبيعية ، إلى سونيا النشيطة ، المريضة ، التي يحبها إلى درجة العبادة .

« في تلك الأثناء ، أطلقت النار على يده من أجل إنقاذه ، والآن يمكن أن أعطيه أربعة آلاف من أجل مساعدة زوجته سونيا . . . فمن أنا أكون في هذه الحالة ؟ الفضيلة ذاتها ؟ لا ، في تلك الأثناء ، في الحفرة ، كان مولوتشكوف كريهاً بالنسبة لي ، لكن هذا كان الشيء الوحيد ، الذي كان باستطاعتي عمله كي يذهب إلى المستشفى ، كي لا أراه

بعد الآن في الاستطلاع . والآن ؟ . . . شيء ما أشبه بالرشوة والتعويض . لكن ، لماذا ، للمرة الثالثة في حياتي ، أفكر بهذا الرجل التافه ، بمثل هذه الجدية ؟ على أي نحو ذليل أخذ ينتحب مولوتشكوف في الحفرة ، وأي عزم وثبات عبر عنه فمه المضغوط عندما استدار بسيارته ! وهل في هذا الشخص يكمن الخطر الأعظم المحدق بكل شيء؟ان هذا أمر مضحك بالطبع . . . » .

* * *

الفصل السادس عشر

ـ أبي ، أتسمح لي بالدخول ؟

التفت كريموف من مكانه عند الطاولة بنشاط متعمد إلى فالنتين ، الداخل إلى مكتبه ، ـ كان فالنتين حافي القدمين في قميص بلا أكمام ، غير مبكل من الأمام ، واجتاز العتبة ، وأحنى رأسه عند الباب ، فعانقه كريموف بسرور مؤثر ، على غير عادته ، وربت على ظهره الحار من استلقائه طويلاً تحت أشعة الشمس :

ـ ادخل ، يا بني ، ادخل ، أنا مسرور بلقائك ، نحن لا نلتقي معاً كثيراً . اجلس يا فاليا ، دخّن ، وأنا سأتأملك عن قرب . ـ قال كريموف بلهجته الخفيفة التي يتحدث بها مع أطفاله ، وأشار إلى علبة السجاير على المنضدة في طرف السرير . ـ دخن ، من فضلك .

ـ أنا لا أدخن ، يا أبي ، ـ أجاب فالنتين وجلس على حافة السرير بحذر غير مريح ، وهو عابس مقطب ، طويل اليدين . ـ بدأت التدخين ثم تركته : قرأت كل ما يكتب حول السرطان ، وبخاصة ما يكتبه الانكليز . . . للأسف لودميلا تدخن .

ـ أصبح التدخين تقليعة دارجة بين النساء ـ قال كريموف وجلس أيضاً على السرير ، متأملاً ابنه بانتباه وعدم تصديق . هل من المعقول أن هذا من لحمه ولحم أولغا ، وهل من المعقول أنه هو كريموف ،

قد ظهر ، برجولته ، في ابنه ، في هذا الشاب الأخرق ، النحيف ، ذي الطول الفارع ، مثل لاعب كرة السلة ، الشاب الجدي بافراط ، المفكر ، الصارم ، الذي لا يشبه أباه في أعوام شبابه ، المفعمة بالمجازفة العسكرية والتهور ، والذي ورث في الوقت نفسه عن أبيه لون عينيه الرمادي ، ورائحة جلده نفسها (وهذا ما أدهش كريموف ذات يوم إلى حد كبير) ؟ — بيد أن « الموضة » الخرقاء الغريبة ، ستزول على الأغلب وتنقضي كما يزول وينقضي كل شيء .

أكمل كريموف جملته الأخيرة شبه ساخر ، تماماً كما لو أنه يقترح اختياراً حراً للحديث . بيد أن وجه فالنتين بقي جدياً مركزاً ، وسأله كريموف :

— كيف تجري أمورك ؟

— أبي ، انني لا أستطيع أبداً الاسترشاد في الحياة .

— هكذا إذن ؟ لا تستطيع الاسترشاد ؟ . . .

لم يدرك فالنتين لهجة أبيه شبه الساخرة ، التي لا تلزم بأي شيء ، والتي كان كريموف يستخدمها كثيراً ، من أجل عدم تعقيد علاقتهما بصوره لبقة ، حيث اقتنع ، منذ فترة ، بعدم فائدة قهر العناد ، بعدم فائدة قهر طباع ابنه المشاكسة . ابنه غير المهيأ لا المزاح ، ولا الضحك على شيء ما ، أو على أحد ما ، والذي يرغب بحل مشاكله بعقله الخاص ،

في السنة الثالثة ، أخذ يحصل فالنتين على منحة دراسية عالية . واتخلصه من التبعية ومن اهتمامات أمه ، رفض قطعياً عون أسرته المالي ، واستبدل البزات التي كان يرتديها بستر رخيصة ، كان يشتريها

بنفسه . وذات مرة ، بعد مشادة مع والدته ، قال لأبيه بعبوس وبصورة قاطعة : « أنا لا أريد أبداً الاستفادة من اسمك أو من مواردك . سأكون مستقلا بنفسي » . وهذا الطموح إلى الاستقلال المادي المبكر ، حسب معايير اليوم ، (وهو استقلال مادي جزئي بالطبع) ، أو بصورة أدق ، هذا الطموح الى تأكيد نفسه على تربة متقلقلة ، من المنحة الدراسية ، وإن كانت عالية ، قد أغم كريموف في البداية . فهو ، كما تبين ، لم يشك أصلاً في هذا العناد من ابنه ، عارفاً في الوقت نفسه ، أن هذا الميل المبكر إلى الاستقلالية ، وحب الذات الصبياني الجامح لن يجلبا له حرية التصرف التي يتوقعها ، بل سيجلبا له ضربات مرضية في الحياة التي لا تحتمل الاستخفاف الزائد بمعايير الارتباط المرعية في علاقات القربى المعاصرة .

— أبي ، أنا لا أستطيع الاهتداء في الحياة — كرر فالنتين — لا أستطيع بأي شكل من الأشكال .

— كان يبدو لي . . . — وأخرج كريموف سيجارة من العلبة ، وضغط على أطرافها ببطء ، — كان يبدو لي أن كل شيء واضح بالنسبة الك يا بني .

— لاداعي للسخرية . أنا لم أعد صبياً ، يريد أن يصبح راشداً .

— أصغي إليك ، أنا أصغي إليك يا فالياً * . . .

كانت غرفة المكتب ممتلئة كلها بالشمس والهواء ، ومشبعة برائحة النباتات ، وكانت الطيور المنهكة من القيظ تغرد في الحديقة بصوت واهن ، وقد انتقل هذا النهار التموزي الطويل بلا نهاية ، إلى

* فاليا : صيغة تصغير وتحبب للاسم الكامل فالنتين — المترجم —

مساء طويل ، وكان يسمع طنين ناعم لزنبور دخل من النافذة ، وأخذ يزحف على المرآة ، حيث كانت ، في العمق المنعكس ، تستحم الفروع الخضراء لأشجار البتولا . « الآن سيقول مالا أتوقعه — فكر كريموف — إنه يبحث عن الكلمات ، كي لا يزعجني » .

أما فالنتين ، فقد كان يجلس على حافة السرير ، ضاغطاً ساعديه الكبيرين بركبتيه ، وكان ثمة تجعيد عرضاني يقسم قصبة أنفه ، وقد تركزت عيناه الرماديتان بصورة عابسة على المرآة ولم يرفّا ، لكنه كان واضحاً — أنه لم يكن يرى ، لا المرآة بعمقها الأخضر ، ولا الزنبور الذي كان يطن بالحاح ، وكرر كريموف قائلاً :

— أنا أصغي إليك يا فاليا .

سأل فالنتين بصوت هادىء :

— قل لي يا أبي ، كيف يمكن تحديد ذنب المجرم والضحية ؟

— ذنب الضحية ؟ — قال كريموف مستغرباً . — ماذا تقصد ؟ أو من تقصد بذلك ؟

— أنا أقصدك أنت يا أبي .

— هذا طريف ، هام . تابع ، من فضلك ، أنا أصغي إليك .

— هل تستطيع أن تجيبني بصراحة ؟ وإلا فلن أسألك شيئاً . أتستطيع ؟
— سأحاول .

ضغط فالنتين بشدة أكبر أصابعه المشبكة بين ركبتيه ، وقال بصوت متقطع ، عابساً مكفهراً .

ـ أبي ، يحدث ظلم وبعد عن العدالة ، تجري سفالة ما حول اسمك . . . إشاعات تدور ونمائم تلفق . . . عندنا في المعهد ، شعب متنوع ، بعضهم ينظر إليّ بشماتة ، ويهمس : هذا هو ولي عهد كريموف الشهير ، الذي وصل إلى ارتكاب الجريمة ، وماشابه ذلك والخ . ماذا حل بهم ، هل أصابهم الجنون ؟

ـ هل أجيب الآن ؟

ـ لا ، انتظر ، لم أكمل بعد . . . أنا لا افهم شيئاً واحداً يا أبي ، اني لا أفهم ، من أين ظهر الوشاة وتكاثروا ، ولماذا يريد المعجبون بالماركيز دوسا تصديق الإفتراءات والإشاعات المغرضة المختلفة ! وكيف يمكنهم تصويرك في دور المجرم ؟ أم أنهم يريدون ذلك ؟ لا ، يا أبي ، الإنسان ليس تاج الخلق والإبداع ، وليس فيه أي صوت أبيّ . ناهيك عن أي تشامخ أو تطوير ذاتي على طريقة تولستوي ! قل لي ، لماذا يبقى الشر دون عقاب ؟

فقش فالنتين بأصبعه ، ناظراً بتجهم إلى مكان ما ، باتجاه رفوف الكتب ، أما هو ، كريموف ، فقد لاذ بالصمت ، متوقعاً حديثاً عسيراً مع ابنه العنيد ، مدركاً بوضوح أنه لن يستطيع أن يجيب فالنتين بعبارة أب حكيمة مجربة . لأنه لم يكن لديه جواب ذو بعد واحد ، ذلك الجواب المأخوذ من الحقيقة المقدسة أو الفاسدة ، الذي يمكن أن يضع ، مرة واحدة وإلى الأبد ، كل شيء مكانه ، حياته وحياة غيره ، ويضع الحدود الثابتة بين نعم ولا ، وبعد ذلك ، يمكن لموقفه الشخصي أن يفسر بدقة ، ومرة واحدة وإلى الأبد ، العالم كله ، الذي كان يصعر

تحده من حوله بطيش كبير ، ويضحك ، ويقتل ، ويشوه الطبيعة وفق قوانين مضادة للطبيعة ، فرضها البعض .

— سأجيبك ، يا فالنتين ، على قدر استطاعتي ، — قال كريموف أخيراً ، ودون أن يشعل سيجارته المدعركة ،رماها في صحن السيجارة ، الموضوع على الطاولة الصغيرة . — في الحرب ، استشهدت خيرة أبناء الشعب . ولم يبق حياً من أفضل أبناءه إلا القليل . أما الأطفال فلم يصبحوا أفضل من آبائهم ، غير أنه لا يصح إدانة جيل كامل ، كائناً من كان . وربما لهذا السبب ، قليلون جداً من يخاطرون الآن بالارتماء بصدورهم فوق فوهة المدفع ، مدافعين عن شرفهم وشرف غيرهم .

— بصدورهم فوق الفوهة ؟ — كرر فالنتين وأحنى رأسه . — ماهذا يا أبي ، هل يعني ذلك سد فوهة الرشاش بصدورهم ؟

— أنا قصدت التشبيه ، —قال كريموف مرتعباً مما لاح على وجه ابنه ، عندما أحنى رأسه . — أنا لا أتحدث عن تلك البطولة ، عندما يسدون فوهة الرشاش بصدورهم ، رغم أنه تحدث في الحياة لحظات مجنونة . أنا أتحدث عن شيء آخر . أتدرك ، يا فالنتين ، ان المدنية المعاصرة قد قادت العالم إلى طريق كاذب . لقد اخترع الأذكياء السيارات والآليات ، بيد أن هذه التقنية لم تعثر على قادة أذكياء ، ولم تخضع للناس ، بل أخذت توجههم . لقد رفهتهم ، ونعّمتهم ، وسلبتهم قوة الروح . وبدلاً منها وضعت لهم في نفوسهم مسطرة حاسبة تنتجها التقنية . . . في أواخر الخمسينات ظهر نوع جديد من المتكيفين مع خيرات المدنية — الأخوة الميسورون في العالم كله . في الغرب يدعونهم

بالامتثاليين . وهذا يمسنا أيضاً . فنحن لسنا منفصلين بجدار اسمنتي مساح .

— وأنت يا أبي ، إلى من تنسب نفسك ؟ — سأل فالنتين غير مصدق ، ومن خلال لهجته القاسية ، أحس كريموف أن ابنه ليس متسامحاً مع أعدائه ، ولا مع أية تبريرات مخففة بسبب الظروف الناشئة . — آمل ألا تكون امتثاليا ؟

— أنا إنسان فاسد ، يا فالنتين . أنا مخرج ، أنقل مشاهد الحياة إلى السينما ، وهنا يكمن شقائي ، — قال كريموف بابتسامة ساخرة حزينة — حتى أنني أستطيع أن أرى جنازتي الشخصية عن بعد ، من الجانب ، وأنقلها إلى مشهد . على أية حال ، أنا لست دقيقاً في كلامي . على الأصح هكذا — الرغبة في معرفة ماذا يمكن أن يقدم هذا المشهد الكريه للناس ، وماذا يمكن أن يأخذ منهم . لاتلمني يا بني ، على عباراتي الفخمة الكبيرة ، بيد أنني في السنوات الأخيرة ، أفكر بمسألة : أين يكمن سر الحياة وسر الموت ، ذلك السر الذي يفسر تصرفاتنا وأعمالنا . ومن المفيد هنا ، على الأغلب ، أن يكون المرء محامياً أكثر منه قاضياً . وهذا أمر لا يستطيع المرء تحقيقه دائماً . في القرن العشرين ، الناس أصحاب الضمير ، ليسوا سعداء كثيراً ، بصورة عامة ، يا بني . أما السعداء اليائسون فهم أقلية . العالم كله صار ، أو يصير ، بائسا ، تعيساً . أما أنا ، فأحاول أن أفهم : متى وأين انحرف الإنسان ، أو ينحرف ، عن الطريق القويم . وأنا مع الآخرين . . .

— أبي ، أنت مثالي ! أما أنا ، فأريد أن أعرف ماهي السفالة ، وماهي الأمانة ؟ — وهذا كل شيء — صاح فالنتين ونهض مقطباً حاجبيه

بصورة فاترة — في هذه الحالة ، من الذي دعا الخير خيراً ، والشر شراً ؟ وأين ذو طريق المدنية القويم ياأبتي ؟ إن التقنية والعلم ليسا شراً أبداً بل هما خير ، كالماء الساخن ! أتعرف ماذا تحتاج البشرية من أجل خلاصها ؟ قل لي ! ربما حان وقت يوم الحساب ، وصاحب المعجزات التوراتي الثاني ؟

— أنت منفعل جداً . . . وتتكلم معي باستياء وامتعاض . اجلس — قال كريموف ، وأخذ بابنه ، برقة من يده ، الذي حاول افلاتها ، وشده إلى الأسفل ، وأرغمه على الجلوس ثانية ، على السرير . — الحساب العسير ، أردت أن تقول ، وليس مجرد الحساب — صحح كريموف . — وماذا في الأمر ، كل شيء ممكن ، وقد حان وقت محاسبة البشرية على جميع الشرور والسخافات . لكن هذا الحساب سيكون رهيبا — فالحساب الأخلاقي سوف يستبدلونه بحساب ذري . وسيحولون المحاكمة إلى إعدام شامل لجميع أبناء البشرية ، أما الأرض فسيحولونها إلى رماد . — وصمت متضايقاً ، من أن شيئاً ما ، قد منعه الآن ، من أن يكون مقنعاً مع فالنتين ، العنيد ، الذي لا يقبل الحلول الوسط . — ومع ذلك يابني ، ثمة طريق أخلاقي ، رغم أنه ليس الطريق الوحيد . . .

— أي طريق ؟ الطريق القويم ؟ وماهو هذا الطريق ؟

— إنه طريق مستحيل . إنه المشاركة في المعاناة . أن يشعر المرء بآلام الآخرين ويدركها . بيد أنه من أجل ذلك ، يجب أن يند في العالم آلاف من الدعاة الصبورين .

— أبي ، هذه أقوال ، أقوال ، مجرد كلام . المشاركة في المعاناة أمر جيد ، فقط بين الناس الجيدين ، — قال فالنتين بصوت جهوري

منقطع ، – وكيف يمكن أن تقوم مشاركة في المعاناة والآلام مع السفلة والأوغاد ؟ أيضاً ممكن ؟

– ليس لدي جواباً دقيقاً . أريد أن أقول ، يا فاليا ، أن الأوغاد ، وغير الأوغاد ، مرتبطون بحبل واحد ، – قال كريموف ببطيء –. أي أن الإنسان الواحد متصل بالإنسان الآخر ، وبجميع الكائنات الحية على الأرض ، وهذه تشبه الشبكة الواحدة . والتخلص منها مستحيل غالباً .

– إذن ، فالمجرم والضحية – كلاهما مذنبان ، طالما أنهما في شبكة واحدة . –. ضحك فالنتين ضحكة بشعة ، وكان في ضحكته تمرد ، واعتراض ، وعصبية ، وارتباك وحيرة لاتميز الابن – اذن، كلاهما مجرمان .

أجاب كريموف بجفاء :

– في حال موافقة الضحية على أن يغدو ضحية .

– وأنت ، ألم تعتبر نفسك أبداً ضحية ؟ ولا مرة في حياتك ؟ انت كنت تنتصر دوماً ؟

– لا أستطيع إجابتك على كل شيء . غالباً ، كانوا ينتصرون علي .

– أنا لا أتحدث عن هذا .

– وأنا لا أتحدث عنه . بيد أنني فهمتك كما يجب . في الحرب ، كنت أندهش من أن كثيراً من الناس محكوم عليهم ، دون صراع ،

وبدون المقاومة الأخيرة ، كانوا يسمحون باطلاق النار عليهم في معسكرات الاعتقال الألمانية . صدقني ، يا فاليا ، في الاستطلاع ، كنت أعرف خطوتي الأخيرة ، حتى إذا ما استهلكت آخر طلقة في مسدسي .

— أنت تريد الحديث عن الكراهية والاحتقار ؟

— لا ، هذا ليس مخرجاً . ثمة شيء أعلى .

— وماهو ؟

— انعدام الخوف . أن يتوقف المرء عن الخوف على نفسه — هذا أعلى من الكراهية . كان في الحرب هذا ممكناً أحياناً . انه شيء نادر ، لكنه حدث .

— وهل أنت لا تخاف أبداً من أي شيء ؟

— أخاف . — ولمس كريموف ركبة ابنه الرفيعة . — أخاف أن أفقدكم : أمك ، تانيا ، أنت . اذن ، أنا ضعيف .

— أبي . . . — قال فالنتين بصوت متقطع عريض ، وأشاح بوجهه عن أبيه بسرعة ، ثم تابع حديثه : — إذا كنت ترى هذا الرأي في نفسك ، فما هو رأيك بي ؟

— ليس عندي رأياً سيئاً نحوك .

— وهل كنت تأخذني معك صديقاً في الحرب ، — قال فالنتين متحدياً . — أنت ، غالباً ، تحتقرنا نحن جميعاً ، أبناء العشرين عاماً ، الذين لا يعرفون شيئاً .

– لا ، كنت أخذتك معي صديقاً . ونحن ، أنا وأنت ، أصدقاء . .

– غير صحيح . لا يمكن أن تقوم صداقة بين الأب والابن .

– غالباً ، أنت مخطىء .

هاهو ذا يجلس إلى جانبه على السرير ، ابنه – العنيد ، المناقش ، المحاجج ، الذكي ، الساذج ، ابنه ، خليفته المذكر على الأرض ، لا يشبه أباه ، وهو في الحادي والعشرين ، لا بحركاته ، ولا بشيء من طباعه ، لا يشبه ذلك الملازم الباسل ، قائد فصيلة استطلاع الفوج ، باستقلالية نظرته الساخرة ، باستعداده الفوري للعمل والمخاطرة ، الذي وثق فوراً بخاوده في الحرب . فما الذي دفعه إلى هذا النضوج المبكر ، إلى هذه المخاطرة ، إلى تلك الثقة بالنفس – هل هو الخطر المميت المحدق فوق رأسه ؟ هل هي اللجة السحيقة بين الوجود واللاوجود ؟ وما الذي جعل ابنه وهؤلاء الشباب ، الذين يعرفون الكثير ، والذين قرأوا الكثير ، الشباب المثقفون ، الذين اطلعوا مبكراً على المنطق الصوري واللامنطقية – أطفالاً ضعفاء عاجزين ، هل هو الرفاه الهادىء ، والنعومة المفرطة في الوسط العائلي ، وعناية الوالدين المفرطة بأبنائهم ؟ أم إنعدام الاستقلالية ؟ طبعاً ، كان من الممكن تفسير كل شيء ، كما يجري غالباً في الحياة ، من أجل تبرير الرأي المطمئن والمناسب للناس في اللحظة الآنية . بيد أن أي تفسير لم يكن ليغير شيئاً في الجيل نفسه ، الخاضع لحتمية الزمن المعدية ، الذي لم يعيه أحد من المعاصرين بشكل كامل . وهو ، أي الزمن ، قد تشكل ن زوايا حادة ومنفرجة ، من الأشياء غير اللازمة ، من الأموال الفائضة والفاقة ، من التمليعات والتصاميم الشرقية والغربية غير المطابقة ، حيث كان يبرز في أحيان كثيرة حساب مقتبس ،

مستعار ، حتى في الحب ، في دعوة الضيوف ، حيث كانت البرودة المضرمة بصورة مصطنعة ، تزيد أكثر من الاغتراب ، وهذا ما لم يحدث أبداً في المرحلة السعيدة ، أثناء الحرب وبعدها ، من عمر كريموف ، في سن الشباب ، في مرحلة الخطر والفقر والآمال . وأحس كريموف بوضع ابنه الصعب في المعهد ، الناشيء ، كما يبدو ، من جديته المفرطة في تعامله مع الآخرين ، ومن الأحداث غير السارة المرتبطة به ، بكريموف.

ــ أرى أنك تخطيء يابني ، ــ قال كريموف بأكبر قدر ممكن من الهدوء . ــ وأنا مسرور ، لأن صداقتك معي . . .

ــ غير صحيح ، ــ قاطعه فالنتين ، وقد قطب وجهه . ــ مستحيل . الأب هو الأب . وأنا لا يمكنني أن أقول لك ما أقوله لصديقي .

ــ وليس لديك صديقاً ؟

ــ صديقاً حقيقياً ، لم يكن لدي أبداً . والآن ، ليس لدي أصدقاء حقيقيين . هناك مشاركون في السهرات وحفلات الرقص . انني أحسدك لوجود صديق عندك مثل ستيشوف . فهو ، غالباً ، لايخون .

ـ غالباً فقط ؟

وأجاب فالنتين ببرودة واقناع :

ــ أبي ، أنا أعرف ، أن الأصدقاء هم أول من يخون ، مثلهم مثل الزوجات .

« لم أفكر أبداً سابقاً ، أن ابني وحيد » .

ــ الزوجات ؟ لماذا الزوجات ؟

اعتدل فالنتين في جلسته ، وارتسم التجعيد العرضاني بصورة أكثر حدة بين حاجبيه المستقيمين الداكنين — وهي السمة الربانية للإنسان الذكي ، كما حدد كريموف في نفسه هذا التجعيد . بيد أن وجه الابن ، عبر على الفور عن دهشة متسامحة ، وتردد صوته بحيوية أكثر ، وكأن الحديث كان يدور حول طيش آني .

— تلك هي طبيعة النساء يا أبي .

تنفس كريموف بارتباك وحيرة .

— عفواً ، يا فاليا ، ولكن لديك خطيبة . ان عبارتك الغنائية هذه لا تنسجم مع واقعك . وهل تخاصمتما ؟

— لم نفكر بذلك .

— هل يمكنني الافتراض بأنك تحب لودميلا ؟

— آه ، يا أبي ، لو أنني أعرف ماهو الحب — ألقى فالنتين رأسه إلى الوراء ، وقال بتأكيد ساخر غير مألوف منه : — لا أستطيع أن أحدثك بصراحة . أشعر بشيء من الحرج . . . سأتزوجها . ان لودميلا حامل ، وسأتزوجها . . . ألست مصدوماً جداً من طيشي ورعونتي ؟

ضحك فالنتين من جديد ضحكة رديئة ، وفكر كريموف ، أن ضحكته وسؤاله حول الطيش — أن هذا كله غريب ، فليس هذا جوهره ، إنما هو عبء ، وضعف في دفاعه الواضح الذي لجأ إليه في محاولته تأكيد ذاته أمام أبيه

— ليس كثيراً ، — قال كريموف كاذباً ، وأضاف مشاركاً

بصورة مرغمة : — كل شيء يمكن اعتباره طبيعياً . بيد أنه لا داعي لتخبر أمك بذلك ، قبل الوقت المناسب .

— إن أمي تستوعب أشياء كثيرة بصورة مأساوية مفرطة . ولكن ، لابأس ، سوف نسكن الآن عند لودميلا . وسوف أعمل خارج أوقات الدوام . وبعد عامين سأتخرج من المعهد . وسوف أصور فيلماً من الأفلام . . . سنعيش في حب ووفاق . هكذا !

ارتعش وجهه بصورة قبيحة ، واستعد من جديد لضحكته الدفاعية . بيد أن كريموف طلب منه ، بصوت خافت :

— لاحاجة الضحك على هذا النحو ، يابني . أنا معك ، في متاريسك أجبني من فضلك ، يا فالنتين : هل تحب لودميلا ؟

— لا أعرف ، ياأبي . كان بودي جداً ، كان بودّي جداً ، ولكن ماذا أعمل . . . أنا أعرف : أنني سأحبها عندما يولد الطفل . ولكن لو كنت مكاني ، كيف تصرفت ؟ كيف كنت أنت . . . أنت بالذات ؟

اندفع فالنتين بضعف ، بكامل جسمه إلى الأمام ، مشبكاً يديه الكبيرتين بين ركبتيه ، مفرقشاً بأصابعه ، فاقداً بصورة نهائية ، ثقته المنيعة بنفسه ، ولاحظ كريموف بشفقة مريرة ، أن ابنه الجدي ، خليفته على الأرض ، وأمله الأخير ، لم يخاطر ، ولم يتمتع بالجرأة على التغلغل إلى ذاته ومعرفة نفسه ، في العشرين من عمره ، حيث يصدق الشباب عواطفهم ومشاعرهم الأولى ، دون تأملات طويلة . « وهل يحق لي أن أسأل ، كيف حدث ذلك بينهما ؟ »

— في مثل هذه الأمور ، لامجال لإسداء النصيحة ، يا فاليا ، — قال كريموف مراوغاً ، متملصاً ، وعانق ابنه من كتفه .

— فمن ، من اذن ، يمكنه أن ينصحني غيرك ؟ — قال فالنتين ، وسُمِع في صوته وتر مشدود . كنت تنصحني أنت ، عندما انتسبت إلى معهد السينما . أردت لي أن أنتسب إلى كلية التصوير ، وانتسبت . . .

وحرك بشيء من الحرج ، كتفه ، متخلصاً من يدي أبيه ، وأحس أبوه بالرائحة الذكية الصحية لجسد ابنه الفتي ، الذي تشرب حرارة الشمس على الشاطىء ، وهذا الإحساس الجسدي القريب ، القوي ، وهذه الحيرة العارية التي تجلت على فالنتين ، قد طعنا كريموف بأسف قابض : لا ، كان بامكانه أن يعرف ابنه ، لكنه لم يكن يعرفه تقريباً .

— مهما كانت النصيحة التي سأسديها الك ، عليك أن تتخذ القرار بنفسك ، برجولة — كرر كريموف بصلابة ، — تصور ، لو أن عسكرياً من سلاح الهندسة ، في الحرب ، أخطأ مرة واحدة في حقل ألغام . قليل جداً من عدم الدقة في التعامل مع آلية اللغم وتكون المصيبة ، ولا يذكره أحد . الزواج والطلاق — ليسا مسألة موت وحياة ، لكنهما قد يسببان جرحاً دامياً مميتاً .

— وكيف حدث بينك وبين أمي ؟ كيف حدث ذلك الك ؟ — سأل فالنتين باصرار . — أنت لم تشك في أي شيء ؟ .

— أبداً ، لم أشك في أي شيء . — أجاب كريموف . — عندما رأيتها للمرة الأولى ، أصابني مس من الجنون . شيء شبيه بالمخدر . . . لا تبتسم ، يابني ، هكذا كان فعلاً .

ـــ أبي ، ان جيلكم كان جيلاً سعيداً . كنتم تعرفون ماذا تريدون . ـــ وتحرك فالنتين باضطراب . ـــ أبي ، ليس من أجل هذا الغرض جئت لعندك ، عذراً ، ليس طلباً للنصيحة . أنا سأتدبر أموري بنفسي ، بشكل من الأشكال . . .

ـــ هكذا سيكون أفضل يا فاليا . وهل تعرف يا فاليا ، أن ذلك المخدر لم يفارقني حتى الآن

* * *

الفصل السابع عشر

في صباح عيد رأس السنة ، آنذاك ، كانا آخر من خرج إلى الطنف في الصقيع القاسي للفناء المغطى بالثلج في منطقة زامسكفوريتسك .

وكان هواء كانون الصقيعي يتورد حول أشجار الزيزفون المغطاة بالصقيع .

كان كريموف يقف في الأسفل ، عند الطنف ، وفي يأس مداعب ، مد لها يده ، مساعداً إياها على النزول ، وقال بشيء من الوقاحة المشجعة :

— تمسكي بقوة ، ياسيدة قلبي ، وكل شيء سيكون على مايرام ، إذا لم أقتل في مبارزة .

ضغطت أولغا بكل قوتها على يده ، لكنها لم تنزل على الدرجات إلى أن خفتت في الفناء الأصوات المبتعدة ، والضحك ، وصرير الثلج خلف البوابة . وبعد أن رفعت رأسها نظرت إليه ، واستدار حاجباها السوداوان ، كلون الفحم ، الدقيقان بصورة مدهشة .

— ماذا تعني بـ « كل شيء سيكون على مايرام » ؟ وماهذه اللغة ، لغة الفرسان المبتذلة « ياسيدة قلبي » ؟ أعتقد ، أنك حفظت روايات والتر سكوت عن ظهر قلب !

— ياللشيطان ! ، انك فعلاً سيدة قلبي .

طيلة الأمسية . لم يستطع أن يفهم ماالذي كان يجذبه ، بصورة لاتقاوم ، إلى وجهها ، والآن فقط ، في ضوء الصباح الحلي الزجاجي ، رأى بصورة صاعقة : كانت عيناها وديعتين مخمليتين ، في طرفهما حوّل خفيف ، وكانت شفتاها ممتلئتين قليلاً ، مستعدتين للفرحة والمسرة

خلف المائدة ، كانت تجلس قبالته ، وكانت تشرب النبيذ بجرعات صغيرة ، وتمسك القدح بحياء ، سألته مرة بصوت سلس : « لاتبدو عليك أمارات المرح — هل تشعر بالملل هنا ؟ » ، وفي محاولته التغلب على ارتباكه ، تمتم بفكاهة طلابية : « لقد مرضت جدتي بالحصبة » — وأراد أن يكسب الحديث الذي بدأه خفة طبيعية ، غير متكلفة . بيد أنه استدار ، مصادفة ، ورأى في المرآة وجهاً أحمر ، متوتراً ، ولم يعرف نفسه مباشرة ، مذهولاً من عجزه الجاهل على متابعة حديث المائدة في جماعة مدنية ، غير عسكرية . وهنا غضب كريموف من عدم لباقته ، وشرب من اليأس أكثر مما يجب ، وبعد أن أثارته موجة من الصداع ، شرع يحدث ويروي النكات والفكاهات دون خجل ، والنطق بالأنخاب ، قالباً على الطاولة القدح بذيل سترته التي اشتراها ، منذ أمد قصير ، بدلاً من السترة العسكرية الخارجية . أما هي ، فقد أخذتها الدهشة وذرت الملح على السماط ، وقالت بمرح أن عيد رأس السنة يشبه عيد ديونيس الاغريقي القديم،وأن إراقة النبيذ من الطقوس التقليدية المقدسة .

في الساعة الثانية عشر ليلاً تماماً ، صرخ على طريقة الجنود «أورا» ، تحت فرقعات أغطية زجاجات الشمبانيا ، وبعد ذلك ، وفي حمية مشاعر

العيد ، بدأ يدور على الحضور مقبلاً ومهنئاً كل واحد بعبارات التهاني التقليدية ، ثم توقف بالقرب منها ، وصاح بعزم جريء صيحة « غوركا ! » * الداعية إلى التقبيل - وفي بهلوانية جسورة قبّلها مرتين ، أما هي ، فلم تلحق أن تثوب إلى رشدها ، وأن تعترض ، وقالت هامسة :

— ماهذه الـ « غوركا ! » ؟ هل فقدت عقلك ! — وأضافت وهي تضحك ، وقد احمر وجهها : — ياله من غريب الأطوار !

وعندما أُبعدت المائدة ، وبدأ زحام الرقص ، جلس على الديوان ، في ظل غطاء المصباح القرمزي ، ودخن سيجارة ، وقد تعرق من الاضطراب ، ورأى كيف يقترب منها شاب مهمل ، مهلهل الثياب ، مشعث الشعر ، ذو وجه مخمور ، ويدعوها للرقص ، غير أنها ألقت عليه نظرة سريعة ، وهزت رأسها سلبا . « برافو ! - قال في نفسه — ولكن الق علي نظرة ، ولو لثانية واحدة ، أنا لست سيئاً إلى هذه الدرجة ، أقسم بشرفي » . في اللحظة ذاتها ، ناداها أحدهم ، فمرت أمام الديوان ، حيث كان يدخن جالساً ، فنضحت عليه بالهواء وبرائحة ثوبها . ومن المفترض أنها أحست بنظراته التي رافقتها ، وقد ارتخى بغباء ، لأنها التفتت إلى الوراء ، ووجهت نحوه نظرة متسائلة وهزت كتفها .

كان كريموف شاباً ذا هيأة عادية ، لهذا كثيراً ما كان يعاني من غيرة مرضية ، وهو يتأمل النساء الجميلات ، اللواتي يلتقيهن في الشارع

---

* « غوركا » صرخة يطلقها الضيوف في العرس ، تعني حرفياً « مرة ! » وتدعو العروسين لتبادل القبلات — المترجم —

أو ضمن جماعة ما ، وعندما كان يجد في مظهرهن الخارجي عيباً من العيوب (أنف طويل قليلاً ، أرداف عريضة جداً ، أرجل غير مستقيمة تماماً) ، كان يفكر بسخرية مطمئنة : « اذن ، ليس هناك نموذجاً للجمال والروعة ، حتى بينهن » . لكنه في تلك الأثناء ، كان طيلة الليل لا يستطيع التعرف على نفسه ، مأخوذاً بوقاحة المازح ، وجرأة اليأس ، خائفاً للحظات ، من ألا يزول الضباب قريباً ، وتتجلى عيوبها على الفور ، ويغدو كل شيء واضحاً .

نزلا من الطنف ، عندما خفت الضحك وصرير الثلج والأصوات خلف البوابة ، وفرغ الفناء من الناس . وقفا ، كلاهما ، متوردين في الفجر الكانوني ، لا يدركان ماذا حصل ، كان يحيط بهما الصباح الشتوي القارس ، وفراغ السماء بهلالها الباهت ، والبخار الجليدي ، والكثبان الثلجية في منطقة زاموسكفوريتشيي — هل من المعقول أن يكون قد انتهى المخدر الليلي ، والهرج المرح في هذا البيت الخشبي المريح ، وعليه الآن العودة إلى مسكنه الجامعي ، وعليها العودة إلى بيتها ، الواقع في مكان ما ، في أوستوجينكا ؟

— لقد تفوهت بسخافة من السخافات ، — قالت أولغا — ألم تلاحظ ؟

— صحيح تماماً . هذا يحدث عندي ، في أحيان كثيرة .

كانت أصابعها تتحرك بانتظار في يده ، أما عيناها الحولاوان ، فقد مستا حدقتيه بابتسامة .

— عام سعيد ! وأين زميلك الذي كان يحمل الحاكي ؟ أتذكر كيف كان كل شيء مضحكاً وغريباً ؟

— لقد رأيتك هنا ، في الفناء ، — أجاب كريموف ، وهو بالكاد يسمع صوتها ، وسبح في العمق الداكن لعينيها المخمليتين ، متذكراً كيف اندفع وصديقه إلى المدخل الصغير ، ضاحكين ، منتفضين ، مدخلين زمهرير المساء الموسكوفي الثلجي إلى الدفء . أما هي ، التي التقتهما صدفة في الفناء ، فقد كانت منتعشة أيضاً ، وخلعت جزمتها قرب مشجب الثياب ، وحدثت أحد الحضور : « أنظر ، فأرى شخصين يحومان حول العنابر ، يمسك أحدهما بيد الآخر . أسألهما : إلى أين ؟ فيجيبان ، ما رقم البناء الذي نحن فيه ؟ لقد ضل البائسان طريقهما . ها قد أحضرت لكم ضيوفاً ! » . أما صديقه ، طالب الدراسات العليا في معهد التعدين ، فهو شاب رائع ، يتقن الاهتمام بالنساء ومداعبتهن ، وقد ارتمى أمامها على ركبة واحدة بفطنة وشجاعة ، وهو يقول « يامنقذتنا » ، وساعدها بمهارة على خلع جزمتها ، على طريقة الفرسان ، وهذا ما أضحكها .

— كل شيء كان مضحكاً — ، كررت أولغا ، دون أن تبعد عينها عن حدقتيه ، وخلصت يدها بهدوء .

— أنت ثمل قليلاً ، لكنك ، هل تذكر على الأقل ، ما قلته آنذاك في المدخل ؟

— على الأغلب . . . — أجاب كريموف ، عاجزاً ، كما في السابق عن إدراك ما تسأله عنه بشكل دقيق . . . — كنت أهذي على مايبدو . . .

— لقد قلت آنذاك : « الشيطان يعرف ماذا هنا ، الشيطان نفسه يكسر رجله في هذه الأحواش ، المليئة بالكثبان الثلجية ! ها قد التقى أحمقان وفتاة جميلة ، طائر السعادة ، حتى أنهما لم يتعارفا عليها ! » .

— هل قلت أنا هكذا ؟

— بل وأضفت أيضاً : « لقد جلبنا معنا الموسيقى . جهاز حاكي واحد للجماعتين » .

— أوه ، يالي من غبي مريع ! أبله عبيط ! . حمار بهيم !

— ماذا تقول ، على العكس ، كان جيداً : لقد قلت هذا من الارتباك — اعترضت أولغا ونظرت إلى الفناء ، حيث كانا يقفان وحيدين بين ركام الثلج الكبيرة ، التي كانت ترقد عليها بقع حمراء . — أعتقد أن علينا أن نتحرك . . .

— ألست أبلهاً حقاً ! — قال كريموف ، مغمضاً عينيه ، وتصور الأمسية كلها ، وتصور نفسه ، وقد حلت عقدة لسانه ، لاذعاً ، واثقاً من نفسه ، وغمره الحياء والخجل : ذلك أنها كانت تستمع إلى سخريته غير المحتملة . (« أتريدون شمبانيا ؟ » كان يسير حول الطاولة ، حاملاً زجاجة الشمبانيا وهو يقول : « هل تريدون أم لا تريدون ؟ » كانوا ينظرون إليه متوقعين المقلب أو الفكاهة ، ولكن لم يكن هناك مقلب ولا فكاهة . « ماذا تريدين أن تقولي بذلك ؟ » — « وأنت ماذا تريد ؟ ») « ماذا أصابني ؟ وكأنني في حالة هذيان ، وكأنني شربت سماً حلو المذاق ، أردت أن أحوز على اعجابها ، بيد أن لولباً ما في داخلي قد انكسر » .

— كنت ثملاً ، — قال كريموف ، شاعراً بذنبه . وكان عليك أن تكرهيني . . . .

— عم تتحدث ؟ — ذهلت أولغا . — هل يعجبك الثلج ؟ الثلج المتساقط عشية السنة الجديدة ؟

— أنا لا أفهم . . . . — تمتم كريموف .

— وما الذي يحتاج إلى فهم هنا ؟ الثلج يتساقط ، المصابيح متوقدة ، وأنتما حول الأحواش ، تسيران يمنة ويسرة ، ومعكما الحاكي ، وفجأة تلتقيان طائر الأحلام — أعتقد أن هذا بحد ذاته طريف ! لم تكن بعد ثملاً آنذاك . كانت عشية رأس السنة . أما الآن ، فقد أصبحنا آخرين. لقد زاد عمرنا عاماً جديداً، هذا كل شيء . أوصلني إلى موقف الباص. أما طائر الأحلام فلم تمسك به . . .

ربتت بيدها على كم معطفه العسكري بهدوء وود ، واتجهت نحو البوابة على الطريق المغطى بالصقيع ، وتموجت قليلاً حاشية الفراء لمعطفها الضيق ذي الحرملة فوق جزمتها . واندفع هو خلفها ببلادة وغباء . « الله أرسل للغراب قطعة جبن . . . » أمثولة كريلوف هذه ، كانت تدور في رأسه وتقرعه بمطارق غامضة ، عند مرأى حركة معطفها الرشيقة المتزنة ، حتى أنه لم يصدق صفاقة نكاته وفكاهاته الوقحة السابقة وصراخه الماجن « غوركا ! » وتلك القبلة التي كررها مرتين على وجنتها ، والتي أثارت خوفها (عضت على شفتها من الألم حتماً) . «وهذا أنا ، العسكري الوقح ، دخلت إلى حديقة الجنة بسحنة شجرة بلوط ! قه ، قه ، يالي من فارس ! . . . »

— شكراً . هنا سأركب الباص بنفسي . أما بالنسبة لك ، فستأخذ عربة الترام ، كما أعتقد . هناك ، أترى الموقف ؟ كم أنا سعيدة الحظ — الباص قادم ! . . . يا لهذا الصباح ، إنه صباح رائع ! أكبر الظن أن مثل هذا البرد الشديد لم يحدث منذ القرن السابع عشر . أتتصور ، بيوت ومنازل منقوشة ، الدخان يتصاعد من المداخن ، النوافذ منارة من

زواياها في الفجر ، والغربان تحوم فوق قباب الكنائس ، كما هو الآن ، يا للروعة !

— الآن ؟ . . . أنت الآن سترحلين بالباص ؟

أما في الشارع ، الخالي من أي عابر سبيل ، الهادىء ، الذي اجتاحه عيد رأس السنة ، فقد همد الصباح في البخار المتجمد ، في الندى المثلج الكبير ، الموبر على الأسلاك ، في العتمة الليلكية للكوى المغطاة بالثلج ، وفوق القبة المتوردة كالتوت ، للكنيسة شبه المخربة ، كان يتعلق هلال ، كالأسطوانة الشفافة ، ويذوب ، وهناك كانت الغربان تتمايل بفوضى وسواد وقلق ، وكانت تزقزق بصوت عال في الهواء الدافىء ، وكان صوت الأسى القديم هذا يمزق له روحه .

— اهدني بريق عينيك الرائعتين ، في لحظة الوداع ، علينا أن نفترق ، نحن سنرحل الآن إلى الغرب . . . — أنشد كريموف بعبث وغفلة ، وأزاح قبعته العسكرية إلى نقرته ، وكأنه أراد أن يقوم بنزوة شاب ريفي ، مرحة ، وبعد أن خلع قفازه ، مد لها يده . — اعطني كفك ، هيا ، هذا باصك ! إلى اللقاء ، حان وقت الفراق ! (« ماذا أقول ! هذيان ! جنون ! ثمة خبل في عقلي ! ») اهدني ، في لحظة الوداع . . . — أنشد من جديد ، بصورة مزيفة ، في يأس الخجل ، لأنها لم تمد له يدها ، عاضة شفتها السفلى بأسنان نظيفة آسرة . — اهدني في لحظة . . .

— تفضل ، سأهديك ، ولكن كفى ، توقف — قاطعته أولغا ، مطوقة وجهه المنتعش السخيف بعينين مرفوعتين ، مشبعتين بالشفقة المزدرية . — واذهب ، اذهب بسرعة ، أيها الشقي ! . . . — أكملت

حديثها وأدارت له ظهرها ، ثم نزلت بسرعة من الرصيف إلى حافة الطريق في مواجهة الباص ذي النوافذ الزجاجية المغطاة بالندى الثلجي الأبيض ، الذي كان يقرقع على الجليد بعجلاته .

— توقفي ! — صاح ، وانقطع الصوت في حنجرته فاختنق ، بيد أنه سرعان ما قفز اثرها إلى الباب الذي انفتح بقرقعة للباص البارد الخالي من الركاب تقريباً (ثلاثة ركاب كانوا جالسين كالقنافذ ، شبه نائمين ، على مقاعد متباعدة) ، وأخرج من جيب معطفه العسكري قطعة نقدية صغيرة وركض نحو الجابي المتدثر بمعطف سميك من الفرو . — بطاقتان ! واحدة منهما للذكرى ! — قال كريموف بحماسة مفرطة ، ومال نحوها ، حيث جلست على مقعد جانبي ذي تنجيد صرار ، وقال بدقة ، وجرأة ، وثقة بالنفس : — إذا لم تعطني رقم هاتفك فسأقبلك من جديد . . . على مرأى من الجميع ! هنا . أتعرفين ، إنك ترتكبين جريمة بحقي ! إذا لم أراك . . .

— اخرج ، اخرج ، يالك من مهرج بائس . . . — قالت أولغا بتقزز ، ومالت على الزجاج المغطى بالصقيع ، وضحكت ضحكة غير طبيعية . — ماذا تفعل ؟ ماهذه المصيبة التي ألمت بي . . .

— أرجوك رقم الهاتف ! — صرخ متوسلاً ، دون أن يعير اهتماماً إلى ذهول الركاب الشاخصين إليه ، وكأنه التقط صوتها من بين الضباب ، فقفز من الباص ، ضارباً كتفيه بفتحتي الباب المنغلق . — أظن أنها قالت رقماً أم خيل لي ذلك . . . يجب تسجيله ، يجب تسجيله ، — تمتم بجنون ، واضعاً بطاقة الباص على عمود المصباح الكهربائي ، وبقراضة قلم رصاص سجل الرقم . — أم خيل لي ذلك ؟

وقف وحيداً على الرصيف ، ناظراً ببلادة إلى دخان الباص ، المتـ
بين الثلج . وخنق الهواء الصقيعي تنفسه .

استمر عذاب كريموف المتواصل أسبوعاً كاملاً ، وحاول
يفهم ، دون جدوى ، ما الذي يحدث له ، غير مدرك بوضوح ا
التي تدور من حوله : فكانت تظهر وتختفي بالقرب منه الوجوه الم
وغير المألوفة ، وكانت تمر كالظلال صور الأساتذة في القاعا
وتصل إليه من مكان ناء بعيد أصوات الطلاب وصفير عربات التر
وصوت اسمه ، وكان يطوقه أحياناً السكون البارد للقاعات ، .
كانت تنسكب أشعة الشمس الشتوية بصورة مائلة ، وتنعكس
الطاولات والمقاعد ، ثم بدلاً من تناول طعام الغداء كانت الفو
في المطاعم الشعبية الرخيصة تحرق أحشاءه ، وأخيراً كانت تشعل الأ
وتظهر النوافذ بستائرها المسدلة ، والبوابات ، وأجساد تماثيل الأط
المائلة ، الحاملة للشرفات ذات القضبان الحديدية الصب فوق مد
أوستوجينكا القديمة . في هذه المنطقة ، كان يسير ساعات طويا
وينظر طويلاً إلى أرقام الشقق السكنية ، ويصعد إلى الطوابق ، وي
دون كلل أو ملل أمام ردهات الأدراج ، وفي الزوايا ، ومقابل الأقو
داخل الأفنية ، أملاً أن يلتقيها ، كان ينتظر بصبر وعناد ، وبعا
يرتجف ويقشعر نهائياً من البرد في ليالي العواصف ، كان يعود
سكنه الجامعي في الأزقة الخالية من المارة ، رافعاً قبة معطفه العسكر
الذي لا يجلب الدفء ، فوق رقبته ، متنفساً بأنفه هواء رطباً ،
عاصفاً . « سوف أعثر عليها ، سوف أجدها » ـ لم يكن يفارقه .
تلك الأمسية . وصباح العام الجديد ذاك ، كان يحرقه بالعار والحج
وفي الوقت نفسه ، كان يسيطر عليه مثل مرض لذيذ غير قابل للشف

يقرب إليه في هذيانه المرغوب صوتها الناعم المنسجم ، ونظرتها اللطيفة الحولاء قليلاً ، ومعطفها ذا الطرحة ، المتموج فوق جزمتها . وكان يلاحقه ذلك النغم المسيطر ، المتكرر بلانهاية في تلك الليلة ، من أغنية « اهدني في لحظة الوداع . . . » ، والأزيز المتكرر لأسطوانة الحاكي ، وصوته المزيف ، الذي ردد هذا اللحن أمام موقف الباص . بيد أنه كان يراها غالباً ، وهي جالسة على مقعد جانبي ، محنية الحاجبين ، وقد أنارتها بصورة متوردة ، أشعة الشمس الصباحية ، المارة عبر الزجاج المتجمد ، وكان همسها العدائي يمر عبر جسده كالتيار الكهربائي : « ارحل ، اخرج ، يالك من مهرج بائس . . . » .

فيما بعد ، لم يستطع أن يفسر ، بصورة منطقية ودقيقة ، بأية قوة إرادة ، وبأي ولع كبير ، وبأية تراكيب مخترعة لأرقام الهاتف (فالرقم الذي سجله على بطاقة الباص لم يكن يجيب) ، وبأية دراسة يومية مسائية للبوابات والمداخل في حي أستوجينكا ، استطاع العثور عليها في نهاية الأمر . وكان من المستحيل أيضاً تفسير سبب موافقتها على الذهاب معه ، ليحلا ضيفين على بيت صديقه ، طالب الدراسات العليا في معهد التعدين ، الذي سافر بمهمة .

أما المسكن المتواضع لصديقه ، بالقرب من تاغانكا (غرفة ومطبخ) فقد كان في تلك الأمسية مملكة خيالية للسكينة والخير الذي لا مثيل له ، الخير الصاعق المذهل لأنها كانت إلى جانبه ، حيث كانت تمس المدفأة الحامية ، وتتأمل خزائن الكتب والمرآة العتيقة ، — وشعر كريموف من جديد بموجة المخدر السام الحارة ، رغم أنه لم يشرب نقطة واحدة من المشروب ، وشعر أنه سوف يجن ، وسوف يبدأ الآن بالكلام

القارص وسرد النكات والفكاهات دون تمييز – وهل من المعقول أن يتكرر ذلك من جديد ؟

وصفّر ساخراً من نفسه ، واستلقى على الديوان ، ووضع يديه تحت رأسه ، وأخذ ينظر بخضوع إليها ، كأنه طفل ، مفتون اللب والفؤاد .

كانت تجلس على الأريكة ، وتنظر متأملة بعينيها الداكنتين النقيتين ، أما هو فقد كان غارقاً في سكينة عزلاء ، لا يستطيع أن يتصور ، كيف تجرأ على تقبيلها آنذاك في عيد رأس السنة ، ثم قول الترهات المختلفة بعد ذلك .

– أولا ، – ناداها هامساً . – هل تريدين أن أموت ؟

– اسمع . . . أظن أنك الآن لست مخموراً ؟

– لست واثقاً . أولا ، سوف أموت ، إما بسبب غبائي . . . أو لأنني لا أعرف مايجري لي . . . اجلسي إلى جانبي على الديوان ؛ لا تخافي ، أرجوك .

جلست إلى جانبه على الديوان . ومن جديد ، كما في ليلة رأس السنة ، كان وجهه يفوح بهواء عليل بسبب حركتها .

– دلليني ، – طلب منها ، وأغمض عينيه .

– ماذا ؟

– دلليني ، امسحي بيدك على رأسي .

وأخذ يدها ، متذكراً الملمس المنتظر لهذه الأصابع الخفيفة قبل

ثلاثة أيام في فناء منطقة زاموسكفوريتسك ، وأمرَّ بها على جبينه ، على شعره ، ووضع رأسه على ركبتيها ، ومسح وجنته ، وقد شعر برائحة الصوف في تنورتها القماشية ، وبدفء ركبتيها المتلاصقتين ، الأنثويتين المستديرتين ، وكانتا مرعبتين له بسبب قربهما منه ، لدرجة أنه قال بهمس متلاش :

— أولا ، ان رأسي يدور ، وكأنني على حافة الهاوية .

— أي عقوبة لي هذه ! أنت ضابط ، وتحمل خمس ميداليات ، في حين أنك مثل الصبي . . . .

— أولا . . . أتريدين ، سأموت أمام عينيك ؟

— ماذا تفعل ؟ لماذا ؟ — قالت أولا ، وقوَّمت ظهرها ، ناظرة إلى النافذة بعصبية . — لماذا ؟ ماهذه المصيبة . . . .

أما هو فقد صمت ، وهو يمسح وجنته بالدفء الصوفي لتنورتها ، وبركبتيها .

خلف نافذة المملكة الهادئة لهذه الغرفة في حي تاغانكا ، كان الغسق الشتوي يزداد زرقة ، وأضيئت الأنوار الأولى ، وكان الثلج الكثيف البطيء يتساقط ويتساقط دون انقطاع . وكان يمر تحت المصابيح الضبابية في فترات متباعدة الترولي باص ، الهادىء ، رامياً شرارات بنفسجية من أسلاكه ، وعلى الجسر البعيد كانت تزحف ببطء عربات الترام المنارة مساء ، وكان رنينها لا يكاد يصل إلى الآذان عبر ستار الثلج المتساقط ببطء ورتابة .

ثم طرق الباب ، على سبيل الاستئذان ، ودخل صديقه ، وقد

ارتدى جزمته ومعطفه ، حاملاً حقيبته التي رتبها ، كما يبدو ، في المطبخ (كي لا يزعجهما) ، ودون أن يشعل المصباح الكهربائي ، سعل ، ثم سألها بصورة مباشرة وصريحة ، وهو يميل بطبعه عادة إلى الحديث المازح :

— هل تحبينه ؟

— سؤال غبي لا يحتمل ! — نهضت أولا وجمعت بين حاجبيها — . وان كان نعم ؟ أو كان لا ؟ ماذا ينتج عنه ؟ أين مفتاح الكهرباء عندك ؟ أشعل النور !

— تصبحان على خير . ان قطاري بعد ساعة ، — قال الصديق مضيقاً عينيه بارتباك للنور المشعل ، وارتدى قبعته . — أترك المفتاح هنا . أتمنى السعادة.

تراجع نحو الباب ، وانحنى لهما ، تعبيراً عن تمنياته الطيبة ومشاركته الوجدانية .

— إلى اللقاء ، يا صاحب اللسان اللاذع ! — صاح كريموف ، ونهض من على الديوان ، وأغلق الباب خلفه ، ثم وقف أمام العتبة ، داساً يديه في جيبيه . — نعم ، إذا كان نعم ، ونعم إذا كان لا ، — قال بحدة ، ونظر من خلال كتفه شبه متسائل . — على أية حال ستصبحين زوجتي .

« لقد بدأ الجنون من جديد ؟ يحل الشيطان من جديد في داخلي ! »

— أنا ؟ زوجتك ؟ وهل يمكنني أن أصبح زوجة إنسان غريب وغير مفهوم ؟

فقال بصوت متمرد :

— سترين من أنا ، أي شاب غريب ، أي شاب غير مفهوم ، إنما أي شاب جريء أنا ! اعلمي ، أنني خدمت في الاستطلاع . أتتصورين ماهو استطلاع الفوج ، وماذا يعني السير في مؤخرة الألمان ؟

— اشفق علي من فضلك . وهل من المعقول ، أنك تريد الانتصار علي ، كما في الحرب ؟ أنت متبجح منفاخ ، محب لذاته . . .

— أولا ، حبيبتي ، ارحلي الآن ، على الفور ، أنا أعرف أن أهلك ينتظرونك في البيت ! اذهبي . هكذا سيكون أفضل . وإلا . . . (« من جديد ، من جديد ! . . . ») .

— شكراً . سأذهب . وإلا ، ماذا ؟

— وإلا ، لن أستطيع أن أتمالك نفسي . اذهبي ، أرجوك . أنا أحبك . الشيطان وحده يعرف كم أنا أحبك ! . . .

أوصلها كريموف حتى موقف الباص ، ثم دار طويلاً في مكانه حول المصباح الكهربائي ، متغضناً ، وكان يشعل عيدان الثقاب ، أما الريح الصاعدة بين الأبنية فكانت تطفىء النار ، وكان الثلج الرطب يلصق بالسيجارة . ثم جمع راحتي كفيه ، على طريقة العسكريين في الجبهة ، وتمكن أخيراً من اشعال السيجارة ، وسحب منها سحبة ، بيد أن إعصاراً ثلجياً انتقم منه ، ورمى بقوة كبيرة لا تقاوم الشعلة من السيجارة ، وعندها ، ولأول مرة منذ سنوات عديدة ، بكى من العجز والضعف . كان يبكي بحقد انفعالي لذيذ على نفسه ، على هذا الجنون الجامح ، على كل ما كان مرتبطاً بتلك الأمسية القدرية عشية

رأس السنة ، وبذلك الصباح المثلج الرطب في الفناء في منطقـــة زاموسكفوريتسك .

– هل كان هذا هذياناً أم حالة طبيعية ؟ بيد أنه كان واضحاً في ذهنه شيء واحد : هو أنه أحب أولا حباً جنونياً ، فلقاءاته العارضة السابقة مع النساء الأخريات لم تثر هذا الجنون ، لم تثر ذلك الحنان النهم ، ذلك التعطش الدائم ، الذي كان يشعر به نحوها .

أجل ، ذلك كان زمن آخر ، وكانا هما غير ماهما عليه الآن ، في تلك الأثناء ، بدأت مرحلة الشباب الخالدة ، التي لا تنسى .

* * *

الفصل الثامن عشر

في ذلك اليوم ، وبعد أن ودع فالنتين ، لم ينتظر أولغا ، وخرج كريموف من البيت . لم يعثر عليها في المرج ، وسار وحده في الغابة على ضفة النهر المرتفعة ، على طول الأماكن الرملية الضحلة ، حيث كان يحط البط البري في الربيع . كانت الغيوم ، في البداية ، تسبح في المياه وتنساب بتكاسل صيفي (« من أين هذه المتعة التي لا توصف في حركتها البطيئة ؟ ») ، وعند الغروب توردت غيوم رفيعة — أنثوية بنعومة ، عند المنعطفات ، واعدة بالغبطة السماوية (« ان هذا خداع رائع ») ، ثم بدأ يندفع تدريجياً ذلك الإحساس الفتي الخفيف في أمسية تموزية ، يتبخر فيها دائماً نور الشفق الطويل ، انه شيء ما مرهف ، متقلقل ، ليست له حدود زمنية دقيقة . وفي الظلمة المزرقة الخفيفة ، جلس كريموف وقد سيطرت عليه رطوبة السرخس ، على شجرة بتولا منهارة ، وأخذ يدخن ، طارداً البعوض بغصن من شجرة ، وكان ينظر إلى الضفة الأخرى ، التي كانت تبرز خلف النهر المتلألىء . كان يبعد عن بلدة المنازل الريفية حوالي ثلاثة كيلومترات . هناك ، في ظلمة الغابة ، لم يكن يصل إلى الأنظار ولا ضوء واحد ، رغم أن الأنوار كانت مشعلة ، كما يبدو فوق الأسوار وفي جميع زوايا البلدة ، وكانت تتراءى بين أشجار الصنوبر نوافذ « الفيللات » ، وكان غطاء مصباح الطاولة ، في غرفة أولغا مخضراً بصورة آسرة ، وعلى مقربة منه كان

المصباح مشعلاً في مكتبه — ففي انتظارها له في الأمسيات ، كانت أولغا تشعل الضوء في العلية ، مفسرة موقفها الغريب بابتسامة صغيرة خفية : « أنا أشعر بالخوف عندما أكون وحيدة ، وهذه المنارة الصغيرة أشعلها ، كي تعثر بسهولة أكبر على الطريق إلى البيت » .

« أنا أشعر بالخوف عندما أكون وحيدة ، وهذه المنارة . . . » — تذكر كريموف متأثراً ، وعندما نهض ، وهو لايكاد يميز الدرب الضيق ، نزل على السفح الشديد الانحدار إلى الضفة ، حيث كان يتوقد بلمعان خط متعرج من الأضواء المنعكسة في الأسفل : كانت الخيوط المتعرجة الذهبية تتدفق وتتحرك . لم يدرك كريموف على الفور هذا الشيء الذي كان يضيء متلألئاً ، ويلمع ويتعرج في الماء الأسود .

تجاوز كريموف الشجيرات ، وسار فوق جسر صغير ضيق ، محاط من جميع الجهات بكورس مغتبط من الضفادع ، التي تنق بين القصب في الأماكن الضحلة ، وهنا رأى شيئاً ما ، يلتهب ، ويسبح على المجرى السريع للتيار . ففي تلك الضفة ، في الغرب ، حيث كانت السماء أكثر إشراقاً بسبب الشفق ، وفوق الذروة الداكنة لشجرة البتولا كان نجم كبير غير معروف يتلألأ بأضواء ماسية آسرة .

« ماهذا — الزهرة ، المريخ ؟ — فكر كريموف ، المفتون بالبريق الاحتفالي فوق ذروة شجرة البتولا . — عشت حياتي كلها ولاأعرف ...».

توقف كريموف في منتصف الجسر ، رافعاً رأسه ، ورأى بين شقوق الذرى الجامدة لمعاناً بعيداً لأضواء النجوم ، وغبطة السماء العظيمة ، وكل هذه النجوم المنثورة المتلألئة ، والارتجاف السماوي للاشعة

الفضائية في أعماق الأغوار المريعة للمجرة ، وفاح في وجهه من الهوة السماوية برد أبدي ، وسر طقوسي لما لا يدرك كنهه ، وأخذت تسيطر على كريموف رغبة هادئة بطلب الصفح عن شيء ما ، عما أذنبه الجميع تجاه هذه العظمة ، عظمة الجمال الذي لا يدرك ، عن ذنب الجميع تجاه هذا اللا متناهي الاحتفالي الذي لا يعرف له اسم .

« ماذا نعرف ، نحن المتغطرسون ، والمعجبون بأنفسنا ؟ ؟ نحن واثقون من أننا نعرف كل شيء لكننا لا نعرف شيئاً . وماذا هناك ؟ وماذا بعده ؟ ولأي هدف ؟ وفي سبيل أي شيء ؟ — أين يكمن معنى كل ما هو أرضي وسماوي ؟ أم معناه بأنه بلا معنى إطلاقاً ؟ أم أن لكل شيء معنى ، وهو المعنى الذي يدركه الإنسان في لحظة الموت ؟ ربما يكون الموت هو إدراك كل شيء ؟ أجل ، ان السماء هي لغز ، مثلها مثل الموت . . . أجل ، أجل ، يجب أن نتذكر هذا دائماً ! بيد أنه لا يريد أحد تقريباً أن يتذكر هذا . ونحن ننسى ، ولا نريد أن نعرف ، أن التواصل مع الجمال الغامض هو فرحة ، وأن الفرحة هي الحكمة العليا . كم هي تافهة الهموم والمساعي الإنسانية كلها نحو المتعة الآنية ، والحسد ، والغرور . . . أي ترهة لا معنى لها ولا فائدة منها ! كم من الناس على الأرض توصلوا إلى هذا الفهم ! وماذا كانت النتيجة ؟ »

سخر كريموف من فهمه هذا للعبث الأرضي ، ناظراً إلى النجم الذي يتلألأ بأشعته المتحركة ، ومع ذلك ، كان يشعر في أعماق روحه بالضياء والانعتاق .

* * *

بالفعل ، كان النور شاعلاً في العلية في مكتبه ، وكان يظهر من خلال الأشجار ، وكانت نافذة غرفة أولغا إلى جانب مكتبه مضاءة بنور أخضر هادىء من مصباح الطاولة . ودون أن يشعل المصباح الكهربائي في الطابق الأول ، صعد كريموف بسرعة إلى العلية ، وكان باب غرفتها منفرجاً بفتحة صغيرة . كان الشعاع الضوئي القادم من غرفتها ، يقطع الديجور على بهو الدرج ويقسمه إلى قسمين ، وبدا وكأنه ينبعث من غرفتها هدوء الليل والفراش النظيف .

— ألست نائمة ، يا أولا ؟

. ودخل كريموف . كانت أولغا جالسة على الأريكة الخيزرانية ، مرتدية بنطال العمل ، وقميصاً أسود اللون ، تسند ذقنها بقبضة يدها ، وتتأمل لوحة صغيرة ، لم تجف بعد ، رسمتها اليوم ، وقد وضعت على الأرض ، مستندة إلى الجدار ، ومنارة بمصباح الطاولة الكهربائي . كانت هذه اللوحة تمثل منظراً طبيعياً : غروب الشمس المنطفىء خلف الغابات ، البريق الأخير في الماء ، والارتجاف القلق المندفع للنجم الأول في اللمعان القرمزي . وربما كان هذا بريق ذلك النجم المسيطر ، وغير المعروف ، الذي كان ينقل أشعته الماسية فوق القمة الداكنة لشجرة البتولا ؟ فهل هي رأتها أيضاً ؟

— هذا أنا ، يا أولا ، — قال كريموف بصوت خافت . — مرحباً .

لم ترفع أولا يدها عن ذقنها ، ونظرت إليه بعينين حولاوين وهزت رأسها غير مصدقة .

— مرحباً . في مثل هذا الوقت المتأخر ، يا سلافا * ؟

---

* سلافا — تصغير وتحبب لاسم فياتشيسلاف — المترجم —

سمع صوتها ، ولم يميز مافيه ، هل هو استفهام بسيط مازح ، أم عتاب مبهم ، وتنفس الصعداء بأسف ، وعندما اقترب منها من جهة ظهر الأريكة ، رأى شعرها المجمع في حزمة وفق التقاليد القديمة ، وأذنها الصغيرة ورقبتها المفتوحة بقميص العمل ، وقال بحذر :

— أنا ، كالعادة ، مذنب دائماً . انطلقت أبحث عنك . فلم أجدك . فاتجهت صوب الغابة ، بعد الجسر . وهناك ، كان كل شيء مناسباً للتفكير . بالمناسبة ، لقد رأيت ولادة الليل . كان رائعاً . . .

— واضح . ألم يكن معك أناتولي بتروفيتش ؟

— لقد رحل باكراً . غريب . . . هذا النجم ، كالنجم المرسوم في لوحتك ، رأيته أنا أيضاً . ولكن تحت الجسر ، أمام الوتد . هل هو المريخ أم الزهرة ؟

— اذن ، كنت وحيداً ، وكان رائعاً ، — قالت أولغا بلهجة الاستهزاء الخفيف ، ناظرة من الأسفل إلى وجهه بتعبير منتظر .

أما هو ، فقد قبلها باعتذار ، وهو واقف بالقرب من الأريكة ، من شفتيها المنفرجتين عن ابتسامة صغيرة .

— أعتقد أنها المرة الأولى منذ سنوات عديدة ، أشاهد فيها الزهرة أو ما يشبهها ، قال كريموف ، شاعراً بعدم الاكتراث والبرودة في شفتيها ، وقال بشيء من المزاح : — وأنت مع من كنت ؟

— وحدي مع نفسي .

— وكيف كنتما ؟

ـ تصور ، كنا في حالة ممتازة ! وكيف تواصلنا ، وتحادثنا ، وبكينا جيداً .

ـ بكيتما ؟ على من ؟ ولماذا ؟

ـ عليك ، وعلي .

في عينيها المخمليتين الهادئتين ، كان ثمة تساؤل غير مكتمل ، كما في السابق ، ليس من عادتها ، وقد أحس كريموف بأن خلف هذا التساؤل هناك شيئاً مقلقاً ، مؤنباً ، معاتباً ، تخفيه بعناية ، وقال لها بدون رموز كلامية لا لزوم لها بينهما :

ـ أولا ، ان أمكن ، اشرحي لي ماحدث . اليوم ، أنا متعب قليلاً ، ولن أفهم شيئاً . أنت مغتاظة مني لسبب ما ؟

ـ لا ، أبداً . كل مافي الأمر ، أنني بكيت على شبابنا الراحل . لكن هذه أمور تافهة ، إنها رومانسية النساء .

نهضت أولغا وأحاطت كتفيها بيديها ، وكأنها تعانق نفسها من أجل أن تصطلي وتتدفأ ، ووقفت أمام لوحة المنظر الطبيعي ، واستدارت شفتاها استدارة خفيفة ، شبيهة بالابتسامة (أما هو فقد تذكر فتورهما البارد المميت ، الذي قرصه قبل دقيقة واحدة) ، وعلى هذا النحو ، ربتت بكفيها على كتفيها ، معانقة نفسها ، ثم ابتعدت جانباً ، خلف ضوء المصباح ، ومن هناك ، من الظل الأخضر ، قالت بصورة متعمدة ، بصوت حيوي نشيط :

ـ لم أكن أفكر أبداً ، أنه سيحدث هكذا يا فياتشيسلاف . وكم هو محزن ، وفي غير محله !

ـ يحدث ؟ ماذا يحدث ؟

ـ أعتقد ، أنك لا تحسب قواك بصورة صحيحة .

ـ هكذا كان دائماً ، ـ قال مازحاً ، حازراً بخوف كبير ما أرادت أن تقوله . ـ أنا أعرف عيوبي منذ زمن طويل يا أولا .

ـ أنا عرفتها مؤخراً ، منذ فترة قصيرة ، بعد أن عشت معك عمراً كاملاً . فماذا سنعمل ، يا سلافا ؟

« هذا ماكنت أخشاه ، إذلالها هذا . لقد كنت أخشى من أن تتلوث أولانا أو تمس بقذارة ما ، من قبل بعضهم . وهل من المعقول أن تكون قد وصلت إليها افتراءات الاستوديو بكامل ألوانها وأصباغها ؟ لا ، ان الناس بلا شفقة ولا رحمة . . . » .

ـ أولا ، لقد أصبحت غبياً بصورة مفجعة . لذا ، سأطرح أسئلة ساذجة : ماذا حدث ؟ هل اتصل بك أحد هاتفياً ؟ هل وصلتك رسائل ؟ مغفلة المصدر بالطبع ؟ . . .

من خلال الضوء الخافت . اكفهرت عيناها غير المبتسمتين ، أما شفتاها (كم من المرات قبلهما ، وهما فاترتين لا ترويان ظمأه) فقد ارتعشتا بانعكاس الاستغراب المتحفظ .

ـ أنا لا أدينك . لم تعد تحبني ، لذلك يمكنك أن تتصرف كما يحلو لك . المسألة ليست في الاتصالات الهاتفية ولا في الرسائل .

ـ أولا . . .

ـ هنا لا يمكنك عمل أي شيء . في الحياة يحدث كل شيء .

- أولا ، لماذا أنت ؟ . . .

« وهل من المعقول أنها تصدق الإشاعات ، وأن علي أن أشرح ، وأن أبرر موقفي وأبرىء نفسي ؟ لكنني لا أقوى على ذلك » .

وجلس كريموف القرفصاء ، وهو منهك ، بادي الاعياء ، بالقرب من اللوحة ، وهذه السماء الخضراء بعد الغروب ، والتلألؤ العنيف للنجم الأول في نقاوة الماء الفارغة ، والغيمة الرمادية من الغربان المحلقة فوق الغابة البعيدة في المساء ، والأنوار الصامتة القريبة للنجوم في السماء ، والعيد السري في أعماق المجرة التي لا قرار لها ، وحركة الأشعة وتنقلها وتحولها - هذه العظمة الاحتفالية كلها ، التي تكشفت له عند منتصف الجسر ، كما لو أنها من قعر فج عميق ، بين القمم الجامدة فوق الضفاف العالية ، فقدت خلال لحظة واحدة الأمل المعتق ، وفكر كريموف بيأس : « كل شيء قد أزيح من مكانه ووضع في مكان آخر ، وكل شيء يهوي إلى القاع ! » .

- أولا ، - قال كريموف بخضوع ، دون أن يجرأ على إدارة رأسه عن لوحة المنظر الطبيعي ، غير أنه لم يعد يرى فيه أية تفاصيل ، - أولا ، أرجوك شيئاً واحداً فقط : صدقي نفسك فقط ولا تصدقي أحداً ما . . . أتعرفين ، بم أفكر في الفترة الأخيرة ؟ هناك طيور مغردة وطيور صيادة . والطيور الصيادة ، حتى عندما تكون شبعة ، يمكنها أن توجه ضربة على النقرة بمنقارها الحاد . ماهو المغزى من ذلك ؟ لاوجود له . ولكن ثمة رغبة بالضرب ، بالأذى . أما الأسباب فهي آلاف مؤلفة وكل سبب أتفه من الآخر . أولا ، يحدث لي مالا أريده . إن الحياة ، لسبب ما ، عاجزة عن أن تعلمنا الصدق والحقيقة .

نحن سريعو التصديق إلى حد مفرط . وأنت أيضاً ، سريعة التصديق يا أولا . اليوم أيضاً ، فكّرت بمدى سخافة سعي الناس ، عندما رأيت في الماء فجأة هذا النجم الرائع ، عندما كنت فوق الجسر . . . على كل حال ، انها مبتذلة تلك الحقائق جميعها المكتشفة منذ زمن طويل ، والمنسية منذ زمن طويل ، والمكتشفة مجدداً .

ونهض من القرفصاء ، وتجهم بعد صراحته الصادقة اللاارادية ، مما جعل من الممكن أن تعدها أولا متعمدة بصورة مفرطة ، أما هي فقد كانت واقفة عند الجدار في الخط المعتم خلف مصباح الطاولة وكانت تصغي إليه بعينين مغلقتين .

– شيء مرعب ، – قالت أولا واقتربت منه ، رابتة بحنان على وجهه ولامسة ذقنه بطرف اصبعها . – انه مريع جداً ، كم تغيرت في الفترة الأخيرة ، لقد نحفت وضمرت ، ولم تعد كما كنت . شيء ما قد حدث ، يا فياتشيسلاف . . . لقد أحببتك كثيراً آنذاك ، في عيد رأس السنة ، عندما بقيت وإياك هنا . . . أنت لم تعد كريموف الذي عرفته ، أو أصبحت رجلاً آخراً ؟

– رجلا آخراً . ولكن ليس بشكل كامل على الأغلب .

– أسوأ ؟

– نعم .

– اذن ، أنت خنتني ، يا فياتشيسلاف ؟

– لا ، ولا مرة واحدة .

– إنني ، لسبب ما ، لا أصدقك الآن يا سلافا . – قالت أولا بوجه شارد ، ورسمت باصبعها طغراء مبتكرة على قلبة سترته . – لقد كنت ألاحظ كثيراً ، كيف كانت النساء ينظرن باتجاهك . ثم عاداتكم في الاستوديو ، وبوهيميتكم الاريستوقراطية ، يمكنني تصور ذلك . . . وأنت لست قديساً ، يا سلافا . هكذا ، أليس كذلك ؟

– أنت تخطئين ، يا أولا . أنا شبه قديس . وأنت لست على حق بخصوص عاداتنا في الاستوديو . انها ، كما في كل مكان . وليست هناك بوهيمية ، – قال كريموف ، شاعراً برغبة في أن يعانقها ، ولا يقول أي شيء في سكون قربها ، في فتورها الهادىء ، الذي لا ينطفىء ، كما في تلك الليلة العاصفة المقفره ، عندما بقيا كلاهما في البيت الريفي الذي لم يكن قد اكتمل بناؤه . بيد أن شيئاً ما منعه من تكرار لحظات مزاج عيد رأس السنة الذي تحدثت عنه أولا ، واكتفى بأن أمرّ يده على كتفها القريب المحبب ، من تحت قميصها الأسود ، وأكمل حديثه بشيء من الوجل ، – كيف يمكنني أن أقسم لك ، أنني أحبك ؟

– لا حاجة للقسم ، – قالت أولا دون أي تعبير ، – اذهب ، من فضلك . اذهب يا سلافا . لقد تأخر الوقت كثيراً . اذهب ياقديسي الحبيب . – ورسمت من جديد باصبعها طغراء غير مرئية على قلبة سترته ، وكان وجهها خاملاً لامبالياً . – وإلا فلن نتمكن كلانا من نوم .

– تصبحين على خير .

قبلها من وجنتها وخرج بمشاعر مؤلمة ، وكأنها ، لعدم تصديقها له ، لم ترغب باكمال حديثها وتحطيم كل شيء إلى النهاية .

الفصل التاسع عشر

— فياتشيسلاف أندرييفيتش ، عذراً لسؤالي غير المتواضع ، الذي لم أكن لأجرأ على طرحه لولا الجانب الشكلي من مهنتنا . فمن أجل اثبات الحقيقة ، علينا أحياناً أن نعرف شيئاً ما شخصياً . . . غير متواضع . اعذرني من فضلك ، ثانية ، هل كنت على علاقة قريبة بايرينا فينيامينوفنا سكفورتسوفا ؟

— أوليغ غريغوريفيتش ، لقد قلت لك كل شيء أثناء لقائنا الأول . وهل تظن أن جوابي الثاني سيكشف حقيقة الكارثة الحاصلة ؟ ان كان نعم ، فهل كل شيء واضح ؟ وان كان لا ، فما هو غير الواضح ؟

— أوه ، أرى أنك بدأت أنت الآن تطرح علي الأسئلة يا فياتشيسلاف أندرييفيتش . أنا أدرك جيداً ، أن كل لحظة اصطدام بالحياة — هي بالنسبة لك ، الإنسان الفنان ، نوع ما من جمع المواد والتجربة التي سوف تتجسد . . . أنتم الفنانون ، كقطع الاسفنج ، تتشربون كل شيء وتجسدون . ولكن ، على أية حال ، ألا تريد الإجابة عن سؤالي الشكلي ؟

— يستحيل شرح ذلك تقريباً . كيف يمكنني أن أشرح لك ذلك ؟ ان هذا ليس للمحضر الذي تحتاج إليه .

— وماذا تقصد تحديداً ؟ ربما أناك ، مع الاعتذار ، لاتود الحديث عن شذوذ ما تعانيه الممثلة سكفورتسوفا ؟ فقد عانت كثيراً من إصابة قاسية ، وقد ترك فشلها في البالية بصماته على نفسيتها ، ربما كان هناك عندها شذوذ أو هوس من نوع خاص ؟ . . .

— لماذا تقول هكذا ؟ ايرينا سكفورتسوفا كانت طفلة نقية ، طاهرة ، سريعة التصديق إلى حد السذاجة . ومثيلاتها بين الشبيبة المعاصرة ، نادراً جداً أن تلتقيهن . كانت تؤمن بأن الهدف من الحياة هو الفرحة . ليس اللذة ، ولا البطالة ، وليس الرفاه المادي ، بل الفرحة تحديداً . كانت تتمتع بعاطفة الحرية الأخلاقية . وأي شذوذ يمكن الحديث عنه هنا ؟

— طبعاً ، طبعاً ، طبعاً . . . لم أرد أن أسبب لك إساءة ، لم أرد ذلك . قل لي ، فياتشيسلاف أندرييفيتش ، ألم يدر بينك وبين ايرينا سكفورتسوفا ، قبيل الحادث المؤسف ، كما سوف ندعوه مؤقتاً ، أي حديث جدي ؟ ألم تخبرك بأي شيء ، ألم تحدثك عن أي شيء . ألم تطلب منك شيئاً ؟ ألا تتذكر بعض كلماتها ؟

— أتذكر . كانت منزعجة ومتكدرة من حديث سمعته من غرباء في الاستوديو مصادفة .

— ألا تتذكر هذا الحديث ؟

— كما يحدث غالباً ، فالمرشحات للدور كن يغتبنها ، وكن يتحدثن بالطبع عن أنها بلاموهبة ، وأنها قد حصلت على الدور الرئيسي ، بالطبع ، بعد أن أصبحت عشيقة المخرج .

— أوليس هذا صحيحاً ؟ أليس مطابقاً للواقع ؟

— ماهو « ليس صحيحاً » ؟

— هل كانت ايرينا سكفورتسوفا ، وأعتذر هنا ، عشيقتك أو . . . صديقتك أو عشيرتك ، كما يقال الآن في أوساطكم ؟

— لا أعرف ماذا يقال في أوساطنا حول هذه المسألة ، لكن ايرينا سكفورتسوفا لم تكن عشيقتي ، ولا صديقتي ، ولا خديانتي . كانت شيئاً آخر .

— فما هي العلاقة التي كانت بينكما ، فياتشيسلاف أندرييفيتش ؟ بسبب واجبي في الخدمة ، أجد نفسي في وضع غير مناسب . . . وعلي أن أطرح عليك أسئلة حساسة ، ملحة ، كما يقال ، أرجوك أن تصبر على إصراري وإلحاحي .

— سأصبر . لكني سأسمح لنفسي بعدم الإجابة على الأسئلة الحساسة .

— غير أنني أسمع في أجوبتك نعم ولا في وقت واحد . فكيف علي أن أفهم حديثك ؟

— بمعنى لا .

— وكيف تحديداً ؟

— أوليغ غريغوريفيتش ، ليس باستطاعتي أن أشرح لك جوهر علاقتي بايرينا سكفورتسوفا بكامله . كانت ايرينا تتمتع بالقوة والضعف

والعجز . أمام الحياة كانت عاجزة ضعيفة ، مثلها في ذلك مثل جميع الموهوبين تقريباً .

ـ لايصح القول عنك مثلا ، أنك عاجز ، ضعيف ، رغم أنك موهوب بصورة فظيعة ، كما قال عنك شفهياً مخرج كبير ، زميلك.

ـ ليس كل شيء كما يبدو . أنا ، ببساطة كنت موفقاً ، حالفني الحظ . وثمة كثير من المبالغات حولي . وهناك كثير من الحاسدين والأغبياء من حولي . ان المحظوظين والموفقين غير محبوبين كثيراً في الفن . انهم يحسدونهم ، ويتملقونهم ، لكنهم لا يحبونهم كثيراً . ألا يصدمك جوابي هذا ؟

ـ أنت الآن تتدلل وتتصنع ، فياتشيسلاف أندرييفيتش . فالنقد المحترم يكتب عنك . . .

ـ لاداعي لقراءة النقد المحترم . فهو في أحيان كثيرة يكذب ، أو ينظر من وجهة نظر مراتب إخراج ضيقة . على النقد أن يكون فتياً ، وبالتالي سليطاً ، جسوراً .

ـ إنك تتدلل من جديد .

ـ كما تريد ، إذا كان بالامكان التصنع والدلال مع الحقيقة ، فأنت على حق .

ـ أنت ، لست طيبا تجاهي ، على نحو ما ، فياتشيسلاف أندرييفيتش . أنت ، عامداً متعمداً ، ترى في شخصي رجلاً معادياً ، ان صح التعبير ، في حين أن مهنتي تقتضي عدم التحيز ، وعدم المحاباة ، حتى بالنسبة للأشخاص الموهوبين جداً ، وأنت لست منهم . لكن ، لنعد إلى موضوعنا

انها تحدثت الآن عن سكفورتسوفا ، وكأنها . . . كيف يمكنني التعبير بصورة دقيقة ؟ وكأنك عاشقاً ، مغرماً بهذه الفتاة الغريبة إلى حد الجنون . هل كان لديك مثل هذه العاطفة نحوها ؟

— لم أكن مغرماً بهذه الفتاة الشاذة الغريبة إلى حد الجنون ، علاوة على ذلك ، فهي لم تكن تطيق الشذوذ والغرابة . وأنا كذلك .

— على هذا النحو أو ذاك — ماهي العلاقة التي كانت بينكما ؟ هل أرادت أن تصبح زوجتك ؟ هل طلبت منك أن تطلق زوجتك ، فشعرت أنت بأنك مرتبط بأسرتك وأطفالك ، فظهر عندها ، عند ايرينا سكفورتسوفا ، امتعاض ، وألم ، وعدم الارتياح لوضعها ؟

— لم يكن هناك شيء من هذا القبيل .

— فما الذي كان بينكما في نهاية الأمر ، فياتشيسلاف أندرييفيتش ؟ هل كانت راضية ، عن وضعها ؟

— لم تكن راضية عن نفسها . هكذا أعتقد . أنت تعرف ، أنها ، بعد بدايتها الرائعة في البالية ، تعرضت لإصابة مرضية وابتعدت عن خشبة المسرح عاماً كاملاً . لقد رأيتها عدة مرات كيف كانت تتدرب في بيتها على الحامل — كانت تسعى لاستعادة لياقتها البدنية مهما كلف الأمر . ولم تستطع للأسف الكبير . وعندما عرضت عليها الدور ، لم توافق سكفورتسوفا في البداية ، تصور ! فهي لم ترغب بخيانة نفسها وخيانة البالية .

— وأنت تعتقد ، أن هذا بالذات ، قد أدى إلى نهايتها التراجيدية ؟

— وهل قلت أنا ذلك ؟

ـ لكن هذا ما يمكن استنتاجه من أقوالك .

ـ لقد كنت أجيب عن سؤالك الذي لم يكن دقيقاً .

ـ على الأغلب ، أنا مضطر لأطرح عليك كثيراً من الأسئلة غير الدقيقة ، لذلك أرجو أن تعذرني ، فياتشيسلاف أندريفيتش . أتعرف ، أحياناً يكون الطريق الدائري هو الطريق الأقرب إلى الحقيقة .

ـ أرجوك أوليغ غريغوريفيتش ، لاداعي للأسئلة غير الدقيقة ولا حاجة للطرق الملتوية والدائرية . أقسم بشرفي أنني متعب جداً . سأسهل عليك مهمتك . أنا أعرف : أنت بحاجة إلى تحديد سبب هلاك ايرينا سكفورتسوفا ، أو المذنب في هلاكها ، وتحديد القاتل المباشر أو غير المباشر .

ـ أتريد ماء ، الماء في الابريق دافيء على الأغلب . تفضل فياتشيسلاف أندرييفيتش ، هذه زجاجة المياه المعدنية « بورجومي » . اليوم حر منذ الصباح ، الشمس تكوي .

ـ أشكرك . والجو خانق في مكتبك أيضاً . لماذا لا تفتح النوافذ ؟

ـ أوه ،أنت قوي الملاحظة ،لديك نظرة مهنية دقيقة ، فياتشيسلاف أندرييفيتش .

ـ أريد أن أسهل عليك مهمتك ، التي لم تحل بسبب عدم دقة إفاداتي . انني على الأرجح ، متهم ، لأنني مذنب . . . مذنب فيما حصل . إن فينيامين فلاديميروفيتش سكفورتسوف ، الذي التقيته عندك ، كان على حق . لقد كان محقاً باتهامي بأنني كنت غاوياً شريراً . . . ، بأنني حاولت زرع الأمل في نفس ابنته . . . لكنني ، مثلك ، بودي

أن أعرف ، كيف حصل ، كيف حدث كل شيء . هل كان هناك عارض مأساوي ، أم أنها أقدمت ، بوعي وقصد على الانتحار ، هذه الفتاة البائسة ؟ أم ماذا ؟ أريد أن أصدق أنه عارض ، مصادفة . . .

ـ بيد أنه ثمة أسس للافتراض ، يا فياتشيسلاف أندرييفيتش ، بوجود أسباب أخرى للنهاية المأساوية ، بوجود ظروف أخرى . . .

ـ اذن ، أنت تشك بشخص ما ؟ أنا أفهمك . طبعاً ، القضاء ، القانون ، التحقيق ، الافادات ، شهود العيان . بيد أنني الشاهد الوحيد . وإذا كنت لا أعرف بصورة دقيقة ، بيد أنني أريد أن أعرف ، كيف ولماذا حدث كل هذا ، فمن يمكنه أن يعرف سوى الله ، ونحن ، أنت وأنا ، لا نؤمن بالله ، كما أظن .

ـ كان هناك شاهد عيان آخر ، فياتشيسلاف أندرييفيتش .

ـ من ؟

ـ أنت تعرفه جيداً . سائق الاستوديو غولين ستيبان يفدوكيموفيتش أنت تغفله لسبب ما ، رغم أنك عاملته بطريقة تخلو من الاحترام ، على أقل تقدير .

ـ آسف من الأعماق لأنني أظهرت عدم الاحترام تجاهه . كما آسف لأنني كنت متساهلاً أكثر مما ينبغي مع السائق المحترم ستيبان يفدوكيموفيتش . على أية حال ، فالتساهل والندم ـ خاصية ثابتة الانتيليجنسيا الروسية .

ـ غير أنك ضربته ، يا فياتشيسلاف أندريفيتش ! أنت ممثل الانتيليجنسيا الفنية المبدعة ، أنت الرجل الأكثر شهرة ، المخرج المعترف

به ، ضربت إنساناً عاملاً ، أثار غضبك ، لمجرد أنه كان شاهداً لخلافك مع سكفورتسوفا ، في ذلك اليوم عندما وقع الحادث المأساوي . أنت أغفلت هذا الجانب بالذات .

ــ هذا طريف حقاً ، كيف يمكنه أن يكون شاهداً على شيء ما ، في الوقت الذي كان فيه بعيداً عن مكان الحادث ثلاثين كيلومتراً ، حيث ذهب لتناول طعام الغداء في مطعم بمركز البلدة ؟ أعترف بأنه أثار ، وما يزال يثير ، في نفسي مشاعر النفور والاشمئزاز . . .

ــ ولهذا ألحقت به الضربات مسبباً له ضرراً بدنياً ؟

ــ أي ضرر ؟

ــ جاء في التقرير الذي قدمه الشاهد من المستوصف الثاني والأربعين ، أن شفته قد شقت نتيجة الاصطدام بأسنانه بسبب الضربة ، وثمة كدمة في أسفل أنفه .

ــ رائع ! أنا آسف جداً ، حقاً ، لأنني ضربته ضربتين فقط . بالنسبة لهؤلاء الأشخاص الضرب مرتين قليل لا يكفي .

ــ فياتشيسلاف أندرييفيتش ، أرجوك ، اقرأ بيان الشاهد هذا .

ــ قراءة صامتة ، أم بصوت عال ؟

ــ أشك في أن هذه القراءة ستكون ذات طابع فني . لماذا أنت شديد التحفظ والحذر معي فياتشيسلاف أندرييفيتش ؟

ــ تماماً ، كما أنت معي ، بالرغم من الصيغة المحببة والاحترام الذي تبديه نحوي . عن أذنك ، سأقرأها بصوت عال ، كي يكون

أكثر وضوحاً وأكثر صدقاً . سأقرأ . . . « إلى الإدارة العامة . مقدمه : غولين‌ستيبان يفدو كيموفيتش ».حسناً ،ماذا يقول ستيبان يفدو كيموفيتش السائق الحائز على لقب الجدارة ، الذي كوفيء بشهادة تقدير ؟ أنظر كيف يعرض جوهر القضية . . . « أريد أن أصف للرفاق المحترمين في الشرطة ، جوهر قضية الجريمة ، نظراً لأنني كنت أعمل في فيلم « الجيل » ونقلت الرفيق كريموف فياتشيسلاف أندرييفيتش ، مخرج الفيلم ، والممثلة سكفورتسوفا ايرينا ، لا أعرف اسم أبيها ، إلى الطبيعة . حيث كان من المنتظر أن يتم هناك تصوير مشهد فيما بعد . عندما انطلقنا بالسيارة من أجل استكشاف الطبيعة ، كان المخرج كريموف يؤنب سكفورتسوفا على غبائها ، على أنها ليست قادرة على عمل أي شيء ، لا في البالية ولا في السينما ، أما سكفورتسوفا فكانت تجلس صامتة ، تبكي بهدوء ، ثم قالت بأنها لاتريد أن تبقى على قيد الحياة وتحمل مثل هذه الإهانات ، أما المخرج كريموف فقد ضحك لسماع هذه الكلمات بأنانية نادرة . وعندما وصلنا إلى الطبيعة ، نزلا من السيارة وذهبا باتجاه الكنيسة على الضفة اليمنى من النهر ، أما أنا فقد بقيت على الضفة اليسرى ، نظراً لعدم قدرة الجسر الصغير على احتمال ثقل السيارة . أمرني المخرج كريموف أن أنتظر ساعة أو ساعة ونصف ، بيد أنه انقضت ساعتان ولم يحضرا ، وشعرت بالجوع ، لأنه كان قد حان موعد الغداء . لقد رأيتهما على الضفة الأخرى : كانا يسيران ، أحدهما مقابل الآخر ، ملوحين بأيديهما ، وكأنهما يتقاذفان الشتائم . وفكرت آنذاك ، بأنهما سيبقيان طويلا ، وذهبت إلى مركز البلدة ، من أجل تناول جرعة ماء على الأقل ، فقد تصببت عرقاً في الجو الحار . وعندما عدت إليهما ، رأيت سكفورتسوفا كالميتة ، ترقد

غريقة على العشب ، في « مايوه » السباحة ، مبللة الشعر ، بيضاء الوجه كالمرمر ، أما المخرج كريموف فقد هجم علي كالوحش ، وأخذ يضربني إلى أن أدماني ، وهو يردد كلمات مقذعة ، وحذرني ، وهو كالمسعور ، بأن لا أجرؤ على التفوه ببنت شفة ، حيثما كان ، عن كل شيء رأيته أو سمعته . اقتدنا سكفورتسوفا إلى المستشفى ووضعناها هناك . هذا ما أعرفه عن هذه القضية المجرمة . رفقا تقرير عن الأضرار الجسدية الملحقة بي . التوقيع : غولين » . هذا كل شيء ؟ أجل ، التوقيع واضح . وماذا أقول ، ان السائق المحترم قد شرح كل شيء بصورة رائعة . لقد عرض كل شيء بصرامة رجل واقعي . هنا يستشف أسلوب الضحية . وأنت ، تأخذ هذه المذكرات التلميحية ، التي كتبها سائق يضطهده مخرج ، بعين الاعتبار ؟

— إنني آخذ بعين الاعتبار كل ماله علاقة بالقضية . السائق غولين يعرض موقفه الشخصي مما حدث . أما النتائج فأنا أستخلصها على أساس جميع افادات الأشخاص الذين يعرفونك وكانوا يعرفون ايرينا سكفورتسوفا .

— وإذا ما أصغيت إلى غولين ، وإلى رئيس الاستوديو الحكيم بالابانوف ، وإلى المدير الإداري المحترم مولوتشكوف فسيتشكل لديك رأي عادل — استنتاج حول المجرم المحتمل ، حول القاتل المفترض المخرج كريموف . هذا دون الحديث عن فينيامين فلاديميروفيتش سكفورتسوف ، والد الفتاة المرحومة ، الذي يتهمني بكل شيء دون أي تردد . يبدو أنه محق ، من حيث كونه أباً ، وأنا أفهمه أيضاً كأب . أنا مذنب ، أو كيف يقال من وجهة نظر حقوقية ، أنا مدان ، وليس

مذنب ، أنا مدان بأنني زرعت الأمل في نفس سكفورتسوفا ، أما الأشخاص الحسودون والشريرون المتنكرون ، والمقرفون كالحساسة ، فقد حطموا الأمل . وإذا كان هذا الأمل قد قتلها فأي زهرة هشة كانت سكفورتسوفا . . .

— فياتشيسلاف أندرييفيتش ، إن مثل هذه التصريحات تبعدنا جانباً ، إلى سيكولوجية الإبداع ، إلى غابة مظلمة حالكة السواد ، حيث يمكن المرء أن يتعرض لخطر الضياع ويضل الطريق بين ثلاثة أشجار صنوبر ويحطم عنقه . وأنا ، إن كنت تعرف ، حريص جداً على عنقي ، لا لمجرد ارتداء ربطة العنق . لذلك ، أعود إلى السؤال الرئيسي — ماهو ، برأيك ، السبب المباشر لموت ايرينا سكفورتسوفا ؟ سأكشف لك سراً ، رغم أنه ليس سراً في الواقع . قصد والد سكفورتسوفا مرجعاً أعلى ، وطالب باجراء تحقيق دقيق في أسباب موت ابنته ، وقد كلفت أنا بهذه القضية . وأنا ، رجل دقيق ، اعذرني لهذه الصراحة ، ورغم أن احترامي لك . . .

— وأي احترام هنا يمكن أن يكون ، وما هو الاحترام ، ولماذا هذا الاحترام ! . . . هذا هراء ! لقد قلت لك ، بل على الأصح ، أجبت في المحضر ، انني مدان ، انني مذنب . . .

— فياتشيسلاف أندرييفيتش !

— أنا مذنب ، وافعل معي ما يقتضي ذلك لاحقاً .

— فياتشيسلاف أندرييفيتش !

— لقد قلت لك — لن تجد مذنباً آخر .

– فياتشيسلاف أندرييفيتش ، أنا مذهول . . . عليك أن تكون مسؤولاً عن أقوالك ، لا أن ترمي الكلمات في مهب الريح . مثل هذه التصريحات خطيرة في نهاية الأمر .

– لم أعد أخشى شيئاً ، منذ وقت طويل . لا ، أحياناً ، أخشى الموت طبعاً . هنا ، يغلب علي الفضول البحت : وماذا سيحدث من بعدي ؟ لقد كان الفضول وحب المعرفة يقتلاني طيلة حياتي . وربما لهذا السبب ، أصبحت مخرجاً : كي أعرف حياة الغير . بيد أنني لم أتمكن من معرفة الكثير .

– لقد قلت أنك مذنب في كل شيء ؟

– في كل شيء . ولاحاجة لك بعد الآن ، لطرح الأسئلة على بالابانوف ، ولا على مولوتشكوف ، ولا على غيرهما . . .

– وعلى ستيشوف ، الذي كان عندي صباحاً ؟ أعتقد أنه إنسان جدير ومحترم للغاية .

– أيضاً لاحاجة . إنه رومانسي ومثالي ، معجب بي . إنه غير قادر على أن يكون موضوعياً . لاسيما وأنه صديقي ، وصديقي المقرب أيضاً .

– ليست لدي أسئلة أخرى أطرحها عليك الآن . لاتوجد لدي أسئلة . وإذا ما ظهرت فسأضطر لازعاجك من جديد ، يا فياتشيسلاف أندرييفيتش .

– أشكرك . يمكنني أن أذهب ؟

ــ حظاً سعيداً . أتمنى لك النجاحات الإبداعية على الشاشة .

ــ شكراً . إنني متأثر جداً بمشاعرك الطيبة تجاه الفن السينمائي .

* * *

علقت بوجهه المتعرق حرارة الاسفلت المنبعثة من الشارع المتوهج الداوي في هذه الساعة ، الشارع الذي يلطم الآذان بهدير المحركات والآليات . اقترب كريموف المنهك من السيارة التي كان قد أوقفها قرب الرصيف ، تحت أغصان شجرة زيزفون (كي لا تسخن كثيراً من أشعة الشمس) . فتح كريموف باب السيارة ، حارقاً أصابعه بالمعدن الحامي ، وجلس في داخل السيارة بيأس طاغ ، لأنه ينهار ، ولا يستطيع التوقف ، ولا السيطرة على نفسه ، وايجاد التوازن ، ولأنه يقدم الآن ، في كافة تصرفاته على مجازفة غامضة ضبابية ، فاقداً القدرة على التفكير السليم ، ولأن هذه الحالة قد تودي به ، أو أودت به الآن ، إلى التهلكة . لم يكن ليتصور الآن الانهيار الكامل لمكانته السابقة ، لم يكن يتصور مكانته الذليلة الحالية في الحياة ، حيث يسري مفعول قوانين أخرى ، وعلاقات أخرى ، كما حصل أمام عينيه لبعض الناس المشهورين ، الذين انهاروا تحت ضربات الظروف العادلة أو الظالمة . ولم يكن يتصور وضعه الشخصي تابعاً ، خاضعاً إلى تلك الدرجة ، التي لم تكن تنطبق عليه مسبقاً .

إن ما حصل معه ، وما عمله ، من جيد ومن سيء ، وما كان يقوله ، ويرفضه ويؤكده ــ كل هذا كان مُبعَداً ، بصورة غير معقولة ، محاطاً بظروف سخيفة مجهولة ، وبمبررات وذرائع رديئة ، وبدا له

غير واقعي من ناحية ما ، غير ثابت ، آنياً ، وأنه سينتهي الآن بأقصى سرعة ، وسيعود إلى التيار اليومي للواقع العادي ، الذي لم يتغير أبداً من الناحية الخارجية ، وصار كما كان عليه قبل سفر كريموف إلى فرنسا . بيد أن تغييرات واضحة حدثت وأعادته من جديد إلى ذلك اليوم الحزيراني الحار ، يوم ايرينا الأخير ، — وعندما خرج من عند المحقق ورأسه يؤلمه ، وعثر في صيدلية السيارة على حبوب آميدوبيرين ، لم تسعفه سوى حبتان ، ابتلعهما كريموف بمرارتهما الكيميائية ، دون جرعة ماء وفكر في نفسه ، وهو يستند بارهاق إلى ظهر المقعد الساخن : « الآن علي أن أذهب إلى البيت الريفي » .

ثم جلس مقلباً الأمر في رأسه — هل يجب فعلاً الذهاب اليوم إلى البيت الريفي ، إلى الفيلا ، إلى الصيف الممتع ، إلى أشجار الصنوبر ، إلى العشب والشمس ؟ ربما كان من الأفضل أن أبقى في موسكو ، وأن أمكث وحيداً في شقة خالية ، وأفكر وحيداً بما حصل اليوم ، لأنه في البيت الريفي ، ليس هناك من يقدر على مساعدتي — لا أولغا ، ولا فالنتين ، ولا ابنته الحبيبة تانيا .

« أية سعادة هذه : أن أجلس هكذا وحيداً في السيارة ، وأنظر إلى ارتعاش توزع الضوء والظل في عمق شجرة الزيزفون ذات الأوراق المغبرة المعفرة بالتراب ، ولا أفكر بأي شيء ، بل أرى الشارع وأسمعه وأحسه . ولكن هل الاحساس والشعور يعني عدم التفكير ؟ ومع ذلك لا يفارقني هذا الألم المبهم ، الشبيه بالحنين ، الذي ظهر عندي ليلاً ، عندما خرجت من عند أولغا . . . ولماذا أشعر ، بهذه الرغبة ، بالهرب إلى مكان ما ؟ ولماذا كان بودي أن أحدث المحقق بهذه السهولة

عن ذنبي ، من أجل وقف هذه الأسئلة المهينة له ولي ، ــ هل من المعقول أن لا ينتهي هذا كله أبداً ؟ » .

وأملا منه باستعادة توازنه النفسي ، حاول أن يتذكر أسعد يوم في حياته التي عاشها ، وأخيراً استطاع أن يتذكره ــ إنه قاص ، ناء ، ربيعي ، كما لو أن سنوات طفولته التي لا تنسى قد عادت وتكررت . هاهوذا : آذار المشمس ، قطرات من الثلوج الذائبة ، الظلال الزرقاء لأشجار البتولا على الثلج الأبيض . . . وصبي (إنه هو) يقف أمام الطنف المغطى بالثلج ، وينظر إلى زرقة السماء الجذلة ، فوق المعلقات المجمدة النازلة من الميازيب المغطاة بالصقيع .

لا ، إنه يذكر أيضاً صباحاً سعيداً آخراً ، ضوء الفجر الناعم على جدران عُليّة غريبة ، وبقع حمراء على مفروشات ثقيلة ،تفوح منها رائحة قديمة ، عتيقة لذيذة . . . وكانت آنذاك أمسيات طويلة في شهر أيار ورائحة الليلك العبقة في الحديقة . أين كان هذا ؟ في ألمانيا ؟ في تلك الأيام ، كان كل شيء غريباً ، ولم يتكرر بعد ذلك أبداً . ليلاً ، كانت تضيء في الأفق الهالات المتخلفة من الحرب المنتهية ، وبين كتل الرماد المحترق ، والانفجارات والدخان ، وتخيل بجعات ضخمة متفحمة ، تحلق بعيداً نحو الأفق الرهيب ، وقد برزت بصورة مستديرة ، من بعيد قباب وأسطح وذرى أشجار . أما الهلال المصقول ، كالمرآة ، فكان يسطع بحدة وقوة بين الثقوب ، واعداً بالحياة والحب والشباب ، والتوفيق ، وتجديد ذلك الصباح ، في فترة ماقبل الحرب ، بالقرب من موسكو ، عندما رآها . كانت تقف ، وقد ارتدت ثوباً صيفياً بلا أكمام من الدمور ، عند خوخة الباب ، تقطع عناقيد الأكاسيا ، لامسة بركبتها

العارية الدراجة المائلة المسندة إلى السياج . . . ثم رأى بوضوح نفسه إلى جانبها . كان ينفخ إطار الدراجة ، وكانت هي واقفة تحت شجرة الأكاسيا ذاتها ، مارة بيدها بصمت على السياج ، وكانت شفتاها منتفختين . « من غير الممكن أن نكون قد تخاصمنا . من أجل أي شيء ؟ تلك كانت أياماً فريدة لا تتكرر من شبابي ، رغم أنه لم يبق في ذاكرتي اسم الفتاة الشابة ذات « السارافان » ، ولم أعد أذكر أسباب الخصام . . . » .

بيد أنه لم ينس حتى الآن ، لسبب ما ، كيف أنه أفاق من نومه ذات يوم من أيام شبابه البعيدة ، على مخزن الحشائش المجففة بشفتين متوجعتين من القبلات ، وقد أيقظه السكون بعد العاصفة الليلية ، وسيطرت عليه الدهشة : فمن بين الغيوم الكثيفة برز ولمع في عينيه نجم وحيد صاف ، وبقي هذا النجم حتى الفجر فوق المنحدر الأسود للسطوح التي لا تزال تفوح برطوبة المطر وطراوته .

« البارحة رأيت أيضاً نجماً ، لكن كان هناك شيء آخر ، هو الشعور بالفقدان والحرمان ، أما تلك الليلة في شبابي ، فلا تزال حية في ذاكرتي . أجل ، أجل ، ظلال آذار الزرقاء على الثلج ، القمر في برلين ، فتاة في سارافان من قماش الزهور ، مخزن الحشائش المجففة الهواء العليل العبق للسطح الذي يجف من المطر — ماهذه ، أحلام صافية ، خالية من الغموم ، من شبابي ؟ أجل ، الحقيقي هو ذلك القديم . إنه بقي معي ، لم يغادرني ، وربما هو بالذات ، يمسك بي على الأرض » .

شعر بحماسة شديدة لتذكر طفولته الباكرة والاحساس بها : اللمعان الهادىء للندى على المروج ، صراخ الغربان في الصباح الشديد الريح ، سكون الغروب ، نفحة الحليب الصريف ، صوت المجاذيف على

النهر ، وفي الليل نباح الكلاب البعيد تحت العمق الواسع المكشوف للسماء الخريفية ، ثم رصيف المحطة الرطب ، المغرق حتى أطرافه بضباب شهر شباط ، المبشر بالربيع ، وبدخان القاطرات الحديدية الذي تفوح منه رائحة الفحم . كما يذكر نفسه ،وقد أمسك بيد أمه المذهولة ، التي تستقبل أباه القادم من مكان ما ، بلحيته الطويلة وشفتيه المرتجفتين ، وهما تهمسان : « أيها الأم ، لم يقدر لي الصفح والغفران على هذه الأرض ، كما لم تكتب لي السعادة . . . » .

لم يتمكن هو ، كريموف ، من تصوير شيء مماثل في أفلامه ، بمثل هذا الشمول المر ، كما أنه كان من المؤلم جداً تصوير قوة الأب اليائسة المكبوتة المقهورة .

« — لا أحد ، لا شيء ، لا لأحد . هكذا عشت ، يا أمي .

— ما هذا ؟

— هذا زمني .

— أنا أشفق عليك يا أندريه .

— أنت قديسة . . . هل من المعقول أنك قديسة ؟

— الق نظرة على ابنك سلافا ، ألم تنساه ؟

— وهل هذا ابني ؟ »

كانت يدا أبي القذرتان ، بصورة مزعجة ، والمتميزتان بالضخامة والجمال الرجولي ، قاسيتين عندما ربت على كتف أمي ، ومس بهما بوجل ، ابنه المنسي . أما الابن ، الخائف من مظهر أبيه الذليل المسحوق ،

فقد رأى كيف كانت عينا أمه تشتعلان دفئاً وخضوعاً بشوشاً ، و كيف كانت هي تصفح عن جميع اساءات زوجها الطائش واساءات هذا العالم الظالم — لقد كانت في ذلك اليوم سعيدة ، وهذا ما لم يستطع فهمه .

« السعادة هي ما لم نشعر به نحن أنفسنا . وهذا أيضاً كذلك . . . » .

« أين ، وفي أي بلد ، كنت أبحث عن الميدان الصغير السعيد الذي يجب أن يكون تجسيداً لجنة الأرض ، والسكون والشفافية الناعمة من شمس الغروب ؟ — أين — في كوستروما ، في باريس ؟ في فيينا ؟ »

آنذاك خــرج كريموف من المعبد وأخــذ ينزل إلى ميدان « ريزيدنتبلاس » ، مقرراً فجأة ، أنه أمام ذلك الميدان الموعود ، — كانت السماء التشرينية تبدو رمادية ، وكان الثلج يسقط فوق السطوح ، وفوق الكنيسة ، الثلج الأول الخفيف ، النظيف كالملائكة ، وابيضت أحجار الميدان بالثلج ، كالوبر ، كما ابيضت مقاعد حوذية العربات ، كما في القرن التاسع عشر الطيب الذكر ، وكان الثلج يسقط على الأجلال الخضراء والحمراء للجياد الواقفة ، على القبعات التقليدية التي ابيضت كلها ، وشعر الحوذية بالبرد الشديد وأخذوا يمشون جيئة وذهاباً بين العربات ، كما في ساحات روسيا القديمة القيصرية . وفي منتصف ميدان ريزيدنتبلاس تساقط الثلج على حشد المظلات المفتوحة للسياح ، الذين تجمعوا حول الكأس الضخمة للفسقية التي كانت تمتد منها متجهة نحو السماء ، في رعب مجنون ، الوجوه الأصيلة للجياد البرونزية ، التي تراكمت عليها قطع الثلج الكبيرة بكثافة ، كالقطن المندوف . وخلف القوس الحزين ، على مقربة من المعبد القوطي (بقناطره العالية المرتفعة وضخامته المدوية الرنانة ، حيث كانت تتردد أصداء الخطوات على

البلاط الحجري) كان تمثال حديدي أسود لأحد الكرادلة ، يقف جامداً ، وقد غطى الثلج نصفه . وكان كل شيء في الميدان ليس كما تصوره ولا كما كان يرغب .

كان هو طيلة النهار يبحث في المدينة ، ولم يعثر على الميدان المرح ، الطيب المبارك ، الذي رسخ في ذهنه بفرح في رحلته الأولى . آنذاك وقف كريموف على الرصيف أمام الدرابزين الحجري ، شاعراً ، من خلال سترته الرقيقة ببرد نيسان ودفئه ، وكانت الشمس في كل مكان تلون واجهات المحلات التجارية وزجاج الأكشاك ، وكان يتحرك أمامه حشد مبرقش منوع ، وقد ارتدى الثياب باهمال احتفالي ربيعي على أبواب الصيف . أما في الأسفل ، فقد كان الميدان الدائري الصغير يرقد مثل مسرح يوناني قديم ، غارقاً كله في سكون نيسان الدافيء من النهار المضيء والهواء الجبلي العليل ، وفي الظلال الليلكية لأشجار الدلب. كان الميدان هادئاً ، مشمساً ، مثل وعد الربيع الخالد في المدينة النمساوية العتيقة .

« اذن ، ربما حلمت بهذا الميدان ؟ في فيينا أم في زالسبورغ ؟ »

أثناء رحلته الأخيرة إلى فيينا ، هرب كريموف من قصر بالفي ، حيث كان يجري لقاء السينمائيين الموسكوفيين مع المثقفين النمساويين ، وأخذ يبحث من جديد ، بعناد عن هذا الميدان ، الذي لا اسم له ، وكان هو ، كما في السابق ، في مكان ما ، خلف الدرابزين الحجري ، دافئاً ، محاطاً بأشجار الدلب الخضراء ، وبالحشود الربيعية المزركشة . . .

ولم يتمكن من العثور عليه . كان نهاراً رطباً ، من شهر شباط ، غائماً ، شديد الريح . وقد ضل طريقه في نهاية الأمر ، وفي أثناء بحثه

عن فندقه ، صادف « سوق الخردوات والأشياء القديمة » (كما عرف فيما بعد) . كان يسير على أرض موحلة ، بنية مائعة ، وكان الثلج الرطب يتساقط . وكانت تظهر ، من اليمين ومن اليسار ، وجوه ازرقت من شدة البرد ، وسيارات ومنصات البيع ، وقد كدست عليها ، بصورة فوضوية ، أشياء لايمكن تصورها : ساعة حائط على شكل تابوت ، شمعدانات ضخمة تعود إلى عصر فرانس — جوزيف ، ثريات برونزية ، مصابيح كهربائية ، أقفال معلقة من عصور مختلفة ، كتب مجلدة تجليداً جلدياً مهترئاً ، معاطف من الفرو من التقاليعات القديمة الباطلة ، قبعات وطاقيات متنوعة ، صدرات الأجداد والأسلاف البالية ، أحذية أطفال مستعملة ، لوحات زيتية منسوخة من القرن السابق ، بطاقات ملونة زاهية صورت أشجار عيد الميلاد ، وسط المعلقات التزيينية الفاخرة ، محاطة بالشموع العائمة ، خوذات عسكرية قديمة ، آلهة هندية متعددة الأيدي ، محفورة على الخشب ، صحون سجاير على شكل تماثيل من العاج ، كانت توضع في العصور الغابرة في الصالونات الفخمة ، ثريات من الماضي الغابر للامبراطورية النمساوية — الهنغارية ، تنانير مستعملة ، سترات وسخة ، لفاعات نسائية معتونة من الفرو ، وكانت تنطلق من جميع هذه الأشياء المتنوعة والعقيمة على المناضد ، ومن الحشد الشديد الحماسة ، ومن الزحام الشديد رائحة صوفية لثياب رطبة ، وللثلج المتساقط الرطب . وكان شباب ملتحون ، غير مهندمين ، يتدافعون ، دون حياء ، في بنطلونات الجينز المهترئة ، وكانوا يضحكون بأصوات عالية معانقين فتيات طويلات الشعور ، يشرقن بأنوفهن البنفسجية ، وكانوا يشربون البيرة من الزجاجات ، ويلتهمون بضجيج المقانق من أكياس « السلوفان » .

استرعت انتباه كريموف امرأة شابة ، في معطف قصير من فرو الأرنب ، ذات وجه شاحب رفيع ، أبعدت نظرها عنه عندما توقف فجأة أمام بضاعتها الغريبة . كانت تضع على مفرش أمام قدميها ملعقتين خشبيتين منقوشتين ، ومجموعة من دمى « ماتريوشكا » الروسية ، وكُبَبَ ملونة من الصوف .نظر كريموف بفضول إلى دمى «ماتريوشكا» اللامعة من الثلج الأبيض المتساقط عليها ، الغريبة ، العارضة ، هنا في سوق فيينا المزدحم،وتبادر إلى ذهنه على الفور ، أن هذه المرأة من بنات وطنه . كانت قد رحلت ، كما يبدو ، بحثاً عن جنة الله على الأرض . . . .

لم ترفع المرأة أهدابها السوداء المدهشة على وجهها الناصع البياض ، رغم أنه قد وقف أكثر مما يجب ، من أجل استرعاء الاهتمام والفضول . لقد لمست ، على الأغلب ، أنه ليس مغفلاً سوقياً ، وأنه رجل قادم من منطقة بعيدة ، ولم يكن بودها أن تلقاه ، في مثل هذا اليوم السيء الطقس ، الشديد الريح ، وفي هذا المكان ، وبين هذا الحشد المهين .

ـ ألست من روسيا ؟ ـ تجرأ كريموف أخيراً على سؤالها ، وهو يرى ، عن قرب ، وجهها الجميل المتعب ، ومعطفها الجديد المصنوع من فرو الأرنب ، الذي كان السير فيه على الصقيع المتكسر يبعث الدفء والغنج والدلال ، أما الآن ، فقد كان الوقوف عند مهب الريح ، في الثلج الذائب الذي وطأه كثير من الناس ، يبعث الاحساس بالبرد . ـ عفواً ، ـ أضاف كريموف . ـ لقد لاحظت الملاعق الخشبية المنقوشة ، ودمى « ماتريوشكا » الروسية ، لهذا ظننت . . . .

تغير وجهها الهزيل المضني ، وأصبح زهري اللون ، وتحدب قوسا حاجبيها الأملسين ، فرفعت نحوه عينين كبيرتين ، مفتوحتين

بالألم ، وأزلت على النور أهدابها ، وبيدها الناعمة الرفيعة ، دون قفاز ، لفت قبة معطفها على حنجرتها ، ولم تنبس ببنت شفة .

ـ أنا أخطأت ـ قال كريموف معتذراً عن الموقف الحرج الذي خلقه ، ـ انتشول ديغين ، بيتي ، مادام * .

بعد أن قال كلمات الاعتذار بالألمانية ، رأى كيف التوى فمها من الألم ، وقالت بصوت مذبوح ، محبوس :

ـ مات زوجي بالسكتة القلبية قبل شهر . وأنا بدون أية أموال أو موارد .

دهش كريموف من صوتها الواضح ، المؤدب ، ومن لفظها الروسي المثقف ، الذي بدا له من المستحيل سماعه في هذه السوق ، في هذه الفوضى ، بين صراخ الشبان المتسكعين المنفعلين ، المارين بالبيرة والبيع والشراء ، وسألها :

ـ أين كنت تقيمين ـ في روسيا ، في أوكرايينا ؟

أخرجت بعجلة علبة السجاير من جيب معطفها ، وكانت السيجارة ترتجف بين أصابعها الرشيقة ذات المانيكور المنقش على أظافرها ، أدارت المرأة دولاب القداحة على عجل ، ولم تستطع إشعال النار ، بأي شكل من الأشكال (لأن يديها قد تجمدتا من البرد) ، فساعدها كريموف باشعال النار من ولاعته . استنشقت المرأة الدخان بصورة متقطعة ، وقالت وهي تلف قبة المعطف على رقبتها :

ـ كان بولفار تفيرسكي يُرى من نوافذنا .

---

* اعذريني من فضلك ، يا سيدتي ـ بالالمانية ـ المترجم

وتصور كريموف بولفار تفيرسكي ، خلف السور الحديدي ، مغطى كله بالركام الثلجي ، ورأى السطح المغطى بالثلج لمسرح موسكو الفني الأكاديمي بين الأشجار ، وأشجار الدلب المغطاة بالعواصف الثلجية تحت النوافذ ، وتصور شقة مسكونة مريحة ، وتصور هذه المرأة الفتية ، وهي تخرج من المدخل إلى مصابيح البولفار المسائية ، بل رآها ، وتصورها أيضاً ، واقفة على الموقف ، ثم تستقل « الترولي باص » بنوافذه الزجاجية المتجمدة ، فاتحة مفتاح حقيبتها المتجمد لاخراج تذكرة ركوب . وبعد أن تصور هذا كله ، توقفت نظراته على مكبات الصوف المبللة بالثلج الذائب (كانت هذه المكبات تشير على نحو خاص إلى شقاء لا يمكن إصلاحه ولا تداركه) ، وإدراكاً منه لانعدام أفق الشفقة والمشاركة في العناء ، قال بعدم اكتراث :

– أريد أن أشتري منك « ماتريوشكا » ، كم ثمنها ؟

– لن أبيعها ، – أجابت بصوت خافت ، وهي تنظر بعينيها إلى الأرض .

– لماذا ؟

– أنا أعرف ، أنه لا تتوفر لدى السياح السوفييت نقود فائضة ، – قالت المرأة ، وذكرته من جديد ، سرعتها في التدخين بموسكو ، بالأمسية الشتوية ، بالمؤتمر وازدحام السيارات أمام قصر السينما في شارع فاسيلييفسكايا ، بعرض دوري جديد – في الردهة الواسعة ، كانت النساء الأنيقات يدخن وهن جالسات على الأرائك ، ويضحكن ويتحدثن عن فيلم فيلليني الأخير ، عن قضية طلاق ايليزابيت تايلور ، عن فيلم أنطونيوني المطول إلى درجة لا تحتمل .

ـــ أنا سأطير إلى موسكو بعد ساعتين ، ـــ قال كريموف ، وأخرج بارتياح محفظة نقوده ، ـــ ولم أعد بحاجة للنقود ـــ ان هذه الـ «ماتريوشكا» رائعة . لدي مائة شلنغ ، هل تكفي ؟

أخذت المرأة النقود ، وأفلت من العمق الليلي لعينيها المتسعتين يأس شديد لا يقاوم ، مما أدى إلى انقباض قلبها .

في الفندق ، أثناء حزمه لحقائب السفر ، قلّب كثيراً بين يديه هذه «الماتريوشكا» التي اشتراها من سوق « البالة والخردوات » ، ولعزمه على عدم تبديله لوسواسه الثابت ـــ عادته القديمة التي سار عليها ، أثناء الحرب وبعدها بعدم أخذ أشياء ترمز للتعاسة والشقاء ، ترك كريموف «الماتريوشكا» في غرفة الفندق ، (كذكرى) على منضدة السرير الصغيرة ، مع الثلاثين شلنغ الأخيرة للخادمة . . .

« لكن ، كيف ، وبأي شيء ، كانت استقصاءاتي الفاشلة وبحثي بلا جدوى عن الميدان السعيد وتلك المرأة الشابة ، تمسني وتمس أولغا ؟ هل بتوقع الفرحة وتوقع الشقاء ؟ وجون غريتشمار ؟ ومولوتشكوف ؟ ووالد إيرينا ؟ لا ، لا أريد التفكير بهم ، انني متعب ، متعب إلى حد الارهاق » .

* * *

مسح كريموف جبينه ، محاولاً تهدئة وجع رأسه الذي لا يتوقف ، بالمساج ، وكان عليه الآن ، بشكل من الأشكال ، أن يرتخي ، ويخفف من توتره ، كما كان يفعل أحياناً ، بعد التدريبات القاسية والبروفات : كان يقود السيارة إلى المحلق الدائري ، ماراً على البلدات والقرى غير

المعروفة ، ويتوقف ، ثم يخرج لاستنشاق هواء الغابات والحقول ، والريح الدافىء الذي يبعد التعب والارهاق .

* * *

أجل ، أجل ، غريتشمار . . .

« عندما أفقت من النوم ، وأنا في الصف الثالث من الصالة ، أدركت أن فيلمك عظيم » . « عندما أفقت من النوم ، أدركت . . . » لمن قلت هذه العبارة ؟ لجون غريتشمار بالذات ، بخصوص فيلمه . وماذا حصل ؟ إنه لم يمتعض ، بل ضحك . إنه سأم شكلاني ، مفعم بالفرويدية . بيد أن الفيلم ضم مشهداً مذهلاً – أب وابنته يلتقيان في ناد ليلي سري ، وهما ضمن جماعتين مختلفتين . الابنة لا ترى أباها . والأب يراقب ابنته ، من خلال الضوء الخافت ، وهي تتعرى طواعية من ثيابها ، فيتعرفها ويُصاب بصدمة عصبية ، ويخجل ويعاني ويتألم ، حتى كاد أن يفقد عقله . . . ماالذي يخطر في رأسي ؟ مولوتشكوف من جديد ؟ كان يجلس دائماً ، كجندب متجمد ، على الديوان ، ينتظر ، وكأنه مثال الاخلاص ومثال المحبة – لماذا ، لماذا احتاج إلى الأربعة آلاف؟من أجل شراء البيت الريفي،من أجل الهواء النقي لسونيا ؟وأي فرق– سواء من أجل البيت الريفي أم للتكديس في صندوقه. كان الجو خانقاً على طريق السيارات ، لا يستطيع المرء أن يستنشق الهواء . الآن منعطف نحو اليمين ، نحو الغابة . كل شيء سينتهي ، كل شيء سينسى في الغابة ، في الطريق إلى البيت الريفي . لا غريتشمار ، ولا مولوتشكوف ، ولا تلك المرأة في « سوق البالة » ، ولا ذلك الميدان السعيد في فيينا . . . على أي نحو تتعلق هذه الأمور بي وبأولغا ؟ عدت من خارج البلاد ،

هل كنت في صحة جيدة ، هل كنت راضياً ، ألم يجاملك الغريب .
هكذا أم لا ؟ أريد أن أنسى ، لا أريد أن أذكر كثيراً من الأشياء
« عندما أفقت من النوم ، أدركت . . . » — لقد أنهكتني هذه العبارة ،
علي أن أنساها . وعلي أن أنسى جون غريتشمار بمشهده المريع المذهل
في فيلمه ، وأن أنسى باريس وميدان بيغال ، وكذلك الفندق وأقداح
الكوكتيل في البار ، وبالاپانوف بوجهه القرمزي ، وبيسكاريف النزيه
بعكازيه ، والعاملون في الاستوديو ، الذين كانوا في الردهات ، في
الدهاليز ، بشماتتهم الحقيرة . ليسوا هم الحقراء ، بل أنا نفسي وماحدث
في الليلة الفائتة . . . شيء واحد فقط كان رهيباً آنذاك ، هو فتور
أولغا ووحدتي . ولكن ، إلى أين أنطلق ومن أجل أي هدف ؟ إلى أين
أنعطف ؟ إلى حيث الغابة ؟ » .

قيظ حارق على طريق السيارات ، لمعان منزلق ، ضربات الذباب
على زجاج السيارة ، الريح الساخن ، نتن الاسفلت الذائب ، الغازات
المقذوفة — المحلق الدائري الذي لا نهاية له ، بدا وكأنه انتهى إلى الأبد
فجأة . وماكادت السيارة تنعطف نحو الغابة ، إلى الطريق الضيق المبرقش
ببقع الأشعة الشمسية ، حتى أخذ يهب الهواء البارد بلطف على نوافذ
السيارة ، واهتزت أغصان أشجار الشوح المنخفضة كالمراوح المنشطة
على الزجاج الذي يهب عليه الهواء ، فكانت تنضح بالضوء تارة ،
وبالظل تارة أخرى .

« كل شيء انتهى ، كل شيء انقضى وانتهى . سيارتي — قلعتي ،
ملجأي وملاذي ، ملاذي في جميع المصائب ، — فكر كريموف في
نفسه بسخرية ، محاولاً التمتع بالرطوبة وبهواء الغابة ، وهنا تذكر

عبارة تولستوي المحبوب إلى قلبه من يومياته للعام التسعين ــ انها عبارة الأمل الرائعة : « إذا ما بقيت حياً . سأحيا وأكتب . وكأنني أشعر بنفسي أكثر نشاطاً » . ــ أجل ، أكثر نشاطاً وحيوية . كل شيء رائع . كل شيء جميل . كل شيء ممتاز إذا مابقيت حياً . . . » .

ودون أن يدرك ما يجري له ، أحس كريموف بدموعه التي تذرف وتخنقه بحرارة ، وشعر بغشاوة ساخنة تغطي عينيه ، فضغط بشدة على أسنانه ، وبكى بارتباك من التعب المميت ، من الكآبة ، مبتلعاً نحيبه ودموعه ، خافضاً رأسه ، وكأن هناك من يسمعه ويراه في السيارة ، يرى ضعفه ، الذي كان يكرهه عند الآخرين ، والذي عرفه الآن بمتعة ويأس ومرارة .

* * *

الفصل العشرون

كانت هذه قاعة ضخمة كبيرة ، تشبه الصالة الرياضية ، ذات جدران زجاجية عازلة للصوت – وفي منتصفها كانت تتراءى مقصلة معدنية بلونها الأسود ، وكأنها منشأة أسطورية ، يلمع فيها الفأس المرفوع بحده المرهف المائل ، ويظهر في المقصلة تجويف المقصورة ، حيث على المحكوم أن يضع رأسه ، قبل أن تسقط الفأس المتحررة على الرقبة الموضوعة ، شارمة العمود الفقري . . .

كان قد أحس مسبقاً بالألم الناري المحرق ، أحس مسبقاً بصرخته الواهنة الخرساء الأخيرة من فمه المغلق ورأى جسده بلا رأس ، ودمه ، ورأسه الميت المقطوع ، المتدحرج الدائر في السلة . ومن هذا المصير الأخير الذي لا يرحم ، انتابه الرعب وتجمد شعره على نقرته ، وكاد أن يسيطر عليه الغثيان .

كانت تظهر ظلال مجهولة في الزنزانة ، وكان أحد جدرانها ، مثل باب واسع باتجاه القاعة الزجاجية ، وكانت سيور صلبة تصرصر على هذه الظلال ، أما الوجوه العامة المجهولة فكانت لبقة ، طيبة ، كانت تبدي نحوه عطفاً مشروعاً في الدقائق الأخيرة من حياته . كانت هذه الظلال تفعل شيئاً ما في الزوايا ، دون كلل ، وتنتظر دون ملل . سأل أحدهم بصوت هادىء أبيض ، ما إذا كان يرغب بتدخين سيجارة ،

فارتعش ببدنه كله ، مدركاً بصورة نهائية ، بأنها هاهي قد اقتربت متعة الوداع الأخيرة على الأرض ، وأنه يسمح له بتلبية رغبته ، كمحكوم عليه بالاعدام (وكان قد قرأ ذلك وعرفه منذ طفولته !) . كان يدرك العبث الكامل لكل ما يعرض عليه ، كان يدرك أن كل ما عليه أن يفعله ، أو لا يفعله هو لاشيء ، وليس له أي قيمة — وقال ببلاهة ، وهو بالكاد يحرك لسانه المنعقد : « أجل » . قُدمت له سيجارة مشتعلة ، فخدره الدخان الحلو — القابض ، وشعر بدوخة في رأسه على الفور . أخذت تسبح القاعة ذات الجدران الزجاجية والمنشأة المظلمة ذات الفأس المائل إلى الأعلى ، المجهز له أداة للموت ، في ضباب مائل إلى البياض ونضج الضعف زيزفوناً متبخراً . تبلّد كريموف بصورة قاسية ، وكاد أن يفقد وعيه ، فأسندّ صدره ويديه على طاولة ، كان يدور حولها ويتحرك شيء ما ضبابي أبيض . وفي هذا الشيء الأبيض لم تكن تختفي ، بل كانت تبرز وتحضر ظلال جامدة ، أخذ يسحب أحدها ، دون أن يشعر ، السيجارة من فمه ، واختفى طعم التبغ ورائحته ، وشعر بشيء من الارتياح ، وتبدد الشيء الأبيض في الزنزانة ، ومن جديد سأله ظل لطيف ، فيما إذا كان يرغب في شرب كأس من النبيذ الأحمر ، وإذا ما رغب بذلك ، فعليه أن يشرب ببطء ، وإلا فلن يشعر بأي متعة . . . غير أنه بعد أن شعر بالتخدير القاسي للسيجارة ، أراد أن يتخلى عن كأس النبيذ (« ولماذا كأس وليس قدح ؟ ») ، بيد أنه كان ثمة طعم المخدر الحلو السام الفاسد في خدار السيجارة ، ومن يدري فقد يكون هذا الطعم التخديري في النبيذ الأحمر ، الذي لم يكن يحبه في الحياة الحرة الأخرى . انسكبت في حنجرته قطرة من السائل الأحمر الدافيء ، الذي قدمه له ووضعه في يده ظل لا يتراجع ، وكانت هذه

القطرة ذات كثافة قابضة ، وكان لونها لون الدم البشري ، فصعر خده ، شاعراً بمذاقه الضارب إلى الملوحة ، بدلاً من الحلاوة والعذوبة الثملة للنبيذ الأحمر الذي كان قد جربه ذات يوم فرنسا .

« لأية قوة أخضع أنا ، بأية قوة أوافق هذه الظلال ؟ ولماذا تحمل الظلال سيوراً ؟ . . . من الذي يرغمني ؟ لا أحد يقمعني ، ولا أحد يتوسل إلي . ذلك لأن لا معنى لأي شيء ، فبعد بضعة دقائق لن أبقى على قيد الحياة » .

والغريب أنه لم يرد بالرفض ، ولا بالامتعاض والصراخ ، عندما سأله صوت بلا جسد ، فيما إذا كان يرغب برؤية امراة . وظهرت في الحال في الزنزانة صورة امرأة هيفاء قوية ، دخلت بجسمها كله إلى الزنزانة ، في ثياب شفافة ، تهز ردفيها بصورة متموجة ، وعندما اقتربت بخطواتها الهزازة المشوشة ، ومن خلال ثوبها الرقيق الفاضح ارتسم ثدياها المصقولان الكبيران بحلمتيهما البنيتين ، بشباب وبروز وإثم ، كما برز انعطاف خصرها ، وبطنها ، وقدماها الرشيقتان الممشوقتان .

« بلا معنى » ، — اندفعت إلى وعيه ، وأراد لو يتسمر في الزاوية ، لو ينسحق في الجدار ، رافضاً ولاعناً عمل الوعي ، الذي مهما كان يتصور بوضوح ما يجري في الزنزانة ، فانه كان يكرر في الوقت نفسه ، بصورة مسموعة ، وبلا رادع : « عبثا كل ما لن يتكرر غداً . عبثاً كل ما لن تشعر به غداً . الأمل — في الابداع والخلق . واليأس يعني الموت . ان الموت يجعل من كل حي تقريباً لا معنى له . وبقي المعنى واحداً . القفز إليه ، إلى الموت ، عبر الألم واليأس . . . » . « وهناك ،

هل سيكون هناك معنى أم لا ؟ آه ، لو كان هناك معنى ! المعنى هو الحياة ، بل الأصح ، هو عدم الاختفاء إلى الأبد. الوجود في شكل آخر ، جسدي أم غير جسدي ، وجود الروح ، المهم ألا نهلك ، ألا نختفي دون أثر ، ألا نتحول إلى عدم . ولماذا ، يا إلهي ؟ لماذا أخاف الاختفاء إلى الأبد ؟ قد تكون في هذا حكمة عظيمة ، قانون عظيم — الاختفاء والانحلال والذوبان ، أي عدم الشعور بما هو بعد الاختفاء ؟ الحياة هي الاحساس بالحياة ، وبالتالي الرغبة . أما الفراغ ، فحيث لا وجود لها . الموت هو الظلمة ، الانهيار ، التحليق اللانهائي إلى مكان ما . لو كان الأمر إحساساً بالتحليق المنسجم اللانهائي في الظلمة . لكنها هي الحياة ، الحياة . أن يكون المرء ذرة غبار في الكون ، أن يصبح ذرة غبار . . . انني أؤمن بهذا ولا أؤمن . والأكثر أني لا أؤمن . بماذا شعرت هي في الدقائق الأخيرة ؟ هل فكرت بي ، كما فكرت بها الآن ؟ كلا ، لم يكن هذا حباً ، لقد كان شيئاً آخر . اذن ، لازلت أشفق عليها ، وأذكرها حتى الآن . وهل حدث لي كل هذا بسببها ؟ و . . . المقصلة ؟ ومن حكم علي بالاعدام ؟ وهل ارتكبت جريمة ؟ لقد أخطأت في شيء واحد ، كما أذكر : كان علي أن أدير المقود إلى اليمين ، إلى اليمين قليلا ، نحو حافة الطريق ، أما أنا فقد أدرته نحو اليسار . . . لماذا لم يكن المقود طيعاً لي ؟ ولماذا خطرت في ذهني العبارات التي قالها أحدهم في الحلم : « ولاشيء ، ولا خطوة واحدة . ولاشيء ولا معنى واحداً » ؟ هل أردت اللعب بالقدر ، بالمصير ؟ . . . وكم بدت رائعة هذه العبارات ، الواعدة بالراحة ، والهدوء والطمأنينة ، ومتعة سكينة المساء . انها عبارات قالها أحدهم في اللحظة ذاتها ، عندما واجهه شيء ملعلع ، ينبعث منه الدخان . . . » .

« وهل حدث لي هذا ؟ » .

في الليلة الفائتة ، أفاق كريموف خائفاً بلا سبب ، كان يستلقي والعرق يغمره ، مختنقاً ، لاهثاً ، في ذهول . أما الخوف فقد غمر جسمه كله بالبرد ، لقد توقف تنفسه بضربات قلبه السريعة ، واعتصره الأسى ، وتركه لحظة ثم تزايد وأمسك به من جديد رعب مجهول بلا سبب من شيء آخر ، قدري . . . وكان هو لافاً رأسه بالمخدة ، ينتظر ، بل ويستعجل الثانية الأخيرة ، عندما يتمزق قلبه ويتوقف كل شيء ، لكن قلبه لم يتمزق ، ولم يتوقف ، وكان الألم ينغرس فيه بأسنان معذبة ، بأشواك . « فلتنتهي هذه الليلة بسرعة . انني لن أستطيع احتمال هذا » ، — قال كريموف مخاطباً نفسه ، متأملاً ظلمة الغرفة ، في تلك الجهة ، حيث يجب أن تكون النوافذ ، وفجأة ، أحس بوضوح ، أن المنزل يبتعد ، يهبط ، ينزلق إلى تحت الأرض ، إلى قاع منفتح ، وينطبق فوقه سواد مع قرقعة بسمك أمتار عديدة ، ويتكثف ، وينضغط ، ويضغط على السطح ، على الجدران ، على الأبواب (« هكذا ، هكذا اختفى بالأمس فندقان في كاليفورنيا ! ») ، — وفي هذا السقوط الممتص في الظلمة الخانقة تحت الأرض ، كان من المستحيل طلب العون والمساعدة بالهاتف ذي الأسلاك المقطوعة ، وفي الوقت الذي كان يعرف فيه أن المصير المحتوم قد حل ، وحان الوقت ، وأنه سينتهي الآن كل شيء في الظلمة المسدودة للمنزل المنهار ، ولن يتمكن من العثور عليهما ، من انقاذ زوجته وابنته اللتين كانتا في مكان ما من الغرف المجاورة . واستجمع قواه ، وبذل كل جهده ، وصرخ ، وناداهما ، بيد أنه لم يخرج من صدره سوى حشرجة ضعيفة خافتة : « أولا . . . تانيا . . . » .

« هذه هي النهاية ، النهاية ، — فكر كريموف وهو يكاد أن يخرج من الكابوس . — انني أدرك هلاكي ، وأودع نفسي بنفسي ، وأودع زوجتي وابنتي ، وأتصور أية آلام عاناها المدفونون وهم أحياء ، عندما يعودون إلى وعيهم وسط الظلمة القائمة مع رائحة ألواح التوابيت ورطوبة القبور . . . بماذا شعر غوغول ، بخياله ، هناك تحت الأرض ، الذي كانت جثته مقلوبة ، كما يقال ، عند الكشف عن قبره ؟ هل فقد عقله ؟ وأنا أيضا أفقد عقلي ، لأنني الآن لا أشك ، بأن كل ما فعلته ، وما أحببته سيختفي معي ، باختفائي . اذن ، ربما يكون الكذب خلاصاً ؟ أجل ، ان الحقيقة الأكثر يقيناً وصدقاً تغدو بلا معنى ، إذا ما اختفى الكذب الذي أوحى به أحدهم للانسان حول استمرارية حياته . ونحن جميعاً خاضعون للكذب الدفاعي المنقذ . انه الخداع العظيم ، خداع له مفعول المعجزة ، حول لا نهائية الأيام على الأرض ولا نهائية متعة الحياة ، وانه أعظم من جميع الحقائق ، لأنه يبقي فينا الأمل بعمل شيء ما . . . وربما ، أن الحقيقة تعيش تحت سقف الكذب الدفاعي ؟ وهل من الممكن أن الحقيقة مجرد ساكن ، مقيم ، مستأجر غرفة في بيت الكذب العظيم الذي يوحي لنا جميعاً منذ الولادة : ربما أنت لن تموت . . . على الأقل سيحدث هذا لك بصورة متأخرة كثيراً عن الآخرين ، وربما لن يحدث لك ؟ . . . — تابع كريموف ، فرحاً وهو شبه نائم ، بهذا التبرير للأفعال والآلام الإنسانية . — ان الحقيقة الأكثر نقاء وطهارة ليس لها أي قيمة أمام الخداع العظيم ، الذي يريده الناس أنفسهم . ولو لم يكن هناك ذلك الكذب — لما رأيت ذرى أشجار البتولا الجامدة في السماء ، ولا ذلك النجم الجليل ، كما حدث بالأمس . اذن ، فالحياة هي مسرحية ، سيناريو ، ينشط فيه شخوص ، أبطال مسرحيون ،

ويتحركون ، ويبدون رغباتهم ، دون أن يفكروا ، دون أن يرغبوا بالتفكير بأنه سوف تغلق الستارة حتماً . وعلي أنا أن أرى هؤلاء الأبطال كي أفهم مسرحيتي في نفسي . لعبة ؟ عم أتحدث ؟ وهل يحق لي أن أفكر على هذا النحو ؟ أجل ، فهل يعني هذا أن كذباً لايقهر ، حول لا نهائية حياتي يجعلني سعيداً إلى حد ما أحياناً ، راضياً إلى حد ما أحياناً ؟ انني أخالف شيئاً ما ، انني أتجاوز حداً محرماً ، يكمن خلفه سر أسرار الخلود وسر الوجود الإنساني الذي لا يدرك . . . ان الخوف من الموت سيختفي عندما يتم العثور على معنى الحياة وإدراك هذا المعنى . ولكن هل يفكر الناس بذلك تفكيراً جاداً ؟ وهل أعرف أنا هذا المعنى ؟ . . . ولكن إلى أين نسقط وننهار ؟ إلى أية هاوية يسقط بيتنا ؟ » .

استيقظ كريموف من ضباب الحلم ، ونهض قليلاً من الفراش ، سامعاً بارتياح سريع التكتكة الصاحية الصرارة للساعة — المنبه ، — وراق الهواء في المكتب ، وبدا وكأن سكون الليل الصيفي قد سيطر على العالم كله ، وتدفقت البرودة من النافذة المفتوحة ، غاسلة له صدره المتعرق . وأشعل متلمساً بيده المصباح الموجود في طرف الديوان ، غير أن ضوءه بهر له عينيه بسطوعه الشديد ، فأطفأه على الفور .

كان لايزال تحت سيطرة النوم ، عندما تذكر حديثه بالأمس مع أولغا في غرفتها ، حتى الكلمة الأخيرة ، واللوحة المسندة إلى الجدار ، وآثار النجم المنهمر في الماء المسائي ، الذي رآه من على الجسر وعلى لوحتها . « أي تطابق غريب ! لقد رأينا معاً النجم نفسه في وقت واحد . وأية علاقة بين هذا النجم والحلم الكابوس ؟ بين النجم والكذب . . . ومافائدة البحث والتنقيب عن علاقة غامضة مبهمة ! لقد خدعت أولغا

وتانيا في شيء ما ، بحبي لهما حباً يفوق الوصف . ولكن ، أليس الأمر كذلك ؟ وهل كان من الممكن ألا يكون كذلك ؟ انني مذنب ، تافه ، حقير في كل شيء ! » .

كان كريموف يشعل الضوء تارة ، عازماً ، عبثاً ، على القراءة ، ويطفئه تارة أخرى ، ويمسح صدره ، واضعاً وجهه قبالة الريح الذي كان يهب من النافذة ، حيث كان الجو في الحديقة قبيل الفجر صامتاً ، لا مبالياً ، موحشاً . كان البرد القارس يصيبه بالقشعريرة ، ويضغطه بالأسى ، وتوقفت ضربات قلبه من حدسه بأن شيئاً ما عالمياً ، شاملاً ، رهيباً ، سيحدث الآن في العالم — ستصطدم الأرض بكوكب جبار ، وتتوقف في قتامة الكون ، وخيل له أنه في هذه الدقيقة قد مات أحد من أقاربه ، ووقعت كارثة لأبنائه ، — وعندها جلس في فراشه ، جلس متأملاً الستائر المفتوحة ، التي كان يسود خلفها ليل لامبال ، بطيء ، لا يساعده في أي شيء ، وتضرع إلى الليل بأن ينتهي بسرعة ، والا فسوف يجن من الوحدة والخوف المبهم ، ومن إحساسه المسبق بالكارثة .

في الغرفة المجاورة كانت أولا نائمة ، وكان عليه أن يبذل قصارى جهده ، ويتوقف عن التفكير بما كان يعذبه ، ولم يكن يجيبه عن أسئلته ، وإرغام نفسه على تهدئة نفسه ، والدخول إلى غرفتها ، والاستلقاء بجانبها ، وتقبيلها وهي نائمة ، بالكاد تتجاوب معه بنعومتها الرتيبة الخفرة .

« أنت تعرفين ، أنه من السخافة بمكان ، في مثل سني التحدث عن ذلك ، لكنني أحبك ، كما كنت قبل عشرين عاماً » — بدأ كريموف

يكرر الجملة التي خطرت في ذهنه ، والتي كان عليه أن يقولها لها . لكن هذه الجملة التي لم يلفظها بعد ، تلبدت بالابتذال واحتجبت مسبقاً ، فطرحها جانباً ، مدركاً أنه حل زمن غريب ، لا يخصه ، وأنه بعد تلك الكلمات ، لن يستطيع النظر إلى عينيها المخمليتين المعاتبتين بهدوء .

وتذكر كريموف : بالأمس ظهر في عينيها ذلك التعبير ، وكأنها كانت تنتظر كلمة ما ، كانت تنتظر مصالحة ما ، رغم أنه لم يحدث بينهما خلاف ، بحاجة إلى المصالحة . ان أولغا لم تخلق للخصومات العائلية . ولم تكن تبدي رغبة أنانية ذاتية بالتغلب عليه . وهي بالأمس لم تؤنبه بالكلمات ، بل بابتسامة لم تكتمل ، بسبب هذه الابتسامة أصبح أشد قسوة عليه أن يفكر ببراءتها وطهارتها ، وبإثمه الذي ارتكبه في حقها .

« أولا ، مهما حدث ، عليك أن تصدقيني » ، — أخيراً ،وجد الكلمات ، ومن جديد ، رمى جانباً هذه العبارة التبريرية ، غير عارف ماعليه أن يفعل في وحدته القلقة هذه ، ودخل إلى غرفتها متردداً ، ووقف في الظلمة الرمادية خلف فراش أولا ، واستلقى بحذر على طرفه ، ومس بشفتيه الجافتين كتفها العاري ، الذي بدا له دافئاً ، طفولياً ، ضعيفاً .

— أولا ، — قال كريموف بهمس ، — سامحيني . . .

— أنا لا أفهم ، لماذا أيقظتني ، — قالت فجأة ، دون أن تلتفت ، بصوت جلي واضح ، أذهله بتأففه وبرودته . — انني لم أنم طيلة الليل . لقد غفوت لتوي.ياإلهي ،—همست أولا بتوسل،—لماذا تزوجت منك ؟ كان علي الزواج من رجل عادي...ماذا سنفعل الآن يافياتشيسلاف؟الطلاق؟

ــ كان باستطاعتي أن أخلصك مني ، يا أولا ، لو لم أحبك ، ــ قال كريموف بصوت أجش . ــ تصرفي كما ترين أفضل .

ــ أرجوك ، أخرج ، من فضلك ، لن أحتمل . . .

في مكتبه سقط بجسمه على الديوان ، ومن أجل أن يهدأ قليلاً ، أخرج من الطاولة الصغيرة يوميات تولستوي ، لكنه لم يستوعب النص ، فقد كان أسوداً ، حجرياً في الضوء الجامد للمصباح الليلي الخافت . ولم يستطع قراءة سطر واحد ، كان ينظر إلى الصفحة المتوهجة ، وينتظر ، لسبب مجهول ، اتصالاً هاتفياً ، ينبئه بالمصيبة ، بالكارثة ، ــ الإشارة الأخيرة المفاجئة . بيد أن البيت كله كان صامتاً ، خارج الزمن ، في الوقت نفسه ، كانت الساعة تدق بيقظة ، ولم يصل إلى مسامعه أي صوت من غرفة أولغا . كان النوم المميت ، الخالي من القمر ، يخلق فوق العالم ، وأوحت له فكرة بعيدة غامضة ، بهدوء ، بأن عليه أن يغفو حتماً ــ ففي النوم الخلاص . وخلال تفكيره بأن النهاية والخلاص من قيود الليل الذي لا ينتهي ، قاب قوسين أو أدنى ، بدأ ، وهو مستلق على ظهره ، بتدليك صدره ، والتنفس بعمق ، وهو يعد إلى المائة ، ثم أطفأ النور ، وأغلق عينيه ــ وهنا اقترب خوف مجهول ، بلا سبب ، على قوائم كثيفة الشعر ، من سريره . وتوتر جسده بكامله ، وأخذت كآبة مسيطرة تدفعه إلى النهوض وارتداء ثيابه ، والهرب على عجل والسير في شوارع البلدة ، إلى مرأى عينيه ، والهرب إلى أقصى الأرض . . . غير أن هذا يمكن أن يكون جنوناً . . .

في تلك الليلة ، أدرك كريموف أنه وحيد حتى نهاية أيامه ، ولن يستطيع أحد مساعدته .

« من أين هذه الأصوات ؟ ولماذا أسمعها بهذا الوضوح ، وبهذا القرب ، لدرجة أنني أميز لكنة غير روسية . من كان يتكلم بمثل هذه اللكنة الحادة المألوفة ؟ إنه صديقي . . . ان اسمه يدور في ذهني ، لكنني لا أستطيع تذكره . . . » .

— عليك الآن أن تفكر بالأرض ، أن تفكر ، وتفكر كالمسعور . . .

« بالأرض ؟ ألا يجب أن أفكر بالإنسان ؟ وماهي الأرض بدون الإنسان ؟ من أجل أي شيء هذه الأرض ؟ لمن هذه الأرض ؟ »

— إن النظر إلى النار ، إلى الماء ، إلى الأرض أكثر متعة بمليار المرات من النظر إلى شاشة السينما وشاشة التلفزيون . وكيف أعبر عن هذا ؟ يستبدلون الحياة بلعبة ، لا . . . يقلبون الحياة إلى لعبة بالحياة . العالم كله يلعب بالجمال الرخيص . انهم أغبياء، انهم يقتلون أنفسهم . هناك ، عندي في الورشة . . . أقصد في المكتب ، عصافير فقط ، أما جميع الطيور الجميلة فهي تزقزق في النافذة . صيفاً ، لا يصح النوم في الساعة الثالثة — هناك حفلة موسيقية . وسيقتلون الطيور . سوف ننظر إلى العصفور في المتحف . كما ننظر إلى الحراذين الطيارة المنقرضة .

« أي مرارة ، أي كآبة ، أي سخط في كلماته هذه ! »

— الآن سيلد إنسان بتركيب غير إنساني . بدون عقل . إنه الإنسان — الآلة من الصنف الثاني . إنه يلعب بالأموال والأشياء ، أما قلبه فيطير بعيداً هـ . . . كذا . . .

« ماذا يعني » بعيداً هـ . . . كذا » ؟ أغلب الظن ، هنا كان المعنى التالي — لم يكن القلب على وفاق مع هذا التركيب . والناس خضعوا للاغراء الشامل ولم يعودوا يعيشون في وفاق مع أنفسهم » .

ــ والأطفال ، الأطفال . . . ربما يسيرون على ظهور آبائهم ، ربما يدوسون آباءهم .

« من ؟ لا ، ليس مجرد الأطفال ببساطة . أطفال البشرية ؟ أطفال العالم كله ؟ وماذا في الأمر ، ففي هذا ثمة حقيقة خالدة ورهيبة . . . »

ــ الإنسان ليس مسؤولاً عن مكان ولادته ، وكيف ولد . . . طالما أنه يتمتع بوجه ولغة ويدين . . . فهو سيمفونية . سيمفونية سيئة ، لكنها موسيقا على أية حال . الأمريكيون يودون رؤية البشرية في غرفة العمليات . إنهم يصرخون وينادون بالتفوق الأخلاقي على الآخرين ، والجراحون أفظعهم . . . فهم يحلمون بتحويل العالم كله إلى أغبياء . الأمريكيون هم لعنة أوروبا ، وعندما يخرجون منها فسيتفق الأوروبيون ويتفاهمون . الآن ، هناك أناس كثيرون بأعين دولية . (« بأعين دولية . . . ماذا يعني هذا القول ؟ ») .

ــ نحن نتعلم منكم الأشياء السيئة ، وأنتم تتعلمون منا الأشياء السيئة . وهذا لن يمر مرور الكرام . في البداية ، سوف نشكو وتشكون من وجع الأسنان . سوف نصرخ من الألم . يجب ألا تدور رؤوسنا ، من الوجع ، ثم تعود إلى ماكانت عليه . لا وقت للتفكير . نحن جميعاً قتلة ومنتحرون . يقتل أحدنا الآخر ، ونحن معصوبو الأعين . ونقتل أنفسنا أيضاً . نقطع أوردتنا ، ونظن أننا نقتل جارنا . اننا أغبياء بأوداج منتفخة . قال دوستويفسكي : الجميل ، ماذا قال . . . إن الجمال سوف ينقذ العالم . لا ، ليس هكذا . النساء سينقذن العالم ، إذا لم ينفجر في عام ثمان وثمانين . ان النساء مخلصات للأرض كالكلاب . أما الرجال فقد خانوا الأرض ، واغتصبوا مدنيتها . وسيفعل النساء ما لم يتوقعنه

هن . فقد سئمن من الرجال — السياسيين الحمقى ، الذين اخترعوا الحرب والتحرير . إن النساء لسن ملائكة . ولو كن ملائكة ، لما رغبنا بهن . النساء مجرد نساء لا أكثر . انهن يعملن على استمرار الجنس البشري . . .

أين يدور هذا الحديث ؟ أجل ، أجل ، كانا جالسين ، قبيل العرض الدوري في بهو صالة سينمائية ، ثملين قليلاً من الويسكي ، وكانت عينا غريتشمار الذكيتان ، كعيني خنزير ، تلمعان بارهاق وحزن .

* * *

« إن أولا لم تنقذني ، رغم أنني لست سياسياً ، وهي ليست مجرد امرأة . . . ولكن ، متى وأين جرى كل هذا — في أي قرن ، في أي عالم ؟ لقد بدأت أنسى . . . أظن ، في عام سبع وخمسين ، في ضاحية موسكو ؟ كانت تقطع عناقيد الأزهار من غصن شجرة أكاسيا ، وارتفعت تنورتها الخفيفة ، كاشفة عن ركبتيها الممتلئتين ، وعن فخذيها السمينين البريئين ، وهذا ما أفقدني عقلي . . . أنها كانت المرأة الوحيدة التي جذبتني إلى نفسها جذباً شديداً بنعومتها الفاترة ، التي تشبه أمسيات نيسان العليلة بروعة هوائها البنفسجي الهادىء . . . » .

« ربما يكون ، هذا الألم — عودة إلى الذات ؟ ربما الخلاص في العودة إلى الوراء ، إلى تطهير الذات ؟ لكن الوراء لا يضم سوى الفراغ ، لم يكن هناك شيء — لا حرب ولا حب ، ولا أفلام . وهل يعقل أنني عدت إلى تلك الدقائق الطاهرة البريئة من ولادتي وظهوري إلى الدنيا ، حيث لم يكن هناك أي شيء معيب ومخجل ؟ . . . غير صحيح ، الشيء

المهم كان قد حدث.فقد سبق ولادتي حب أبي وأمي . وهل يعقل أنني عدت إلى تلك البداية ، إلى ذلك الحب ، الذي أدين له بكل شيء ، إلى طفولتي المباركة السعيدة ؟ وماذا حدث بعد ذلك في فتوتي وشبابي ؟

الحرب ، الخطر ، المكافآت ، ومعها الفكرة الدائمة من أجل البقاء حياً ، وأحياناً ، في الدقائق المميتة ، تراودني فكرة مقرفة ، شنيعة بأن أصاب بجرح في يدي أو قدمي ، والحلم بأن أنزل في المستشفى ، وأستريح ، وأسترد أنفاسي في المؤخرة ، ولو لنصف شهر . . . في حين أنني كنت أعد الملازم الأكثر شجاعة تقريباً في استطلاع الفوج . كنت في العشرين من عمري . لماذا أطلقت النار على يده ؟ هل هي الشفقة ؟ أم أردت التخلص منه ؟ من خوفه ؟ مااللذي كنت أريده طيلة حياتي ؟ ارضاء طموحي ، أم أردت الحب ، أم أردت الحصول على مديح الناس ، واعجابهم ، دموعهم ؟ كم هذا مقرف ، تافه ، خطأ لا يغتفر . . . ان من المستحيل تذكر الكثير دون خجل ، دون تقزز واشمئزاز من ذاتي . وماذا كانت حياتي – مخدر أم حالة طبيعية ؟ والا لما كان باستطاعتي أن أعيشها . ونادر جداً أن يعود أحد إلى براءة الطفولة . لو كان ذلك ممكناً . . . ماذا حدث لي ؟ كم عمري ؟ أكثر بكثير من خمسين عاماً . . . وفي الوقت نفسه ، أنا في العشرين ، وفي الأربعين من العمر . . . ومع ذلك ، فهذا أنا مستلق على الطاولة ذاتها ، محاط من جميع الجهات بالسيراميك البورسلاني الأبيض المعتم...ولكن ماذا يفعلون لي ؟ ولماذا أسبح في الهواء فوق بياض الطاولة ، وأرى نفسي من الأعلى ، ولا أفهم لماذا انحنت علي هذه الممرضة الشابة ، انني أرى جبينها الفتي ، رموشها ، وهي تمس شفتي بشفتيها . لماذا تجري لي التنفس الاصطناعي ؟ وأنا الآن لا أريد العودة . . . انه ينتظرني ، يدعوني

ويعدني بالهدوء والفرح ، مثل أمسية ربيعية صافية ، مثل الغروب الذهبي فوق ذرى أشجار البتولا . . . والذوبان السعيد اللذيذ في كل شيء . انني أسبح في الهواء نحو سكون الغروب هذا ، نحو هذا الهدوء ، وليس ثمة ألم ، وليس هناك ذلك الأسى الذي لا يحتمل . ها أنذا أرى أولغا جيداً ، انها تجلس في الممر ، في ثوب رمادي متواضع ، تنتظر آخر ما سوف يحدث لي ، وتبكي بصوت غير مسموع . اذن ، هي أحبتني ولا تزال تحبني ؟ . . . وابنتي الحبيبة ، فرحتي تانيا ، اختفت خلف كتف أمها وقد جمدت كلها ، وقطرات الدموع تتساقط من عينيها . ولسبب ما ، فالنتين ليس معهما . وصديقي الطيب ستيشوف يقف عند النافذة ، واضعاً يديه وراء ظهره ، يلتوي وينحني ويعض على شفته . أحبائي ، لاداع لهذا كله ! لا أستطيع أن أقول لكم شيئاً . لا أستطيع أن ألمسكم ، أن أطمئنكم . لكن ، لم تعد لدي رغبة بالحياة . . . » .

وفي هذه اللحظة ، تصور ، وكأنه قد تناول وأولغا طعام الغداء في مطعم صغير ، خال تماماً من الزبائن ، وبدون نُدُل تقريباً . وقد وضعت على الطاولات الخالية من الناس مناديل سميكة منشّاة ، وقوائم الطعام المخيفة الضخمة ، وقد خرجا لوحدهما ، لاستنشاق الهواء في بلدة صغيرة جداً . كانت الشمس قبيل المغيب ، وكانت تغطي بلون ذهبي حزين الجدران الحجرية للأزقة الضيقة ، المكنسة بنظافة من أولها إلى آخرها، والخالية من الناس ، وتهيأ له، أن هذه البلدة الروسية الشمالية ليست على الأرض ، بل في مملكة الحزن المضيء ، والصمت الأبدي ، وعندما اقتربا من الحاجز في نهاية الزقاق ، الخالي من أي مخلوق ، انفتح في الأسفل واد ، وفي أسفل الوادي العميق ، كان يجري نهر ، متجهاً نحو ضباب مائل إلى الاحمرار في الأفق ، متعرجاً ، لامعاً من بعيد ،

كما لو كان في ثغر في آخر العالم ، كما لو كان في جرف ساقط في بوابة الجنة ، وهناك ، فوق البوابات غير المرئية ، كانت تنف الشمس منخفضة ، وتتلألأ في الماء برذاذ ضبابي كلون الفضة ، وكان يسود في كل مكان هدوء خفيف ، ولون الخريف الأصفر ، وكان يهب الهواء الخريفي الساكن الخفيف . . . ثم مرت طوفية وحيدة على الماء الزهري ، بدون أي صوت ، بدون أمواج ، وبدا وكأنها بلا ركاب وبلا قيادة ، وتلاشت في نهاية العالم كظل خيالي .

وعندها خطر في ذهنه ، أننا جميعاً مآلنا إلى الموت ، وقال كريموف لأولغا مازحاً :

— لا أريد أن تعيشي من بعدي . سيكون ذلك سيئاً . علينا أن نكون معاً .

— أنا أيضاً لا أريد من بعدك . . . لأنني أحبك ، يا مغفلي الفظيع . . .

كان يتذكر هذا ، في تلك اللحظة ، عندما حمله ، باتزان ، تيار عريض من الهواء العالي ، المفعم برائحة أوراق الأشجار العفنة ، والرطوبة المتخمرة لغابات الخريف ، فوق الثغر . فوق بوابات الجنة ، حيث كانت الشمس تضيء مودعة ، مطمئنة ، في ماء النهر الشمالي عشية الغروب ، وحيث كان يرقد المحيط المجهول في امتداد بنفسجي ، مغرياً بالدفء والسكينة ، والخير ، وواعداً بالاطمئنان الروحي الأبدي .

ثم رأى بعد ذلك رملاً أبيض كالسكر ، ساخناً ، كانت تغرق فيه باغتباط قدمان حافيتان حتى الرسغين . ورأى نفسه وحيداً فريداً على شاطيء المحيط ، السائر بعناد نحو اللانهاية . وسرعان ماسمع موسيقا

متموجة ، لا أرضية ، كانت تتدفق كالبخار الجوي من غابة استوائية خضراء ، عذراء ، صادرة بسعادة من طاسات عميقة ، ثم رأى على العشب الزمردي خطوطاً من الأشعة الشمسية بين الأشجار العملاقة ، ووصل إلى مسامعه صوت ناعم متسائل ،رقيق ،ليس له رنين مادي بدني :

« من أنت ؟ وكيف ظهرت هنا ؟ وما هو اسمك ؟ »

أراد كريموف أن يجثو على ركبتيه ، ويجيب ، بأنه فقد الأمل ، ويئس من الناس ، وخلال يأسه ، خرق ، خالف شيئاً ما ، مثل صديقه جون غريتشمار ، الذي كره البّشرية لمدنيتها المزيفة ، بيد أن المذنب ليس غريتشمار ، بل هو المذنب بصورة لا تغتفر ، وحاول تذكر اسمه وذكره . لكنه ، ما إن تذكر أنه قدم إلى هنا من بلاد بعيدة ، ذات سماء زرقاء ، وظلال سماوية ناعمة على كثبان آذار الثلجية ، المرقطة بالقطرات الذائبة ، حتى اجتذبته فجأة العودة من المحيط الثؤلثي اللامحدود ، حيث كان كل شيء ميتاً ، جامداً ، اجتذبته العودة إلى الوراء ، إلى البلاد التي تركها ، بلاد الزرقة والقطرات الربيعية ، مع رغبة متحمسة لكي يرى ، ويعاني من جديد ، ويشعر بكل ما هو أرضي ، كل ما كان يسبب له ألماً لا يطاق ، يدعى بتلك اللغة ألم الحياة . أما ذلك الصوت اللطيف اللامادي فقد أخذ يقنعه ويوحي له ، بأنه يقطع طريق العودة إلى ذاته ، إلى الطهارة الأولى ، إلى النقاء الأول ، وأنه ، مثل كثيرين من الذين عاشوا على الأرض ، وأنه جزء من كل ، وأنه لا قيمة أبداً الآن ، ماإذا كان قد ضل أم لم يضل ، لأن مملكة الخير لها حد ، أما الشر فلا يعرف حدوداً .

« لكن ، إلى أين أنا أذهب ؟ وأي حزن غير أرضي في هذه السعادة

الحالية ، المقفرة ! . . . آه لو رجعت ثانية ، إلى هناك ، إلى ذلك الألم ، إلى أولغا بعينيها الهادئتين ، إلى ابنتي تانيا المضحكة ، إلى بالابانوف ، إلى مواوتشكوف ، إلى جميع الآثمين الخاطئين ، إلى التعساء الأشقياء عامة ، هناك ، هناك ، إليهم ! ولكن ما اسمك ؟ من أنت ؟ تذكّر ! كيف ظهرت هنا ؟ » .

بيد أنه لم يعد باستطاعته تذكر اسمه ، كما لم يعد باستطاعته الشعور بالألم الراحل إلى الأبد ، ولم يستطع أن يفهم في اللحظات الأخيرة ، لماذا ظهرت على الرابية بين أعشاب الصيف بوابة مفتوحة لدير حجري قديم ، مغطى بالشمس الهاجرة ، كان قد رآه في الشمال ذات يوم ، ولماذا ظهرت أمامه راهبة طويلة القامة ، عليها ثياب الحداد السوداء ، يعرفها بصورة مؤلمة ، بنظرة عينيها المخمليتين العزيزة عليه ، بقبعتها السوداء ذات المنديل الأبيض ، وبوجهها الجميل المبلل بالدموع . كانت الراهبة تسير باتجاهه ، يرافقها القس حبقوق النحيل الشاحب ، في أسى مميت ، ضاغطاً يديه المشبكتين على صدره بخشوع وابتهال .

١٩٨١ — ١٩٨٤



الفهرس

عبقري في مواجهة بيروقراطيه هي كالأخطبوط .
من العسير جدا ، لا بل من المتنع أحيانا ، على الذي يقع في شباكها أن يفلت منها — تلك هي اللعبة التي تحكي فصولها هذه الروايه وروايات روسية أخرى كثيره بدأت تظهر مع الخمسينات من هذا القرن وما يزال موضوعها من الموضوعات الكلاسيكيه في الأدب السوفياتي .

وسيرى القارىء أن المؤلف قد حقق في روايته ثلاثة أهداف .

الأول تجديد موضوع مستهلك بنقله الى الثمانينات من هذا القرن حيث بدأت تظهر ارهاصات التجدد في الاتحاد السوفياتي .

الثاني انقاذ البطل من براثن البيروقراطيه بجعله مخرجا سينمائيا مبدعا ، أفلامه نقلته من المستوى المحلي الى المستوى العالمي فأخذت تتنازعه شركات السينما الكبرى العالمية .

الثالث : اعطاء الروايه معنى انسانيا على اعتبار أن البيروقراطية صارت اليوم مع الدوله الحديثه مشكلة عالمية .

والحق أن الروايه والى جانب قيمتها الفنية العالية ، تضعنا في قلب مجتمع ينتقل من مرحلة تاريخيه الى أخرى . والمفاصل التاريخية هذه هي الأكثر غنى بالامكانات فنيا وفكريا . انها تطرب وتثقف . وهذا أقصى ما ينتظره قارىء من رواية عالمية .

الطبع وفرز الألوان في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٠

سعر النسخة داخل القطر ١٢٥ ل.س

في الأقطار العربية ما يعادل ٢٥٠ ل.س